THE DUKE AND I

BRIDGERTON

الدوق وأنا

جوليا كوين

ترجمة: نورهان البدوي

NETFLIX

يعرض الآن على نتفليكس

"جوليا كوين هي جين أوستن المعاصرة" -جيل بارنيو

مكتبة

عصير الكتب

مكتبة | ١١٢٩
t.me/soramnqraa

BRIDGERTON
الدوق وأنا

عصير الكتب

عصير الكتب
لتجارة الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

- العنوان الأصلي: The Duke and I
- العنوان العربي: الدوق وأنا
- طُبِع بواسطة: HarperCollins Publishers
- طُبِع بواسطة: هاربر كولينز للنشر
- حُقوق النشر: 2000، جوليا كوتلر بوتنجر
Copyright ©2000 by Julie Cotler Pottinger
- حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

- ترجمة: نورهان البدوي
- مراجعة وتحرير: محمد المتيم
- تدقيق لغوي: د. محمد حماده جاد
- تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
- الطبعة الأولى: أبريل/ 2022م
- رقم الإيداع: 2022/9494م
- الترقيم الدولي: 978-977-6972-20-9

٢٠٢٣ ٤ ٢٣ مكتبة
t.me/soramnqraa

THE DUKE AND I

BRIDGERTON

الدوق وأنا

جوليا كوين

ترجمة: نورهـان البدوي

عَصِير الكُتب

مكتبة | ١١٢٩
t.me/soramnqraa

عزيزي القارئ..

عادةً ما أُساءل عن أحب أعمالي إلى قلبي. وبصدق، يبدو لي ذلك سؤالًا تستحيل الإجابة عنه، فأراني أحب أشياء مختلفة عن أعمال متنوعة؛ في أحدها قد أحب إحدى الشخصيات، وفي آخر قد يكون مشهدًا بعينه هو الأقرب إلى قلبي. لكن ما أنا على يقين منه هو أن جميع كتبي قريبة إلى قلبي؛ كُلًّا لأسبابه المختلفة.

ولكني سأطلعك عزيزي القارئ على سر صغير. دائمًا ما شعرتُ بالميل نحو رواية **الدوق وأنا**؛ فقد كانت البوصلة التي أرشدتني إلى توجهٍ جديد في الكتابة. لَستُ واثقة تمامًا مما حدث، ولكن **الدوق وأنا** -بالنسبة إلي- هي العمل الأشد عمقًا، والأكثر ثراءً من أي عملٍ قد كتبته من قبل. لقد كانت الخطوة الأولى التي بُنِيَت عليها سلسلة بريدجرتون -سلسلة الكتب الثمانية- التي تقبَّلها القراء بطريقة لم تتوقف قط عن إثارة دهشتي وإرساء تواضعي.

لقد بدأت الحكاية كلها من هنا، **الدوق وأنا**، برفقة سايمون - الرجل الذي كان يحاول جاهدًا الهروب من إرث والده المرير- ودافني، التي أرادت الشيء الوحيد الذي اقتنع سايمون بعجزه عن منحها إياه. وبالطبع لا تفوتنا ليدي ويسلداون، مؤلفة عمود الشائعات، حادة اللهجة التي تُسِرُّ بآرائها إلى الجميع. (إذا فتحت الكتاب على الصفحة الأولى من أي فصل يمكنك أن ترى ما أقصده).

إذا كُنتَ لم تقرأ أي عمل من سلسلة بريدجرتون بعد، فهذا العمل هو أفضل مكان تبدأ منه. وأرجو أن تستمتع به.

مع أفضل تمنياتي

Julia Q.

شجرة عائلة بريدجرتون

فيوليت ليدجر تزوجت من إدموند
(1766) (1764 - 1803)

- أنطوني (1784)
  الفيكونت الذي أحبني - الكتاب الثاني
- بيندكت (1786)
  الكتاب الثالث
- كولين (1791)
  الكتاب الرابع
- دافني (1792)
  الدوق وأنا
  الكتاب الأول
  يعرض قصة
  سايمون باسيت
  دوق هاستنجز
- إلويز (1796)
  الكتاب الخامس
- فرانشيسكا (1797)
  الكتاب السادس
- جريجوري (1801)
  الكتاب الثامن
- هياسنث (1803)
  الكتاب السابع

مقدمة

ستقابل عزيزي القارئ بين صفحات الرواية إحدى عائلات الوسط الرفيع في المجتمع الإنجليزي، خاصة في عهد الملك جورج الرابع، وهو ما تدور أحداثه في القرن التاسع عشر.

تُطلَق لفظة «Ton» بالإنجليزية، وما يقابلها في اللغة العربية «الوسط الرفيع» على نحو 1500 عائلة، تضم نحو 10 آلاف فرد. وقد أُطلِقَت عليهم هذه اللفظة الإنجليزية المأخوذة من لفظة فرنسية، وهي: «Le Bon Ton»، وتعني الطراز العصري.

شَهِدَت الرواية تقديم عدد من ألقاب النبلاء في بريطانيا العظمى، وترتيبها كالآتي من الأعلى إلى الأقل مكانة:

- ملك / ملكة.
- أمير / أميرة.
- دوق / دوقة.
- ماركيز / زوجة الماركيز.
- إيرل / كونتيسة.
- فيكونت / فيوكنتيسة.
- بارون / البارونة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

المترجم

تمهيد

كان ميلاد سايمون آرثر هنري فيتذرانولف باسيت -إيرل كلايفيدون- مصحوبًا باحتفالات عظيمة؛ فقد قُرِعَت أجراس الكنيسة لساعات طويلة، وأُغدِقَت الشامبانيا مجانًا على الرعايا من القلعة الضخمة، التي سيطلق عليها المولود الجديد لفظ البيت الحنون. وكانت القرية بأكملها قد تركت العمل لتشارك في الاحتفال، وأصدر والد الإيرل الصغير قرارًا ببدء العطلة.

- هذا ليس طفلًا عاديًّا.

قال الخباز محدثًا صديقه الحَدَّاد.

هذا لأن سايمون آرثر هنري فيتذرانولف باسيت لن يقضي حياته حاملًا للقب إيرل كلايفيدون، فلم يكن هذا اللقب سوى مجاملة. أما سايمون آرثر هنري فيتذرانولف باسيت –الطفل الذي كان يحمل أسماءً أكثر مما يمكن أن يحتاج إليه أي طفل– كان وريثًا لواحدة من أقدم الدوقيات وأثراها. وكان والده –دوق هاستنجز التاسع– قد انتظر أعوامًا طويلة حتى تلك اللحظة.

فبينما كان يقف في الرواق خارج غرفة الولادة، يحتضن المولود الذي بدأ في الصراخ، كاد قلب الدوق أن ينفجر فخرًا واعتزازًا. كان قد تخطى الأربعين من عمره بعدة سنوات، بينما يشاهد أصدقاءه المقربين –من الدوقات والإيرل جميعهم– يُرزَقون بوريثٍ عقب وريث. كان على بعضهم أن يعاني أولًا من إنجابه بعض الفتيات قبل أن يُرزَق بذكرٍ نفيس، ولكن في النهاية كانوا جميعًا قد اطمأنوا على استمرار نسلهم، وأن دماءهم النبيلة ستنتقل إلى الأجيال القادمة من نخبة المجتمع الإنجليزي.

كان كل هذا يخالف ما كان عليه دوق هاستنجز. وعلى الرغم من أن زوجته قد تمكنت من الحمل خمس مرات طوال خمسة عشر عامًا من زواجهما، فإنها لم تحمل جنينًا لتسعة أشهر سوى مرتين فقط، وقد وُلِدَ كلاهما ميتًا. وبعد الحمل الخامس، الذي انتهى بإجهاضٍ دامٍ، كانت نصيحة الأطباء والجراحين لصاحبي الجلالة هي تحذيرهما من أي محاولة أخرى لإنجاب طفلٍ آخر؛ فقد كانت حياة الدوقة في خطر، وجسدها صار واهيًا وضعيفًا للغاية. وأضافوا بلطفٍ أن عمرها صار أكبر من أن تحتمل الإنجاب مرة أخرى. وكان يتعين على الدوق أن يحمل نفسه في هدوء على قبول حقيقة أن الدوقية ستنتقل خارج نسل عائلة باسيت.

لكن الدوقة -رحمها الله- كانت تعلم جيدًا دورها في الحياة، وبعد فترة نقاهة دامت ستة أشهر، فتحت الباب الفاصل بين حجرتيهما، وعاد الدوق مُجِدًّا يشرع في مهمته لإنجاب الابن.

بعد خمسة أشهر، أخبرت الدوقة زوجها أنها قد تحمل طفلًا. وسرعان ما خمدت بهجته بهذا النبأ، بسبب إصراره القاسي على أنه لا شيء -لا شيء مطلقًا- سيتسبب في إخفاق هذا الحمل. لازمت الدوقة فراشها في اللحظة التي أدركت فيها أن دورتها الشهرية قد توقفت. وحضر الطبيب لزيارتها كل يوم. وفي منتصف مدة الحمل، حدد الدوق أكثر الأطباء شهرةً وكفاءة في لندن، ودفع إليه ما يدفعه الملوك حتى يترك مهنته ويمكث في قلعة كلايفيدون مؤقتًا.

لم يترك الدوق الأمر للمصادفة هذه المرة؛ سيتأكد من إنجاب الوريث، وستظل الدوقية في أيدي عائلة باسيت.

عانت الدوقة من آلام شديدة قبل موعد ولادتها بشهر واحد، ولذلك فقد حُشِرت الوسائد أسفل ظهرها. وقد أوضح الطبيب أنه ربما تحافظ الجاذبية على بقاء الطفل بداخلها فترةً أطول. واعتقد الدوق أن هذا الأمر حجة سليمة، ولذلك، بمجرد أن رحل الطبيب في المساء وضع وسادة أخرى أسفل زوجته، حتى رفع جسدها بزاوية نحو عشرين درجة. وظلّت على هذا الوضع لشهرٍ كامل.

وأخيرًا حانت لحظة الحقيقة. كان جميع أفراد المنزل يدعون للدوق، الذي طالما حلم بإنجاب وريثٍ له، وقليلٌ منهم تذكروا أن يدعوا من أجل الدوقة، التي صار جسدها هزيلًا واهنًا، بينما كان بطنها يستدير ويزداد حجمًا.

حاولوا أن يكون دعاؤهم محفوفًا بالأمل، فرغم كل شيء كانت الدوقة قد أنجبت بالفعل طفلين وماتا. وحتى إن تمكنت من ولادة طفلها سالمًا، فيُمكن أن يكون هذا الطفل فتاة.

وبينما كانت صرخات الدوقة تعلو وتتكرر شيئًا فشيئًا، شق الدوق طريقه إلى غرفتها، متجاهلًا تمامًا احتجاجات الطبيب، والقابلة، وخادمات صاحبة الجلالة. كان الوضع فوضويًا للغاية، لكن الدوق كان عازمًا على أن يكون حاضرًا في اللحظة التي ينكشف فيها جنس المولود.

ظهر رأس المولود، ثم كتفاه. وانحنى الجميع إلى الأمام ليراقب المشهد، بينما كانت الدوقة تقاوم وتدفع بشدة، وعندئذٍ...

وعندئذٍ علم الدوق أن هناك إلهًا يُعبَد، وأنه ما زال راضيًا عن عائلة باسيت. سمح الدوق بدقيقة واحدة للقابلة حتى تنظف الطفل، ثم حمل ولده الصغير بين ذراعيه، وسار به إلى الساحة الكبيرة ليعلن الأمر للجميع.

- لقد أنجبتُ ولدًا! ولدًا صغيرًا كامل الخلقة!

انفجر الدوق فجأة بأعلى صوته.

وبينما كان الخدم يهللون وينتحبون في ارتياح، تطلع الدوق إلى الإيرل الصغير، وقال:

- أنت طفلٌ في تمام صحته. أنت فرد من عائلة باسيت. أنت مِلكٌ لي.

كان الدوق راغبًا في حمل الرضيع إلى الخارج ليثبت للجميع أنه قد أنجب أخيرًا طفلًا ذكرًا تامَّ الصحة. لكن هواء أبريل قد جلب معه برودة خفيفة؛ لذلك قرر أن يسمح للقابلة أن تعيده إلى أمه مرةً أخرى. وامتطى الدوق واحدًا من خيوله الخصيَّة باهظة الثمن، وقاده إلى الاحتفال، تسبقه صيحاته حول حظه الجيد إلى كل من سيسمع.

في تلك الأثناء كانت الدوقة تنزف دون توقف منذ ولادتها، تنزلق إلى حالات من اللاوعي، قبل أن تزهق روحها في نهاية الأمر.

حزن الدوق على زوجته، لقد أصابه الحزن حقًّا على فراقها. بالطبع لم يكن يحبها، ولم تكن هي تحبه أيضًا، لكنهما ظلَّا صديقين بأكثر الطرق غرابة وتباعدًا. لم يكن الدوق يتوقع من زواجه شيئًا أكثر من طفلٍ ذكر ووريثٍ له، وفي هذا الشأن أثبتت زوجته أنها زوجة مثالية. كان الدوق قد طلب بترتيب زهورٍ نضرة حتى توضع على قاعدة نُصْبها التذكاري الجنائزي كل أسبوع،

بغض النظر عن حالة الطقس. وأمر بنقل صورتها من غرفة المعيشة إلى الساحة الكبيرة، في موضع تشريف عظيم على جانب الدرج.

ثم تابع الدوق رحلته في تربية ابنه.

لم يكن هناك الكثير ليفعله في السنة الأولى بالطبع؛ فقد كان الرضيع صغيرًا جدًّا على أن يتقبَّل أي محاضرات بشأن إدارة الأراضي ومسؤولياتها، لذلك ترك الدوق سايمون ابنه في رعاية المربية وذهب إلى لندن، حيث استمرت حياته كما هي قبل أن يُرزَق بالأبوَّة، باستثناء أنه قد أجبر الجميع –حتى الملك– على التطلع إلى الصورة المصغَّرة التي قد أمر برسمها لابنه بعد مولده بوقتٍ قصير.

كان الدوق يزور كلايفيدون من وقتٍ لآخر، ثم عاد نهائيًّا في عيد ميلاد سايمون الثاني، وكان على أتم الاستعداد لتولي تعليم الفتى الصغير بنفسه. ولذلك أمر بشراء مُهرٍ صغير، واختار بندقية صغيرة من أجل الاستخدام المستقبلي عند اصطياد الثعالب، وأحضر المعلمين في كل مجالٍ يعرفه الإنسان.

- ما زال الطفل صغيرًا على كل هذا!

أبدت المربية هوبكنز دهشتها.

- هراء. من الواضح أنني لا أتوقع إتقانه لأي من هذا في أي وقتٍ قريب، لكن الوقت ليس مبكرًا لأن يبدأ دوقٌ تعليمه.

أجاب هاستنجز في تعالٍ، فتمتمت المربية:

- إنه ليس دوقًا.

- سيكون دوقًا.

أدار هاستنجز ظهره إلى الفتاة وجثم على ركبتيه بجانب ولده، والذي كان يبني قلعة غير متناسقة بمجموعة من الأحجار على الأرض. لم يكن الدوق قد حضر إلى كلايفيدون منذ أشهر عديدة، لذلك كان مسرورًا بنمو سايمون السريع. إنه ولدٌ قوي سليم البنية، يزينه شعر بني لامع، وعينان زرقاوان صافيتان.

- ماذا تبني هنا يا بُني؟

ابتسم سايمون وأشار إلى قلعته.

تطلع هاستنجز نحو المربية هوبكنز، وقال:

- ألا يتكلم؟

هزت رأسها نفيًا، وأضافت:

- ليس بعد يا صاحب الجلالة.

عبس الدوق، ثم قال:

- إنه في عمر العامين، أليس من المفترض أن يتكلم؟

- بعض الأطفال يستغرقون وقتًا أطول من غيرهم يا صاحب الجلالة. ولكن من الواضح أنه ولد ذكي.

- بالطبع ولدٌ ذكي؛ إنه فردٌ من عائلة باسيت.

أومأت المربية بالموافقة، وكانت دائمًا ما تومئ بالموافقة عندما يتحدث الدوق عن أفضلية نسل باسيت. ثم أردفت:

- ربما ليس لديه أي شيء يرغب في قوله.

لم يبدُ الدوق مقتنعًا بهذا السبب، لكنه منح سايمون لعبة على هيئة جندي، ورَبَّتَ على رأسه، ثم غادر المنزل ليذهب في جولة لاختبار الفرس الجديد الذي كان قد اشتراه من اللورد وورث.

بعد عامين –على الرغم من أي شيء– لم يكن الإيرل الصغير لبقًا في الحديث بعد، فانفجر الدوق قائلًا:

- لماذا لا يتكلم حتى الآن؟

- لا أدري يا سيدي.

أجابت المربية بينما كانت تعتصر يديها.

- ماذا فعلتِ به؟

- لم أفعل شيئًا!

- لو كنتِ قد أتممتِ عملكِ على نحو صحيح، لكان هذا الفتى –ووجَّه *إصبعًا غاضبًا في اتجاه سايمون*– يتكلم الآن.

أما سايمون، الذي كان يتدرب على الكتابة مستندًا إلى مكتبه الصغير، فقد كان يراقب تبادل التُهَم باهتمام.

- إنه في الرابعة من عمره! يا إلهي، ما هذا البلاء؟ كان من المفترض أن يكون قادرًا على الحديث الآن.

قال الدوق مُزمجِرًا. فقالت المربية بسرعة:

- يمكنه الكتابة. وقد عَمِلتُ على تربية خمسة أطفال؛ لم يتقن أحد منهم الكتابة مثلما أتقنها السيد سايمون.

- بماذا ستفيده قدرته على الكتابة الجيدة إذا عجز عن الكلام؟

ثم استدار هاستنجز نحو سايمون، بينما يشتعل الغضب في عينيه.

- تحدث إليَّ أيها الملعون!

ارتعد سايمون وعاد خطوةً إلى الخلف، وكانت شفته السفلى ترتجف خوفًا.

- يا صاحب الجلالة! أنت تخيف الطفل.

قالت المربية في ذهول.

استدار في غضب ليواجهها.

- ربما كان في حاجة إلى الخوف. ربما كان ما يحتاج إليه هو جرعة جيدة من النظام. ربما يساعده العقاب الجيد على إيجاد صوته.

أمسك الدوق بفرشاة الشعر المطلية بالفضة، والتي كانت تستخدمها المربية في تمشيط شعر سايمون، وتقدم نحو ابنه.

- سأجعلك تتكلم، أيها الغبي!

- كلا!

صرخ سايمون.

شهقت المربية، وأسقط الدوق الفرشاة؛ فقد كانت تلك هي المرة الأولى التي يسمعان فيها صوت سايمون منذ ولادته.

- ماذا قلت؟

قال الدوق هامسًا بينما كانت الدموع تتجمع في عينيه.

تكوَّرت قبضتا سايمون بجانبه، وبرز ذقنه الصغير إلى الأمام قليلًا وهو يقول:

- إياك أن... تـــ... تـــ... تـــ... تـــ... تــــــــــــــــ ـــــ ...

غطى وجه الدوق فجأة شحوبٌ كشحوب الموت.

- ماذا يقول؟

حاول سايمون تكوين تلك الجملة مرة أخرى:

- إيـ... إيـ.. إ... إ... إ... إيـــ ـ ـ ـــ

توقف الدوق يستنشق بعض الهواء مرتعدًا، ثم قال:

- يا إلهي! إنه بليد ضعيف العقل.

- إنه ليس بليدًا.

صرخت المربية بينما كانت تلقي بذراعيها حول الطفل المسكين.

- إيـ... إ... إ... إيـــ ـ ـ ـــ إياك أن تـ... تـ... تـ... تـ... تـ... تضرب -*وأخذ سايمون نفسًا عميقًا*- أنا.

غاص هاستنجز في مقعده بجانب النافذة، وسقط رأسه في راحتيه.

- ماذا فعلت لأستحق هذا؟ ما الذي يمكن أن أكون قد فعلته؟

- من المفترض أن تمنح الطفل بعض المديح؛ لقد انتظرت أربع سنوات حتى يتكلم، و- - -

قالت المربية هوبكنز موجهةً اللوم إلى الدوق.

- والآن هو غبي! غبيٌّ صغير أحمق!

قالها الدوق مزمجرًا في غضب.

وهنا بدأ سايمون في البكاء، وبجانبه علا أنين الدوق.

- ستذهب دوقية هاستنجز إلى أبله. طوال كل تلك السنوات كنت أصلي حتى أُرزَق بالوريث.. والآن تَهَدَّم كل شيء. كان من المفترض أن أترك اللقب لابن عمي.

استدار هاستنجز إلى ابنه، الذي كان يتنشق ويمسح عينيه بينما يحاول الظهور أمام والده بمظهر القوي، وقال:

- لا أطيق حتى النظر إليه.. لا يمكنني حتى تحمل النظر إليه.

وبعدما أنهى الدوق تلك العبارة اندفع خارج الغرفة.

احتضنت المربية هوبكنز الصبي بقوة، وهمست قائلة في إصرار:

- أنت لست أبله. أنت أذكى ولد صغير أعرفه. وإن كان لأحد أن يتعلم كيف يتحدث جيدًا، فأنا واثقة من أنه أنت.

استدار سايمون ليغرق في عناقها الدافئ وأجهش بالبكاء.

أقسمت المربية قائلة:

- أعدك أننا سنُريه. سأجعله يعترف بخطئه، حتى وإن كان هذا آخر شيء أفعله في حياتي.

أثبتت المربية هوبكنز صدق كلمتها. وفي الوقت الذي قرر فيه دوق هاستنجز الرحيل نهائيًّا إلى لندن، ومحاولة التظاهر بأنه لم ينجب ولدًا، قضت هي كل لحظة برفقة سايمون تعلمه هجاء كل كلمة، وكل مقطع، وتشيد بأدائه كثيرًا عندما ينجز شيئًا صحيحًا، وتمنحه كلمات التشجيع عندما يخفق في شيء ما.

كان تقدمه بطيئًا، لكن حديث سايمون كان يتحسن. وعندما بلغ السادسة من عمره، كان كلامه: «إ... إ... إ... إ... إ... إياك» قد تحوَّل إلى: «إ... إ... إياك». وإذ بلغ الثامنة، كان قد استطاع أن يقول جملة كاملة دون تَعَثُّر. كانت هناك بعض المشكلات التي ما زالت تواجهه، خاصة إذا كان حزينًا، وكان على المربية أن تُذَكِّره أحيانًا أنه في حاجة إلى أن يكون هادئًا، رابط الجأش إذا أراد أن تخرج كلماته كلها دفعة واحدة.

لكن سايمون كان قوي الإرادة، وكان ذكيًّا أيضًا، والأهم هو أن سايمون كان عنيدًا صعب المراس. لقد تعلم أن يلتقط أنفاسه قبل كل جملة، وأن يفكر في كلماته قبل أن يحاول النطق بها. وعكف على دراسة حالة فمه عندما يتكلم بشكل صحيح، وحاول تحليل ما يتغير في حالته إذا تحدث بطريقة خاطئة.

وأخيرًا، عندما صار سايمون في عمر الحادية عشرة، التفت نحو المربية هوبكنز، وصمت قليلًا حتى يجمع أفكاره، وقال:

- أعتقد أن الوقت قد حان حتى نذهب لنرى أبي.

تطلعت المربية نحوه بحدَّة. لم يكن الدوق قد رأى الصبي منذ سبع سنوات، ولم يكن قد أجاب حتى على خطاب واحد أرسله إليه سايمون، وقد أرسل سايمون ما يقرب من مئة خطاب.

- هل أنت واثق؟

سألته المربية. فأومأ إليها بالموافقة.

- حسنًا إذن، سأطلب حضور العربة، وسنغادر إلى لندن في صباح الغد.

استغرقت الرحلة نحو يوم ونصف، وكانت الشمس قد مالت قليلًا إلى الغروب في الوقت الذي توقفت فيه أمام منزل عائلة باسيت. اختلس سايمون نظرة سريعة إلى شوارع لندن المزدحمة في عجب، بينما كانت المربية هوبكنز تقود خطواته. لم يكن أيٌّ منهما قد زار منزل عائلة باسيت من قبل؛ ولذلك لم تكن المربية تدري ما الذي عليها فعله عندما وصلت إلى أعتاب الباب الأمامي بخلاف النقر عليه.

فُتِحَ الباب متأرجحًا على مصراعيه في غضون ثوانٍ، ووجدا نفسيهما واقفين أمام رئيس الخدم المهيب، الذي ينظر إليهما باحتقار.

- تُوزَّع الصدقات من الباب الخلفي.

قال رئيس الخدم بترنيمة هادئة بينما كان يتحرك لإغلاق الباب.

- انتظر هنا!

قالت المربية بسرعة بينما كانت تسُدُّ الباب بقدمها. ثم أضافت:

- لسنا خدمًا.

تطلع رئيس الخدم بازدراء إلى ثيابها، فأجابت:

- حسنًا، أنا خادمة، لكن الطفل ليس خادمًا.

وقبضت على ذراع سايمون وسحبته إلى المقدمة، ثم قالت:

- هذا هو إيرل كلايفيدون، وعليك أن تعامله باحترام!

فغر فاه رئيس الخدم كما لو أن حفرة قد ظهرت فجأة في وجهه، وطرفت عيناه عدة مرات قبل أن يقول:

- لقد فَهِمتُ أن إيرل كلايفيدون قد مات.

صرخت المربية قائلة:

- ماذا؟

- أنا متأكدٌ تمامًا أنني لستُ بميت!

قال سايمون متعجبًا وعلى وجهه كل السخط القويم الذي يمكن أن يعرفه طفل في الحادية عشرة من عمره.

تفحص رئيس الخدم ملامح سايمون، وقد أدرك على الفور أنه يمتلك تلك النظرة التي تشتهر بها عائلة باسيت، وأَذِنَ لهما بالدخول.

- لماذا اعتقدت أنني مـــ... ميت؟

سأل سايمون، لاعنًا نفسه على تعثره في الحديث، لكنه لم يكن دَهِشًا مما يحدث له؛ فدائمًا ما كانت هناك فرصة لتعثره في الحديث إن كان غاضبًا.

- ليس من حقي أن أجيب عن هذا السؤال.

أجاب رئيس الخدم.

- بالتأكيد هو دورك؛ لا يمكنك أن تقول شيئًا كهذا لصبي في عمره ولا تشرح السبب وراء ما قلته.

أطلقت المربية رصاص كلماتها على الفور.

خيَّم الصمت على رئيس الخدم لبرهة، ثم قال في النهاية:

- إن صاحب الجلالة لم يأتِ على ذكرك منذ أعوام طويلة، وآخر شيء قد سمعته كانت كلمات الدوق، عندما قال إنه لم يعد له ابن. وبدا عليه الألم إذ نطق بتلك الكلمات؛ لذلك لم يجرؤ أحد على محادثته في الأمر. وافترضنا نحن –الخدم– أنك قد رحلت عن عالمنا.

شعر سايمون بعضلات فكه تنقبض على بعضها، وبحنجرته تدفع ريقه بجموح.

- ألم يكن للدوق أن يدخل في حالة حداد؟ هل فكَّرتم في ذلك؟ كيف افترضتم أن الصبي قد مات إذا لم يعلن والده حالة حداد؟

تساءلت المربية.

رفع رئيس الخدم كتفيه في استسلام، ثم أجاب:

- عادة ما يرتدي صاحب الجلالة ثيابًا سوداء، ولن يُحدِثَ الحداد أي تغيير في ثيابه.

- هذا افتراءٌ وتعدٍّ! أنا أطالب الآن أن تستدعي صاحب الجلالة في الحال.

قالت المربية هوبكنز.

لم يعلق سايمون بشيء، فقد كان يحاول جاهدًا أن يسيطر على انفعالاته. كان عليه أن يفعل ذلك؛ فمن المستحيل أن يكون قادرًا على التحدث مع والده إذا كانت ضربات قلبه سريعة إلى هذا الحد.

أومأ رئيس الخدم بالموافقة.

- إنه في الطابق العلوي. سأبلغه بحضوركما على الفور.

بدأت المربية تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا في جموح، وهي تتمتم هامسة وتشير إلى الدوق بكل كلمة بذيئة في قاموسها اللغوي الوفير، المثير للدهشة. أما سايمون، فقد ظل واقفًا في منتصف الغرفة، بينما تخشَّبت ذراعاه على جانبيه من الغضب، ولم تتوقف محاولاته في أخذ أنفاسٍ عميقة.

كان يصرخ بينه وبين نفسه قائلًا: «*يمكنك السيطرة على الأمر. يمكنك أن تفعل ذلك*».

التفتت المربية نحوه وقد رأته يحاول جاهدًا السيطرة على أعصابه، فقالت على الفور في لهفة:

- أجل، هذا جيد.

وسقطت على ركبتيها أمامه بينما تلتقط يديه وتحتضنهما بيديها. كانت تعلم جيدًا أكثر من أي شخص آخر ما سيحدث إن حاول سايمون مواجهة والده قبل أن يهدأ.

- خذ نفسًا عميقًا. كل ما عليك فعله هو أن تفكر في كلماتك قبل أن تنطق بها. إذا أمكنك أن تسيطر...

- أرى أنكِ ما زلتِ تدللين الصبي.

كان هذا الصوت المتعجرف قد جاء من الممر.

نهضت المربية هوبكنز في استقامة، والتفتت نحو الصوت ببطء. حاولت أن تفكر في شيء يشي بالاحترام لتنطق به، حاولت أن تفكر في شيء سيقلل من حدة هذا الموقف الشنيع. ولكن عندما نظرت إلى الدوق، رأت وجه سايمون البريء في وجهه، وعندها تجدد غضبها مرة أخرى. ربما كان الدوق شبيهًا بابنه، لكنه بالتأكيد لم يكن أبًا جديرًا به.

- أنت يا سيدي شخصٌ وضيع.

- وأنتِ يا سيدتي مطرودة.

ترنَّحت المربية في خجل إلى الوراء.

- لا أحد يتحدث مع دوق هاستنجز بتلك الطريقة أبدًا! لا أحد.

قال الدوق مزمجرًا.

- حتى الملك؟

قال سايمون في تهكم.

دار هاستنجز حول الغرفة، دون حتى أن يلاحظ أن ابنه قد تكلم بوضوح، ثم قال بصوتٍ منخفض:

- أنت!

أومأ سايمون باقتضاب. لقد تمكن من تكوين جملة واحدة بشكل صحيح، لكنها كانت جملةً قصيرة، ولم يكن يرغب في امتحان حظه، ليس وهو غاضبٌ إلى هذا الحد. عادةً كان بإمكانه أن يقضي أيامًا طويلة دون أي تعثر، ولكن الآن...

تلك الطريقة التي يحدق بها والده إليه جعلته يشعر كما لو كان لا يزال طفلًا، طفلًا أبله.

وفجأة شعر بتنميل لسانه وثقله.

ابتسم الدوق له في قسوة، ثم قال:

- وأنت، ما الذي عليك أن تقوله لتدافع عن نفسك أيها الصبي؟ ها؟ ما الذي يجب أن تقوله إن استطعت الكلام؟

- كل شيء بخير، سايمون. لا تدعه يغضبك. يمكنك أن تنجح في ذلك يا عزيزي.

همست المربية هوبكنز وهي تلقي بنظرة غاضبة إلى الدوق.

إلا إن نبرة تشجيعها له –بطريقة ما– جعلت الوضع أسوأ مما هو عليه؛ فقد حضر سايمون إلى هنا ليثبت نفسه أمام والده، لكنه الآن يرى المربية تعامله مثل طفل صغير.

- ما المشكلة؟ لماذا أنت صامت؟ هل بلعت لسانك؟

قال الدوق ساخرًا.

تَيبَّسَت عضلات سايمون، حتى إن جسده بدأ يرتجف.

كان كل من الأب والابن يحدقان إلى بعضهما لمدة طويلة، بدا معها أن الزمن قد توقف، حتى خرجت عبارات السباب واللعن من فمه، واندفع ناحية الباب.

- أنت أسوأ إخفاقاتي. لا أعلم ماذا فعلت حتى أستحق صبيًّا مثلك، لكن فليرحمني الله إن تطلعت إليك بعيني هاتين مرة أخرى.

قال الدوق بفحيح من الغضب موجهًا حديثه إلى ابنه.

- صاحب الجلالة!

قالت المربية هوبكنز بسخط؛ فلم تكن طريقته هي الطريقة الأنسب للحديث مع صبي صغير.

- أبعديه عن ناظري! يمكنك الاحتفاظ بوظيفتك ما دمتِ تبعدينه عن طريقي.

قال الدوق وقد بصق على المربية.

- مهلًا!

التفت الدوق ببطء نحو صوت سايمون، ثم قال:

- هل قلتَ شيئًا؟

قال متشدقًا.

التقط سايمون ثلاثة أنفاس طويلة من خلال أنفه، لكن فمه كان لا يزال متحجرًا في غضب. لذلك أجبر عضلات فكه على الاسترخاء، والتف لسانه ليلتصق بسقف حلقه مُحاولًا أن يذكر نفسه بما كان يشعر به إذ يتكلم بشكلٍ صحيح. وأخيرًا، عندما كان الدوق على وشك طرده مجددًا، فتح فمه وقال:

- أنا ابنك.

سمع سايمون المربية هوبكنز تتنهد في ارتياح، وشيء ما لم يره من قبل قط قد لمع في عيني والده؛ الفخر، ليس كثيرًا من الفخر، لكن كانت هناك نفحة منه على الأقل، يختبئ في أعماقه. شيء ما قد منح سايمون بصيصًا من الأمل.

- أنا ابنك.

قال سايمون مجددًا، لكن صوته في تلك المرة كان أكثر خفوتًا. ثم تابع:

- وأنا لست مـــــــ.

وفجأة تحجَّر حلقه. وتملَّكت سايمون نوبة هلع.

كان سايمون يقول في نفسه: «*يمكنك السيطرة على الأمر. يمكنك أن تفعل ذلك*».

لكن صار حلقه أكثر تيبُّسًا، ولسانه أكثر ثقلًا، وبدأت عينا والده تضيقان بنفاد صبر.

- أنا لست مـــــ..

- عُد إلى المنزل. لا مكان لك هنا.

قال الدوق بصوتٍ منخفض.

شعر سايمون برفض الدوق له ينخر عظامه، وشعر بنوع غريب من الألم يتسلل إلى جسده زاحفًا ليغزو قلبه. وإذ تملَّكت من قلبه الكراهية حتى طغت على نظرة عينيه، أخذ على نفسه عهدًا مقدسًا.

إذا عجز عن أن يكون الابن الذي رغب فيه والده، عندئذٍ –وأقسم بالله– سيصبح الشخص الذي لم يتمنَّه والده.

الفصل الأول

26 من أبريل 1813 **جريدة المجتمع**

تعلمون أن عائلة بريدجرتون هي أوفر العائلات نسلًا دون منازع من بين عائلات الوسط الرفيع من المجتمع؟ وتُعد تلك المزية -التي بذل فيها الفيكونت الراحل وزوجته جهودهما- جديرة بالثناء، على الرغم من أن المرء يمكنه استشعار التفاهة في نظام اختيارهم لأسماء أطفالهم. ترون أن أنطوني، وإلويز، وبيندكت، وجريجوري، ودافني، وفرانشيسكا، وكولين، وهياسنث تسير وفق نظام معين، يُعد بالطبع نافعًا في جميع الأمور، لكن المرء منا سيعتقد أن الآباء الأذكياء بإمكانهم التمييز بين أطفالهم دون الحاجة إلى ترتيب أسمائهم وفق حروف الهجاء.

الأهم من ذلك أن رؤية زوجة الفيكونت وأبنائها الثمانية جميعهم في غرفة واحدة يُعد كافيًا حتى يخشى المرء من إصابة عينيه بشيء ما يجعل رؤيته مزدوجة -أو ربما ثلاثية- أو أسوأ من ذلك. الحقيقة هي أن كاتبة هذا المقال لم ترَ دزينة من الأشقاء المتشابهين في بنيتهم الجسدية على نحو يثير السخرية أكثر مما رأته في ذاك المشهد. وعلى الرغم من أن كاتبة المقال المذكور لم تكلف نفسها عناء فحص لون أعينهم، فإن الأطفال الثمانية كانت تتشابه بنيتهم الجسدية وهيكلهم العظمي، إلى جانب شعرهم الكستنائي الثقيل. ربما يتعين على المرء منا الشفقة على زوجة الفيكونت؛ فقد كانت تسعى لتوفير زيجات ملائمة لسلالتها، حتى إنها لم تنجب طفلًا واحدًا يحمل شعرًا بألوان أكثر عصرية وتأنقًا. ومع ذلك، لا تزال تلك العائلة التي يتشابه أفرادها حد التطابق تمتلك بعض الميزات؛ فليس ثمة شك في أن الأطفال الثمانية يتمتعون بأصول شرعية لا تشوبها شائبة.

آه -أيها القارئ النبيل- كم تتمنى كاتبتك الشجاعة لو كانت تلك هي الحالة السائدة في جميع العائلات الرفيعة!

ليدي ويسلداون

- يا إلهــي!

كوَّرت فيوليت بريدجرتون الجريدة ذات الصفحة الواحدة وألقت بها على أرضية حجرة الاستقبال الأنيقة.

لم تعلق ابنتها دافني، وكانت هذه لفتة ذكية منها، وتظاهرت بالانهماك في مهمة التطريز أمامها.

- هل قرأتِ ما قالته؟ هل اطلعتِ عليه؟

تساءلت فيوليت، فألقت دافني نظرة إلى كرة الورق، والتي كانت تستقر الآن أسفل الطاولة الجانبية المصنوعة من خشب الماهوجني.

- لم تكن هناك فرصة لقراءتها قبل أن تنتهي أنتِ منها.

- اقرئيها إذن!

صاحت فيوليت بينما كانت ذراعها تشق ذرات الهواء بصورة درامية. ثم أضافت:

- انظري كيف تطعن فينا هذه المرأة.

وفي هدوء مُحكَم، وضعت دافني مهمة التطريز خاصتها على الطاولة، قبل أن تهبط إلى أسفل الطاولة الجانبية. وقامت بتسوية كومة الورق في حجرها، وقرأت تلك الفقرة التي تتحدث عن عائلتها. طرفت عيناها قبل أن تتطلع إلى والدتها قائلة:

- هذا ليس سيئًا يا أمي، في الحقيقة إنها مباركة صادقة مقارنةً بما كتبته الأسبوع الماضي عن عائلة فيذرنجتون.

- وكيف لي الآن أن أجد لكِ الزوج المناسب وتلك المرأة تَلوكُ في اسمك هنا وهناك؟

أجبرت دافني نفسها على الزفير. كان هذا بمكانة اعتراض واضح، وربما تأفف؛ فبعد نحو موسمين في لندن كان مجرد التلفظ بكلمة زوج كافيًا لقصف حصونها المنيعة. الحقيقة أن دافني كانت ترغب في الزواج، وهذا صحيح، ولم تكن صامدة كل تلك المدة من أجل الحب الحقيقي المتبادل. ولكن أكان من الصعب حقًّا أن يرجو المرء زوجًا يحمل له بعض العاطفة والحب على الأقل؟

وحتى الآن كان هناك أربعة رجال قد تقدموا لخطبتها، ولكن عندما كانت دافني تفكر في أنها ستقضي ما تبقى من أيامها برفقة أحدٍ من هؤلاء الأربعة، كانت مخيلتها تعجز عن قبول ذلك. وكان ثمة عدد من الرجال الذين كانت تعتقد أنهم يمتلكون سمات الأزواج الملائمين، ولكن المشكلة هي أنَّ أحدًا منهم لم يكن مهتمًّا بما يكفي لخطبتها. أجل، كانوا جميعًا يحبونها، وكانت محبوبة من الجميع؛ فقد كانت دافني في نظرهم فتاة مرحة وعطوفة، سريعة البديهة، ولم يعتقد أحدٌ منهم أنها ليست جذَّابة بما يكفي، إلا إنه في الوقت نفسه لم يقع أحدهم تحت سطوة جمالها، أو يعجز عن الحديث في حضرتها، أو يعتزل الحياة لتأليف الشعر في شرفها.

كان مجرد التفكير فيما يفضله الرجال يثير اشمئزازها. ترى أن الرجال ينجذبون فقط إلى النساء اللائي يُثِرن الهلع بداخلهم، ولم يبدُ أن أحدًا يميل إلى التودد إلى شخصٍ مثلها. لقد أحبها الجميع –أو ربما هذا ما يقولونه– لأنها كانت شخصًا تسهل معاشرته والحديث معه، ودائمًا ما كانت تُظهِر قدرتها على فهم ما يشعر بهِ الرجال. وكما قال لها أحد الرجال الذين كانت دافني تعتقد أنهم يمتلكون سمات الأزواج الملائمين:

- حقًّا داف، تقبلي الأمر، أنتِ لستِ مثل الفتيات العاديات. أنتِ شخص طبيعي، وتحملين نتيجة إيجابية بذلك.

حاولت دافني تقبل الأمر كما لو أنه مجاملة، لولا أنه قد نهض ليتابع تسكعه باحثًا عن صيحات الجمال الأشقر الحديثة.

ألقت دافني نظرة إلى الأسفل، ولاحظت إحدى يديها وقد عُقِدَت متخذة هيئة القبضة، ثم رفعت ناظريها لتدرك أن والدتها تحدق إليها، وبدا أنها كانت بانتظار أن تقول دافني شيئًا. وبما أنها قد نفثت زفيرها بالفعل، فقد حان الوقت حتى تتنحنح دافني وتقول:

- أنا على يقين من أن العمود الصغير الخاص بليدي ويسلداون لن يؤثر على فرصي في الحصول على الزوج المناسب.

- دافني! لقد مر عامان بالفعل.

- ولم تبدأ ليدي ويسلداون في النشر سوى منذ ثلاثة أشهر، لذلك لا أعتقد أن بإمكاننا إلقاء اللوم على عاتقها في هذا الأمر.

- سألقي اللوم على عاتق من أرغب مهما يكن.

تمتمت فيوليت.

كانت أظفار دافني تطبق على راحتيها كما لو أنها حَصَّنت نفسها كي لا تلقي بأي ردود مُفحِمة، فقد كانت على علم بأن والدتها تتمنى لها كل الخير، وتعلم أن والدتها تُكِنُّ لها حبًّا عميقًا. وكانت دافني أيضًا تحب والدتها. في الحقيقة كانت فيوليت بحق أفضل الأمهات اللاتي يمكن أن تحظى بهن دافني، حتى وصلت إلى السن المناسبة للزواج. الحق أنها لا تزال أفضل الأمهات، حتى عندما صارت يائسة مُحبَطة من حقيقة أنه لا تزال هناك ثلاث فتيات أخريات بعد دافني عليها أن تزوجهن.

ربتت فيوليت بلمسة رقيقة على صدر دافني بينما تقول:

- إنها تطعن في نسبك وتفتري عليه.

- كلا...

أجابت دافني بهدوء. لقد كان من الحكمة دائمًا أن تتابع حديثها بحذر، خاصةً عندما تتعارض ردودها مع حديث والدتها.

- في الحقيقة، إن ما قالته هو أنه ليس هناك شكٌّ في أننا جميعًا أطفالٌ شرعيون. وهذا أكثر مما يمكن أن يقوله المرء عن أكبر العائلات في الوسط الرفيع.

- ما كان لها أن تتحدث في الأمر من الأساس.

أردفت فيوليت بازدراء.

- أمي! إنها محررة صفحة الشائعات، إذن فتلك هي وظيفتها بالضبط؛ أن تتحدث عن تلك الأمور.

فصاحت فيوليت غاضبة:

- إنها ليست شخصًا حقيقيًّا حتى.

وضعت فيوليت يديها على خاصرتها الرفيعة، ثم تغيرت نظرتها تبعًا لتغير رأيها، قبل أن تحرك إصبعها في الهواء وتتابع:

- ويسلداون، ها؟ لم أسمع بأي فرد من عائلة ويسلداون هذه. مهما تكن حقيقة تلك المرأة الحقيرة، أشك في أنها واحدة منا. فلا أعتقد أن أي شيء قد انحدر من تنشئة راقية سيكتب مثل تلك الافتراءات.

- بالطبع هي واحدة منا. أخبريني؛ إن لم تكن فردًا من أي عائلة من عائلات الوسط الرفيع، فكيف لها أن تطلع على الأسرار التي تخدم هذا النوع من الأخبار الذي تكتب عنه؟ هل تعتقدين أنها نوع من المخادعين الأفاكين الذين يتلصصون من النوافذ ويسترقون السمع عبر الأبواب؟

قالت دافني بينما كان الحماس ينتشر متشعبًا في عينيها البنيتين.

- لا تعجبني نبرة حديثك، دافني بريدجرتون.

صاحت فيوليت، بينما أخذت في تضييق عينيها اللتين تنذران بالوعيد.

كبحت دافني ابتسامة أخرى. كانت عبارة «لا تعجبني نبرة حديثك» الجواب المعتاد لوالدتها فيوليت عندما يبدو لها أن أحد أطفالها يفوز بالنقاش.

إلا إن مشاكسة والدتها كانت أكثر متعة من أي شيء آخر.

- لن يدهشني الأمر إن كانت ليدي ويسلداون تلك هي واحدة من صديقاتك.

أردفت دافني وهي تصوب رأسها إلى أحد الجوانب.

- أخرسي لسانك، دافني. ليس هناك من أصدقائي من سيهبط إلى هذا المستوى المُبتَذَل أبدًا.

- حسنٌ جدًّا، ربما لم تكن واحدة من أصدقائك، لكنني على يقين من أنها شخصٌ نعرفه. مهما حدث لن يتمكن أي متطفل قط من الحصول على تلك المعلومات التي تنشرها في مقالاتها.

أجابت دافني مُسَلِّمةً بتلك الحقيقة، فعقدت فيوليت ذراعيها قبل أن تضيف:

- أود أن أضع حدًّا لعملها نهائيًّا، وإلى الأبد.

- إذا كُنتِ ترغبين في إيقاف عملها، عليكِ أن تتوقفي عن دعمها وشراء جريدتها.

نطقت دافني على الفور، فقد عجزت عن مقاومة توضيح هذا الأمر.

- وما النفع الذي سيعود عليَّ إن فعلتُ ذلك؟ الجميع يقرؤها؛ لن تؤثر مقاطعتي الضئيلة في شيء عدا أنها ستتركني جاهلة بما تقول عندما يضحك الآخرون على شائعتها الأخيرة.

تساءلت فيوليت.

كان استنتاجها صحيحًا، وآثرت دافني الموافقة عليه في صمت. كانت مجتمعات لندن العصرية تعكف على جريدة المجتمع التي تنشرها ليدي ويسلداون. وكانت الجريدة الغامضة قد وصلت إلى أعتاب كل فرد في عائلات الوسط الرفيع، التي يُطلَق عليها لقب تون[1] قبل ثلاثة أشهر. وطوال أسبوعين كانت الجريدة تصل كل اثنين وأربعاء وجمعة دون طلبها. وفي يوم الاثنين من الأسبوع الثالث كان رؤساء الخدم في جميع أنحاء لندن ينتظرون وصول جماعة بائعي الجرائد، الذين كانوا عادة ما يسلمون جريدة ويسلداون، إلا إن انتظارهم كان دون جدوى، ليكتشفوا حينئذ أنه بدلًا عن التوصيل المجاني، كانوا يبيعون صفحة الشائعات مقابل ثمنٍ باهظ؛ يُقَدَّر بخمسة بنسات للورقة.

كان على دافني أن تُعجَب بالرواج الزائف الذي حققته ليدي ويسلداون؛ ففي الوقت الذي أُجبِر فيه الناس على شراء الشائعات، كانت جميع عائلات الوسط الرفيع مُولَعة بتلك الجريدة حد الإدمان. وكان الجميع قد أفرجوا عن بنساتهم المُدَّخَرة، وبطريقة ما صارت بعض السيدات الفضوليات أكثر ثراءً.

بينما كانت فيوليت تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وتطلق حنقها وسخطها على تلك «الإهانة الشنيعة» التي تعرضت لها عائلتها، تطلعت دافني نحو والدتها لتتأكد من أنها لا تلقي لها بالًا، ثم ألقت بناظريها إلى الأرض لالتقاط بقية جريدة الفضيحة. في الحقيقة كانت *ويسلداون* –كما يُطلَق عليها الآن– خليطًا من التعليقات النقدية، والأخبار الاجتماعية، والإهانات القاسية، والمجاملات العارضة. أما تلك المزية التي كانت تُفَرِّق ويسلداون عن أي من جرائد أخبار المجتمع السابقة هي أن كاتبة مقالات تلك الجريدة تذكر بالفعل أسماء العائلات التي تتطرق إليها بالكامل. ليس هناك أي اختباء خلف الحروف الأولية، مثل: لورد س ـــ، وليدي ج ـــ. فإن كانت ليدي ويسلداون ترغب في الكتابة عن شخصٍ ما، فإنها تذكر اسمه بالكامل. لذلك صَرَّحت عائلات الوسط جميعها بتعرضها للشائعات والفضائح، بينما كانوا في سرائرهم مُولَعين بتلك الجريدة.

(1) Ton: يُطلق لفظ تون على الوسط الرفيع في المجتمع البريطاني في أواخر العصر الجورجي؛ منذ عام 1811 إلى 1820، وطوال حكم الملك جورج الرابع وما بعد ذلك. (المترجم)

كانت الطبعة الأخيرة طبعة تقليدية، كما هي عادة جريدة ويسلداون. وبجانب المقال القصير الذي كُتِبَ عن عائلة بريدجرتون -والذي لم يكن يزيد على مجرد وصف للعائلة- سردت ليدي ويسلداون أحداث الحفل الراقص في الليلة السابقة. لم تحضر دافني هذا الحفل، فقد كان عيد ميلاد شقيقتها الصغرى، والمعروف عن عائلة بريدجرتون أنهم يهتمون كثيرًا بأعياد الميلاد. ومع وجود ثمانية أطفال في العائلة، فمن المتوقع ألا تنقطع احتفالات أعياد الميلاد من منزلهم.

- أتقرئين هذا الهراء!

قالت فيوليت بقليل من الاتهام. فتطلعت دافني نحوها، عازفةً عن الشعور بأي ذنب -حتى لو كان قدرًا ضئيلًا- قبل أن تقول:

- على النقيض؛ فعمود اليوم جيد جدًّا. من الواضح أن سيسل تامبلي قد اصطدمت بطاولة كاملة من كؤوس الشامبانيا ليلة أمس.
- حقًّا؟

سألت فيوليت، على الرغم من محاولاتها ألا تبدو مهتمة لما يحدث.

- مممم. أرى أنها أيضًا قد منحت انطباعًا حسنًا عن حفل ميدلثورب الراقص، وذكرت جميع الحضور، ومع من كانوا يتحدثون، وإطلالة كل فرد من المدعوين و...

أجابت دافني، فقاطعتها فيوليت قائلة:

- وأعتقد أنها قد شعرت بالحاجة إلى تقديم آرائها في تلك النقطة خصوصًا.

ابتسمت دافني بدهاء، ثم أجابت:

- أوه، بالله عليكِ يا أمي. تعلمين أن ليدي فيذرنجتون تبدو قبيحة دائمًا عندما ترتدي اللون البنفسجي.

حاولت فيوليت كبح ابتسامتها، إلا إن دافني قد لمحت شبح ابتسامة يرتعش على جانبي فمها، فقد كانت والدتها تحاول جاهدة المحافظة على رباطة الجأش التي تراها ملائمة لما يجب أن تكون عليه زوجة الفيكونت والأم. ولكن في غضون ثانيتين، كانت ضحكاتها تعلو شيئًا فشيئًا وهي جالسة بجوار ابنتها على الأريكة.

- دعيني أرَ ما كتبته.

قالت فيوليت، ثم انتزعت الجريدة قبل أن تستأنف:

- ماذا حدث أيضًا؟ هل فوَّتنا شيئًا مهمًّا؟

- حقًّا يا أمي، مع وجود ليدي ويسلداون وتحقيقاتها الصحفية، لا يحتاج المرء حقًّا إلى حضور أي من الفعاليات.

قالت دافني مشيرة إلى الجريدة، قبل أن تتابع:

- هذا يشبه تمامًا حضورنا الحفل، ربما أفضل بكثير من حضورنا. أنا متأكدة أنَّ ما تناولناه من طعام بالأمس أفضل مما قد قدموه في الحفل الراقص، و... أمي! أعيدي إليَّ تلك الجريدة.

انتزعت دافني الجريدة مرة أخرى، تاركةً جانبًا ممزقًا في يدي فيوليت.

- دافني!

- لقد كنتُ أقرؤها.

قالت دافني مُصطَنِعَة استقامةً وهمية.

- إذن!

- اسمعي هذا أيضًا.

مالت فيوليت على ظهر الأريكة.

قرأت دافني: «الرجل المتحرر أخلاقيًّا، الذي عُرِفَ سابقًا باسم: إيرل كلايفيدون، قد ارتأى أخيرًا أن يُشَرِّف لندن بحضوره. وعلى الرغم من أنه لم يتكرم بعد بالحضور إلى أي مناسبة اجتماعية مسائية مُوَقَّرة، فإن العديد من المصادر أكد ظهور دوق هاستنجز الجديد مراتٍ عديدة في نادي وايتس[1]، ومرة واحدة في نادي تيترسال[2]». توقفت دافني لالتقاط أنفاسها، قبل أن تستأنف: «كان صاحب الجلالة قد مكث خارج البلاد نحو ستة أعوام، فهل يكون من المصادفة أن يعود الآن فقط وقد تُوفي الدوق السابق؟»

رفعت دافني عينيها عن الجريدة.

---

(1) White's: هو نادٍ خاص للرجال في لندن، تأسس عام 1693، وما زال قائمًا حتى الآن، ومحافظًا على سمته التقليدية؛ بكونه ناديًا خاصًّا بالرجال فقط. (المترجم)

(2) Tattersall: مقر لعقد مزادات خيول السباق في إنجلترا وأيرلندا. (المترجم)

- يا إلهي! إن حديثها فَظٌّ للغاية، أليس كذلك؟ أليس كلايفيدون هذا واحدًا من أصدقاء أنطوني؟

- إنه يحمل لقب هاستنجز الآن. وأجل، أعتقد حقًّا أنه كان صديقًا لأنطوني عندما كانا في أكسفورد، وإتون أيضًا حسب ما أعتقد.

أجابت فيوليت على نحو آلي، ثم أطرقت مفكرةً، فقطبت حاجبيها، وضاق بؤبؤا عينيها الزرقاوين، قبل أن تستأنف:

- إن لم تخدعني الذاكرة، فأنا أذكر أنه كان شخصًا مزعجًا، وكان دائمًا على خلاف مع والده. لكن سمعته لم تتأثر بهذا، وظل معروفًا بالذكاء والاتقاد. أنا متأكدة من أن أنطوني أخبرني من قبل أنه قد حصل على المرتبة الأولى في فصل الرياضيات.

وقلَّبت فيوليت عينيها بنظرة أمومية واضحة، قبل أن تضيف:

- وهو أكثر مما أستطيع قوله عن أي من أطفالي.

- الآن، الآن يا أمي. أنا متأكدة من أنني كنت سأحصل على المرتبة الأولى إذا قررت جامعة أكسفورد أن تقبل النساء.

قالت دافني في محاولة لمشاكسة والدتها.

خارت فيوليت بأنفها قبل أن تجيب:

- دافني، لقد قُمتُ بتصحيح عملياتك الحسابية عندما كانت معلمتك مريضة.

- حسنًا، ربما في مادة التاريخ إذن.

قالت دافني وأتبعت حديثها بضحكة متواضعة. ثم ألقت بنظرها إلى الجريدة التي تقبع بين يديها وعيناها متعلقتان باسم الدوق الجديد، وتمتمت:

- يبدو مثيرًا للاهتمام.

- يبدو غير مناسب لسيدة صغيرة في مثل عمرك، هذا هو ما عليه.

كانت فيوليت تحدق إلى ابنتها بنظرات حادة قاسية.

- يبدو الأمر هزليًّا؛ كيف أن «سنوات عمري» -كما تحبين أن تطلقي عليها- تتأرجح في تعليقاتك بين كوني صغيرة للغاية، حتى إنني لا يمكنني مقابلة أصدقاء أنطوني، وكبيرة للغاية حتى إنك يائسةٌ الآن من أن تعثري لي على زوجٍ جيد.

- دافني بريدجرتون، أنا لا...

- أحب نبرة حديثي، أعلم ذلك. (وضحكت دافني قبل أن تقول): لكنكِ تحبينني.

ابتسمت فيوليت في دفء، وأحاطت دافني بإحدى ذراعيها.

- فليساعدني الرب، إنني أحبك حقًّا.

طبعت دافني قبلة سريعة على خدِّ والدتها.

- إنها لعنة الأمومة؛ فأنتِ مُجبَرة على حبنا، حتى عندما نُثير سخطك علينا.

تنهدت فيوليت قبل أن تقول:

- أتمنى يومًا أن تُرزقي بأطفالٍ...

- مثلي تمامًا، أعلم ذلك.

ابتسمت دافني في حنين، وأراحت رأسها على كتف والدتها. ربما تكون والدتها فضولية للغاية، أما والدها؛ فقد كان مهتمًّا بكلاب الصيد ووظيفتها أكثر من اهتمامه بأمور المجتمع وأخباره. لكن زواجهما كان دافئًا، مغمورًا بالحب والضحك، والأطفال.

- يمكنني أن أفعل ما هو أسوأ من اتباع خطواتكِ يا أمي.

تمتمت دافني.

- لماذا يا ابنتي؟

قالت فيوليت بينما كانت الدموع تتجمع في عينيها، قبل أن تضيف:

- يا له من شيء جميل تنطقين به!

أخذت دافني خصلةً من شعرها الكستنائي حول إصبعها لتعبث بها، ثم عادت إلى الضحك ثانيةً، لتعلن ذوبان تلك اللحظة العاطفية في بحر من المشاكسة.

- أمي، أنا سعيدة للغاية لأنني سأتبع خُطاكِ عندما يتعلق الأمر بالزواج والأطفال، ما دمتُ لن أنجب ثمانية أطفال.

في اللحظة ذاتها كان سايمون باسيت -دوق هاستنجز الجديد، ومحور الحديث السابق الذي شغل محادثة سيدتَي بريدجرتون- يجلس في نادي وايتس. ولم يكن رفيق مجلسه شخصًا آخر سوى أنطوني بريدجرتون -الشقيق الأكبر لدافني-. كان الاثنان يضربان مثلًا لافتًا للنظر؛ كلاهما طويل القامة، ذو جسم رياضي، ويزين رأسه شعرٌ كثيف. لكن بينما كان أنطوني يتمتع بنفس العينين البُنِّيتين بلون الشوكولاتة الداكنة مثل شقيقاته، كان سايمون يحظى بعينين زرقاوين باردتين، ونظرةٍ غريبة ثاقبة.

كانت عيناه أكثر من أي شيء آخر هما ما منحه تلك الشهرة بصفته رجلًا يُحسَب له حساب؛ فعندما يحدق إلى أحدهم -بنظرة ثاقبة لا تتزحزح- يثير الحرج والانزعاج بداخل كبار الرجال، أما النساء، فيرتعشن في إعجاب.

لكن أنطوني كان خارج تأثير نظراته الثاقبة. كان الرجلان قد عرفا بعضهما منذ سنوات طويلة، وكان أنطوني ينفرج ضاحكًا عندما يرفع سايمون حاجبيه وتهاجمه تلك النظرة الباردة.

- أنَسيتَ أنني قد رأيتك من قبل ورأسكَ مُنكَّسٌ في وعاء التبول وقد صار صعبًا أن آخذ نظرتك على محمل الجد منذ ذلك الحين؟

كان أنطوني قد أخبره ذات مرة.

- أجل، ولكن إذا عُدتَ بالذاكرة إلى ذلك الحادث، فقد كُنتَ أنت من يحملني فوق ذاك الوعاء المُعطَّر.

كان هذا ما أجاب به سايمون.

- تأكد أنها واحدة من أكثر لحظاتي فخرًا. لكنك قد ثأرتَ لنفسك في الليلة التالية عندما وجدتُ الثعابين في فراشي.

سمح سايمون لنفسه بابتسامة مقتضبة عندما تذكر الحادث، وما عقبه من محادثة فريدة بينهما معًا. كان أنطوني صديقًا جيدًا، وكان من هذا النوع من الرجال الذي سيرغب أي رجل أن يُجالسه. لقد كان أول شخصٍ يبحث عنه سايمون فور عودته إلى إنجلترا.

- أنا سعيد للغاية بعودتك كلايفيدون.

قال أنطوني بمجرد أن جلسا إلى طاولتهما في حانة وايتس، ثم أضاف:

- أوه، لكني أعتقد أنك ستصر على أن أناديك الآن بلقب هاستنجز.

- كلا!

أجاب سايمون بإصرار حاسم.

- سيظل هاستنجز دومًا والدي، الذي لم يُجِبْ قط على أي نداء بلقبٍ آخر عدا هذا.

استأنف سايمون حديثه، ثم صمت لبرهة قبل أن يتابع:

- سأحمل لقبه إن كان هذا واجبًا، لكني لن أجيب على أي نداء به.

- إن كان واجبًا؟

اتسعت عينا أنطوني دهشةً مما سمعه، ثم قال:

- معظم الرجال لن يبدو عليهم هذا التسليم والإذعان عندما يتعلق الأمر بالدوقية.

خلَّل سايمون شعره بأنامله. كان يعلم جيدًا أن الواجب يُحَتِّمُ عليه أن يعتز بحقه الشرعي في اللقب، وأن يُظهِر فخرًا لا يتزعزع بتاريخ عائلة باسيت، لكن الحقيقة هي أن الأمر لم يزده إلا شعورًا بالفتور والغثيان. لقد قضى حياته بأكملها يحيا وفق توقعات والده، وبدا من السخرية الآن أن يحاول الحياة تحت اسمه أيضًا.

- إنه عبء، هذه هي حقيقة الأمر.

أخيرًا نطق سايمون متذمرًا.

- من الأفضل لك أن تعتاد الأمر، لأن هذا ما سيطلقه عليك الجميع.

كان جواب أنطوني واقعيًّا وعمليًّا.

وكان سايمون يعلم جيدًا صحة ما قاله، لكن الشكوك داخلته عما إذا كان هو الرجل المناسب الذي سيقع على عاتقه عبء اللقب.

- حسنًا، أيًّا ما يكون الأمر. المهم أنني سعيدٌ بعودتك. وربما سأحصل على الهدوء أخيرًا في المرة التالية التي سأصحب فيها شقيقتي إلى أي حفلٍ راقص.

أجاب أنطوني. فاستلقى سايمون بظهره إلى الوراء، عاقدًا ساقيه الطويلتين القويتين مفتولتي العضلات عند الكاحل.

- ملاحظة آسرة!

رفع أنطوني حاجبيه، ثم قال:

- هل أنت متأكد من أنني سأوضح تلك الملاحظة؟
- بالطبع لستَ في حاجة لطرح هذا السؤال.
- ينبغي أن أدعك تستنتج الأمر بنفسك، وبرغم ذلك، فأنا لست رجلًا قاسيًا.

بضحكة خافتة أجاب سايمون:

- أرى أن هذا الحديث صادرٌ من الرجل الذي غمر رأسي في وعاء التبول؟
- لقد كنتُ صغيرًا آنذاك.

قال أنطوني ملوِّحًا بيديه مُعلِنًا رفضه.

- والآن صِرتَ مثالًا للنضج واللياقة والمسؤولية؟
- بالتأكيد.

أجاب أنطوني ضاحكًا.

- إذن أخبرني؛ كيف سأعينك على تحقيق الهدوء في حياتك؟

قال سايمون متشدِّقًا.

- أفترض أنك تخطط كي تتخذ موضعك في المجتمع؟
- افتراضٌ خاطئ.
- لكنك تخطط لحضور الحفل الراقص في منزل ليدي دانبيري هذا الأسبوع.

قال أنطوني.

- فقط لأنني مُغرمٌ بشكل لا يوصف بتلك السيدة؛ إنها تقول ما تعنيه تمامًا، و...

بصورة أكثر غرابة كانت عينا سايمون تنعسان عندما نطق بتلك الكلمات، فحثه أنطوني على الاسترسال:

- ثم؟

هزَّ سايمون رأسه نافيًا، ثم قال:

- لا شيء. كل ما في الأمر أنها كانت عطوفة معي عندما كنتُ طفلًا؛ فقد قضيتُ بعض عطلاتي المدرسية في منزلها برفقة ريفردال، ابن شقيقها، كما تعلم.

أومأ أنطوني بإيماءة مقتضبة، ثم قال:

- أفهم ذلك. إذن فأنت لا تخطط لبناء حياة اجتماعية. أنا متأثرٌ بقرارك. لكن -اسمح لي أن أحذرك- حتى إذا لم ترغب في حضور فعاليات عائلات الوسط الرفيع، فإنهن سيجدنك لا محالة.

أما سايمون -الذي اختار تلك اللحظة ليرتشف من كأس النبيذ الخاص به- فشعر باختناق روحه عندما تطلع إلى وجه أنطوني حينما قال: «هنَّ». وبعد عدة دقائق من السعال والبصق والرشح، تمكن أخيرًا من الرد عليه، فقال:

- أرجوك أخبرني؛ من تقصد بـ «هنَّ»؟

أجاب أجاب أنطوني مرتجفًا:

- الأمهات.

- وفقًا لحقيقة أنني لم أمتلك واحدة ذات يوم؛ فأنا عاجز عن فهم ما تقصده.

- رابطة الأمهات في المجتمع، أيها الأبله؛ تلك التنانين النافثة للنيران، برفقة فتياتهنَّ اللاتي في سنٍّ مناسبة للزواج. فليحمنا الله! يمكنك الهروب، لكنك لن تفلح أبدًا في الاختباء منهن. وعليَّ أن أحذرك؛ فوالدتي هي أسوأ فرد في القطيع.

- يا إلهي! وأنا من كنت أعتقد أن الحياة في إفريقيا خطيرة.

ألقى أنطوني إلى صديقه نظرة إشفاق واهنة، ثم أضاف:

- سيطاردنك، وعندما يجدنك، ستجد نفسك مُحاصَرًا في محادثة مع سيدة صغيرة بالية الوجه، ترتدي البياض، ولا يمكنها الحديث عن أي شيء عدا الطقس، وحصولهن على قسائم لدخول نادي ألماكس[1] الاجتماعي، وربطات الشعر.

ظهرت على ملامح سايمون نظرة من الدهشة والاستمتاع، وقال:

- أفهم من ذلك أنه في أثناء الوقت الذي قضيته أنا بالخارج، قد أصبحتَ أنت هنا رجلًا نبيلًا جديرًا بالزواج؟

(1) Almack's: هو اسم أُطلِقَ على عدد من المؤسسات والأندية الاجتماعية في لندن، في الفترة ما بين القرن 18 والقرن 20. أُنشئ عام 1765، وأُغلقت أبوابه تمامًا عام 1863. (المترجم)

- ليس بدافع أي تطلعات من جانبي إلى أداء هذا الدور، أؤكد لك ذلك. لو كان الأمر يعود إلي، لكنتُ معتزلًا جميع المناسبات الاجتماعية مثلما أتجنب الطاعون. لكن العام الماضي كان هو الموسم الأول لظهور شقيقتي ضمن السيدات الشابات في سن الزواج، وأنا مُجبَر على اصطحابها من وقتٍ لآخر.

- هل تقصد دافني؟

تطلع أنطوني إلى صديقه في دهشة.

- هل تقابلتما من قبل؟

- كلا، لكنني أتذكر خطاباتها إليك عندما كنا بالجامعة، وأتذكر أنها كانت تحتل الترتيب الخامس في العائلة، لذلك كان اسمها يبدأ بحرف الدال، و...

أجاب سايمون في إقرار، قبل أن يقاطعه أنطوني –مُقلبًا عينيه بحركة طفيفة– قائلًا:

- أجل، فعلًا؛ إنها طريقة عائلة بريدجرتون في تسمية أطفالهم. طريقة مضمونة لتتأكد من ألا ينسى أحدهم من تكون.

- لقد آتت ثمارها، أليس كذلك؟

قال سايمون ضاحكًا، قبل أن يفاجئه أنطوني قائلًا وهو يميل إلى الأمام:

- ماذا تقول يا صديقي؟ لقد وعدت أمي أن أتناول العشاء في منزل عائلة بريدجرتون لاحقًا هذا الأسبوع مع العائلة. لِمَ لا تنضم إلي؟

رفع سايمون حاجبيه مُستغرِبًا.

- ألم تحذرني للتو من رابطة أمهات المجتمع وفتياتهن المبتدئات؟

ضحك أنطوني قبل أن يجيب:

- سأجعل أمي تُحسِن التصرف، ولا تقلق بشأن داف؛ إنها استثناء يثبت القاعدة. أنا متأكد أنك ستحبها كثيرًا.

كان بؤبؤا عيني سايمون يضيقان عندما يسترسل في التفكير. هل كان أنطوني يلعب معه لعبة وسيط الزواج؟ لكنه عجز عن إثبات الأمر. وكما لو أن أنطوني كان يقرأ أفكار صديقه؛ فأجاب ضاحكًا:

- يا إلهي! أنت لا تعتقد أنني أحاول أن أمهد طريق الزواج بينك وبين دافني، أليس كذلك؟

لكن صَمْتَ سايمون كان مجيبًا.

- لن تكون مناسبًا لها أبدًا؛ فأنت تبدو شديد الكآبة مقارنةً بذوقها.

أجاب أنطوني، أما سايمون، فقد رأى تعليقه غريبًا، لكنه آثر السؤال، فقال:

- إذن هل قُدِمَت إليها أي عروض للزواج؟

- القليل منها.

أجاب أنطوني متجرعًا ما تبقى في كأس النبيذ، ثم أطلق تنهيدة ارتياح وأضاف:

- لقد سمحت لها أن ترفضهم جميعًا.

- هذا تساهلٌ كبيرٌ منك.

هزَّ أنطوني كتفيه باستهجان قبل أن يجيب:

- ربما كانت الرغبة في وجود الحب لدى الزواج مبالغًا فيها هذه الأيام، لكني لا أفهم؛ لماذا عليها ألا تكون سعيدة إن رغبت في قبول أي من العروض؟ فقد تلقينا عروضًا من رجل كان طاعنًا في السن، حتى إنه كان في عمر أبيها، ومن رجلٍ آخر كان مغرورًا، متكبرًا على عشيرتنا الصاخبة، ثم كان عرض هذا الأسبوع، يا إلهي! لقد كان الأسوأ على الإطلاق.

- ماذا حدث؟

سأل سايمون بفضول غريب.

حكَّ أنطوني صدغيه مُتعَبًا قبل أن يستأنف حديثه:

- كان المُرشَّح الأخير لطيفًا وأنيسًا للغاية، لكنه كان محدود الذكاء والفطنة. وستعتقد –بعد انتهاء أيام انطلاقنا وتحررنا– أنني سأكون عديم الإحساس...

- حقًّا؟ هل تعتقد ذلك؟

سأل سايمون تعلو ثغره ضحكة شيطانية، فنظر أنطوني إليه عابسًا، قبل أن يجيب:

- لم أستمتع قط بتحطيم قلب هذا المسكين الأحمق.

- ماذا؟ أليست دافني من تفعل ذلك؟

- أجل، ولكن كان عليَّ إخباره بذلك.

- لن يسمح الكثير من الإخوة لشقيقاتهم بهذه الصلاحيات حينما يتعلق الأمر بعروض زواجهن.

أجاب سايمون في هدوء.

هز أنطوني كتفيه استنكارًا مرة أخرى، كما لو كان لا يتصور معاملة شقيقته بطريقة أخرى.

- لقد كانت دائمًا نِعْمَ الشقيقة بالنسبة إلي، وهذا أقل ما يمكنني فعله من أجلها.

- لو كان هذا يعني اصطحابها إلى نادي ألماكس؟

أضاف سايمون في دهاء، فضحك أنطوني مجيبًا:

- حتى لو كان يعني ذلك.

- سأحرص على مواساتك، وأذكرك أن كل هذا سينتهي قريبًا. لكنك تمتلك عددًا من الشقيقات الأخريات، ربما ثلاث أخريات ينتظرن أدوارهن؟

هبط أنطوني في كرسيه مجيبًا:

- أجل، ستصل إلويز إلى سن الزواج بعد عامين، وستتبعها فرانشيسكا بعام واحد، ثم أحظى باستراحة محارب، قبل أن تصل هياسنث إلى سن الزواج.

ندت عن سايمون ضحكة خافتة، ثم قال:

- أنا لا أحسدك على مسؤولياتك في هذا الجانب.

لكنه في اللحظة التي نطق فيها تلك الكلمات، شعر باشتياق ورغبة غريبة، وتساءل كيف تكون الحال إذا لم يكن وحيدًا في هذا العالم. لم يكن يخطط لإنشاء عائلته الخاصة، لكن ربما لو كانت لديه عائلة يبدأ معها، لكانت حياته مختلفة قليلًا عما هي عليه.

- إذن ستأتي إلى العشاء؟

نهض أنطوني مؤكدًا على صديقه، ثم أضاف:

- العشاء غير رسمي بالطبع؛ فعندما يقتصر الأمر على العائلة لا نلتزم بالرسمية عند تناول الطعام.

كان سايمون مشغولًا في الأيام القليلة التالية، لكنه، وقبل أن يذكِّر نفسه بحاجته إلى ترتيب شؤونه، سمع صوته يقول:

- سأكون ممتنًا لدعوتك.

- ممتاز. وسأراك في حفل دانبيري أولًا؟

ارتجفت أوصال سايمون قبل أن يجيب:

- ليس إن قررتُ تحمل الحفل؛ فهدفي هو أن أمكث لثلاثين دقيقة فقط.

رفع أنطوني حاجبًا متشككًا:

- أتعتقد حقًّا أنك ستتمكن من الذهاب إلى الحفل وتقديم فروض الاحترام والتقدير والمغادرة على الفور؟

كانت إيماءة سايمون قوية ومباشرة.

لكن انفجار أنطوني بالضحك لم يكن مطمئنًا تمامًا.

الفصل الثاني

26 من أبريل 1813 **جريدة المجتمع**

في رأيي، إن دوق هاستنجز الجديد يتمتع بشخصية مثيرة للاهتمام حقًا. وفي الوقت ذاته يعلم الجميع أنه لم يكن على وفاق مع والده، حتى إن كاتبة هذا المقال قد عجزت عن تحري السبب وراء هذه القطيعة.

ليدي ويسلداون

في وقتٍ لاحق من هذا الأسبوع، وجدت دافني نفسها تقف على أطراف الحفل الراقص في منزل ليدي دانبيري، بعيدة تمام البعد عن هذا الحشد المتأنق. وكانت راضية تمامًا بموقعها من الحفل.

عادة ما كانت دافني تستمتع بالاحتفالات؛ فقد كانت تحب الحفلات الجيدة، مثلما ستحب الليدي الشابة القادمة تلك الاحتفالات وتستضيفها، لولا أنه في وقتٍ مبكر من هذا المساء، كان أنطوني قد أخبرها أن السيد نايجل بيربرووك قد سعى إليه قبل يومين لطلب يدها. وكان أنطوني بالطبع قد رفض طلبه –مرة أخرى–، لكن شعورًا غامضًا كان يدغدغها بأن نايجل سيثبت عدم توانيه عن الاستمرار والمثابرة، فعلى كل حال، إنَّ الرجل الذي يقدم عرضي زواج في أسبوعين لا يرسم صورة لرجلٍ يقبل الهزيمة بسهولة.

وعلى امتداد قاعة الرقص يمكنها أن تراه يجول ببصره هنا وهناك، فانكمشت بحضورها إلى الظلال.

والأدهى أنها لا تعلم مطلقًا كيف تتعامل مع هذا الرجل المسكين. لم يكن الرجل حاد الذكاء، لكنه أيضًا لم يكن قاسي القلب، وعلى الرغم من أنها تعلم

بأن عليها بطريقة ما وضع نهاية لهيامه وافتتانه، وجدت أنه من الأسهل عليها أن تختلط بالحشد لتشق طريقها إلى الخارج وتتجنبه ببساطة.

كانت تفكر في التسلل إلى غرفة راحة السيدات، عندما قاطعها صوتٌ مألوف.

- دافني، دعيني أرَ ما الذي تفعلينه هنا في هذا المكان.

تطلعت دافني لترى شقيقها الأكبر يشق طريقه نحوها.

- أنطوني، لم أدرِ أنك ستكون حاضرًا.

قالت دافني بينما كانت تقرر من داخلها ما إذا كانت سعيدة لرؤيته، أم منزعجة لاحتمالية وجوده حتى يتدخل في شؤونها.

- أمي.

أجاب أنطوني متجهمًا. فلم تكن هناك كلماتٌ أخرى تُقَال وقد اتضح السبب.

- أجل، لا تَزِدْ شيئًا، لقد فهمت تمامًا.

أجابت دافني بإيماءة تعاطف.

- لقد أعدَّت لي قائمة بالعرائس المحتملات. إننا نحبها، ألَيس كذلك؟

وحاصر شقيقته بنظرة حادة قبل أن تجيب، فانفجرت منها ضحكة عالية.

- أجل أنطوني، إننا نحبها.

فأجابها أنطوني متذمرًا:

- هذا جنونٌ مؤقت، يجب أن يكون كذلك؛ فليس هناك توضيح آخر. لقد كانت أمًّا عاقلة متزنة تمامًا حتى وصلتِ إلى سن الزواج.

- أنا؟ إذن فهذا كله خطئي أنا؟ إنك تكبرني بثماني سنوات!

أجابت دافني بصوتٍ حاد.

- أجل، لكن حمى الزواج تلك لم تستحوذ عليها إلا عندما وصلتِ أنتِ إلى سن الزواج.

- أرجو أن تغفر لي قلة تعاطفي معك، فقد استلمتُ قائمتي العام الماضي.

أجابت دافني ضاحكة.

- حقًا؟

- أجل. ومؤخرًا كانت أمي تهددني بأنها ستقدمهم إليَّ أسبوعيًّا. إنها لا تتوانى عن الإلحاح عليَّ في أمر الزواج، بصورة لن تتخيلها أبدًا. وعلى أي حال، إنَّ البقاء عَزَبًا هو تحدٍّ كبير، أما العنوسة، فهي أمر مثير للشفقة. وفي حال أنك لم تلاحظ، أنا أنثى.

أطلق أنطوني قهقهة مكتومة، قبل أن يتابع:

- أنا شقيقك، ولا ألحظ تلك الأشياء؟

ثم أطلق نحوها نظرة خبيثة جانبية، قبل أن يضيف:

- هل أحضرتِها معكِ؟

- قائمتي؟ يا إلهي! كلا، ما الذي يمكن أن تفكر فيه؟

اتسعت ابتسامته وقال:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لقد أحضرتُ قائمتي.

- لم تفعل!

أجابت دافني متلهفة.

- بل فعلت، فقط لأشاكس أمي قليلًا، وسأطالع تلك القائمة أمامها مباشرة، ومُخرِجًا نظاراتي الفاحصة.

- أنت لا تملك أي نظارات فاحصة.

ندت عنه تلك الضحكة الماكرة البطيئة، التي يبدو ان جميع رجال عائلة بريدجرتون يمتلكونها، ثم قال:

- لقد اشتريتُ واحدة خصوصًا لهذه المناسبة

- أنطوني! لا تفعل ذلك أبدًا. أقسم لك إنها ستقتلك، ثم ستجد طريقة ما لتُلقي باللوم علي.

- إنني أعتمد على هذا الأمر.

لكزته دافني بعنفٍ في كتفه، لتنتزع منه نخيرًا عاليًا بما يكفي ليجذب انتباه نصف دزينة من مدعوي الحفل، وتصيبهم نظرات الفضول من جانبهم.

فقال أنطوني مربتًا على ذراعه:

- لكمة عنيفة.

- لا يمكن للفتاة أن تحيا بين أربعة أشقاء من الذكور دون أن تتعلم كيف تلقي بلكمة عنيفة.

ثم عقدت ذراعيها لتضيف:

- والآن دعني أرَ قائمتك.

- بسهولة بعدما اعتديتِ علي؟

قَلَّبت دافني عينيها البنيتين، وأمالت رأسها في إيماءة نافدة الصبر بلا شك.

- أوه، حسنًا.

ثم أدخل إحدى يديه في صدريته، مخرجًا قصاصة من الورق المطوي، ثم وضعها في يد شقيقته، قبل أن يضيف:

- أخبريني عن رأيك فيها؛ أنا واثقٌ بأنه لا حدود لتعليقاتك الثاقبة بخصوص هذا الأمر.

ففككت دافني طيات الورقة، وتطلعت بعينين ثاقبتين إلى خط يد والدتها الأنيق. إن زوجة الفيكونت بريدجرتون قد أعدت قائمة بأسماء ثماني نساء. ثمانٍ من السيدات الشابات الثريَّات، المؤهلات للزواج.

تمتمت دافني قائلة:

- هذا ما توقعته تمامًا.

- هل هي سيئة مثل ما أعتقد؟

- بل أسوأ، إن فيليبا فيذرنجتون فتاة بلهاء.

- ماذا عن بقية القائمة؟

تطلعت دافني إليه بعينين حادتين يعلوهما حاجبان مرتفعان.

- أنت حقًّا لا تريد الزواج هذا العام على أي حال، أليس كذلك؟

أجفل أنطوني ثم قال:

- وماذا عن قائمتك؟

- لحسن الحظ إن أوانها قد فات الآن؛ فثلاثة أشخاص من بين الخمسة المُقيَّدين في القائمة قد تزوجوا الموسم الماضي. وما زالت أمي تزجرني لأنني قد سمحتُ لهم بالإفلات من بين أصابعي.

تنهد فردا عائلة بريدجرتون تنهيدتين متطابقتين بينما كانا يستندان إلى الحائط، فقد كانت فيوليت بريدجرتون لا تتوانى مطلقًا عن تزويج أطفالها. وقد تحمل كلٌّ من أنطوني -ابنها الأكبر- ودافني -ابنتها الكبرى- عبء الضغط عليهما. على الرغم من أن دافني كانت تشك في أن زوجة الفيكونت ربما تسعد بتزويج ابنتها هياسنث ذات الأعوام العشرة إذا تقدم لها الزوج المناسب.

- يا إلهي! تبدوان مثل زوجين بائسين. ما الذي تفعلانه هنا في هذا الركن البعيد؟

صوت آخر مألوف قد ظهر على الساحة.

- بيندكت!

قالت دافني، مختلسة النظر إليه من الجانب دون أن تحرك رأسها، ثم أضافت:

- أرجو ألا تخبرني أن أمي قد استطاعت أن تحملك على حضور حفل الليلة أنت أيضًا.

أومأ ضاحكًا ليجيب:

- لقد تجاوزت تمامًا مرحلة التملق، وانتقلت إلى مرحلة الشعور بالذنب. لثلاث مرات هذا الأسبوع ظلت تذكرني بأنه ربما عليَّ أن أكون الفيكونت القادم، إذا لم ينشغل أنطوني بالأمر.

أجاب أنطوني بضحكة عالية، فتابع بيندكت:

- أعتقد أن هذا يوضح الدافع وراء اختبائكما أيضًا في أكثر الأركان ظلمة في غرفة الحفل، ربما كي تتجنبا أمَّنا؟

- في الحقيقة لقد رأيت داف تتسلل إلى هذا الركن و...

أجاب أنطوني.

- تتسلل؟

تساءل بيندكت بنظرة رعب ساخرة، فنظرت إليهما دافني بوجهٍ عابس ونظرةٍ مقتضبة، وأوضحت:

- لقد أتيت إلى هنا لأختبئ من نايجل بيربرووك، وتركت أمي في صحبة ليدي جيرسي، لذلك لا أتوقع أن تزعجني في أي وقتٍ قريبًا، لكن نايجل...

- أشبه بقردٍ منه برجل.

أضاف بيندكت ساخرًا.

- حسنًا، لم أكن لأقول هذا تحديدًا.

قالت دافني محاولةً أن تبدو رفيقة به، ثم أضافت:

- لكنه ليس ذكيًّا على الإطلاق، ومن الأسهل الابتعاد عن طريقه، سيكون هذا أفضل من إيذاء مشاعره. والآن، بالطبع بما أنكما قد وجدتُماني، فلن أتمكن من تجنبه طويلًا.

تفوَّه أنطوني بعبارة تعجب بسيطة:

- حقًّا؟

تطلعت دافني نحو شقيقيها. كانا يبلغان من الطول ستة أقدام وبوصة واحدة، بمنكبين عريضين، وعينين بنيتين رقيقتين. كان كلاهما يملك شعرًا كستنائيًّا كثيفًا –يشبه تمامًا لون شعرها–. وأزيدكم من الشعر بيتًا، فإنهما لا يذهبان إلى أي مكان في المجتمع الراقي دون أن تتبعهما قطعان صغيرة من السيدات الشابات المُغَرِّدات، هنا وهناك.

وفي أي مكان تجتمع فيه قطعان السيدات الشابات الثرثارات، كان من المؤكد أن تجد فيه نايجل بيربرووك.

كانت دافني قد استطاعت أن ترى الرؤوس تلتفت إلى اتجاههم؛ أمهات متطلعات يلكزن بناتهن، ويُشِرن إلى الشقيقين بريدجرتون، اللذين يقفان بمفرديهما دون أي صحبة، باستثناء شقيقتهما.

- أعلم أنه كان عليَّ التوجه نحو غرفة الراحة.

همهمت دافني.

- أخبريني عن قصاصة الورق في يديك، داف!

تساءل بيندكت.

وبطريقة ما، بينما كانت دافني شاردة الذهن، قدمت إليه قائمة العرائس المحتملات لشقيقها أنطوني.

وإذ ندت عن بيندكت ضحكة مكتومة، عقد أنطوني ذراعيه قائلًا:

- أرجو أن تحاول توفير سخريتك واستمتاعك على حسابي. فأنا متوقعٌ أن تستلم قائمة مثلها الأسبوع القادم.

- لا شك في ذلك.

قال بيندكت موافقًا على حديثه، ثم أضاف:

- لكني أتساءل عن كولين.

اقتنصت عيناه نظرة قبل أن يهتف:

- كولين!

وهنا انضم أحد الإخوة بريدجرتون إلى الجمع.

- أوه، كولين!

قالت دافني متعجبة بينما تلقي بذراعيها حوله، ثم استأنفت:

- كم هو رائع أن أراك الليلة.

- لاحظ أننا لم نتلقَّ تحية حماسية مشابهة.

قال أنطوني موجهًا حديثه إلى بيندكت.

- أنا أراكما أنتما الاثنين طوال الوقت، أما كولين، فقد كان مسافرًا طوال عامٍ كامل.

أجابت دافني في اعتراض. وبعدما منحت كولين عناقًا طويلًا آخر، تراجعت إلى الخلف، مُوبِّخةً إياه:

- لم نتوقع مجيئك حتى الأسبوع القادم.

كان اهتزاز إحدى كتفَي كولين وابتسامته المائلة متناغمين حد الكمال. ثم أتبعها قائلًا:

- كانت أمستردام قد صارت مملة وفاترة.

- أجل.

أجابت دافني بنظرة حاذقة، ثم أوضحت:

- إذن لقد نفد مالك.

ضحك كولين رافعًا يديه في استسلام، ليقول:

- مُذنبٌ بما هو منسوبٌ إلي.

عانق أنطوني شقيقه، وقال بصوت تغلبه خشونة الرجال:

- أنا سعيدٌ للغاية بعودتك إلى المنزل يا أخي. على الرغم من أن الأموال التي أرسلتها إليك كان من المفترض أن تدوم معك على الأقل حتى...

- أرجو أن تتوقف.

أجاب كولين بلا أمل، بينما كانت الضحكات المتتالية تقرع في صوته، ثم أضاف:

- أعدك أن بإمكانك توبيخي مثل ما تريد غدًا، أما الليلة، فلا أرغب سوى في الاستمتاع بصحبة عائلتي العزيزة.

ضَجَّ المكان بقهقهة بيندكت.

- لا بد وأنك قد أفلست لتدعونا عائلتك «العزيزة».

لكنه انحنى نحو شقيقه ليمنحه عناقًا طويلًا هو الآخر، بينما ينطق أخيرًا:

- مرحبًا بعودتك.

ندت عن كولين ضحكة صافية، وتلألأت عيناه الخضراوان. وكان كولين بطبيعته هادئ البال مبتهجًا.

- أنا أيضًا سعيدٌ بعودتي. على الرغم من أن الطقس هنا ليس على أفضل حال كما هو في أوروبا[1]. أما فيما يتعلق بالنساء، فسيكون من الصعب على إنجلترا أن تنافس الآنسات اللائي...

لكزته دافني في ذراعه، ثم قالت:

- أرجو أن تتذكر أن هناك ليدي حاضرة أيها الفظ.

لكن ثمة بعض السخط الذي طغى على نبرة صوتها، فمن بين جميع أشقائها، كان كولين أقربهم إليها سنًّا؛ فما كان يكبرها سوى بثمانية عشر شهرًا. وفي طفولتهما، لم يكن هناك ما يفرقهما قط -ودائمًا ما كانا يُحدِثان المشكلات معًا-. كان كولين بطبيعته مخادعًا، كثير المزاح، ولم يكن في حاجة لبذل أي جهد حتى يقنع دافني بمشاركته خططه.

عادت دافني من شرودها لتسأل:

---

(1) استخدمت المؤلفة لفظة the Continent، والتي تعني جميع الأراضي التي تضمها قارة أوروبا ما عدا الجُزُر البريطانية.

- هل تعلم أمي بعودتك؟

- لقد وصلت إلى المنزل فوجدته خاويًا، و...

هز كولين رأسه مُجيبًا، قبل أن تقاطعه دافني:

- أجل، لقد وضعت أمي الصغار في فراشهم مبكرًا هذه الليلة.

- لم أرغب في الانتظار وتضييع الوقت، لذلك أخبرني هامبولدت عن وجهتكم الليلة، وأتيت إلى هنا.

أشرقت ابتسامة دافني، وكانت ابتسامتها الواسعة قد أنارت الدفء في عينيها الداكنتين.

- أنا سعيدة لأنك أتيت.

- إذن أين أمي؟

تساءل كولين مادًّا عنقه ليتخطى الزحام. ومثلما هي الحال في جميع ذكور عائلة بريدجرتون، فإن كولين شاب طويل القامة أيضًا، لذا لم يكن هناك داعٍ ليمد عنقه كثيرًا.

فأجابت دافني:

- تقف هناك عند تلك الزاوية، برفقة ليدي جيرسي.

تردد كولين قليلًا، ثم قال:

- سأنتظر حتى تستأذن بنفسها للخروج من هذا الجمع؛ فليست لدي رغبة في أن ينسلخ جلدي عن لحمي من هذا التنين العجوز.

- بالحديث عن التنانين.

قال بيندكت موجهًا حديثه نحو الزاوية الأخرى. لم يتحرك رأسه، لكنْ عيناه كانتا قد ابتعدتا ناحية اليسار.

تتبعت دافني مسار رؤيته، حتى رأت ليدي دانبيري تسير في ثباتٍ نحوهم. كانت السيدة تتكئ على عكازٍ مُزيَّن. لكن دافني ابتلعت ريقها بخوفٍ وتوتر، وقد تصلَّبت كتفاه. أما عن ليدي دانبيري؛ فقد كانت تُعرَف بين جميع عائلات الوسط الرفيع بذكائها المُخادِع الأسطوري. وكانت دافني دائمًا ما تشكك في وجود قلب عاطفي ينبض بالدفء خلف أسلوبها اللاذع الذي تظهر به، ومع ذلك، فقد كانت تمر بتجربة مفزعة دائمًا إذا وقعت فريسة في يد ليدي دانبيري في أثناء حديث ما.

- لا مفر!

سمعت دافني أحد أشقائها يموء فزعًا، فأسكتته بلطف، قبل أن تلقى السيدة العجوز بابتسامة خجلة.

رفعت ليدي دانبيري حاجبيها، وعندما كانت على بُعد أربعة أقدام فقط من عصابة بريدجرتون توقفت، ثم صاحت قائلة:

- لا تتظاهروا بعدم رؤيتي!

كانت السيدة قد أتبَعَتْ عبارتها بضربة من عكازها في الأرض جعلت دافني تقفز رعبًا إلى الخلف، لتدعس إصبع قدم بيندكت.

- آآه!

صاح بيندكت.

بدا وكأن أشقاءها الثلاثة قد أصابتهم لعنة الصمت وفقدوا القدرة على الحديث مؤقتًا -باستثناء بيندكت بالطبع، لكن دافني لم تكن تعتقد أن تأوهات الألم تلك تُعَد حديثًا مفهومًا- ابتلعت دافني ريقها، ثم قالت:

- ليدي دانبيري، أرجو ألا أكون قد تركت ذلك الانطباع بشأن...

- ليس أنتِ.

قالت ليدي دانبيري بجدية. وكانت ليدي دانبيري قد رفعت عكازها في الهواء، لتصنع خطًّا أفقيًّا مستقيمًا، ينتهي تمامًا بالقرب من أمعاء كولين.

- بل هم!

وبدأ نشيد من تمتمات الترحاب استجابة لتعنيف ليدي دانبيري.

حينها ألقت ليدي دانبيري أوجز النظرات إلى حشد الرجال، قبل أن تلتفت نحو دافني لتقول:

- كان السيد بيربرووك يسأل عنك.

- حقًا؟

كانت دافني قد شعرت حقًّا بانسحاب الدماء من جسدها بأكمله، حتى صار شاحبًا.

رمتها ليدي دانبيري بإيماءة حادة، قبل أن تستأنف:

- إذا كُنتُ في محلكِ، لأنهيت هذا الأمر في مهده، آنسة بريدجرتون.

فسألت دافني:

- هل أخبرتِه عن مكاني؟

ندت عن ليدي دانبيري ابتسامة ماكرة تآمرية، قبل أن تجيب:

- كنت أعلم دائمًا أنني معجبة بكِ. الجواب هو: كلا، لم أخبره عن مكانك.

فأجابت دافني بامتنان:

- شكرًا لك.

- سيكون هذا التوافق مضيعةً كبيرة لعقلٍ راجح إذا كُنتِ مرتبطة بهذا الأحمق. ويعلم الله أن عائلات الوسط الرفيع لا يحتملن خسارة تلك العقول الراجحة القليلة التي يملكنها.

قالت ليدي دانبيري.

- شكرًا لك، سيدتي.

أجابت دافني.

- أما بالنسبة إليكم أيها العصابة -ولوَّحت ليدي دانبيري بعكازها في وجوه أشقاء دافني- سأرجئ أحكامي عليكم لما بعد. وأنت -وأشارت بعكازها إلى أنطوني- فإنني أميل إلى تأكيد تصرفك عندما رفضت طلب بيربرووك بالنيابة عن شقيقتك. ولكن بقيتكم... أُفففف!

وبذلك انتهت زيارتها إليهم وسارت مبتعدة.

- «أفففف»؟

ردد بيندكت كلمتها، وتابع:

- «أفففف»؟ لقد حاولت تلخيص تقديرها لذكائي، وكل ما استطاعت التوصل إليه هو «أفففف»؟

- إنها تحبني.

وندت عن دافني ابتسامة غرور.

- أنتِ مُرحَّبٌ بكِ في رحابها.

قال بيندكت متذمرًا.

- بل كان من اللطف منها أن تُحذِّركِ بشأن بيربرووك.

أقرَّ أنطوني. فأومأت دافني وقالت:

- أعتقد أن تلك إشارتي للرحيل الآن.

ثم التفتت نحو أنطوني بنظرة استعطاف، لتستأنف:

- وإن أتى باحثًا عني...

- سأعتني بالأمر، لا تقلقي.

أجاب أنطوني بلطف.

- شكرًا لك.

وحينئذٍ ألقت على أشقائها ابتسامة وداع، لتتسلل إلى خارج قاعة الرقص.

حين خطا سايمون بهدوء إلى داخل أروقة منزل ليدي دانبيري، الذي بُنِيَ على طراز لندن، تفاجأ بنفسه في مزاجٍ طيب لم يذقه من قبل. وبابتسامة خافتة سرت على وجهه، كان يرى الأمر رائعًا لا مثيل له، بالنظر إلى حقيقة أنه كان على وشك حضور حفل اجتماعي راقص، وحقيقة أن هذا الأمر يثير فيه كل الرعب، والمخاوف التي أوضحها أمامه أنطوني بريدجرتون في وقت مبكر عندما التقيا.

لكن يمكنه مواساة نفسه بحقيقة أنه بعد اليوم لن يكون في حاجة إلى إزعاج نفسه بحضور تلك الأمسيات الاجتماعية مرة أخرى؛ فقد أخبر أنطوني عندما التقيا في هذا المساء أنه سيحضر هذا الحفل الراقص خصوصًا وفاءً لليدي دانبيري، التي كانت دائمة العطف عليه في صغره، على الرغم من طُرُقها الفظَّة وأسلوبها الحاد.

أما عن مزاجه الطيب، فقد أدرك أن مزاجه الطيب ما أتى سوى من الحقيقة البسيطة التي تتمثل في سعادته بالعودة إلى إنجلترا.

ليس الأمر أنه لم يستمتع بأسفاره في جميع أنحاء الأرض؛ فقد سافر حول أوروبا طولًا وعرضًا، وأبحر على امتداد البحر الأبيض المتوسط، واستمتع بزرقته الرائعة، وأوغل في ألغاز شمال إفريقيا. ومن هناك شق طريقه نحو الأرض المقدسة[1]. وعندما كشفت الاستقصاءات أنه لم يحن الوقت بعد للعودة إلى الديار، عبر المحيط الأطلسي لاستكشاف جُزُر الهند الغربية (التي تشمل

(1) يُقصد بالأرض المقدسة هنا: هي المنطقة التي تقع بين نهر الأردن وساحل البحر المتوسط. وتُعد تلك الأرض مقدسة من قبل الأديان السماوية الثلاثة. (المترجم)

جزر أمريكا الوسطى[1]). وعندما وصل إلى هذه النقطة، فكر في الانتقال إلى الولايات المتحدة الأمريكية، لكن الدولة الجديدة قد تراءى لها أن الأنسب هو الدخول في صراع مع بريطانيا، لذلك قرر سايمون الابتعاد عن الأمر برمته.

وبجانب هذا السبب، كان التوقيت متزامنًا مع معرفته بأن والده -الذي كان مريضًا لأعوام عدة- قد تُوفي أخيرًا.

كان لسخرية القدر نصيبٌ كبير في حياة سايمون؛ فقد كان يعلم جيدًا أنه لن يُبدِّل بسنواته الطوال من الاستكشاف أي شيء آخر. كانت ستة أعوام قد منحته وقتًا طويلًا للتفكير، وقتًا طويلًا لإدراك ما يعنيه أن تكون رجلًا. ورغم ذلك كان السبب الوحيد الذي حمل سايمون، ذا الاثنين والعشرين عامًا، على مغادرة إنجلترا هو القرار المفاجئ لوالده؛ الذي قرر أخيرًا قبول ابنه.

أما سايمون، فلم يكن راغبًا في قبول والده رغم ذلك، ولذا فقد حزم حقائبه ببساطة وغادر البلاد، مفضلًا أن يحيا حياته في المنفى على أن يقبل بوادر العاطفة والمودة الزائفة التي قدمها الدوق الراحل.

كان كل شيء قد بدأ عندما أنهى سايمون دراسته في جامعة أكسفورد. لم يكن الدوق في البدء راغبًا في سداد مصروفات دراسة ابنه؛ فقد رأى في إحدى المرات خطابًا مكتوبًا إلى أحد المعلمين، موضحًا فيه رفضه السماح لابنه الأحمق بأن يجعل من العائلة أضحوكة في حرم مدرسة إتون. لكن سايمون كان يتمتع بعقلٍ يتوق للتعلم، وقلبِ مُكابِر لا يقبل الهزيمة؛ لذلك فقد طلب عربة تحمله إلى إتون، طارقًا على أبواب مدير المدرسة، ليعلن حضوره.

كان ما فعله هو أجرأ قرارٍ اتخذه في حياته، إلا إنه تمكن بطريقة ما من إقناع مدير المدرسة بأن خلط الأوراق لم يكن سوى خطأ المدرسة، وأن إتون لا بد وأنها قد فقدت أوراق تسجيله ومصروفاته. وكان قد تطبَّع بجميع خِصَال والده، وتكلفه؛ فقد كان يرفع حاجب الغرور، مُرتَقِيًا بذقنه إلى الأعلى، وشامخًا بأنفه، حتى بدا وكأنه قد ملك العالم بأسره.

كان يرتعد خوفًا طوال الوقت، مذعورًا من أن تخرج كلماته -في أي لحظة- مبتورة أو مبعثرة فوق بعضها، أن تتحول عبارة: «أنا إيرل كلايفيدون، وقد أتيت إلى هنا كي أبدأ دراستي»، لتخرج بتلك الطريقة: «أنا إيرل كلايفيدون، وأنا هـــ... هـــ... هـــ... هـــ... هـــ... هـــ».

(1) توضيح المترجم.

لكن هذا لم يحدث. وقد سجَّله مدير المدرسة -الذي قضى سنواتٍ طوال يُلقي العلم على نُخبة عائلات إنجلترا تكفي ليعرف ما إذا كان سايمون فردًا من أفراد عائلة باسيت أم لا- بأقصى سرعة دون نقاش. وقد استغرق الأمر عدة شهور حتى يعلم الدوق -الذي كان دائم الانشغال بمساعيه الخاصة- بوضع ابنه الجديد، وتغير محل إقامته. وحين أتت تلك اللحظة، كانت أمور سايمون قد استقرت في إتون، وكان الأمر سيبدو سيئًا للغاية لو أن الدوق أخرج ابنه من المدرسة دون سبب.

ولم يكن الدوق يحب أن يبدو بمظهرٍ سيئ.

كان سايمون أحيانًا ما يتساءل عن السبب الذي جعل والده لم يختر ذلك التوقيت ليمهد له تلك المبادرات العاطفية. وكان من الواضح أن سايمون لم يتعثر بسبب كل كلمة ينطق بها في إتون؛ وإلا كان الدوق قد عرف من مدير المدرسة أن ابنه عاجز عن الحفاظ على دراسته. كان حديثه ما زال يتعثر في بعض الأحيان، لكن بمرور الوقت نضجت براعته بشكل ملحوظ، حتى صار قادرًا على إخفاء أخطائه بالسُّعال، وحبَّذا لو حالفه الحظ، فتزامن خطؤه مع تناول أي وجبة؛ فرشفة من الشاي أو الحليب في التوقيت المناسب ستفي بالغرض.

لكن الدوق لم يكتب إليه خطابًا قط. وقد افترض سايمون أن والده قد شبَّ معتادًا تجاهل ابنه، لدرجة أنه لم يكن حتى مهتمًّا إن كان ابنه لا يُعَرِّض اسم باسيت للحرج.

وبعد إنهاء دراسته في إتون، اتَّبع سايمون مسار التقدم الطبيعي؛ ليُكمِلَ دراسته في أكسفورد، حيث اكتسب شهرته بكونه دارِسًا نبيهًا، ومُنحَلًّا أيضًا. ولنقول الحق، لم يكن سايمون يستحق لقب شخص منحل أكثر مما استحقه ذوو المناصب صغيرو السن في الجامعة، لكن سلوك سايمون المتحفظ قد نمَّى شخصيته المظهرية بطريقة أو بأخرى.

لم يكن سايمون واثقًا تمامًا مما حدث، لكنه وجد أقرانه تدريجيًّا يتلهفون لمصادقته وتأييده. كان شابًّا ذكيًّا، ورياضيًّا قويًّا، ولكن بدا أن مكانته السامية تتعلق كثيرًا بسلوكياته أكثر من أي شيء آخر. ولأن سايمون كان قليل الكلام، لا يتحدث إلا عندما يكون الكلام ضروريًّا، توالت أحكام الآخرين عليه بالغرور والغطرسة، تمامًا مثل ما يجب أن يكون عليه الدوق المستقبلي. ولأنه كان يفضل دائمًا أن يحيط نفسه بهؤلاء الأصدقاء الذين يشعر معهم

بالطمأنينة، فقد أصدر الآخرون أحكامًا تفيد بأن اختياره لرفاقه يستند إلى أساس عنصري، تمامًا مثل ما يجب أن يكون عليه الدوق المستقبلي.

لم يكن محبًّا للحديث والثرثرة، لكنه عندما كان يقول شيئًا، فإن حديثه يتميز بالبراعة والفطانة -الساخرة أحيانًا- هذا النوع من الفُكاهة الذي يضمن تعلق الآخرين بكل كلمة يقولها. ومرة أخرى، ولأنه كان قليل الحديث، مثل كثيرٍ من أفراد الوسط الرفيع، كان الناس أكثر هوسًا بما يقوله.

ولُقِّب سايمون بالعديد من الأوصاف الآسرة: «عظيم الثقة بالنفس» و«وسيم حابس الأنفاس» و«النموذج المثالي للرجل الإنجليزي». وكان الرجال يتوددون إليه لمعرفة حُكمِه في مختلف الموضوعات.

أما النساء، فقد كُنَّ يُغشَى عليهن تحت قدميه.

لم يصدق سايمون شيئًا من هذا قط، لكنه استمتع بمكانته لا شك. وكان يقبل ما يُعرَض عليه، وينطلق عابثًا برفقة أصدقائه، ويستمتع بصحبة الأرامل صغيرات السن، ومغنيات الأوبرا، اللاتي يسعين لجذب انتباهه، وكانت كل مغامرة ورعونة تزداد ملذَّتها إذا تأكد له رفض والده لها.

ورغم ذلك، وكما اتضح سالفًا، فإن والده لم ينكر عليه أفعاله بأكملها تمامًا، فلم يكن سايمون مدركًا أن اهتمام دوق هاستنجز قد بدأ في الازدياد فعلًا بتقدم ابنه الوحيد. ولهذا، فقد طلب الدوق تقاريره الدراسية من الجامعة، وعيَّن شرطيًّا ليُطلِعَه دائمًا على أنشطة سايمون خارج الجامعة. وفي نهاية الأمر، توقف الدوق عن توقعه بأن كل خطاب يصل إليه لا بد وأن يحمل حكايات عن حماقة ابنه.

سيكون من المستحيل تحديد الوقت الذي تغير فيه شعوره نحو ابنه، لكن في أحد الأيام أدرك الدوق أن ابنه قد نضج ليصير رجلًا كاملًا في نهاية المطاف.

نفث الدوق سيجاره في فخر. فكما هي الحال دائمًا، أتى النسل الجيد بثماره في نهاية المطاف. فقد كان من المفترض أن يعلم أن نسل عائلة باسيت لا ينجب حمقى أو معاتيه.

وبعدما انتهى سايمون من دراسته الجامعية في أكسفورد، وتخرج بالمرتبة الأولى في الرياضيات. كان بالطبع قد اتخذ مسكنًا للعزوبية، فاقدًا تمامًا رغبته في أن يعيش مع والده في نفس المنزل. وعندما بدأ سايمون

يخرج إلى المجتمع شيئًا فشيئًا، ازداد عدد الذين قد أساؤوا تفسير وقفات صمته الزاخرة بالمعاني على أنها غطرسة وخُيَلاء، ودائرته الصغرى من الأصدقاء على أنها انفراد بالخصوصية.

كانت سمعته قد بلغت ذروتها عندما طرح عليه بوو بروميل –أحد قادة المجتمع المعروفين حينذاك– سؤالًا ملتويًا يتعلق ببعض الصيحات الجديدة التافهة. كانت نبرات بروميل تشي بالتعطف والتنازل، وكان واضحًا تمامًا أمله في إحراج السيد الشاب. وكما كانت لندن مدركة للحقائق، فقد كان بروميل لا يحب شيئًا أكثر من الحط من شأن النخبة المختارة في مجتمعات إنجلترا، حتى يتحولوا إلى أغبياء ثرثارين. ولذلك تظاهر بالاهتمام بما سيقوله سايمون، حتى ختم سؤاله بنبرة ساخرة قائلًا: «ألا تعتقد ذلك؟»

في الوقت ذاته، كانت حفنة من الثرثارين يتابعون تلك المباراة بأنفاسٍ لاهثة. أما سايمون، الذي لم يكن حتى يلقي بالًا للهيئة التي ارتسمت بها رابطة عنق الأمير، فقد التفت بعينيه الزرقاوين الباردتين نحو بروميل، ثم أجاب: «كلا».

لا تفسير، لا توضيح، بل كلمة واحدة: «كلا».

ثم تركه وسار مبتعدًا.

وبعد ظهر اليوم التالي، كان لسايمون أيضًا أن يصير أحد ملوك المجتمع. كانت السخرية مثيرة للأعصاب، لكن سايمون لم يُبالِ بتصرف بروميل، أو بلهجة حديثه. ربما كان قد أطاح به بحديث أكثر تفاهة لو كان واثقًا من قدرته على فعل ذلك دون التعثر في كلماته. ومع ذلك، وفي تلك الحالة خصوصًا، كان خير الكلام ما قل ودل. واتضح أن عبارة سايمون الوجيزة كانت أشد فتكًا من أي خطبة مسهبة يمكن أن ينطق بها.

وذاع صيت وريث هاستنجز، وذكاؤه الحاد، ووسامته الفتّاكة، حتى بلغ مسامع الدوق. وعلى الرغم من أنه لم يسع للقاء سايمون على الفور، فقد بدأت بعض عبارات النميمة تصل إلى مسامعه تحذره من أن علاقته بوالده ربما تتخذ منحنًى آخر قريبًا. انفجر الدوق ضاحكًا عندما سمع بحادثة بروميل، وقال: «لقد شبَّ بطبيعته ليكون فردًا من عائلة باسيت». وقد ذكر أحد الأقارب أنه قد سمع الدوق يُكثِر الحديث عن حصول سايمون على المرتبة الأولى في أكسفورد.

ثم التقى الاثنان وجهًا لوجه في إحدى الحفلات الراقصة في لندن.

لم يكن الدوق ليسمح لسايمون أن يُوليه ظهره.

لقد حاول سايمون كثيرًا. يا إلهي كم حاول ذلك! لكن أحدًا لم يؤتَ القدرة على سحق ثقته بنفسه سوى والده. وبينما كان يحدق إلى وجه الدوق -الذي ربما كان أيضًا صورة مطابقة من نفسه، رغم أنها كانت نسخة أكبر سنًّا بقليل- عجز سايمون عن الحركة، ولم يستطع حتى محاولة الحديث معه.

شعر بثقل لسانه، وجفاف فمه، وبدا تقريبًا كما لو أن لعثمته قد انتشرت من فمه إلى سائر جسده، حتى إن شعورًا مفاجئًا قد أصابه وكأن روحه غريبة في جسده.

كان الدوق قد استغل الهفوة اللحظية التي سقط فيها عقل سايمون، ليعانقه بإخلاص قائلًا: «بُنَيّ».

وغادر سايمون البلاد في اليوم التالي مباشرة.

كان يدرك جيدًا أن من المستحيل أن يتجنب والده تمامًا ما دام مقيمًا في إنجلترا. وكان رافضًا تمامًا أن يمثل دور ابن الدوق؛ بعدما أنكره والده سنواتٍ طويلة.

وأزيدكم من الشعر بيتًا؛ كان شعور سايمون بالضجر من حياة العربدة في لندن قد بدأ مؤخرًا. وإذا وضعنا جانبًا سمعته المُشوَّهة، كان سايمون حقًا فاقدًا لفطرة الرجل الفاسق الحقيقي. كان يستمتع بأمسياته في المدينة مثل أي من أصدقائه الفاسدين، لكنه، وبعد ثلاث سنواتٍ في أكسفورد، وسنة كاملة قضاها في لندن، كانت الدائرة المُفرغة للحفلات والغواني قد صارت مملّة قديمة الطراز بالنسبة إليه. ولذلك غادر البلاد.

ورغم ذلك، فقد كان سعيدًا الآن بعودته. كان ثمة شيء ما يخفف من حدة عودته إلى الديار، إحساسٌ بالهدوء والصفاء يغمره عندما يحل موسم الربيع الإنجليزي. وبعد ستة أعوام من ترحال العزلة، كان شعورًا جيدًا أن يلقى أصدقاءه مجددًا.

انتقل بهدوء بين الأروقة، شاقًا طريقه نحو قاعة الرقص. لم يكن راغبًا في إعلان وجوده؛ فقد كان آخر شيء يتمنى حدوثه هو التصريح بحضوره. كانت

محادثته في تلك الأمسية مع صديقه أنطوني بريدجرتون قد أعادت تأكيد قراره برفض أي دور فعَّال في مجتمعات لندن.

لم يخطط للزواج، مطلقًا. ولم يكن هناك داعٍ لحضور حفلات الطبقة العليا والوسط الرفيع إذا كان المرء عازفًا عن البحث عن زوجة.

ومع ذلك، شعر بأنه يدين ببعض الولاء لليدي دانبيري، بعدما اعتنت به ومنحته عطفها في أثناء طفولته، والحق يُقال: فقد كان الدوق الجديد يحمل قدرًا كبيرًا من المحبة للسيدة العجوز صادقة اللسان. وسيكون ضربًا من الوقاحة إن تجاهل دعوتها، خاصة أنها كانت مُرفَقَةً بملاحظة شخصية ترحب بعودته إلى البلاد.

وبما أن سايمون كان يعرف طريقه حول المنزل، فقد دخل من بابٍ جانبي. وإن سار الأمر كما هو مُخطط له، فقد يتمكن من التسلل متواريًا عن الأنظار إلى قاعة الرقص، ويقدم تحياته إلى ليدي دانبيري، ثم يغادر من فوره.

ولكن بمجرد أن انعطف إلى الزاوية، سمع أصواتًا، فعجز عن الحراك.

كتم سايمون أنين تذمره؛ فكان قد قاطع ملتقى حبيبين. كيف له أن ينتزع نفسه من هذا الموقف دون ملاحظة من الحبيبين؟ وإذا اكتشفا وجوده، فمن المؤكد أن المشهد المترتب على ذلك سيكون حافلًا بالتصنع والإحراج، ومشاعر ضجر لا نهاية لها. من الأفضل له أن يختفي في الظلال ويترك الحبيبين لمرحهما.

لكن في الوقت الذي بدأ فيه سايمون التراجع من موضعه بهدوء، سمع شيئًا ما قد استحوذ على انتباهه.

- كلا!

كلا؟ هل هناك سيدة شابة قد جاءت مُجبرة إلى رواق مهجور ضد رغبتها؟ لم يكن سايمون راغبًا حقًّا في أن يصير البطل الهُمَام الذي ينقذ شخصًا ما، لكنه عاجز حقًّا عن أن يدع تلك الإهانة تمر دون تدخله، لذا فقد مدَّ رقبته قليلًا، وأصغى بأذنه جيدًا حتى ينصت أحسن إنصاتٍ إلى ما يُقال، فرغم كل شيء، ربما كان ما سمعه خاطئًا. وإن لم يكن ثمة أحد بحاجة إلى الإنقاذ، فمن المؤكد أنه لن يندفع إلى الأمام مثل ثور أحمق.

- نايجل! ما كان من المفترض أن تتبعني إلى هنا.

سمع الفتاة تقول. فأجابها الرجل الشاب صائحًا في صوت حالم:

- لكنني أحبكِ! وكل ما أريده هو أن تكوني زوجتي.

كان سايمون على وشك الصياح تذمرًا. هذا الأحمق السكير. كان سماعه إلى تلك الواقعة مؤلمًا.

- نايجل!

قالت مُجددًا، وكان صوتها هادئًا وصبورًا على غير المتوقع، ثم أضافت:

- لقد أخبرك أخي بالفعل أنه لا يمكنني الزواج منك. وأتمنى أن تستمر صداقتنا.

- لكن شقيقكِ لا يفهم.

أجابت بثقة:

- بلى، إنه يفهم جيدًا.

- ما هذا بالله عليكِ؟ إن لم تتزوجيني، فمن سيفعل؟

أجفل سايمون في دهشة، فعلى حد علمه بالكيفية التي تسير بها طلبات الزواج، من المؤكد أن هذا الطلب ليس رومانسيًّا على الإطلاق.

وكان من الواضح أن الفتاة قد اعتقدت ذلك أيضًا، فقالت في شيء من الاستياء:

- حسنًا، ليس الأمر وكأنه ليس هناك دزينة من الفتيات الأخريات في قاعة رقص ليدي دانبيري الآن. أنا واثقة من أن واحدة منهن ستكون سعيدة بالزواج منك.

انحنى سايمون إلى الأمام قليلًا حتى يتمكن من إلقاء نظرة إلى المشهد. كانت الفتاة تقف في الظلال، لكنه تمكن من رؤية الرجل بوضوحٍ تام؛ كان وجهه يحمل تعبيرًا بائسًا وذليلًا، وكانت كتفاه منحسرتين إلى الأمام في هزيمة. وببطءٍ هز الرجل رأسه، قبل أن يجيب بيأس:

- كلا، لن يتزوجن مني؟ إنهن... إنهن...

أجفل سايمون بينما كان الرجل يصارع خوفه حتى ينطق بكلماته. لم يبدُ متلعثمًا بقدر ما كان مغلوبًا بعاطفته، لكن الوضع لا يكون ممتعًا أبدًا عندما يعجز المرء عن النطق بعبارة واحدة على الأقل.

- ليس هناك من هو ألطف منك؛ فقد كُنتِ الفتاة الوحيدة التي ابتسمت في وجهي.

نطق الرجل أخيرًا.

- أوه، نايجل!

قالت الفتاة متنهدةً بعمق، ثم تابعت:

- أنا واثقة من أن هذا غير صحيح.

لكن سايمون استطاع أن يدرك أن عبارات الفتاة ليست سوى محاولة لطفٍ منها. وعندما تنهدت مرة أخرى، صار من الواضح أمامه أنها لن تحتاج إلى أي مساعدة منه. بدت وكأنها تملك زمام الأمور. وفي هذه الأثناء خالجت سايمون وخزات مبهمة من التعاطف والشفقة على المسكين نايجل، لكن لم يكن هناك شيء يمكن أن يفعله من أجله.

وإلى جانب هذا، كان سايمون قد بدأ يشعر بأن ما فعله هو أسوأ أنواع التلصص.

وبدأ في اتخاذ خطواتٍ إلى الخلف، بينما كان مُرَكِّزًا بعينيه على الباب الذي يعلم جيدًا أنه يؤدي إلى المكتبة، فقد كان هناك باب آخر في الجانب الآخر من تلك الغرفة، وهذا الباب يؤدي إلى قاعة الموسيقى. ومن هذا المكان يمكنه الدخول إلى القاعة الرئيسية، وشقّ طريقه نحو قاعة الرقص. لن يكون حضوره سريًّا مثل دخوله من الأروقة الخلفية، لكن المسكين نايجل لن يعرف على الأقل بأن هناك شاهدًا على إهانته ومذلّته.

ولكن عندما كان سايمون على بعد خطوة واحدة من الهروب النظيف، سمع أنين الفتاة.

- يجب أن تتزوجيني! يجب أن تفعلي ذلك! لن أجد أي فتاة أخرى أبدًا...

صاح نايجل، قبل أن تقاطعه الفتاة:

- نايجل، توقف!

التفت سايمون متذمرًا. بيد أنه سيضطر إلى إنقاذ الفتاة في نهاية الأمر. وسار بخطًى واسعة عائدًا إلى القاعة، مرتديًا قناع الصراحة الدوقية. كانت الكلمات: «أعتقد أن السيدة قد طلبت منك التوقف عما تفعله» على طرف لسانه، لكن بدا وكأن المُقدَّر له ألا يلعب دور البطل في نهاية المطاف تلك

الليلة؛ لأنه، وقبل أن يصدر عنه أي صوت، كانت السيدة الشابة قد سحبت ذراعها اليمنى ووجهت لكمة قوية مُدهِشَة، أصابت بها فكَّ نايجل مباشرةً.

سقط نايجل، ورفرفت ذراعاه في الهواء بينما كانت ساقاه تنزلقان من أسفله في صورة هزلية. أما سايمون، فقد تجمَّد في موضعه، مراقبًا باندهاش تلك الفتاة، التي سقطت على ركبتيها.

- يا إلهي! نايجل، هل أنت بخير؟ لم أقصد أن ألكمك بتلك القوة.

قالت الفتاة، وكان صوتها مرتجفًا قليلًا.

انفجر سايمون ضاحكًا، فقد عجز تمامًا عن ضبط نفسه.

تطلعت الفتاة، وبدا على وجهها الدهشة والفزع.

التقط سايمون أنفاسه وتوقف أخيرًا عن الضحك. كانت لا تزال تقف في الظلال حتى الآن، وكل ما كان قادرًا على تبينه من مظهرها هو شعرٌ كثيفٌ داكن. ولكن الآن، عندما رفعت رأسها أخيرًا لتواجهه، تبيَّن عينيها الكبيرتين داكنتي اللون، وثغرها الواسع النضر أكثر من أي شيء آخر قد رآه. كان وجهها دائريًّا يشبه القلب، لكنه لم يكن جميلًا إذا ما تحدثنا بمعايير المجتمع، لكن شيئًا ما فيها قد انتزع الهواء من صدره دون عناء.

قطبت حاجبيها السميكين المرسومين بعناية معًا، ثم سألت:

- مَنْ –دون أن يبدو على وجهها السرور لرؤيته– تكون أنت؟

الفصل الثالث

28 من أبريل 1813 **جريدة المجتمع**

وصل همسٌ إلى كاتبة هذا المقال بأن السيد نايجل بيربرووك قد شُوهِد في متجر موريتون للمجوهرات يشتري خاتمًا من الألماس الفريد. هل يمكن أن يكون وراء هذا الخاتم السيدة بيربرووك الجديدة؟

ليدي ويسلداون

اعتقدت دافني أن الليلة لا يمكن أن تسوء عما هي عليه بالفعل. أولًا، اضطرت إلى قضاء الأمسية في أكثر الأركان ظلمة في قاعة الرقص –والتي لم تكن مهمة سهلة أيضًا، فقد حرصت ليدي دانبيري على إظهار وَلَعِها بالسمات الجمالية والضوئية للشموع–، ثم تعثرت في قدم فيليبا فيذرنجتون بينما كانت تحاول الهرب؛ مما حمل فيليبا –التي لم تكن قط أهدأ فتاة في الغرفة– على الصراخ قائلةً: «دافني بريدجرتون! هل تأذيتِ؟» والذي لا بد وأنه أثار انتباه نايجل، فقد تحرك رأسه اقتناصًا للحظة مثل طائر رخم فزع، ثم شرع في الهرولة عبر قاعة الرقص على الفور. كانت دافني تأمل –دون دعاءٍ منها– أن تتمكن من تجنبه حتى تصل إلى غرفة راحة السيدات قبل أن يمسك بها، لكن ما حدث كان النقيض، فقد تمكن نايجل من محاصرتها في الرواق، وبدأ في النحيب على حبه لها.

كان الموقف مُحرجًا بما يكفي، ولكن اتضح الآن أن هذا الرجل –هذا الغريب ذو الوسامة الجامحة والاتزان الذي يثير القلق في قلوب من حوله– قد شهد المشهد بأكمله. والأسوأ من ذلك أنه كان يضحك.

حدَّقت إليه دافني بينما كانَ يضحك بصوتٍ خافت على هذا المشهد. الحقيقة هي أنها لم تره من قبل، لذلك توقعت أن يكون فردًا جديدًا على مجتمع لندن. كانت والدتها قد حرصت على تقديمها إلى كل النبلاء المؤهلين للزواج –أو على الأقل حرصت على تعريفها إليهم جميعًا–. بالطبع يمكن أن يكون هذا الرجل متزوجًا، ولذلك لم تضعه فيوليت على قائمة الضحايا المحتملين. لكن دافني قد علمت بحدسها أنه لا يمكن لهذا الرجل أن يكون قد مكث طويلًا في لندن دون أن يهمس العالم بأجمعه بأي شيء عنه.

كان وجهه ببساطة هو المثالية في أبهى صورها. واستغرق الأمر منها لحظة واحدة لتدرك أنه قد تفوق على جميع تماثيل مايكل أنجلو. كانت عيناه حادتين في غرابة، كانتا شديدتي الزُرقة، حتى كانتا تتوهجان فعلًا. وكان شعره كثيفًا وداكنًا، أما قامته؛ فكانت طويلة ممشوقة، مثل جميع أشقائها، وربما بدا في نفس أطوالهم، وهذا شيءٌ نادر الحدوث. وفكرت دافني بامتعاض في أن رجلًا كهذا –هذا الرجل– يمكن أن يسرق حشد السيدات الشابات الثرثارات من رجال عائلة بريدجرتون إلى الأبد.

لماذا أزعجها هذا الأمر كثيرًا؟ لم تكن تدري تمام الحقيقة. ربما لأنها كانت تعرف أن رجلًا كهذا لن يهتم أبدًا بفتاة مثلها، ربما لأنها شعرت وكأنها رجلٌ فقير يجلس على حافة الطرقات في حضوره الجليل. وربما لأنه ببساطة كان يقف هناك ضاحكًا كما لو أنها فقرة من فقرات التسلية في السيرك.

لكن مهما كان الأمر، فقد نشأت بداخلها شراسة غير معهودة، وقطبت حاجبيها معًا، وسألته:

- من تكون أنت؟

لم يدرِ سايمون قط لماذا لم يُجِب على سؤالها مباشرةً، بل إن شيطانًا ما بداخله قد حمله على أن ينطق بالكلمات التالية:

- كانت نيتي أن أكون مُنقِذَكِ الليلة، لكن اتضح لي أنه لا حاجة بك إلى خدماتي.
- أوه، حسنًا، شكرًا لك إذن، حسب ما أعتقد. من المؤسف أنك لم تُظهِر نفسك قبل عشر ثوانٍ؛ لم أكن لأضطر إلى لكمه.

أجابت الفتاة التي بدت هادئة قليلًا. كانت قد أغلقت شفتيها معًا، لتنزويا قليلًا وهي تفكر في كلماته.

نظر سايمون إلى الرجل الراقد على الأرض، وكانت كدمة قد تشكَّلت بالفعل على ذقنه، ثم علا مواؤه قائلًا:

- لافي، أوه، لافي.. أنا أحبكِ لافي.

- أنتِ لافي، حسب ما أعتقد؟

تمتم سايمون منتقلًا بنظراته إلى وجهها. حقًّا، لقد كانت سيدة شابة جذَّابة، ومن تلك الزاوية بدت صدرية فستانها منخفضة قليلًا، ربما تشي بشيء من الانحلال.

عبست في وجهه، فقد كان من الواضح أنها لم تلقَ قيمةً لمحاولته في إلقاء الدعابات الخفية، وبدا من الواضح أيضًا أنها لم تدرك أن نظرته الطويلة بجفنين ثقيلين قد استقرَّت على أجزاء من جسدها لم تكن تتضمن أي شيء من وجهها.

سألته الفتاة:

- ماذا سنفعل به؟

- نحن؟

ردد سايمون كلمتها.

فازداد وجهها عبوسًا، وقالت:

- لقد قُلتَ إنك تطمح إلى أن تكون منقذي، أليس كذلك؟

- أجل، لقد فعلت.

وضع سايمون كلتا يديه على خصره مفكرًا لتقييم الموقف، ثم قال:

- هل أجرُّه إلى الشارع؟

- بالطبع لا! بحق الله، أما زالت تمطر بالخارج؟

أجابت دافني في تعجب.

- سيدتي العزيزة، الآنسة لافي...

قال سايمون دون أن يهتم تحديدًا بنبرة التكبر في صوته، ثم أضاف:

- ألا تعتقدين أن اهتمامك قد ضلَّ طريقه قليلًا؟ لقد حاول هذا الرجل مهاجمتك.

- لم يحاول مهاجمتي، إنه فقط... إنه فقط... يا إلهي، حسنًا، لقد حاول مهاجمتي. لكنه لم يكن ليفعل أي شيء يسبب لي أذًى حقيقيًا.

أجابت. فرفع سايمون حاجبه اندهاشًا. حقًّا إن النساء أكثر الكائنات تناقضًا على الإطلاق.

- وهل يمكنكِ الوثوق من ذلك؟

راقبها سايمون بينما كانت تختار كلماتها بعناية، فقالت ببطءٍ شديد:

- إن نايجل يعجز عن الإقدام على أي سوء، وكل ما يُدينه هو سوء التقدير.

- إذن فأنتِ تملكين روحًا أكثر سخاءً مني.

قال سايمون في هدوء.

أطلقت الفتاة تنهيدة أخرى، أشبه بصوتٍ هامس يخرج في نعومة، حتى إن سايمون قد شعر به يتخلل سائر جسده بطريقة ما.

- نايجل ليس شخصًا سيئًا. كل ما في الأمر أنه لا يتحلى بالذكاء دائمًا، وربما يسيء فهم اللطف من جانبي على أنه شيء أكثر من ذلك.

قالت الفتاة بقليل من الكبرياء.

شعر سايمون بنوع غريب من الإعجاب بهذه الفتاة؛ فمعظم السيدات من معارفه كُنَّ ليقعن في نوبة من الاضطراب العقلي في هذا الموقف. ولكن –أيًّا من تكون– فقد تعاملت مع الموقف بجديَّة، وتُظهِرُ الآن روحًا مذهلة من الكرم واللطف. حتى إن مجرد تفكيرها في الدفاع عن هذا الشخص نايجل، كان شيئًا لم يقدر عليه.

نهضت لتقف على قدميها وتنفض التراب عن يديها، ليسقط على الحرير الأخضر المرمري لفستانها. كان شعرها مهندمًا، حتى تسقط خصلةٌ سميكة منه على إحدى كتفيها، وتتشابك فوق صدرها لتبرزه بإغراء. كان سايمون يعلم أن عليه الاستماع إليها –فقد كانت تثرثر حول شيء ما، مثلما اعتادت جميع النساء– لكنه بدا عاجزًا عن أن يرفع عينيه عن تلك الخصلة الداكنة المنفردة من شعرها. بدت وكأنها رابطة من الحرير تلتف حول عنقها الطويل، الذي يشبه عنق البجعات، وتملَّكت سايمون أكثر الرغبات إلحاحًا ورعبًا، بأن يُقلِّص المسافة بينهما ويتتبع خصلات شعرها بشفتيه.

لم يكن سايمون من النوع الذي يتسكع مع الفتيات المبتدئات قط، لكن العالم بأكمله قد صوره بمظهر الفاسق. ما الضرر في ذلك؟ ليس الأمر كما لو أنه سيفتك بها. مجرد قبلة، مجرد قبلة واحدة رقيقة.

كان الأمر مغريًا، إغراءً شهيًّا، إغراءً يثير الجنون.

- سيدي! سيدي!

وعلى مضض، أجبر عينيه أن تُطالِعا وجهها، والذي كان بالطبع وجهًا باهرًا في حد ذاته. لكنه كان من الصعب أن يتصور إغواءها إذ تعبس في وجهه.

- هل كنتَ تستمتع إلى ما أقول؟

أجاب كاذبًا:

- بالطبع.

- بل لم تكن تستمع إلي.

- كلا.

اعترف سايمون. فخرج صوتٌ من مؤخرة حلقها بدا أشبه برُغاء جملٍ مريب، ثم صرَّت على أسنانها قبل أن تقول:

- إذن لما أخبرتني أنك كنت تستمع إلى ما أقوله؟

قال مترددًا:

- كنت أعتقد أن هذا ما تودين سماعه.

راقبها سايمون، وكانت عيناه تنمان عن اهتمام مذهل بها بينما كانت تأخذ نفسًا عميقًا وتتمتم بشيء ما في نفسها. كان قد عجز عن تبين كلماتها، لكن شَكًّا قد انتابه في أن تكون أيٌّ منها مجاملة لشخصه. وفي آخر الأمر، خرج صوتها هزليًّا وهي تجيب:

- إذا لم تكن ترغب في مساعدتي، فأنا أُفضِّل أن تغادر فحسب.

قرر سايمون أن يتوقف عن التصرف بوقاحة، فقال:

- أرجو أن تقبلي اعتذاري. بالطبع سأساعدك.

زفرت نفسًا عميقًا، ثم تطلعت إلى الوراء نحو نايجل، الذي كان لا يزال مُسجى على الأرض، ويصدر عنه أنينٌ بين الفينة والأخرى. تطلع سايمون إليه

أيضًا، وطوال ثوانٍ عديدة وقفا في موضعهما دون حراك، يحدقان إلى الرجل الغائب عن الوعي، حتى نطقت الفتاة أخيرًا:

- أنا لم ألكمه حقًّا بتلك القوة.

- ربما كان ثملًا.

بدت الفتاة مرتابة بعض الشيء، ثم أجابت:

- هل تعتقد؟ لقد ميَّزتُ رائحة الكحول في أنفاسه، لكني لم أرَه مخمورًا قط.

لم يكن لدى سايمون ما يضيفه ليقاطع حبل أفكارها، لذلك اكتفى بسؤالها:

- حسنًا، ماذا تريدينني أن أفعل به؟

- أعتقد أن بإمكاننا أن نتركه هنا.

أجابت الفتاة، وبدت عيناها القاتمتان في تردد حقيقي.

اعتقد سايمون أنها فكرة ممتازة، لكن بدا له أن الفتاة قد أرادت الاعتناء بهذا الأحمق بطريقة أخرى أكثر لطفًا. وليساعده الله فيما هو مُقبلٌ عليه، لكنه شعر بحافز غريب يدفعه لإسعادها.

- هذا ما سنفعله. سأستدعي عربتي...

أجاب سايمون بصوتٍ أجش، سعيدًا بنبرته التي أخفت أي رِقَّةٍ غريبة كان يشعر بها، فقاطعته الفتاة قائلة:

- يا إلهي، جيد. لم أكن لأرغب قط في تركه هنا. بدا تصرفًا قاسيًا للغاية.

رأى سايمون أن شعورها نحو الأبله الكبير الذي كاد يهاجمها كان لطفًا كبيرًا منها، أكثر من شعورها بالذنب نحوه، لكنه احتفظ برأيه لنفسه، وبدلًا عن ذلك، استمر في شرح خطته:

- أما أنتِ، فستنتظرين في المكتبة في الوقت الذي أذهب فيه لإنهاء الأمر.

- في المكتبة؟ لكن...

- في المكتبة.

كرَّر كلماته بصرامة، ثم أضاف:

- وستغلقين الباب عليكِ. هل تريدين حقًّا أن يكتشفوا وجودكِ بجانب جسد نايجل إذا حدث أن قرر أحدهم التجوال في تلك القاعة؟

- جسده؟ يا إلهي! سيدي، لَستَ بحاجة إلى أن تجعل الأمر يبدو لي وكأنه قد مات.

- أكرر حديثي؛ ستمكثين في المكتبة. وعندما أعود، سنضع نايجل في عربتي.

تابع حديثه متجاهلًا تعليقها تمامًا.

- وكيف سنفعل ذلك؟

أجاب سايمون بضحكةٍ جانبية مُجرَّدة من أي تعبير، ثم قال:

- ليست لدي أدنى فكرة.

ولوهلة عجزت دافني عن التقاط أنفاسها. في تلك اللحظة التي أقرَّت فيها أن منقذها المستقبلي ما هو إلا متغطرس ميؤوس منه، كان قد أجابها بابتسامة كهذه. كانت واحدة من تلك الابتسامات الطفولية، هذا النوع الذي يُذيب قلوب الفتيات في دائرة قطرها عشرون ميلًا على الأقل.

ومما زاد الطين بلة أن دافني شعرت بالوهن أمام ابتسامته، وكان من الصعب حقًّا أن تظل غاضبة لوقتٍ أطول من أي رجلٍ تحت تأثير ابتسامة كهذه. وبعد نشأتها وترعرعها برفقة أربعة من الأشقاء، والذين بدا أنهم جميعًا يعلمون كيف يسحرون النساء منذ مولدهم، اعتقدت دافني أنها منيعة أمام أي سحر من الرجال.

لكن ما اتضح هو أن الحقيقة غير ذلك. كانت وخزات خفيفة تدغدغ صدرها، وعربات صغيرة تعربد داخل أمعائها، وخارت ركبتاها مثل قطعة من الزُبد الذائب.

- نايجل...

همهمت الفتاة في محاولة بائسة لصرف انتباهها عن الرجل المجهول الذي يقف على الجهة المقابلة منه، ثم أضافت:

- يجب أن أطمئن على نايجل.

جلست الفتاة على ركبتيها، وهزَّت كتفيه دون رفق منها.

- نايجل! نايجل! يجب أن تفيق الآن، نايجل!

- دافني.. أوه، دافني!

جاء اسمها متبوعًا بأنين نايجل.

التفت رأس الغريب ذو الشعر الداكن بسرعة، ثم قال باندهاش:

- دافني؟ هل قال دافني؟

تطلعت إلى الخلف، منزعجةً تمامًا من سؤاله المباشر، ونظرته الصارمة التي تغلب زرقة عينيه، ثم أجابت:

- أجل.

- هل اسمكِ هو دافني؟

- أجل.

كانت قد بدأت تتساءل الآن إذا كان هذا الغريب أبله.

صاح مُجيبًا:

- ليس دافني بريدجرتون!

انقلبت نظرتها وملامح وجهها إلى عبوسٍ غامض.

- هي ذاتها.

تراجع سايمون خطوة إلى الوراء، وشعر فجأةً أن ألمًا حقيقيًّا قد أصاب جسده، في اللحظة التي كان عقله يستوعب فيها حقيقة أنها تملك شعرًا كستنائيًّا سميكًا؛ الشعر الذي تشتهر به عائلة بريدجرتون. ناهيك بالأنف التي تتميز بها عائلة بريدجرتون، وعظام الوجنتين وكـــــ... كُفَّ عن كل هذا، هذه هي شقيقة أنطوني!

اللعنة.

كانت هناك قواعد بين الأصدقاء، وصايا في الواقع، وكانت أهم وصية منها هي **ألَّا تركض بشهوتك خلف شقيقات أصدقائك.**

وبينما كان يقف متخشبًا في موضعه، ربما يحدق إليها مثل أحمق كبير، وضعت الفتاة يديها على خصرها، وسألته:

- ومن تكون أنت؟

تمتم:

- سايمون باسيت.

فأجابت بصوتٍ حاد:

- الدوق؟

فقال متجهمًا:

- أجل.

راقبها سايمون والفزع يزداد في عينيه شيئًا فشيئًا، حتى جفَّت الدماء من وجهه، ثم أجاب:

- يا إلهي! سيدتي، أنتِ لن تفقدي وعيك، أليس كذلك؟

لم يستطع أن يتخيل سببًا حتى تفقد وعيها، لكن أنطوني -وظل يذكّر نفسه بحقيقة أنه شقيقها- قد قضى نصف لقائهما بعد الظهيرة يحذره من تأثيرات دوق شاب غير متزوج على جماعة الفتيات الشابات العزباوات. وقد أكد أنطوني على أن دافني استثناءٌ لتلك القاعدة، ومع ذلك بدت شاحبة كثيرًا. فسأل مُكَرِّرًا:

- هل... ستفقدين وعيكِ؟

عندها لم تنطق دافني شيئًا. لكنها بدت مستاءة للغاية؛ إذ اعتقد أنها من ذاك النوع من الفتيات، اللاتي يفقدن وعيهن أمام الشباب. ثم نطقت أخيرًا:

- بالطبع لا!

- جيد.

- كل ما في الأمر...

قاطعها سايمون متسائلًا في شَكٍّ وريبة:

- ماذا؟

- حسنًا...

قالت دافني، وأتبعتها بهزة لطيفة من كتفيها، ثم تابعت:

- لقد حذروني منك.

كان هذا أكثر مما يحتمله سايمون، فتساءل:

- مَن؟

حدَّقت إليه كما لو أن معتوهًا يقف أمامها، ثم أجابت:

- الجميع.

- هذا...

شعر بشيء مُريب يُلَجِّم لسانه –لعثمة في طريقها إليه–، ولذلك فقد قطع حديثه ليأخذ نفسًا عميقًا، ويُحكِم زمام لسانه. كان قد صار خبيرًا في مثل هذا النوع من السيطرة، وكل ما ستراه هو رجل يبدو وكأنه يحاول السيطرة على أعصابه. وبالنظر إلى الوجهة التي يتخذها حديثهما، فإن تحقيق مثل تلك الصورة ليس صعب المنال.

- عزيزتي الآنسة بريدجرتون، أجد هذا أمرًا يصعب تصديقه.

استأنف سايمون حديثه مجددًا بنبرة أكثر اتزانًا. ورفع كتفيه مرة أخرى في عدم استنكار، وانتابه شعور مُزعج، كما لو أنها تستمتع بمعاناته، ثم أجابت:

- صَدِّق ما تصدِّقه، ولكن هذا ما جاء في الجريدة اليوم.

قالت دون أن تلقي بالًا.

- أي جريدة؟

- بالطبع في جريدة ويسلداون.

هكذا أجابت، كما لو أن تلك الكلمة توضح أي شيء.

- ويسلـ... ماذا؟

حدَّقت دافني إليه لبرهة في ريبة، حتى تذكرت أنه قد عاد مؤخرًا إلى لندن.

- يا إلهي، لا بد وأنك لم تسمع بها. أتتخيل ذلك!

أجابت دافني وعلى شفتيها ابتسامة ماكرة رقيقة.

تقدم الدوق خطوةً إلى الأمام، وكانت هيئته تشي بتوَعُّدٍ صريح.

- آنسة بريدجرتون، أشعر وكأنني بحاجة إلى تحذيرك من أنني على بعد خطوة واحدة من استخراج المعلومات منكِ بطريقة لا تفضلينها.

- إنها صحيفة للشائعات، هذا كل شيء. في الحقيقة هي صحيفة سخيفة، لكن الجميع يقرؤها.

أجابت على عجل بينما تتراجع خطوةً إلى الوراء.

لم يجبها بشيء سوى أن رفع أحد حاجبيه في غرور. إلا إن دافني أضافت بسرعة:

- هناك تقرير بشأن عودتك في طبعة يوم الاثنين.

- وماذا (وضاقت عيناه بنذير شؤم) تقول (ثم عادتا الآن إلى برودهما) تحديدًا؟

- ليس كثيرًا... أجل، لا شك في ذلك.

شعرت دافني بأنها محاطة من كل جانب. حاولت التراجع خطوةً إلى الوراء، إلا إن كعبيها كانا بالفعل ملتصقين بالحائط. وإن فكرت في أخذ أي خطوة أخرى، فستكون واقفةً على أطراف أصابعها. بدا الدوق وكأنه قد تجاوز حد الغضب، وكانت هي قد بدأت تفكر فيما يجب أن تفعله لتهرب من هذا المأزق سريعًا، وأن تتركه بمفرده مع نايجل هنا. كانا الاثنان مناسبين تمامًا لبعضهما؛ رجلان مجنونان، كلاهما!

- آنسة بريدجرتون.

كرر سايمون نداءه، وقد كانت نبرات التحذير في صوته قد بلغت أوجها.

فقررت دافني أن ترأف به لأنه –في نهاية الأمر– ما زال ضيفًا جديدًا على المدينة، ولم يكن أمامه متسعٌ من الوقت حتى يتكيف مع العالم الجديد، وفقًا لما قالته السيدة ويسلداون بالطبع: اعتقدت أنها عاجزة عن إلقاء أي لومٍ عليه بسبب غضبه مما كُتِبَ عنه في الجريدة، فقد كان الأمر صادمًا بالنسبةٍ إليها في المرة الأولى أيضًا، وقد تلقت على الأقل تحذيرًا قبل شهر من أعمدة السيدة ويسلداون السابقة. وفي الوقت الذي بدأت فيه السيدة ويسلداون في الكتابة عن دافني، كان حديثها مُخيِّبًا للآمال.

- لَستَ بحاجة إلى إزعاج نفسك بما يُقال، إن كل ما كتبته هو أنك رجلٌ فاسق، وتلك حقيقة أنا واثقة من أنك لن تنكرها؛ فقد عرفتُ منذ وقتٍ طويل أن الرجال يتوقون للحصول على وصفٍ مثل فاسق أو مُنحل.

أجابت دافني وهي تحاول منح صوتها بعض التعاطف، لكن محاولتها فشلت على أي حال. فتوقفت عن الحديث، ومنحته الفرصة لإثبات خطأ ما قالته، أو ربما إنكاره. لكنه لم يفعل، فتابعت:

- ثم جاءت أمي –التي أعتقد أنك قد تعرَّفت إليها في وقتٍ ما قبل أن تغادر في جولتك حول العالم– لتؤكد كل ما ذُكِر.

- هل فعلت ذلك؟

أومأت دافني، ثم قالت:

- ثم حذرتني من أن يراني أحدٌ في صحبتك أبدًا.

- حقًّا؟

أجاب متشدقًا.

شيءٌ ما حيال نبرة صوته –والطريقة التي بدت بها عيناه، إذ ازدادتا شحوبًا بينما كان مُحدقًا إلى وجهها– جعلتها مضطربة خائفة، وكل ما استطاعت فعله هو ألا تغلق عينيها.

لذا رفضت –رفضًا تامًّا– أن تدعه يدرك ما أحدثه من أثرٍ بداخلها.

إلا إن شفتيه قد تكورتا في صورة ابتسامة بطيئة، ثم قال:

- دعيني أتأكد من فهمي الصحيح لما قُلتِه. لقد أخبرتكِ والدتكِ أنني رجل سيئ، ويجب ألا يراكِ أحدٌ برفقتي تحت أي ظروف.

تملكتها الحيرة في تلك اللحظة، إلا إنها أومأت بالموافقة.

- إذن، ماذا؟

ثم صمت قليلًا حتى يُحدِثَ تأثيرًا دراميًّا قبل أن يستأنف:

- تعتقدين أن أمكِ ستتحدث بشأن هذا الحادث الذي وقعت فيه الآن؟

لمعت عيناها، ثم أغمضت الطرف خلسة قبل أن تجيب:

- أستميحكَ عذرًا؟

- حسنًا، ما لم نضع نايجل هنا في الحسبان –وأشار بيده نحو الرجل فاقد الوعي على الأرض– يمكننا أن نقول إن لا أحد قد رآكِ حقًّا في حضوري. ومع ذلك...

سمح سايمون لكلماته أن تتضاءل شيئًا فشيئًا، مستمتعًا للغاية بمراقبة تبدل المشاعر على وجهها، ليفعل أي شيء عدا أن يأتي بفعلٍ ينتقص من طول تلك اللحظة.

لا شك في أن معظم المشاعر على وجهها كانت تتنوَّع ما بين درجات الغضب والاستياء، لكن كان هذا بالضبط ما جعل اللحظة الراهنة أكثر عذوبة.

- ومع ذلك؟

خرجت دافني عن صمتها.

مال إلى الأمام بجذعه، بينما تتقلَّص المسافة الفاصلة بينهما إلى سنتيمترات قليلة فقط.

- ومع ذلك...

أجاب بلطف لأنه يعلم أنها ستشعر بأنفاسه على وجهها، ثم تابع:

- ها نحن الآن بمفردنا تمامًا.

فاستطردت قائلة:

- عدا نايجل.

سمح سايمون لنفسه بإلقاء نظراتٍ قصيرة للغاية إلى الرجل الراقد على الأرض، قبل أن يعيد نظرة عينيه المتوحشة إلى الآنسة بريدجرتون، ثم تمتم:

- أنا لا أهتم تمامًا بشأن نايجل، هل تهتمين؟

كان سايمون يراقبها بينما تجلس على ركبتيها أمام نايجل في استياء. وكان من المهم أن يتضح لها أن الخاطب المرفوض لن يتمكن من إنقاذها إذا قرر سايمون التحرش بها. بالطبع ليس الأمر وكأنه سيفعل شيئًا؛ فرغم كل شيء، ما زالت دافني شقيقة أنطوني الصغرى. وربما يضطر إلى تذكير نفسه بذلك على فترات متكررة، ولكن الحقيقة هي أنه ليس ثمة احتمال أن ينسى هذا الأمر كُليًّا.

كان سايمون يعلم أن الأوان قد فات على إنهاء لعبته. ألم يعتقد أنها ستخبر أنطوني بهذا الوقت المستقطع. ولكن بطريقة ما كان يعلم أنها ستُفَضِّل الاحتفاظ بالأمر لنفسها، لتفكر في أحداثه في غضبٍ صادق، وربما –سمح لنفسه أن يتمنى– في شيءٍ من الإثارة سرًّا.

على الرغم من أنه كان يعلم أن الوقت قد حان للتوقف عن مغازلته لها والعودة إلى مهمة نقل الخاطب الأحمق –للآنسة دافني– خارج البناء، لم يستطع أن يقاوم تعليقًا واحدًا أخيرًا. ربما كانت الطريقة التي تزمُّ بها شفتيها عندما تكون منزعجة، أو ربما كانت الطريقة التي تنفرج بها شفتاها عندما تكون في ذهول. كل ما كان يعرفه هو أنه ضعيف أمام طبيعته الشيطانية عندما يأتي الأمر إلى تلك الفتاة تحديدًا.

ولذلك مال قليلًا إلى الأمام، وقال مخاطبًا إياها بعينين ثقيلتين فاتنتين:

- أعتقد أنني أعلم ما ستقوله والدتك.

بدت مرتبكة قليلًا إثر هجومه الضاري، لكنها ما زالت قادرة على التحلي بالجرأة.

- حقًّا؟

أومأ سايمون في هدوء، وبإصبعٍ واحدة من يديه لامس ذقنها الرقيق، قبل أن يجيب:

- ستخبركِ أن تسمحي للخوف أن يعتريكِ إلى أخمص قدميكِ.

كانت هناك لحظة من الصمت المُطبِق، ثم اتسعت عينا دافني إلى أكبر اتساعٍ لهما، وقلَّصت من اتساع شفتيها كما لو أنها تحتفظ بشيء ما بداخلهما، ثم رفعت كتفيها قليلًا، ثم...

ثم ضحكت. في وجهه تمامًا.

- أوه، يا إلهي! أوه، لقد كان هذا مضحكًا.

أجابت بأنفاسٍ لاهثة من أثر الضحك. وكان سايمون مشدوهًا من ردة فعلها.

- أنا آسفة.

جاءت كلماتها بين ضحكاتٍ متتالية، ثم تابعت:

- أوه، أنا آسفة، لكن حقًّا، لا يتعين عليك أن تكون مثيرًا للعاطفة هكذا؛ هذا الطابع لا يناسبك.

أطبق الصمت على سايمون، بل كان الغضب هو ما اعتراه؛ إذ إن فتاةً صغيرة كهذه لم تُظهِر أي احترام يليق بسيادته. كان ثمة مميزات لكونك رجلًا خطيرًا، وكان من بين تلك المميزات هو كونك قادرًا على أن تربح قلوب السيدات الشابات.

- حسنًا، في الحقيقة، هذا الطابع لا يناسبك، يجب أن أعترف لك بهذا.

أضافت دافني بينما لا تزال تضحك على صورته، ثم تابعت:

- بدوت رجلًا خطيرًا حقًّا، ورائع الوسامة بالطبع.

وعندما لم يترك لها أي تعليق، اتخذ وجهها تعبيرًا ينُمُّ عن الاستغلال، ثم سألته:

- كان هذا مقصدك، أليس كذلك؟

لم يزل الصمت مُطبِقًا على شفتيه، لذلك تابعت قائلة:

- بالطبع كان كذلك. وسأُتَّهَمُ بالتقصير إن لم أخبرك أنك كنت لتنجح في هذا الأمر مع أي امرأة أخرى عداي أنا.

حضر أخيرًا الجواب الذي عجز عن مقاومته.

- ولماذا إذن؟

- أربعة أشقاء. لقد اكتسبتُ مناعة جيدة ضد ألعاب الرجال.

أجابت دافني باستهجان، كما لو أن هذا السبب يفسر كل شيء.

- حقًّا؟

ربتت على ذراعه لتمنحه بعض الطمأنينة.

- لكن محاولتك كانت مثيرة للإعجاب. ولكنني أشعر حقًّا بالإطراء لكونك قد اعتقدت أنني أستحق هذا العرض الرائع لخلاعة الدوق.

أجابت ضاحكة، وكانت ابتسامتها واسعة ودودة. ثم أضافت:

- أم إنك تُفضِّل الدوق الخليع؟

داعب سايمون فَكَّه مفكرًا، في محاولة بائسة منه أن يستعيد دوره بصفته رجلًا لعوبًا خطيرًا.

- أنتِ أكثر سيدة شابة مزعجة قد قابلتها في حياتي، هل تعلمين ذلك، آنسة بريدجرتون؟

فأجابته بأكثر الابتسامات سخفًا، قبل أن تقول:

- معظم الناس يرون أنني تجسيدٌ للُّطفِ والدماثة.

- معظم الناس -أجاب بوضوح- حمقى.

مالت برأسها إلى الجانب الآخر، فمن الواضح أنها كانت تتأمل كلماته. ثم اتجهت ببصرها نحو نايجل، وصدرت عنها تنهيدة طويلة.

- أعتقد أنني -للأسف- سأتفق معك، بالقدر الذي تؤلمني به تلك الحقيقة.

ابتسم سايمون مجيبًا:

- هل يؤلمكِ أن تتفقي معي؟ أم أن معظم الناس حمقى؟

- كلاهما.

وأتبعت جوابها بضحكة أخرى، تلك الابتسامة المشرقة الساحرة، التي جعلت الأمور أكثر غرابة في ذهنه. ثم أضافت:

- لكن الخيار الأول هو الأساس.

سمح سايمون لنفسه بقهقهة عالية تلك المرة، ثم بدا عليه الانزعاج عندما أدرك كم كان صوت ضحكته غريبًا على أذنه؛ فقد كان رجلًا عادةً ما يبتسم، ولا يُظهِر ضحكته المكتومة سوى في مناسبة خاصة، إلا إن وقتًا طويلًا قد مرَّ منذ أن شعر بتلك الدفقة العفوية من الفرح.

- عزيزتي الآنسة بريدجرتون، إذا كنتِ حقًّا تجسيدًا للُّطفِ والدماثة، إذن سيكون العالم مكانًا خطيرًا بالنسبة إليكِ.

قال سايمون بينما كان يمسح الدمع من عينيه.

- أجل، بالتأكيد. على الأقل هذا ما أسمع أمي تخبرني به.

- لا أستطيع أن أتخيل لِمَ أنا عاجزٌ عن تذكر والدتك. ربما لأنها بالتأكيد شخصية لا تُنسَى.

تمتم سايمون.

رفعت دافني حاجبها اعتراضًا.

- أنت لا تتذكرها؟

هزَّ رأسه نافيًا.

- إذن فأنت لا تعرفها.

- هل تشبهكِ؟

- هذا سؤالٌ غريب.

- ليس غريبًا تمامًا.

أجاب سايمون، مُعيدًا التفكير فيما إذا كانت دافني على حق.

لقد كان سؤالًا غريبًا بالفعل، ولم يكن لديه أدنى فكرة عن السبب الذي جعله ينطق بهذا السؤال. ولكن بالنظر إلى حقيقة أنه قد نطق به على أي حال، وبما أنها قد تساءلت عن غرابته، قرر سايمون أن يضيف:

- في نهاية الأمر، سَمِعتُ أن جميع عائلة بريدجرتون متشابهون.

إلا إن مسحةً رقيقة من العبوس قد غطت وجهها، وبالنسبة إلى سايمون كانت مسحةً غامضة من التجهُّم.

- أجل، نشبه بعضنا. باستثناء أمي؛ إنها أكثر بهاءً في الحقيقة، ذات عينين زرقاوين. لقد ورثنا جميعًا الشعر الداكن من والدنا. ورغم ذلك، فكثيرون هم مَنْ أخبروني أنني قد أخذتُ عنها ابتسامتها.

وران صمتٌ مُطبِق على حديثهما. كانت دافني تستند إلى إحدى قدميها ثم تنتقل إلى الأخرى، دون أن تكون لديها أدنى فكرة عما تقوله للدوق، حينما اختار نايجل توقيتًا ممتازًا لأول مرة في حياته، ونهض جالسًا.

- دافني؟

قال بينما كان يرمش بعينيه كما لو كان عاجزًا عن الرؤية جيدًا.

- دافني، هل هذه أنتِ؟

- يا إلهي! آنسة بريدجرتون، ما مدى قوة لكمتكِ له؟

- قوية بما يكفي حتى يسقط أرضًا، ولكنها لم تكن أسوأ من ذلك، أقسم لك!

قطبت حاجبيها في عبوس، ثم أضافت:

- ربما كان ثملًا بالفعل.

- أوه، دافني!

قال نايجل بأنين واضح.

جثم الدوق بجانبه، ثم تراجع إلى الخلف يسعل، فسألت دافني:

- هل هو مخمور؟

ترنَّح الدوق قليلًا إلى الخلف.

- لا بد وأنه قد تجرَّع زجاجة كاملة من الويسكي حتى يمتلك الجرأة لطلب يدك.

- من كان يتخيل أنني سأكون مُرعبةً إلى هذا الحد؟

تمتمت دافني، بينما كانت تعيد التفكير في كل هؤلاء الرجال الذين يرونها صديقًا جيدًا ومُبهجًا، ولا شيء أكثر من ذلك، ثم أضافت:

- كم هذا رائع!

حدَّق سايمون إليها كما لو أنها شخصٌ قد فقد عقله، ثم قال مهمهمًا:

- لن أفكر حتى في الاستفسار عن تلك العبارة.

تجاهلت دافني تعليقه، فقالت:

- أليس من الأفضل أن نبدأ في تنفيذ خطتنا؟

وضع سايمون يديه أسفل خصره، واتخذ وضعية تقييم المشهد. أما نايجل؛ فقد كان يحاول النهوض على قدميه، لكن ما اتضح -على الأقل من وجهة نظر سايمون- أنه لن ينجح في مسعاه في أي وقت قريب. ومع ذلك، فقد كان لا يزال واعيًا بما يكفي ليُحدِثَ بعض المشكلات، وبالتأكيد واعيًا بما يكفي ليُصدِرَ الكثير من الضوضاء، وهذا بالضبط ما كان يفعله، بأفضل طريقة ممكنة في الحقيقة.

- أوه، دافني. أنا أحبِك كثيرًا، دافري!

كان نايجل قد تمكن من النهوض على ركبتيه، بينما يترنح حول نفسه ويجرُّ قدميه نحو دافني وهو على هيئة تشبه أحد مُرتادي الكنيسة المخمورين الذين يحاولون الدعاء.

- أرجوكِ تزوجيني، داڤني. يجب أن تتزوجيني.

- تراجع عما تفعله يا رجل! لقد صار الأمر مُحرِجًا أكثر مما يلزم.

قال سايمون متذمرًا، فقد فاض الكيل، بينما يسحب الرجل من ياقة قميصه. ثم استدار إلى دافني قائلًا:

- يجب أن أصطحبه إلى الخارج الآن، لا يمكننا أن نتركه هنا في الرواق. فكما ترين، إنه قادر على بدء نوبة أنين جديدة مثل بقرة عليلة...

فقاطعته دافني مُعلِّقةً:

- أعتقد أنه قد بدأ بالفعل.

شعر سايمون أن أحد جانبي فمه قد مال قليلًا ليُظهِرَ ابتسامة تردد. قد تكون دافني بريدجرتون فتاة في عمر الزواج، وهذا يعني أن كارثة مُحَقَّقة قد تحدثُ لأي رجلٍ في مثل وضعه، ولكنها بالتأكيد كانت تسلية جيدة.

لقد كانت -وقد اكتشف هذا الأمر في أكثر اللحظات غرابة ووضوحًا في الآن نفسه- من ذلك النوع الذي يمكن أن يعتبره صديقًا مقربًا فقط، لو كانت دافني رجلًا.

ولكن بما أنه من الواضح وضوح الشمس في كبد السماء -لكلتا عينيه وجسده- أنها ليست رجلًا، فقد قرر سايمون أنه سيكون في مصلحة كليهما أن ينتهي هذا «الموقف» في أقرب وقتٍ ممكن. إلى جانب أن سمعة دافني ستعاني ضربة قاتلة إن اكتشف أحدهم هذا الوضع. والحقيقة هي أن سايمون لم يعد واثقًا من قدرته على أن يمنع نفسه عنها لوقتٍ أطول من ذلك.

كان شعورًا مُقلِقًا، هذا الشعور تحديدًا. خاصة بالنسبة إلى رجلٍ يحترم قدرته على التحكم في ذاته. كانت السيطرة هي كل شيء يتعلق بكيانه، ودونها ما كان ليقف أمام والده قط، أو حتى ليحقق المرتبة الأولى في الجامعة. دونها، كان...

دونها –فَكَّر في وجوم– لظلَّ ذلك الصبي العاجز الذي كان عليه؛ يعبث هنا وهناك متحدثًا مثل الحمقى.

وفجأة قطع حبل أفكاره ليُنهِي هذا «الموقف».

- سأسحبه إلى الخارج، أما أنتِ فعودي إلى قاعة الرقص.

قطبت دافني حاجبيها، ملقية بنظرة سريعة من خلف كتفيها إلى الرواق الذي يؤدي إلى الحفل.

- هل أنت متأكد؟ لقد اعتقدتُ أنك تريد مني الذهاب إلى المكتبة.

- كان هذا عندما كانت خطتنا أن نتركه هنا بينما أذهب لاستدعاء عربتي. أما الآن، فلا يمكننا فعل هذا بعد أن أفاق.

أومأت دافني بالموافقة، ثم سألته:

- هل أنت واثقٌ أن بإمكانك فعل ذلك؟ إن نايجل رجلٌ ضخم.

- أنا أضخم منه.

مالت دافني برأسها متفحصة. كان الدوق –على الرغم من إنحنائه– قوي البنية، عريض المنكبين، ويتمتع بساقين مفتولتي العضلات. كانت دافني تعلم أنه ما كان من المفترض لها أن تلحظ مثل تلك الأشياء، لكن حقًّا، تُرى هل كان هذا خطؤها هي أن الملابس العصرية الحالية تفرض تلك السراويل الضيقة؟ ومما يزيد الطين بلة، أنه كان يتمتع بأسلوب معين، شيء يشي بأسلوبٍ حاد مفترس، شيء يُلمِّح بقوة ونفوذ تقع تحت مراقبة صارمة منه.

وإلى هنا أقرت دافني أنه بلا شك قادر على نقل نايجل.

- جيد جدًا، وشكرًا لك. لقد كان لُطفًا منك أن تساعدني بتلك الطريقة.

قالت دافني بينما كانت تمنحه إيماءةً مشجعة، فتمتم مجيبًا:

- نادرًا ما أكون لطيفًا.

- حقًّا؟

تمتمت دافني وهي تسمح لنفسها بابتسامة رقيقة، ثم أضافت:

- كم هذا غريب! لا يمكنني أن أفكر في أي شيء آخر أُطلِقه على ما تقوله. ولكنني مجددًا أقول لك: لقد عَرَفتُ أن الرجال...

- تبدين مثل خبيرة في طبيعة الرجال.

قال سايمون بطريقة لاذعة، ثم تنهَّد عابسًا وهو يسحب نايجل ليقف على قدميه.

وعلى الفور تمكن نايجل من الوصول إلى دافني؛ فقد كان من الناحية العملية ينتحب ناطقًا باسمها. واضطر سايمون إلى محاصرة ساقيه حتى يمنعه من الاندفاع نحوها.

قفزت دافني خطوةً إلى الخلف، ثم قالت:

- أجل. حسنًا، ترى أنني أملك أربعة أشقاء. ولا أتخيل أن بإمكاني الحصول على تعليم أفضل من هذا.

لم يكن هناك طريقة للتأكد مما إذا كان الدوق قد قرر منحها إجابة، لأن نايجل قد اختار تلك اللحظة ليستعيد قوته –على الرغم من أنه كان واضحًا أنه لم يستعد اتزانه– ويحرر نفسه من قبضة سايمون. وألقى بنفسه بين أحضان دافني، بينما يصدر منه ضجيج عشوائي يشي بالثمالة.

ولو لم تكن دافني مستندةً بظهرها إلى الحائط، لسقطت أرضًا من أثر اندفاعه إليها. وكما كان الوضع، ارتطم ظهرها بالحائط، وكان ارتطامًا مكتومًا تتنافر معه العظام، وكان أن سحب جميع ذرات الهواء من جسدها.

- يا إلهي، بحق الله!

أطلق الدوق وابلًا من السُباب، وبدا كما لو كان الاشمئزاز قد بلغ منه مبلغًا عظيمًا. وسحب نايجل مُبعِدًا إياه عن دافني، ثم استدار نحوها قائلًا:

- هل لي أن ألكمه؟

- أجل، من فضلك، تفضل.

أجابت دافني وهي لا تزال تحاول التقاط أنفاسها. كانت قد حاولت أن تكون لطيفة وكريمة نحو خاطبها السابق، لكن حقًا، لقد طفح الكيل.

تمتم الدوق بشيء ما بدا وكأنه قال: «جيد»، ثم وجه لكمة قوية صلبة إلى ذقن نايجل.

فسقط نايجل أرضًا ساكنًا كالحجر.

عندئذٍ فكّرت دافني بالرجل الراقد على الأرض بشيء من الرزانة ورباطة الجأش، فقالت:

- لا أعتقد أنه سيستيقظ هذه المرة.

هزَّ سايمون قبضته قليلًا، وأجاب:

- كلا.

أغمضت دافني عينيها للحظة، وتطلعت نحوه ثانيةً:

- شكرًا لك.

- هذا من دواعي سروري.

أجاب سايمون بينما يتطلع نحو نايجل بوجوم حاد.

- ماذا سنفعل الآن؟

كانت نظراتهما قد تلاقت عند النقطة التي يرقد فيها الرجل على الأرض -الذي بدا الآن أفضل حالًا وفاقدًا للوعي تمامًا-.

- سنعود إلى الخطة الأصلية؛ سنغادر ونتركه هنا، بينما تنتظرين في المكتبة. لا أفضِّل أن أسحبه إلى الخارج حتى تحضر العربة منتظرة في الخارج.

أجاب بوضوحٍ تام، فأومأت دافني بتفهُّم.

- هل تحتاج إلى مساعدة في تصحيح وضعه؟ أم إنه من الأفضل أن أتابع طريقي مباشرة نحو المكتبة؟

التزم الدوق بالصمت لبرهة، وكان رأسه مائلًا بطريقة ما تشي بوضعية تحليل لوضع نايجل على الأرض. ثم أجاب:

- في الحقيقة، القليل من المساعدة سيكون أمرًا عظيمًا أُقَدِّره.

- حقًّا؟ لقد كنتُ واثقةً من رفضك.

سألت دافني باندهاش.

أما سؤالها، فقد قُوبِلَ بنظرة دهشة واستغراب من الدوق.

- ألهذا سألتِ؟

- كلا، بالطبع لا. أنا لست غبية لأعرض مساعدة ما لم تكن لدي النية لمنحها. لقد كُنتُ على وشك أن أوضِّح أن الرجال من واقع خبرتي...

أجابت دافني بينما تشعر بقليل من الاستياء والإهانة، وذلك قبل أن يقاطعها سايمون متمتمًا بصوتٍ خافت:

- أرى أن لديكِ الكثير من الخبرة.

- ماذا؟!

- أستميحكِ عذرًا، هل تعتقدين حقًّا أنكِ تمتلكين الكثير من الخبرة؟

حدَّقت دافني إلى وجهه، بينما كانت عيناها الداكنتان تستحيلان إلى السواد.

- هذا ليس صحيحًا، ومن أنت لتقول هذا على أي حال؟

- كلا، هذا غير صحيح أيضًا.

أجابها الدوق بينما كان مستغرقًا في التفكير، ومتجاهلًا تمامًا سؤالها الغاضب. ثم تابع:

- أعتقد أن الأمر أكثر مما أعتقد أنا؛ باعتقادكِ أنكِ تملكين الكثير من الخبرة بشأن الرجال.

- لماذا أنت...؟ أنت...؟

في الوقت الذي نطقت فيه دافني ردها، لم يكن فعالًا كما يجب أن يكون، لكنه كان كل ما تمكنت من قوله. واتضح أن مَلَكة الحديث لديها تميل إلى خذلانها عندما تكون غاضبة.

وكانت مثل بحر متلاطم الأمواج حقًّا.

قال سايمون باستهجان –دون أن يتأثر بطليعتها الثائرة–:

- عزيزتي الآنسة بريدجرتون...

- إن ناديتني بتلك العبارة مرة أخرى، أقسم لك إنني سأصرخ.

- كلا، لن تفعلي. هذا سيستدعي حضور الكثيرين، وإذا كنتِ تذكرين، فأنتِ لم ترغبي أن يراكِ أحدٌ برفقتي.

أجاب سايمون بابتسامة بذيئة.

- أفكر في المخاطرة بالأمر.

أجابت دافني، وكانت تصرُّ على أسنانها مع كل كلمة تنطق بها.

عقد سايمون ذراعيه، ومال بكسلٍ على الحائط، ثم أردف متشدقًا:

- حقًّا؟ أما هذا فأود أن أراه.

كادت ذراعا دافني أن تنخلعا غيظًا واستياءً.

- انسَ الأمر. انسَ وجودي. انسَ تلك الليلة بأكملها. سأغادر.

استدارت، ولكن قبل أن تتمكن حتى من أن تخطو خطوتها الأولى، تجمدت حركتها من وقع صوت الدوق، إذ قال:

- اعتقدتُ أنكِ ستساعدينني.

سُحقًا! لقد استحوذ على الموقف الآن. التفتت لتواجهه ببطء.

- لماذا؟ أجل، سأكون مسرورة بذلك.

أجابته دافني وقد بدا تمامًا على نبرة صوتها الزيف والافتعال.

- تعلمين أنكِ إن لم ترغبي في المساعدة، فليس عليكِ...

قال سايمون ببراءة، إلا إنها أجابت بافتعال:

- لقد قُلتُ إنني سأساعد.

ابتسم سايمون في نفسه. لقد كانت هدفًا يسهل التلاعب به.

- هذا ما سنفعله؛ سأقوم بسحبه حتى يقف على قدميه، وأثني ذراعه اليمنى على كتفي، وستذهبين أنتِ من الجانب الآخر وتسندينه.

فعلت دافني كل ما طُلِبَ منها، متذمرةً في نفسها بشأن سلوكه المستبد. لكنها لم تنطق بشكوى واحدة حتى؛ ففي نهاية الأمر، ها هو دوق هاستنجز يساعدها للخروج من فضيحة مُحرِجة. وربما كان هذا جزاء جميع تصرفاته المزعجة.

بالطبع إن وجدها أحد في هذا الوضع، ستجد نفسها في مضايقات حتى أسوأ مما تعرَّضت له الليلة.

- لديَّ فكرةٌ أفضل؛ دعنا نتركه هنا.

قالت فجأة.

حرك الدوق رأسه حتى يواجهها، وبدا كما لو أنه سيرحب تمامًا بأن يلقي بها من أي نافذة -مُفَضِّلًا أن تكون النافذة مغلقة-.

- اعتقدتُ...

أجاب أخيرًا، وبدا أنه يعمل بجد حتى يحافظ على صوته هادئًا. ثم تابع:

- أنكِ لا ترغبين في تركه على الأرض.

- كان هذا قبل أن يرطمني بالحائط.

- هل كان من الممكن أن تخبريني بأي تغيير في رأيكِ قبل أن أضيِّع طاقتي في حمله؟

ارتبكت دافني. لقد كانت تكره الرجال الذين يعتقدون أن النساء كائنات ذوات طبيعة متقلبة ومتغيرة، وكانت تكره أيضًا أن تعيش حياتها تتسم بتلك الصورة في تلك اللحظة.

- حسنًا.

قال سايمون بهدوء، وأسقط نايجل على الأرض.

وإذ تركه يسقط أرضًا، كاد وزن نايجل المُفاجئ أن يطرح دافني أرضًا أيضًا. وسمحت هي لصرخة مفاجئة أن تأخذ طريقها إلى الأجواء بينما كانت تتفادى الوقوف في طريق سقوطه بسرعة.

- والآن، هل يمكننا الرحيل؟

سأل الدوق، وبدا صبورًا على نحو لا يُحتَمَل.

أومأت بتردد، ومتطلعةً إلى نايجل، الراقد على الأرض.

- يبدو وكأنه غير مرتاحٍ هكذا، ألا تعتقد ذلك؟

حدَّق سايمون إلى وجهها، واكتفى فقط بتحديقه إليها. ثم سألها أخيرًا.

- هل أنتِ قلقة بشأن راحته؟

هزَّت رأسها في توتر، ثم أومأت إيجابًا، ثم عادت مرة أخرى لتهز رأسها نفيًا.

- ربما يجب أن –هذا مجرد اقتراح–.. والآن، انتظر لحظة فقط.

جثمت دافني بركبتيها على الأرض، وقامت بثني ساقه حتى يرقد مستقيمًا على ظهره.

- لا أعتقد أنه يستحق رحلةً إلى منزله بعربتك.

أوضحت فكرتها بينما كانت تعيد ترتيب معطفه. ثم أضافت:

- ولكن بدا أنه من القسوة أن أتركه هنا في هذا الوضع. والآن، ها قد انتهيت.

نهضت دافني واقفة، وتطلعت نحوه إلى أسفل.

بالكاد استطاعت أن تلقي نظرة إلى الدوق، وهو يسير مبتعدًا عنهما، ويتمتم بشيء عن دافني، وشيء آخر عن النساء جميعًا، وشيء آخر لم تلتقطه أذنا دافني تمامًا.

وربما كان من الأفضل أن أذنيها لم تلتقطا شيئًا؛ ففي نهاية الأمر كان يراودها شكٌ في أن ما قاله كان مجاملة لهن.

الفصل الرابع

جريدة المجتمع **28 من أبريل 1813**

إن شوارع لندن تعجُّ تلك الأيام بالأمهات الطموحات؛ ففي حفل ليدي وورث الأسبوع الماضي، رأت كاتبة هذا المقال ما لا يقل عن أحد عشر عَزَبًا معروفين جميعًا، يرتعدون في الأركان، ويفرون من المبنى على الفور، وفي أعقابهم الأمهات الطموحات يطاردنهم.

تعلمون أنه من الصعب تحديد الأسوأ في مجموعة المبتدئات، إلا إن كاتبة هذا المقال تظن أن المنافسة قد تنتهي بين ليدي بريدجرتون والسيدة فيذرنجتون؛ حيث تتفوق السيدة فيذرنجتون على ليدي بريدجرتون بأمر غاية في الوضوح. فهناك ثلاث آنسات من عائلة فيذرنجتون قد حضرن موسمهن الأول الآن، في حين أن ليدي بريدجرتون لا تحتاج سوى إلى القلق على فتاة واحدة فقط في نهاية الأمر.

ومع ذلك يُنصَح لجميع الأشخاص الخائفين على سلامتهم، والواعين بها، بالابتعاد عن حلبة المنافسة، الابتعاد تمامًا عن المحصول الأخير من الرجال غير المتزوجين، عندما تصل فتيات عائلة بريدجرتون: إلويز، وفرانشيسكا، وهياسنث إلى سن الزواج. ومن غير المحتمل أن تتطلع ليدي بريدجرتون يمينًا ويسارًا عندما تسير بسرعة عبر قاعة الرقص برفقة ثلاثٍ من فتياتها يسرن خلف بعضهن. وندعو الله بالرحمة إذا قررت انتعال أحذية ذات مقدمة معدنية.

ليدي ويسلداون

اعتقد سايمون أنه لا يمكن لليلة واحدة أن تصير أسوأ مما هي عليه الآن، فلم يكن ليصدق ما حدث معه في أي وقت آخر. إلا إن لقاءه العجيب بالآنسة دافني بريدجرتون قد اتضح حقًا أنه نقطة التحول في تلك الأمسية. أجل، فقد قفز الرعب في قلبه إذ اكتشف رغبته –حتى وإن كانت رغبة ضعيفة– في الشقيقة الصغرى لأقرب أصدقائه. صحيحٌ أن محاولات نايجل بيربرووك الوقحة في إغرائها قد أساءت إلى كل إحساس من أحاسيسه المنحلَّة. وصحيحٌ أن دافني بريدجرتون قد أثارت حنقه إلى حدٍّ يفوق التحمل؛ بسبب ترددها حول ما إذا كُنَّا سنتعامل مع نايجل باعتباره مجرمًا، أم الاهتمام به مثلما كانت ستفعل مع صديقتها المقرَّبة.

لكنَّ أيًّا من ذلك –ولا حتى جزءًا بسيطًا منه– يمكن أن يُقارَن بالعذاب الذي كان عليه تحمله حتى النهاية.

فقد كانت خطته فائقة الذكاء، التي تعده بالتسلل خفية إلى قاعة الرقص، وتقديم تحياته إلى ليدي دانبيري، ثم مغادرة الحفل دون أن يلاحظه أحد، قد آلت إلى فشل مُحَقَّق على الفور. فلم يكن قد خطا خطوتين بعد في قاعة الرقص حين ميَّزه أحد أصدقائه القدامى في أكسفورد، والذي كان قد تزوج مؤخرًا. وقد كانت هذه المصادفة من سوء حظ سايمون؛ فقد كانت زوجة صديقه واحدة من السيدات الشابات ذوات الحُسن التام، لكنها لسوء الحظ كانت واحدة من النساء اللاتي يتمتعن بطموحاتٍ اجتماعية عالية، وقد اتخذت قرارها بسرعة بأن طريقها إلى السعادة يمر عبر وضعها بصفتها السيدة الوحيدة التي قدَّمت الدوق الجديد إلى المجتمع. واكتشف سايمون –على الرغم من أنه دائمًا ما كان يتخيل نفسه من هذا النوع الساخر الناقم على العالم– أنه لم يكن بتلك الفظاظة حتى يهين زوجة صديقه الجامعي القديم مباشرةً.

ولذلك، فقد مرت ساعتان، وقد تعرف سايمون إلى كل سيدة غير متزوجة في الحفل الراقص. بالطبع نقصد كل أمٍّ لديها فتاةٌ غير متزوجة، وبالطبع كل شقيقة كُبرَى متزوجة لديها شقيقة أخرى غير متزوجة في الحفل الراقص. أما سايمون، فقد عجز عن تحديد أي مجموعة من النساء كانت أسوأ من غيرها. كانت السيدات الشابات غير المتزوجات مملات حتمًا، والأمهات يتمتعن بطموحٍ مزعج، أما الشقيقات الكبريات.. حسنًا، يمكننا القول إن الشقيقات كن جريئات، حتى إن سايمون قد تعجب مما إذا كان قد وقع في

أحد المواخير. كانت ست سيدات منهن قد قدمن تلميحات مكشوفة؛ فقد مرَّرت اثنتان منهن إليه ورقاتٍ تدعيانه فيها إلى مخدعَيهما، وواحدة أخرى قد تحسست فخذه بيديها حقًّا.

ولذلك، عند التفكير في الأحداث الماضية، كانت دافني بريدجرتون قد بدت في نظره فتاة جيدة حقًّا.

وبالحديث عن دافني، أين هي الآن يا ترى؟ كان سايمون قد تذكر أنه قد لمح طيفها في مكانٍ ما منذ ساعة تقريبًا، مُحاطةً بأشقائها الكبار المُنَفِّرين –ليس وكأن سايمون قد وجدهم منفرين لشخصهم، ولكن قد قرر سريعًا أن أي رجل سيفكر في إثارة غضب تلك المجموعة سيكون حتمًا رجلًا أبله–.

ولكن بما أنه قد اتضح اختفاؤها من الحفل. فقد فكر حتمًا أنه ربما كانت دافني هي الفتاة الوحيدة غير المتزوجة في الحفل التي لم يتعرَّف إليها، على الرغم من أنها أول من قابله في الحفل.

لم يكن سايمون قلقًا على نحو خاص بشأن انزعاجها من وجود بيربرووك بعدما ترك الحفل. فقد كان سايمون قد سدَّد لكمة قوية إلى عظام فك الرجل، وظل فاقدًا وعيه لعدة دقائق، وربما مدةً أطول من ذلك إذا وضعنا في الاعتبار الكميات الهائلة من الكحول التي تجرعها بيربرووك مبكرًا هذا المساء. وحتى إذا كانت دافني حمقاء طيبة القلب عندما يتعلق الأمر بخاطبها الأحمق، إلا إنها لم تكن بهذا الغباء لتبقى في الرواق برفقته حتى يستيقظ.

اختلس سايمون نظرة إلى الزاوية التي تجمع فيها الإخوة بريدجرتون، فبدا وكأنهم يقضون وقتًا رائعًا. كانوا قد تعرضوا للتحرش من عدد من السيدات الشابات وأمهاتهن يضاهي ما تعرض له سايمون، ولكن على الأقل بدا وكأنهم يتمتعون ببعض الأمان في هذا التجمع الضخم. ولاحظ سايمون أن المبتدئات الشابات لا يقضين نصف ما يقضينه من الوقت برفقة عائلة بريدجرتون، كما يفعلن برفقته.

ولذلك فقد أرسل سايمون نظرةً عابسة في اتجاههم.

أما أنطوني، الذي كان يستند إلى الحائط في كسل، كان قد أدرك تعبير سايمون، وأجابه بابتسامة متكلفة، ورفع كأسًا من النبيذ الأحمر لتحيته، ثم مال برأسه قليلًا، مشيرًا إلى يسار سايمون. التفت سايمون في الوقت المناسب، حتى تستحوذ عليه واحدة أخرى من الأمهات، وقد كان برفقة تلك

الأم ثلاث فتيات، جميعهن يرتدين فساتين مزخرفة شديدة البشاعة، زاخرة بالثنيات والكشكشات والأهداب، وبالطبع أكوام مُكدسة من أربطة الدانتيلا.

تذكر الدوق دافني؛ بفستانها الأخضر الناعم البسيط. يا إلهي! دافني؛ بعينيها البنيتين الصارختين، وابتسامتها الواسعة...

- يا صاحب الجلالة! يا صاحب الجلالة!

صاحت الأم بصوتٍ حاد.

طرفت عينا سايمون عدة مرات كي تتضح له الرؤية، فقد تمكنت العائلة المغطاة بأشرطة الدانتيلا من الإحاطة به بكفاءة تامة، حتى عجز عن اختلاس نظرة سريعة في اتجاه أنطوني.

- يا صاحب الجلالة. إنه لشرفٌ لي أن أتعرف إلى سيادتكم.

وجه سايمون إليها إيماءة مقتضبة. كانت الكلمات خارج نطاق قدرته في تلك اللحظة؛ فقد أحكمت تلك المجموعة من السيدات الاقتراب منه كثيرًا، حتى خشي أن يختنق بينهن.

- لقد أرسلتنا جورجيانا هوكسلي إلى سيادتكم؛ فقد قالت إنه من الواجب عليَّ تقديم فتياتي إليك.

تابعت المرأة حديثها.

بالطبع لا يتذكر سايمون من هي جورجيانا هوكسلي، لكنه فكر في أنه إن قابل تلك المرأة ذات مرة فربما سيخنقها بيديه.

- عادةً لا أكون بتلك الجرأة، لكن والدك العزيز كان صديقًا شخصيًّا لي.

تابعت المرأة دون توقف.

تجمدت أوصال سايمون في موضعه.

- لقد كان رجلًا رائعًا حقًّا؛ عالمًا تمام العلم بواجباته نحو اللقب الذي يحمله. لا بد وأنه كان أبًا رائعًا أيضًا.

لا تزال تلك المرأة مستمرة في حديثها، حتى كان صوتها الحاد مثل مسامير تُدَقُّ في جمجمته.

- لم أكن لأعلم.

أجاب سايمون وقد صرَّ على أسنانه.

- حقًّا!

حاولت المرأة تنظيف حلقها عدة مرات قبل أن تجد ما تقوله:

- أجل، حسنًا. يا إلهي.

لم يقل سايمون شيئًا، متمنيًا لو أن بعضًا من السلوك المتحفظ سيدفعها إلى المغادرة. ما هذا الابتلاء؟ أين هو أنطوني؟ كان الوضع سيئًا بما يكفي حتى يحظى أيضًا بتلك السيدات اللاتي يتصرفن كما لو أنه حصان جوائز ويحتاج إلى الرعاية. ولكن كان عليه أن يقف هناك في موضعه، ويستمع إلى تلك المرأة تخبره كيف كان الدوق القديم أبًا جيدًا.

لم يستطع سايمون تحمل الأمر أكثر من ذلك.

- يا صاحب الجلالة! يا صاحب الجلالة!

أجبر سايمون عينيه الباردتين على مواجهة المرأة الواقفة أمامه مرة أخرى، وأقنع نفسه بأن يكون أكثر صبرًا معها؛ ففي نهاية الأمر ربما كانت تمدح والده لأنها اعتقدت أن هذا ما سيود الدوق الجديد سماعه.

- ربما أكون في حاجة إلى تذكيركم أننا قد تعرَّفنا منذ عدة سنوات، عندما كُنتَ لا تزال في كلايفيدون.

- أجل.

تمتم سايمون، بينما كان يبحث عن شرخٍ في حاجز السيدات، ربما يتمكن من الهرب من خلاله.

- هؤلاء هنَّ فتياتي.

قالت المرأة مشيرة إلى السيدات الشابات الثلاث. كانت اثنتان منهن حسناوي المنظر، أما الثالثة؛ فكانت لا تزال متخفية في سمنة الطفولة، بفستانها البرتقالي، الذي لم يحدث أي فارقٍ مع لون بشرتها. وبدا أنها لا تستمتع بالحفل أيضًا.

- ألسن سيدات لطيفات؟ إنهن فخري وسروري. وتراهن معتدلات المزاج طوال الوقت.

تابعت المرأة.

انتاب سايمون شعور بالغثيان، فقد كان واثقًا من أنه قد سمع تلك الكلمات نفسها عندما كان يشتري كلبًا.

- يا صاحب الجلالة، هل تسمح لي بتقديم برودينس وفيليبا وبينلوبي!

انحنت الفتيات احترامًا، ولم تجرؤ أي واحدة منهن على مقابلة عينيه.

- لديَّ فتاة أخرى في المنزل، تُدعى فيلستي؛ إنها في عمر العاشرة الآن، لذلك لا أحضرها إلى مثل تلك الحفلات.

تابعت المرأة دون توقف.

لم يتخيل سايمون السبب وراء شعورها بالحاجة إلى مشاركة مثل تلك المعلومات معه، ولكنه حافظ على نبرة صوته حتى تظل مملة بحذر –وهذا ما تعلمه منذ وقتٍ طويل، فقد كانت أفضل طريقة يكبح بها جماح غضبه–، ثم قال:

- وأنتِ...؟

- أوه، أستميحك عذرًا! أنا السيدة فيذرنجتون بالطبع. تُوفي زوجي منذ ثلاثة أعوام، لكنه كان الصديق المقرب من والدك.

ضعفت نبرة صوتها عند نهاية الجملة، إذ تذكرت التعبير الأخير الذي أظهره سايمون عندما ذُكِرَ والده.

وهنا أومأ سايمون باقتضاب.

- إن بروديتس هنا بارعة للغاية في العزف على البيانو.

قالت السيدة فيذرنجتون بإشراقة مُفتَعَلة.

فلاحظ سايمون التعبير المؤلم على وجه الفتاة الكبرى، وقرر في اللحظة ذاتها ألا يحضر أي حفل موسيقيٍّ عند عائلة فيذرنجتون أبدًا.

- وعزيزتي فيليبا خبيرةٌ في الرسم بالألوان المائية.

وهنا ابتسمت فيليبا بابتهاج.

- وماذا عن بينلوبي؟

كان شيء ما بداخل سايمون قد دفعه إلى طرح هذا السؤال.

وجَّهت السيدة فيذرنجتون نظرة هلع إلى ابنتها الصُغرى، التي بدت بائسة إلى حدٍّ كبير. لم تكن الصغيرة بينلوبي غايةً في الجاذبية، والأدهى من ذلك أن قوامها البدين لم يتحسن بطريقة ما، بسبب ما اختارته والدتها من ثياب لها. ولكن يبدو أنها تتمتع بعينين جذابتين.

- بينلوبي؟

تردد صوت السيدة فيذرنجتون حتى طغت عليه مسحةٌ من الصراخ. ثم تابعت:

- بينلوبي... أجل... حسنًا، إنها بينلوبي!

وارتعش فمها قليلًا، حتى ظهرت على محياه ابتسامة واضحة الزيف.

بدت بينلوبي وكأنها تريد الاختباء تحت البساط. فقرر سايمون أنه لو أُجبِرَ على الرقص، فسيطلب بينلوبي للرقص معه.

- سيدة فيذرنجتون!

أتى صوتٌ حاد ومتعجرف لا يصدر إلا من ليدي دانبيري فقط. ثم تابعت:

- هل تزعجين الدوق؟

كان سايمون راغبًا في أن يكون جوابه تأكيدًا على استنتاج ليدي دانبيري، لكنه إذ تذكَّر وجه بينلوبي فيذرنجتون الخجل، عدل عن جوابه، حتى تمتم قائلًا:

- كلا بالطبع.

رفعت ليدي دانبيري حاجبها إذ مالت برأسها قليلًا نحوه، ثم قالت:

- كاذب!

ثم التفتت إلى السيدة فيذرنجتون، التي شحب وجهها فجأة. بالطبع لم تنطق السيدة فيذرنجتون بشيء قط، وكذلك لم تفعل ليدي دانبيري. إلا إن عائلة فيذرنجتون قد همهمت بشيء حول رؤية أبناء عمومتها، فسحبت فتياتها وهرولت مبتعدة.

عقد سايمون ذراعيه، لكنه لم يكن قادرًا على الاحتفاظ بوجهه خاليًا من الدهشة تمامًا.

- لم يكن هذا فعلًا جيدًا منكِ.

- يا للقرف! لقد كانت تضع الريش في رأسها، وكذلك فتياتها، ربما باستثناء ابنتها الصغيرة القميئة.

هزَّت السيدة دانبيري رأسها، ثم تابعت:

- ربما لو كانت قد ارتدت لونًا مختلفًا...

حاول سايمون مكافحة ضحكة مكتومة، حتى خسر الحرب.

- أنتِ لم تتعلمي قط ألا تتدخلي فيما لا يعنيكِ، أليس كذلك؟

- أبدًا. ولكن من أين سيأتي المرح؟

وابتسمت ليدي دانبيري. وكان بإمكان سايمون أن يرى عدم رغبتها في إظهار تلك الابتسامة. إلا إنها ابتسمت على أي حال.

- أما فيما يتعلق بك أنت؛ فأنت ضيفٌ بشع. سيعتقد المرء أنك تمتلك السلوكيات السليمة، حتى تقدم التحية لمضيفتك في هذا الوقت.

- دائمًا ما تكونين مُحاطَة تمامًا بالمُعجَبين بكِ، حتى إنني لا أجرؤ على الاقتراب.

- طليق اللسان.

قالت ليدي دانبيري مُعَلِّقة.

لم يقل سايمون شيئًا، فما كان واثقًا تمامًا كيف يفسر كلماتها. وكان دائمًا ما يعتريه الشك في أنها تعرف سره، لكنه لم يكن واثقًا من ذلك يومًا.

- صديقك بريدجرتون يقترب.

قالت ليدي دانبيري بإيماءة منها.

تتبعت عينا سايمون اتجاه إيماءتها. كان أنطوني يسير متمهلًا نحوهما، وكان على بعد جزء من الثانية منهما، قبل أن تناديه ليدي دانبيري بالجبان.

طرفت عينا أنطوني، ثم قال:

- أستميحكِ عذرًا؟

- كان بإمكانك أن تأتي لتُنقِذَ صديقك من براثن عائلة فيذرنجتون منذ وقتٍ طويل.

- لكنني كنتُ مستمتعًا بتعاسته وكدره.

- أُففف!

ودون انتظار كلمةٍ أخرى –أو نذالة أخرى– سارت مبتعدةً عنهما.

- أغرب السيدات العجائز. لن أكون دَهِشًا إن كانت هي نفسها تلك المرأة ويسلداون الملعونة.

قال أنطوني.

- أتقصد كاتبة عمود الفضائح؟

أومأ أنطوني، بينما يقود سايمون حول شتلة من النباتات إلى الزاوية التي ينتظر فيها أشقاؤه. وبينما كانا يسيران، ضحك أنطوني قائلًا:

- لقد لاحظتُ أنك تحدثت مع عددٍ من السيدات الشابات الملائمات.

همهم سايمون بكلماتٍ بذيئة غير لائقة بصوتٍ خافت.

لكن أنطوني اكتفى بالضحك، ثم قال:

- لا تقل إنني لم أحذرك.

- إنه لأمرٌ مزعج أن أعترف أنك كنت على حق بشأن أي شيء، لذلك أرجو ألا تطلب مني ذلك.

علت ضحكات أنطوني شيئًا فشيئًا، ثم قال:

- عقابًا لك على هذا التعليق، ربما أبدأ بتقديمك للسيدات المبتدئات بنفسي.

- إن فعلت ذلك، فستجد نفسك قريبًا تموت ميتة بطيئة ومؤلمة.

قال سايمون محذِّرًا، فضحك أنطوني ثم قال:

- بالسيف؟ أم بالبندقية؟

- أوه، بالسم، بالتأكيد بالسم.

- آخ!

أنهى أنطوني جولته في قاعة الرقص أمام رجلين آخرين من عائلة بريدجرتون، اللذين بديا واضحين وسط الجموع بشعرهما الكستنائي، وطولهما الفارع، وبنيتهما القوية. ولاحظ سايمون أن أحدهما يمتلك عينين خضراوين، في حين كان الآخر يمتلك عينين بنيتين مثل أنطوني، لكن بخلاف ذلك، كان ضوء الأمسية الخافت قد ترك أثره على الرجال الثلاثة تمامًا، حتى صار من الصعب تمييز أحدهم من الآخر.

- بالتأكيد تذكر أشقائي؟

تساءل أنطوني بتهذيب.

- بيندكت، وكولين. أنا واثقٌ أنك تتذكر بيندكت من مدرسة إتون؛ لقد كان يتتبع خطواتنا طوال ثلاثة أشهر عندما وصل إلى المدرسة لأول مرة.

- ليس صحيحًا!

قال بيندكت ضاحكًا. ثم استكمل أنطوني قائلًا:

- لا أدري حقًّا إن كُنتَ قد قابلت كولين من قبل. فربما كان حينها أصغر من أن تلتقي دروبكما.

- سعيدٌ برؤيتك.

قال كولين في سعادة.

لاحظ سايمون ومضة الشغب في عيني السيد الشاب الخضراوين، ولم يستطع إلا أن يرد ابتسامته. ثم تابع كولين حديثه وابتسامة ماكرة تتسع شيئًا فشيئًا على محياه:

- لقد أخبرنا أنطوني أمورًا مهينة بشأنك، حتى إنني واثقٌ من أننا سنكون أصدقاء مقربين.

قلَّبَ أنطوني عينيه وقال:

- أنا واثقٌ أنك تفهم الآن السبب وراء اقتناع أمي بأن كولين سيكون الأول من أبنائها الذي يدفعها نحو هاوية الجنون.

- في الحقيقة هذا مدعاةٌ لي لأفخر بنفسي.

أجاب كولين.

- حمدًا لله، فقد استراحت أمي مهلة قصيرة من مفاتنه الرقيقة وطيشه. في الحقيقة لقد عاد كولين للتو من جولة كبيرة في أنحاء القارة.

استكمل أنطوني.

- هذا المساء للتو.

أجاب كولين بضحكة صبيانية. كان كولين يمتلك نظرة شبابية مستهترة، وعندها فكر سايمون أنه لا يمكن أن يكون أكبر من دافني بكثير.

- لقد عُدتُ من رحلاتي للتو أيضًا.

قال سايمون.

- أجل، باستثناء أن رحلاتك تتضمن التجوال حول العالم كما أسمع. سأرغب في الحديث معك عن أسفارك يومًا ما.

قال كولين. فأومأ سايمون في تهذيب:

- بالتأكيد.

- هل قابلت دافني؟ إنها الوحيدة من أفراد عائلة بريدجرتون الحاضرين التي فقدنا أثرها.

تساءل بيندكت.

كان سايمون يفكر في أفضل طريقة للإجابة عن هذا السؤال، عندما أطلق كولين صيحةً مفاجئة وقال:

- ها هي دافني! ماثلةٌ أمامنا. بائسة، لكنها حاضرة.

جاب سايمون الغرفة بنظرته، حتى وصل إلى المكان الذي تقف فيه دافني بجوار أمها. تبدو تمامًا مثلما قال كولين؛ بائسة، فلا مزيد على ما تمتلكه من البؤس.

ثم أدرك لتوه أن دافني واحدة من السيدات الشابات غير المتزوجات المخيفات، وبالتالي فإن أمها تستعرضها أمام الجميع. لقد بدت شخصًا أكثر عقلًا وصراحةً من أن تكون هذا المخلوق المخيف، ومع ذلك بالطبع هذا ما يتعين عليها أن تكونه. لا يمكن أن تكون قد كسرت حاجز العشرين من عمرها، وبما أن اسمها الأخير لا يزال بريدجرتون، فهذا يعني أنها ما زالت بِكرًا. وبما أن والدتها حاضرة.. حسنًا، بالتأكيد ستكون محاصرةً بدائرة مفرغة من التعارفات.

بدت دافني في كل جزء منها متألمة من هذا الموقف، مثلما تألم له سايمون أيضًا. ولكن بطريقة ما جعله هذا المشهد يشعر بكثير من التحسن.

- على أحدنا أن يذهب لإنقاذها.

قال بيندكت مفكرًا.

- كلا. لقد احتجزتها أمي هناك برفقة ماكليسفيلد لعشر دقائق فقط.

أجاب كولين ضاحكًا.

- من هو ماكليسفيلد؟

تساءل سايمون.

- ابن الإيرل كاسيلفورد.

أجاب بيندكت.

- عشر دقائق؟ أيها المسكين ماكليسفيلد.

قال أنطوني. إلا إن سايمون قد وجه إليه نظرة فضول وحيرة، فتدارك أنطوني الوضع، وقال:

- الأمر ليس وكأن دافني شخصٌ رتيب، لكنه عندما تضع أمي في رأسها أمرَ... آه...

- استهداف...

ملأ بيندكت هذا الفراغ بشكل مفيد.

- الزواج من رجلٍ نبيل...

تابع أنطوني حديثه بإيماءة شكرٍ نحو شقيقه، ثم أضاف:

- يمكنها أن تكون.. آه...

- شديدة البأس.

قال كولين.

- أجل، بالضبط.

ابتسم أنطوني في وهن.

تطلع سايمون من وراء كتفه في اتجاه الثلاثي موضع النظر. من المؤكد بما يكفي أن دافني تبدو بائسة، وماكليسفيلد يتفحص الغرفة، فربما كان يبحث عن أقرب مخرج. وعينا السيدة بريدجرتون تلمعان ببريق الطموح، حتى إن سايمون قد انكمش خوفًا في تعاطف مع الإيرل الشاب.

- يجب أن ننقذ دافني.

قال أنطوني.

- أجل، يجب علينا ذلك.

أضاف بيندكت.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- وماكليسفيلد أيضًا.

قال أنطوني مجددًا.

- أوه، بالتأكيد.

أضاف بيندكت.

لكن سايمون لاحظ أنه لا أحد منهم قد أسرع إلى التنفيذ.

- مجرد كلام، أليس كذلك؟

قال كولين ضاحكًا.

- لم أرَك أنت تسير إلى هناك لإنقاذها.

قال أنطوني رادًّا للهجوم.

- بالطبع لا. لكنني لم أقل قط إن علينا فعل ذلك، أما أنت، فمن ناحية أخرى...

- ماذا يحدث هنا؟

خرج سايمون عن صمته أخيرًا وألقى بسؤاله.

ألقى الأشقاء بريدجرتون الثلاثة إليه تعبيرات إدانة متطابقة.

- يجب علينا حقًّا أن ننقذ داف.

قال بيندكت.

- أجل، يجب علينا حقًّا.

أضاف أنطوني.

- ما يخشى إخوتي الجبناء قوله لك هو أنهم خائفون من أمي.

قال كولين ساخرًا.

- هذا صحيح.

أجاب أنطوني، وهزَّ كتفيه في ضعف وقلة حيلة. فأومأ بيندكت:

- وأنا أعترف بذلك تمامًا.

ظنَّ سايمون أنه لم يرَ من قبل مشهدًا أكثر سخافة من هذا. ففي نهاية المطاف هؤلاء هم الإخوة بريدجرتون؛ طويلو القامة، مليحو الوجه، ذوو جسم رياضي، وكل فتاة شابة في البلاد تنصب شباكها حول أي منهم، وها هم الآن يقفون مُكبَّلي الأيدي خوفًا من زلة لسان تطلقها عليهم امرأة.

بالطبع إنها والدتهم، وليست أي امرأة مجهولة. وقد افترض سايمون أن على المرء أن يسمح بالكثير من المراعاة والأعذار لذلك الأمر.

- إذا قررتُ إنقاذ داف، فربما تُحكِمُ أمي قبضتها علي، وعندئذ سأكون قد انتهيت.

قال أنطوني.

كاد سايمون أن يختنق ضحكًا؛ إذ امتلأ رأسه بصور لأنطوني حيث تقوده والدته في أرجاء الحفل، ينتقل خلال جولته من إحدى السيدات الشابات غير المتزوجات إلى أخرى مثلها.

- والآن ترى لماذا أتجنب تلك المناسبات الاجتماعية مثلما أتجنب الطاعون. فتراني أتعرض للهجوم من كلا الجانبين. وإذا عجزت المبتدئات الحسناوات وأمهاتهن عن إيجادي، فستحرص أمي أنا على أن أجدهن بنفسي.

قال أنطوني بتهجم.

- ما رأيك؟ لماذا لا تنقذها أنت يا هاستنجز؟

قال بيندكت متعجِّبًا.

اختلس سايمون نظرةً واحدة إلى ليدي بريدجرتون -التي كانت يداها في ذلك الوقت تلتفان في حزمٍ حول ذراع ماكليسفيلد- وقرر أنه يفضل لو أُطلِقَ عليه لقب الجبان الخالد على أن يذهب إلى هذا الجمع.

- بما أننا لم نتعرف، فأنا واثقٌ من أن الموقف لن يكون لائقًا على الإطلاق.

قال سايمون مُرتَجِلًا باقتضاب. إلا إن أنطوني أجاب قائلًا على الفور:

- أنا واثقٌ بأن الموقف لن يكون كذلك؛ فأنت تحمل لقب الدوق.

- إذن؟

- إذن؟ (ردَّد أنطوني كلماته، ثم أضاف):

- ستغفر أمي أي افتقارٍ إلى اللياقة إن كان هذا يعني جذب المتفرجين إلى رؤية دافني برفقة دوق.

فأجاب سايمون بحماسةٍ للجدال:

- والآن انظر إلي، فأنا لستُ كبش الفداء الذي سيُذبح قربانًا لوالدتك.

- لقد قَضيتَ بالفعل الكثير من الوقت في إفريقيا، أليس كذلك؟

علَّق كولين ساخرًا. إلا إن سايمون قد تجاهله تمامًا، وتابع حديثه:

- إلى جانب أن شقيقتك قد أخبرتني...

تحرَّكت رؤوس الأشقاء بريدجرتون في اتجاهه، وأدرك سايمون على الفور أنه قد ارتكب خطأً فادحًا، لسوء الحظ.

- هل قابلت دافني؟

تساءل أنطوني على الفور، وكان صوته مهذبًا للغاية، حتى لا يسبب أي ضيق لسايمون.

ولكن قبل أن يتمكن سايمون من إيجاد الرد، انحنى بيندكت ليكون أقرب من أي وقت مضى، وسأله:

- لماذا لم تخبرنا بذلك؟

- أجل، لماذا؟

قال كولين. وقد كانت نظرته وحركة شفتيه في غاية الجدية لأول مرة في تلك الليلة.

انتقل سايمون بنظراته الخاطفة بين الإخوة الثلاثة، وقد صار من الواضح تمامًا له أن دافني لا تزال فتاةً غير متزوجة؛ فهذا الثلاثي العدواني سيخيف الجميع، عدا أكثر الخُطَّابِ تصميمًا -أو غباءً-.

مما قد يوضح الحال مع نايجل بيربرووك.

وهنا، أخيرًا أجاب سايمون:

- في الحقيقة، لقد التقيتُ بها صدفة، عندما كنت في طريقي إلى قاعة الرقص. وقد كان -وألقى نظرةً واضحة بتركيز إلى الإخوة بريدجرتون- من الواضح تمامًا أنها فردٌ من عائلتكم. لقد قدَّمتُ نفسي إليها.

التفت أنطوني نحو بيندكت ليقول:

- لا بد وأن هذا قد حدث عندما كانت تهرب من بيربرووك.

فالتفت بيندكت نحو كولين:

- ماذا حدث مع بيربرووك؟ هل تعلم؟

رفع كولين كتفيه في عدم اكتراث، ثم قال:

- ليست لدي أدنى فكرة. ربما غادر ليضمِّد قلبه المفطور.

«أو ربما رأسه المحطم». هكذا فكر سايمون في نفسه بسخط.

- حسنًا، هذا يفسر كل شيء بالتأكيد.

قال أنطوني وقد فقد وجهه أخيرًا تعبير الشقيق الأكبر المزهو بنفسه، وعاد مرة أخرى ليبدو مثل أي رفيقٍ فاسد وصديقٍ مُقرَّب.

- إلا إنه لماذا لم يخبرنا؟

قال بيندكت بارتياب.

- لأنني لم أحظَ بالفرصة لأتحدث.

اعترض سايمون، وقد كان على وشك أن يلكم أحدهم في غضب. ثم تابع:

- في حالة أنك لم تلاحظ، يا صديقي أنطوني، إنك تمتلك عددًا كبيرًا من الأشقاء، وقد استغرق هذا الأمر وقتًا طويلًا حتى أتعرف عليهم جميعًا.

- لم يحضر سوى اثنين منا فقط.

أوضح كولين.

- أنا ذاهب إلى المنزل، إن ثلاثتكم لمجانين.

أعلن سايمون أخيرًا.

أما بيندكت، الذي بدا أكثر الأشقاء محافظة وحماية، فقد ضحك فجأة وقال:

- ليس لديك شقيقات، أليس كذلك؟

- كلا، حمدًا لله.

- إن رُزقتَ فيما بعد بفتاة، فستفهم كل ما فعلناه.

أما سايمون؛ فقد كان واثقًا من أنه لن يحظى بابنة أبدًا، لكنه التزم الصمت.

- قد يكون هذا اللقاء بروفة لما سيحدث في المستقبل.

قال أنطوني.

- على الرغم من أن داف أفضل من الكثيرين، فإنها لم تحظَ بعددٍ كبير من الخُطَّاب.

أوضح بيندكت.

أما سايمون فلم يتصور لِمَ لا تحظى بما تستحقه من الخُطَّاب.

- لستُ واثقًا حقًّا ما هو السبب وراء ذلك، أعتقد أنها فتاة لطيفة للغاية.

قال أنطوني متسائلًا.

قرر سايمون أن هذا لن يكون الوقت المناسب أبدًا حتى يذكر لهم أنه كان على بعد خطوة واحدة من إلصاقها بالحائط، حتى يضغط بفخذيه على فخذيها، ويقبِّلها برعونة حتى تفقد وعيها. وبكل صراحة، لو لم يكن سايمون

قد اكتشف أنها فرد من عائلة بريدجرتون، فربما كان قد شق طريقه نحوها وأحدث بها ما تخيله.

- داف هي أفضل السيدات الشابات.

قال بيندكت موافقًا. فأومأ كولين إيجابًا، ثم قال:

- فتاةٌ متميزة، ورفيقة جيدةٌ حقًا.

كان هناك صمتٌ غريب قد أتبع تلك العبارة، إلا إن سايمون قد أعاد دفة الحديث، فقال:

- حسنًا، سواءً كانت رفيقة جيدة أم لا، لا تتوقعوا أن أذهب إلى هناك لإنقاذها، لأنها قد أخبرتني على وجه التحديد أن أمكم قد حظرت عليها الظهور بالقرب من مكانٍ أكون حاضرًا فيه.

- هل قالت أمي هذا حقًا؟ لا بد وأنك تمتلك سمعة سيئة.

سأل كولين.

- حسنًا، هناك قدرٌ كبيرٌ منها أنا بريء منه.

تمتم سايمون، إلا إنه لم يكن واثقًا من السبب وراء دفاعه عن نفسه.

- هذا سيئ للغاية؛ فقد كنتُ أفكر أن أطلب منك اصطحابي في إحدى جولاتك.

همهم كولين.

توقع سايمون مستقبلًا طويلًا مرعبًا من الرعونة والطيش لهذا الصبي كولين.

وجدت قبضة أنطوني طريقها إلى أسفل ظهره، وبدأ يدفعه إلى الأمام.

- أنا واثقٌ أن أمي ستغير رأيها نظرًا لشجاعتك الملائمة. هيا بنا!

لم يكن أمام سايمون أي خيار آخر سوى السير نحو دافني. أما الخيار البديل؛ فسيتطلب منه افتعال مشهدٍ صاخب، وقد عرف سايمون منذ وقتٍ بعيد أنه لا يتصرف جيدًا إذا وصل الأمر إلى وقوع مشاهد صاخبة. علاوةً على أنه إذا كان في موضع أنطوني، فربما سيفعل نفس الشيء تمامًا.

وبعد قضاء ليلة مع الأخوات فيذرنجتون وما يشبههن، ليست دافني بنصف سوئهن حتى.

- أمي!

خاطب أنطوني والدته بصوتٍ بشوش، بينما كانا يقتربان من أرملة الفيكونت.

- لم أرَكِ قط طوال الأمسية.

لاحظ سايمون أن عيني ليدي بريدجرتون الزرقاوين قد التمعتا إذ رأتا ابنها يقترب. وسواء كانت إحدى الأمهات الطموحات أم لا، لا شك في أن ليدي بريدجرتون تحب أطفالها بشدة.

- أنطوني! كم هو لطيف أن أراك! لقد كنت أنا ودافني نتبادل الحديث مع السيد ماكليسفيلد.

أجابت ليدي بريدجرتون.

ألقى أنطوني نظرة مواساة إلى السيد ماكليسفيلد، وقال:

- أجل، صحيح.

اختلس سايمون نظرةً إلى عيني دافني لوهلة قصيرة، وهزَّ رأسه هزة بسيطة لا تُرَى تحيةً لها. وقد أجابته بإيماءة أقل اهتزازًا، فقد كانت فتاةً لبيبة، تلك هي طبيعتها.

- ومن يكون هذا؟

تساءلت السيدة بريدجرتون إذ سقطت عيناها على وجه سايمون، فأجاب أنطوني:

- هذا هو دوق هاستنجز الجديد. بالتأكيد تتذكرينه من الأيام التي قضيتها في إتون وأكسفورد.

- بالطبع.

أجابت ليدي بريدجرتون بلطف.

أما ماكليسفيلد، الذي ظل محافظًا على هدوئه في ارتياب، قد استغل براثن الهدوء الأولى في المحادثة، واندفع قائلًا:

- أعتقد أنني رأيت والدي يشير إلي.

ألقى أنطوني نظرة استمتاع وخبرة إلى الإيرل الشاب، وقال:

- إذن فهذا يعني تمامًا أن تلبي نداءه.

وقد تحرك الإيرل الشاب في خفة وبهجة.

- اعتقدتُ أنه يكره والده.

علقت ليدي بريدجرتون في ارتباك وحيرة.

- أجل، يكرهه.

قالت دافني بصراحة وقحة.

فأخفى سايمون ضحكة خافتة، إذ أحنى رأسه قليلًا. ورفعت دافني حاجبيها ورمقته بنظرة تحدٍّ صامتة إن استطاع أن يعلق.

- حسنًا، إن له سمعة سيئة على أي حال.

قالت ليدي بريدجرتون.

- يبدو أن تلك الظاهرة منتشرة كثيرًا في تلك الأيام.

تمتم سايمون.

وهنا اتسعت عينا دافني، وفي تلك المرة كان سايمون هو من رفع حاجبيه اندهاشًا، ورمقها بنظرة تحدٍّ صامتة إن استطاعت أن تعلق هي.

بالطبع لم تنطق ببنت شفة، إلا إن والدتها قد رمقته بنظرةٍ حادة، وقد خلفت انطباعًا جليًّا لدى سايمون بأنها تحاول اتخاذ القرار بشأن ما إذا كانت الدوقية التي اكتسبها مؤخرًا قد أصلحت من سمعته السيئة أم لا.

- لا أعتقد أنني قد مُنِحتُ فرصة التعرف إليكِ قبل أن أغادر البلاد، ليدي بريدجرتون. لكنني سعيدٌ بالتعرف إليكِ الآن.

قال سايمون بلطف.

- وأنا أيضًا.

أجابت ليدي بريدجرتون، ثم أشارت إلى دافني وقالت:

- ابنتي دافني.

التقط سايمون راحة يد دافني المغطاة بالقفاز، وطبع قبلة لطيفة حذرة على عُقَد أصابعها، وقال:

- لقد تشرفتُ بالتعرف إليكِ بصورة رسمية، آنسة بريدجرتون.

- رسمية؟

تساءلت ليدي بريدجرتون.

وفي تلك اللحظة، كادت دافني أن تنطق، إلا إن سايمون قد قاطعها قبل أن تقول أي شيء. ثم أجاب:

- لقد أخبرتُ أشقاءكِ للتو بشأن مقابلتنا القصيرة في وقت مبكر من هذه الليلة.

التفتت ليدي بريدجرتون نحو دافني في حدة، وقالت:

- هل تعرفتِ إلى الدوق في وقت مبكر من هذه الليلة؟ لماذا لم تقولي أي شيء؟

ابتسمت دافني باقتضاب، ثم أجابت:

- لقد كنا منشغلين بالحديث مع الإيرل. وقبل ذلك مع السيد ويسبورو، وقبل ذلك مع...

عندئذٍ قاطعتها ليدي بريدجرتون وخرجت عن صمتها:

- فَهِمتُ ما تقصدين، دافني.

وفكر سايمون كيف سيكون تصرفه وقحًا لا يُغفَر إن صدرت عنه ضحكة في مثل هذا الموقف.

ثم نقلت ليدي بريدجرتون ابتسامتها الكاملة نحوه –وقد علم سايمون من أين ورثت دافني تلك الابتسامة الواسعة– وأدرك سايمون أن ليدي بريدجرتون قد قررت التغاضي عن سمعته السيئة.

في تلك اللحظة، برزت لمعة غريبة في عيني ليدي بريدجرتون، وكانت تنقل رأسها ذهابًا وإيابًا بين دافني وسايمون.

وهنا كان سايمون يجاهد بداخله رغبة مُلِحَّة في الهروب.

انحنى أنطوني قليلًا نحوه وهمس في أذنه بتهكم:

- أنا آسفٌ للغاية.

فأجابه سايمون من بين أسنانه القابضة على نفسها:

- ربما سأضطر إلى قتلك.

كانت النظرة الباردة في عيني دافني تقول بأنها قد سمعت ما قاله كلاهما، ولم تكن مستمتعة تمامًا بما سمعته. لكن ليدي بريدجرتون كانت غافلة تمامًا عما يدور، وقد ظهرت السعادة على محياها؛ إذ كان من المحتمل أن رأسها قد امتلأ بالفعل بمشاهد من الزفاف المهيب.

ثم ضاقت عيناها فجأة، إذ كانت تركز على شيء ما خلف الرجلين الواقفين برفقتها. وبدت صريعة الانزعاج، حتى إن سايمون وأنطوني ودافني قد تلفتوا حولهم ليروا ما هو مُقبِلٌ عليهم.

كانت السيدة فيذرنجتون تسير عمدًا في اتجاههم، ومن خلفها بروديس وفيليبا. وقد لاحظ سايمون اختفاء بينلوبي، فلا أثر لها على الإطلاق.

وحيث إن سايمون قد أدرك سريعًا أن الغاية تبرر الوسيلة، فقال فجأة:

- آنسة بريدجرتون...

بينما يحرك رأسه ليواجه دافني، ثم أضاف:

- هل تسمحين لي بهذه الرقصة؟

الفصل الخامس

30 من أبريل 1813 **جريدة المجتمع**

هل كُنتَ ضيفًا في الحفل الراقص في منزل ليدي دانبيري الليلة الماضية؟ إن لم تكن، فعارٌ عليك؛ لقد فاتتك متابعة أكثر الانقلابات تميزًا في هذا الموسم. فقد كان جليًا لجميع رواد الحفل -وخاصة كاتبة هذا المقال- أن الآنسة بريدجرتون قد استحوذت على اهتمام دوق هاستنجز، الذي عاد مؤخرًا إلى لندن.

وبالطبع يمكن للمرء أن يتخيل ما طرأ على ليدي بريدجرتون من طمأنينة وارتياح. فكم سيكون مُهينًا إن ظلت دافني في صفوف المبتدئات لموسم آخر! ناهيك بمسؤولية ليدي بريدجرتون عن تزويج ثلاث فتيات أخريات. يا إلهي، ما هذا الرعب!

ليدي ويسلداون

لم تكن دافني لترفض بأي حال من الأحوال.

أولًا: كانت والدتها تطعنها بنظراتها المميتة التي تقول: «**أنا أمكِ، إياكِ أن تجرئي على مجابهتي**».

ثانيًا: كان من الواضح تمامًا أن الدوق لم يكن قد أخبر أنطوني بالقصة الكاملة للقائهما في الرواق خافت الإضاءة؛ لذلك فإن افتعال مشهدٍ صاخب من خلال أي محاولة لرفض الرقص معه ستثير تكهنات لا داعي لها.

ناهيك بأن دافني لم تستمتع حقًّا بالانخراط في الحديث، خصوصًا مع عائلة فيذرنجتون، والذي كان أمرًا مؤكد الحدوث إن لم تسرع على الفور إلى دائرة الرقص.

وأخيرًا، كانت هناك رغبة بعيدة بسيطة من جانبها لا تكاد تُرَى –أو تشعر بها– في الرقص مع الدوق.

بالطبع لم يسمح لها هذا الفظ المتغطرس حتى بفرصة القبول؛ فقبل أن تتمكن دافني من النطق بعبارة: «إنه لمن دواعي سروري»، أو حتى مجرد كلمة موافقة واحدة: «أجل»، كان قد صحبها حتى منتصف الطريق عبر الغرفة.

كانت الجوقة الموسيقية ما زالت تعزف ذاك الضجيج المُرِيع الذي يعزفونه إذ يستعد الموسيقيون لبدء العزف، لذلك كان عليهما الانتظار لبرهة قبل أن يبدآ الرقص.

- حمدًا لله لأنكِ لم ترفضي.

قال الدوق إذ انتابه شعورٌ رائع.

- وهل سُمِحَ لي أن أرفض؟

أجابت دافني، فضحك لها.

كانت دافني قد أجابت بعبوس، إذ قالت:

- لم أُمنَح حتى فرصة القبول أيضًا، إن كُنتَ تتذكر.

فرفع حاجبه اندهاشًا، وقال:

- هل هذا يعني أن عليَّ طلب الرقص منكِ مرة أخرى؟

- كلا، بالطبع لا.

أجابت دافني بينما تُقلِّب عينيها. ثم أضافت:

- سيكون هذا تصرفًا صبيانيًا مني، ألا تعتقد ذلك؟ إلى جانب أن ذلك سيفتعل مشهدًا شنيعًا، أعتقد أن أيًا منا لا يرغب في ذلك.

أمال الدوق رأسه قليلًا إلى جانبه، ورمقها بنظرة تقييم إلى حد ما، كما لو أنه قد أجرى تحليلًا لشخصيتها في طرفة عين وقرر أنها ربما تكون مقبولة. هنا وجدت دافني أن تلك التجربة كانت مخيفة بعض الشيء.

في تلك اللحظة، توقفت الجوقة الموسيقية عن إحمائها الناشز، وضربت على الأوتار لتعزف النوتة الموسيقية الأولى لرقصة الفالس.

قال سايمون متذمرًا:

- هل ما زالت السيدات الشابات بحاجة إلى إذن لأداء رقصة الفالس[1]؟

وجدت دافني نفسها تبتسم فرحًا بسبب تذمره وعدم ارتياحه، فقالت:

- كم مضى عليك وأنت بالخارج؟

- خمس سنوات. هل ما زال الأمر صارمًا؟

- أجل.

- هل تمتلكين الإذن؟

بدا سايمون كما لو كان متألمًا إزاء احتمال فشل خطة هروبه.

- بالتأكيد.

أخذها بين أحضانه ودار بها في حشد من الأزواج الذين يرتدون ملابس أنيقة، ثم قال:

- جيد.

كانا قد أتمَّا دورانًا كاملًا حول قاعة الرقص قبل أن تسأل دافني:

- أخبرني؛ ما مقدار ما كشفته لإخوتي بشأن لقائنا؟ لقد رأيتك برفقتهم كما تعلم.

إلا إن سايمون اكتفى بابتسامة واحدة.

- عَلامَ تضحك؟

سألت دافني في ارتياب.

- لقد كُنتُ أتأمل قدرتكِ على كبح غضبك.

- أستميحك عذرًا؟

رفع كتفيه قليلًا في استسلام إذ يميل رأسه إلى جانبه الأيمن، ثم قال:

- لم أعتقد أنكِ من النساء اللاتي يتحلين بالصبر، وها أنتِ قد استغرق الأمر منكِ ثلاث دقائق كاملة ونصف قبل أن تسأليني عن محادثتي مع أشقائك.

---

(1) تتميز رقصة الفالس بتقارب الزوجين تقاربًا شديدًا حد العناق، حتى إنه في أول ظهورها، في القرن الثامن عشر، كانت صدمة كبيرة للمجتمع المحافظ. (المترجم)

حاولت دافني جاهدةً ألا تظهر على وجهها حُمرَة الخجل. لكن الحقيقة هي أن الدوق كان أحد البارعين في الرقص، وقد كانت تستمتع برقصة الفالس كثيرًا، حتى إنها قد غفلت عن التفكير في المحادثة.

- ولكن بما أنكِ قد سألتِ، فكل ما أخبرتهم به هو أنني قد التقيتكِ صدفةً في الرواق، وبما أن لون شعركِ مميز، فقد استنتجتُ على الفور أنكِ أحد أفراد عائلة بريدجرتون، فقدمتُ نفسي إليكِ.

قال سايمون على الفور، حتى يعفوها من التعليق على عبارته.

- هل تعتقد أنهم قد صدَّقوا ما قلته؟

- أجل، الأرجح أنهم صدقوا.

أجاب سايمون بلطف. فأضافت دافني على الفور:

- ليس الأمر وكأن هناك أي شيء نخفيه.

- قطعًا لا.

- إن كان هناك أي شخصٍ حقير في هذا الموقف، فبالتأكيد هو نايجل.

- بالطبع.

عضَّت دافني بأسنانها على شفتها السفلى، وقالت:

- هل تعتقد أنه لا يزال راقدًا على الأرض في الرواق؟

- بالتأكيد، وليست لدي أي نية لاستكشاف هذا الأمر.

مرَّت لحظة مُربكة من الصمت، قبل أن تستأنف دافني الحديث:

- لقد مرَّ وقتٌ طويل منذ أن حضرتَ حفلًا راقصًا في لندن، أليس كذلك؟ وقد كانت واقعتي أنا ونايجل ترحيبًا مميزًا بك.

- كُنتِ أنتِ مشهد الترحيب، أما هو فلم يكن.

ابتسمت دافني في خجل أمام تلك المجاملة، ثم قالت:

- بعيدًا عن مغامرتنا، هل استمتعت بأمسيتك؟

كان جواب سايمون نافيًا قاطعًا لا ريب فيه، حتى صدر عنه صوت نخير مصحوبًا بضحكة عالية قبل أن يجيب.

- حقًا؟

أجابت دافني إذ تقوَّس حاجباها في فضول، ثم أضافت:

- الآن صار هذا الحديث مشوِّقًا.

- أتجدين المتعة في عذابي؟ أرجو أن تُذَكِّريني ألا ألجأ إليكِ أبدًا إن مَرِضتُ في أي وقت.

- أوه، من فضلك! لا يمكن أن تكون الأمسية سيئة إلى هذا الحد.

قالت دافني ساخرة.

- بل كانت كذلك.

- بالتأكيد ليست أسوأ من أمسيتي أنا كما رأيت.

- لقد كانت التعاسة بادية على وجهكِ عندما كُنتِ برفقة والدتكِ وماكليسفيلد.

صَرَّح سايمون إليها، فتمتمت في تهكم:

- كم هو لطيفٌ منك أن تشير إلى هذا الأمر!

- لكني ما زِلتُ أعتقد أن أمسيتي كانت أسوأ.

ضحكت دافني، فكان صوت ضحكتها موسيقيًّا حتى أثلج صدره، ثم قالت:

- يا لنا من زوج بائس. بالتأكيد يمكننا الحديث عن أي موضوع آخر لا يتضمن أمسياتنا البشعة تلك.

لم يقل سايمون شيئًا.

ولم تقل دافني شيئًا.

وخيَّم الصمت على الزوج الراقص، حتى استأنف سايمون قائلًا:

- حسنًا، لا يمكنني التفكير في أي شيء.

ضحكت دافني مجددًا، ولكن تلك المرة كان صوت ضحكتها أكثر تلألؤًا وبهجة، ووجد سايمون نفسه مرة أخرى مفتونًا بابتسامتها.

- أنا أيضًا أستسلم. والآن، أخبرني عما أحال أمسيتك إلى هذا الحال المزري.

أخذ سايمون نفسًا عميقًا، وقال:

- أتقصدين ما؟ أم من؟

- «من»؟

كررت كلمته إذ تميل برأسها إلى أحد الجوانب بينما تتطلع إليه، ثم أضافت:

- لقد صار الأمر أكثر تشويقًا.

- يمكنني التفكير في أي عدد من الصفات التي تناسب جميع من أقصدهم بـ «من» الذين استمتعتُ بلقائهم هذه الليلة، لكن «مشوق» ليست واحدة من تلك الصفات.

- والآن، هيا، لا تكن فظًا؛ ففي نهاية الأمر رأيتك تتبادل الحديث مع أشقائي.

قالت مُوبِّخةً إياه.

فأومأ بلطف، ثم ضغط بيديه قليلًا على خصرها إذ كانا يتمايلان برشاقة في قوس لطيف.

- معذرةً! إن أفراد عائلة بريدجرتون بالطبع مستثنون من إهاناتي.

- أنا واثقة أننا جميعًا نشعر بالارتياح الآن.

أجابت دافني.

فنمَّ ثغره عن ابتسامة، إذ سمع مزاحها الجاف الذي يخلو من أي تعبير. ثم قال:

- حسنًا، أنا أعيش لإسعاد عائلة بريدجرتون.

- الآن ضع في اعتبارك أن هذا تصريحٌ يمكن أن يعود لمطاردتك في وقتٍ ما.

قالت مُوبِّخةً إياه، ثم أضافت:

- لكن لنتحدث بجدية، ما الذي وضعك في هذا الارتباك؟ إذا كانت ليلتك قد ساءت كثيرًا منذ لقائنا الفصل مع نايجل، فهذا بالتأكيد يعني أنك في ورطة.

- كيف يمكنني توضيح الأمر حتى لا تري أنني قد أسأتُ إليكِ تمامًا؟

قال مفكرًا.

- أوه، حسنًا، هاتِ ما عِندَك، وأعدك أنني لن أشعر بالإهانة.

أجابت دون مبالاة.

أطلق سايمون ضحكة ماكرة، ثم قال:

- تصريحٌ قد يأتي لمطاردتكِ أنتِ هذه المرة.

احمرَّ وجهها قليلًا، فقد كان وجهها الخجل نادر الملاحظة في أضواء الشموع الخافتة، لكن سايمون كان يراقبها من كثب. ورغم ذلك لم تُجِب، لذلك أضاف هو قائلًا:

- حسنًا جدًّا، إن أصررتِ على معرفة الأمر؛ لقد تعرَّفتُ إلى كل سيدة شابة غير متزوجة في قاعة الرقص.

هنا، وللغرابة، صدر صوت ضحكة عجيب من جانب فمها، فتسللت الشكوك إلى داخل سايمون بأنها تسخر منه. ورغم ذلك قرر أن يتابع حديثه:

- وتعرَّفتُ أيضًا إلى جميع أمهاتهن.

هنا قهقهت دافني. في الحقيقة، قهقهت مستهزئة.

- إنه لمظهرٌ سيئ أن تسخري من شريكك في الرقص.

قال سايمون موبِّخًا.

- أنا آسفة.

أجابت معتذرة، إلا إن شفتيها قد انكمشتا، إذ كانت تحاول أن تمنع ابتسامتها من الطفو على وجهها.

- كلا، اعتذارٌ غير صادق.

- حسنًا، لَستُ آسفة. لكن هذا لأنني اضطُرِرتُ إلى تحمل نفس العذاب والمعاناة طوال عامين كاملين. وكما ترى، كان من الصعب أن تجبرني على الشعور بالشفقة عليك جراء ما حدث لك في ليلة واحدة فقط.

صرَّحت دافني قائلة.

- لماذا لا تجدين شخصًا ما لتتزوجي منه وتتخلصي من هذه التعاسة؟

حدَّقت إليه بنظرة حادة قبل أن تجيب:

- هل تسأل حقًّا؟

فشعر سايمون بنفير الدماء حتى شحب وجهه.

- لا أعتقد ذلك.

ألقت إليه نظرة واحدة، ثم سمحت لرئتيها بالتنفيس عن غضبها في جزع. ثم أضافت:

- أوه، يا إلهي. بالله عليك! يمكن أن تتنفس الصعداء الآن يا صاحب الجلالة، فلم يكن غرضي سوى مشاكستك.

كان سايمون يرغب في إلقاء تعليقٍ بارد وقاطع يسخر منها كُليًّا، لكن الحقيقة هي أنها قد أفزعته إلى الحد الذي صار معه عاجزًا عن نطق أي كلمة.

من ناحية أخرى كانت دافني قد استأنفت حديثها مُجدَّدًا:

- وللإجابة عن سؤالك، يجب على السيدة الشابة أن تفكر في خياراتها. هناك بالطبع نايجل، لكنني أعتقد أنه ليس مُرشَّحًا مناسبًا تمامًا، وهذه حقيقة يجب أن نتفق عليها.

كان صوتها يخفت، وتشوبه مسحةٌ من الهشاشة لم يعتد سايمون سماعها منها.

هزَّ سايمون رأسه بالموافقة، فتابعت:

- في وقت مبكر من هذا العام، كان هناك اللورد تشالمرز.

- تشالمرز؟ تقصدين...

أجاب عابسًا.

- الذي تخطى الستين عامًا؟ أجل. وبما أنني أود إنجاب أطفالٍ في وقتٍ ما، بدا أن الأمر...

- بعض الرجال في هذا العمر يمكنهم إنجاب أطفالٍ مزعجين أيضًا.

قال سايمون موضحًا. فأجابت:

- هذه مخاطرة لَستُ مستعدةً لها. إلى جانب...

ارتجفت دافني قليلًا، فقد عبرت ملامحها نظرة نفورٍ واشمئزاز، ثم أضافت:

- لم أكن أهتم بإنجاب أي طفل منه هو خصوصًا.

ومما زاد الطين بلة، فقد وجد سايمون نفسه يتخيل صورًا لدافني ترقد على فراش بجانب العجوز تشالمرز. كانت صورًا قبيحة، حتى إنها تركت لديه شعورًا بالغضب العارم. على من؟ هذا ما لم يكن يدركه بعد. ربما الغضب من نفسه؛ من مجرد تخيل تلك الصور المقيتة وإزعاج نفسه بهذا الأمر، ولكن...

- وقبل لورد تشالمرز، كان هناك اثنان آخران، كلاهما بغيضٌ مُنَفِّر.

تابعت دافني، ولحسن الحظ قد قطعت حبل أفكاره المؤلم.

وبعدما أنهت حديثها، نظر سايمون إليها في تأمل وتفكُّر.

- هل ترغبين في الزواج؟

- أجل، بالطبع.

وطُبِعَت على وجهها نظرة الدهشة والمفاجأة. ثم تابعت:

- ألا يرغب الجميع؟

- لا أرغب.

ابتسمت دافني إليه في لطف، ثم قالت:

- أنت تعتقد أنك لا ترغب، جميع الرجال يعتقدون ذلك. لكنك ستتزوج.

- كلا! لن أتزوج أبدًا.

كان جوابه تأكيدًا حاسمًا أكثر من كونه نقاشًا عاديًّا.

حدَّقت إليه فاغرةً فاها. كان هناك شيء ما في نبرة الدوق توحي بأنه يقصد حقًّا ما قاله. فحاولت دافني أن تستجمع شجاعتها لتسأل:

- وماذا عن لقبك؟

- ماذا عنه؟

ورفع سايمون كتفيه في عدم اكتراث.

- إذا لم تتزوج وتنجب وريثًا، سينتهي اللقب معك، أو ربما يؤول إلى أبناء عمومة بغيضين.

أثاره الحديث، فرفع حاجبه في تعجب.

- وكيف تعرفين أن أبناء عمومتي أشخاصٌ بغيضون؟

- جميع أبناء العمومة الذين يحتلون الترتيب التالي في اللقب دائمًا ما يكونون بغيضين. أو ربما يكونون كذلك وفقًا للرجال الذين يحملون اللقب بالفعل.

ومالت برأسها إلى أحد جانبيها في سلوكٍ مزعج.

- وهذه معلوماتٌ قد جمعتِها من معرفتك الشاملة بالرجال؟

سألها مُشاكِسًا. فضحكت له في تكبر ضحكةً فاتنة، وأجابت:

- بالتأكيد.

ظل سايمون صامتًا لبرهة، قبل أن يكسر صمته سائلًا:

- هل الأمر يستحق؟

- ما الأمر الذي يستحق؟

بَدَت دَهِشَة، إذ تغيرت دفة الحديث فجأة.

أطلق سراح يديها مدةً تكفي حتى يشير إلى الحشد الكبير حولهما.

- هذا. هذا الاستعراض السرمدي في الحفلات، ووالدتكِ مثل كلبٍ يتمَحَّكُ في عقبيكِ.

أطلقت دافني ضحكة خافتة في اندهاش، ثم قال:

- أشكُّ في أن أمي ستحترم تلك الاستعارة.

ولازمها الصمت لبرهة، حتى سرحت بعينيها بعيدًا، ثم قالت:

- لكن، أعتقد أن الأمر يستحق، يجب أن يستحق كل هذا.

وعادت إلى انتباهها مجددًا لتنظر إلى وجهه، وكانت عيناها الداكنتان تقطران صدقًا:

- أريد زوجًا، وأريد عائلة. لا يبدو الأمر سخيفًا إلى هذه الدرجة عندما تفكر به. إنني أحتل الترتيب الرابع في عائلة من ثمانية أطفال، وكل ما أعرفه طوال حياتي هو العائلات الكبيرة. ولا يجب أن أمر بتجربة تجبرني على الحياة دون عائلة.

قابل سايمون نظرتها بعينين ثاقبتين تشتعلان رغبة، وطنَّ في رأسه جرس إنذار. كان راغبًا فيها. كان شديد الرغبة فيها، حتى إنه كان يشتعل حرارةً داخل ملابسه. لكنه لن يستطيع أبدًا أن يلمسها؛ لأنه إن فعل ذلك، فسيدمر كل قطعة صغيرة من أحلامها. وسواء كان شخصًا فاسد الأخلاق أم لا، لم يكن سايمون واثقًا بأن له أن يحيا بهذا الذنب إن فعل ذلك.

لن يتزوج سايمون أبدًا، ولن ينجب أي طفلٍ أبدًا، وقد كان هذا كل ما تحلم هي بتحقيقه في الحياة.

ربما يستمتع بصحبتها؛ فلم يكن واثقًا أن بإمكانه أن يمنع عن نفسه تلك المتعة. لكن واجبه كان أن يتركها نقية من أجل رجلٍ آخر يحقق أحلامها.

- يا صاحب الجلالة؟

سألت بهدوء. وعندما طرفت عيناه، ابتسمت وقالت:

- لقد كُنتَ شاردًا.

أحنى رأسه بلطفٍ نحوها، وقال:

- لقد كنتُ أفكِّر في كلماتك فحسب.

- وهل لاقت إعجابك؟

- في الحقيقة، لا يمكنني تذكر المرة الأخيرة التي تحدثتُ فيها مع شخصٍ ما يتمتع بمنطقٍ سليمٍ واضح.

ثم أضاف بنبرة هادئة:

- إنه لأمرٌ جيد أن تدركي ما ترغبينه من الحياة.

- هل تعلم ما ترغب به؟

يا إلهي، كيف أجيب عن هذا السؤال. كانت هناك بعض الأمور التي يعلم جيدًا عجزه عن الحديث فيها. لكن شعورًا بالبساطة خيَّم على حديثه مع تلك الفتاة. هناك شيء ما بداخلها يُطَمئن قلبه ويُريح عقله، حتى لو كان جسده يحترق رغبة فيها. ولكن بكل صراحة ووضوح، لم يكن عليهما أن يصلا إلى حديثٍ عميق الأثر في وقتٍ مبكر من تعرُّفهما، ولكن بطريقة ما بدا كل شيء معها طبيعيًّا.

وأخيرًا، أجاب قائلًا:

- لقد اتخذتُ بعض القرارات عندما كنتُ أصغر سنًّا، وأحاول أن أبني حياتي وأكيفها وفقًا لتلك العهود.

بدت عيناها تضجان بفضول نهم، لكن أخلاقها الحميدة قد منعتها من الاستفسار عن المزيد.

- يا إلهي!

أردفت بابتسامة مصطنعة قليلًا، ثم أضافت:

- لقد انزلقنا إلى حديث أكثر جديَّة. وأنا من اعتقدتُ أن كل ما كنا نتجادل بشأنه هو ليلة مَنْ منا كانت أقل متعة.

هنا أدرك سايمون أنهما مُحاصَران، كلاهما مُحاصَر بمعتقدات المجتمع وتوقعاته وآماله.

وفي تلك اللحظة، خطرت فكرةٌ على باله، فكرةٌ غريبة وجريئة، وتبدو لفرط روعتها مخيفة. وربما كانت أيضًا فكرةً خطرة، إذ كانت ستحمله على مرافقتها لفترات طويلة من الوقت، مما يعني بالتأكيد أنه سيظل في حالة

دائمة من الشعور برغبات غير مشبعة. لكن سايمون كان يثق بقدرته على التحكم في النفس فوق أي شيء آخر، وكان واثقًا من قدرته على التحكم في غرائزه البدائية.

- ألا ترغبين في فترة استراحة؟

سألها فجأة.

- فترة استراحة؟

رددت كلماته في دهشة. وفيما يدوران عبر أرضية الغرفة، انتقلت بعينيها من جانبٍ إلى آخر، وقالت:

- مِن هذا؟

- ليس تمامًا، هذا ما زال عليكِ تحمله. ما أتصوره هو فترة استراحة من والدتكِ.

توقفت أنفاسها من أثر المفاجأة، ثم قالت:

- هل ستعزل أمي من الدائرة الاجتماعية؟ ألا يبدو هذا تصرفًا على شيءٍ من التطرف؟

- أنا لا أتحدث عن عزل والدتك، لكنني أريد عزلكِ أنتِ.

تعثَّرت دافني في قدميها، وفي اللحظة التي استعادت فيها توازنها، تعثَّرت في قدميه. وأجابت:

- أستميحك عذرًا؟

فأوضح سايمون:

- لقد كنتُ أتمنى أن أتجاهل مجتمع لندن بأكمله، لكنني وجدتُ أن ما حدث الليلة قد أثبت استحالة ذلك.

- لأنك قد أحببت فجأةً مذاق الراتافيا وعصير الليمون منخفض الحموضة اللذين يُقدمان في الحفلات؟

أجابت ساخرة. إلا إنه أجاب متجاهلًا تهكمها.

- كلا، هذا لأنني قد اكتشفتُ أن نصف أصدقائي بالجامعة قد تزوجوا في غيابي، وبدا أن زوجاتهم مهووسات بإقامة أفضل الحفلات...

- وبالطبع تمت دعوتك؟

فأومأ في تجهم.

مالت دافني نحوه قليلًا، كما لو أنها على وشك أن تُخبره بسرٍّ خطير، وقالت بهمس:

- أنسيتَ أنك دوق؟ يمكنك أن ترفض في أي وقت.

راقبته باستمتاع إذ تحجَّرت عضلات فكه، ثم قال:

- هؤلاء الرجال –أزواجهن– إنهم أصدقائي.

شعرت دافني أن شفتيها تتحركان نحو رسم ابتسامة لا ترغب فيها.

- وأنت لا ترغب في جرح مشاعر زوجاتهم.

عبس سايمون، إذ بدا على وجهه عدم الارتياح عندما سمع تلك المجاملة.

- حسنًا، أوافقكَ الرأي. ربما تكون شخصًا لطيفًا رغم كل شيء.

أجابت باستهتار.

- نادرًا ما أكون شخصًا لطيفًا.

أجاب ساخرًا.

- ربما، لكنك نادرًا ما تكون قاسيًا أيضًا.

كانت النوتة الموسيقية قد أوشكت على الانتهاء، وأخذ سايمون بذراعها وقادها إلى المحيط الخارجي لقاعة الرقص. كانت رقصتهما قد أودعتهما على الجانب المقابل من الغرفة للموقع الذي كانت تقف فيه عائلة دافني، لذلك فقد تسنى لهما الوقت حتى يُكمِلا حديثهما إذ كانا يسيران على مهلٍ عائدين إلى أفراد عائلة بريدجرتون.

- ما كنت أحاول قوله هو –أنه قبل أن تُراقِصيني بمهارة– اتضح لي أن عليَّ حضور عدد مُعين من فعاليات مجتمع لندن.

قال سايمون.

- هذا مصير أسوأ من الموت.

قرر سايمون تجاهل عبارتها الاستهلالية، وقال:

- أنا وأنتِ معًا يجب أن نحضر تلك الفعاليات أيضًا.

فأجابته بإيماءة وحيدة تليق بصاحب الجلالة.

- ربما كانت هناك طريقة تُجنبني اهتمام عائلة فيذرنجتون وما يشبهها من عائلات، وفي الوقت نفسه، ربما تُجنبكِ جهود وساطة الزواج التي تبذلها والدتكِ.

تطلعت إليه باهتمام شديد، وقالت:

- أكمل حديثك.

مال بجذعه إلى الأمام قليلًا، فافتُتِنت عيناه بعينيها، ثم قال:

- هذا يعني أننا سنشكل ارتباطًا.

خيَّم الصمت على دافني، فلم تنطق حتى بحرفٍ واحد. كل ما فعلته هو أنها ظلت تحدِّق إليه كما لو أنها تحاول أن تقرر ما إذا كان سايمون هو أكثر الرجال وقاحة على وجه الأرض، أم هو ببساطة فقد عقله.

- بالطبع ليس ارتباطًا حقيقيًا.

قال سايمون بنفاد صبر، ثم أضاف:

- يا إلهي! أي نوعٍ من الرجال تظنينني؟

- في الحقيقة، لقد حذروني كما تعلم بشأن سمعتك. وقد حاولت بنفسك إخافتي بطرقك الفاسدة في وقت مبكر من هذا المساء.

أوضحت له دافني.

- لم أفعل شيئًا مما تقولين.

- بالطبع لقد حاولت، لكنني أسامحك، فأنا واثقة أن الأمر كان خارجًا عن سيطرتك.

قالت دافني وربتت على ذراعه.

رمقها سايمون بذهول وإجفال، ثم قال:

- لا أعتقد أبدًا أن هناك امرأةً قد تعالت عليَّ من قبل.

فأجابت باستهجان:

- ربما قد صار هذا شأنًا من الماضي.

- تعلمين أنني اعتقدتُ أنكِ غير متزوجة لأن أشقاءك يُخيفون خُطَّابَكِ ليهربوا فزعًا؟ لكنني أتساءل الآن إن كنتِ أنتِ من يفعل ذلك بنفسه.

ولزيادة دهشته، أجابته دافني بقهقهة عالية، ثم قالت:

- كلا، إنني غير متزوجة لأن الجميع يرونني صديقةً لهم، ولا أحد يعيرني أي اهتمامٍ عاطفي.

وامتعض وجهها وهي تتابع:

- باستثناء نايجل.

تأمل سايمون كلماتها لمدة طويلة من الوقت، ثم أدرك أنه يمكن لخطته أن تكون في صالحها أكثر مما تخيل من قبل، فقال:

- والآن اسمعيني، واسمعيني جيدًا، لأننا على وشك الوصول إلى عائلتك، ويبدو أنطوني وكأنه سيفرُّ هاربًا باتجاهنا في أي دقيقة الآن.

واختلس الاثنان نظرة سريعة إلى اليمين، فقد كان أنطوني ما زال مُحاصَرًا في حديثٍ مع عائلة فيذرنجتون، ولم يبدُ وجهه سعيدًا على الإطلاق.

وتابع سايمون قائلًا بصوت خافتٍ وحاد:

- إليكِ خطتي؛ سنتظاهر أن عاطفةً قد نشأت بيننا، ونتبادل تلك المشاعر. فحينها لن يُلقَى في طريقي عددٌ كبير من المبتدئات، لأنهن سيدركن حقيقة أنني لم أعد صيدًا مَتاحًا.

فأجابت دافني:

- كلا، لن يدركوا ذلك. لن يصدقوا أنك صيدٌ غير متاح حتى تقف أمام الأسقف وتلقي بعهودك.

كان مجرد التفكير في هذا الاحتمال قد جعل معدة سايمون تتقلصُ في عنف، إلا إنه تابع:

- هُرَاء! قد يستغرق الأمر قليلًا من الوقت، لكني واثقٌ من قدرتي على إقناع المجتمع في نهاية الأمر بأنني لم أعد صيدًا مُرَشَّحًا للزواج من أي أحد.

- باستثنائي أنا.

أوضحت دافني.

- باستثنائك أنتِ.

أجاب سايمون متفقًا، ثم أضاف:

- لكننا نعلم أن هذا ليس صحيحًا.

فتمتمت دافني:

- بالتأكيد. بصراحة لا أعتقد أن تلك الخطة ستنجح، ولكن إن كنت مقتنعًا...

- أنا مقتنعٌ بذلك.

- حسنًا إذن، وما العائد عليَّ من تلك الخطة؟

- أول شيء: ستتوقف والدتكِ عن جذبكِ من رجلٍ إلى آخر إن اعتقدت أنكِ قد استحوذتِ على اهتمامي.

- هذا غرورٌ منك، لكنه صحيح.

قالت دافني في تفكُّر.

تجاهل سايمون سخريتها اللاذعة، وتابع قائلًا:

- ثانيًا: دائمًا ما يزداد اهتمام الرجال بأي امرأة إن اعتقدوا أن رجلًا آخر قد أظهر اهتمامه بها.

- مما يعني؟

- مما يعني ببساطة –واعذري غروري وغطرستي–...

ثم رمقها بنظرة تهكمية لاذعة حتى يُظهِر أنه لم ينسَ سخريتها السابقة:

- ولكن إذا اعتقد العالم بأكمله أنني عازمٌ على أن أجعل منكِ دوقة لي، فكل هؤلاء الرجال الذين لا يرونك أكثر من مجرد صديق لطيف، سيبدؤون في تغيير نظرتهم إليكِ.

زمَّت شفتيها في تفكر، وقالت:

- مما يعني أنك بمجرد أن تقرر التخلي عني، سأجد حشودًا من الخُطَّاب رهن إشارتي؟

- أوه، سأسمح لكِ بأن تكوني الشخص الذي ينقض العهد.

أجاب سايمون بشهامة. ولاحظ أنها حتى لم تُزعِج نفسها بشكره على شهامته.

- ما زلتُ أعتقد أنني سأربح الكثير من تلك الخطة، أكثر مما ستربحه أنت.

فضغط على ذراعها قليلًا وقال:

- إذن ستنفذين الخطة؟

تطلعت دافني إلى السيدة فيذرنجتون، التي بدت مثل طائر كاسر، ثم تطلعت إلى أخيها، الذي بدا كما لو أنه قد ابتلع عظام دجاجة. لقد رأت تلك التعبيرات من قبل عشرات المرات، باستثناء أنها كانت على وجه والدتها وبعض الخُطَّاب المحتملين منكودي الحظ.

وعندها قالت دافني في حزم:

- أجل. أجل، سأنفذ الخطة.

- في اعتقادك، لماذا تأخرا؟

علَّقت ليدي بريدجرتون ذراعها في ذراع ابنها الأكبر، غير قادرة على إبعاد عينيها عن ابنتها –والتي بدت وكأنها قد استحوذت تمامًا على اهتمام دوق هاستنجز– الذي لم يمضِ على عودته إلى لندن سوى أسبوع واحد، وقد صار بالفعل صيد الموسم الاجتماعي.مكتبة .. سُر مَن قرأ

- لا أعلم، لكنني أشعر وكأن ساعات طويلة قد مرت.

أجاب أنطوني وهو يتطلع بامتنان إلى أظهر عائلة فيذرنجتون إذ انتقلن إلى الضحية التالية.

- هل تعتقد أنه مُعجبٌ بها؟

سألت فيوليت في حماس.

- هل تعتقدين أن دافني تمتلك حقًّا فرصةً لتكون دوقة؟

امتلأت عينا أنطوني بمزيجٍ من نفاد الصبر والتشكيك، ثم قال:

- أمي، لقد أخبرتِ دافني أنه ليس مسموحٌ لها أن تُرى حتى برفقته، والآن تفكرين في الزواج؟

- لقد كنت أتحدث عن غير نضج.

قالت فيوليت بإشارة لا مُبالية من يديها، ثم تابعت:

- من الواضح أنه صار رجلًا يتمتع بدماثة وذوق عظيمين. والآن اسمح لي أن أطرح عليكَ سؤالًا: هل تعلم ما أخبرتُ دافني به؟

- أخبرتني داف بالطبع.

أجاب أنطوني كاذبًا.

- أوف. في الحقيقة، أنا واثقة من أن بورشا فيذرنجتون لن تنسى هذه الليلة ما حييت.

اتسعت عينا أنطوني في دهشة، ثم قال:

- هل تحاولين ترتيب زواج دافني حتى يمكنها أن تكون زوجة وأمًّا سعيدة، أم إنكِ فقط تحاولين هزيمة السيدة فيذرنجتون في سباق الوصول إلى مذبح الكنيسة؟

- الخيار الأول بالطبع.

أجابت فيوليت في حنق، ثم أضافت:

- وأنا مستاءة تمامًا من أنك حتى قد تُلَمِّح إلى شيء آخر.

وشردت عيناها قليلًا عن دافني والدوق، لمدة كافية سمحت لها بتحديد موقع بورشا فيذرنجتون وبناتها. وتابعت حديثها قائلة:

- لكنني بالتأكيد لا أُمانع رؤية تلك النظرة على وجهها عندما تُدرك أن دافني –ابنتي أنا– ستحقق أفضل زواج في الموسم الاجتماعي.

- أمي، أنتِ حالة ميؤوسٌ منها.

- بالطبع لا. ربما أكون صفيقة، لكنني لن أكون يائسة أبدًا.

هزَّ أنطوني رأسه في ذهول، وتمتم بشيء ما بصوتٍ خافت.

- ليس من الأدب أن تُغمغم بكلام غير مفهوم.

قالت فيوليت، وخاصةً حتى تُزعِج أنطوني. ثم وقعت عيناها على دافني والدوق، فقالت:

- أجل، ها هما ذان. أنطوني، تأدب. دافني! يا صاحب الجلالة!

ثم صمتت قليلًا، حتى تسمح للزوج الرائع بشق طريقه إلى جانبها. وتابعت:

- أنا واثقةٌ من أنكما استمتعتما بالرقص.

- كثيرًا. إن دافني تتمتع بالرشاقة مثلما تتمتع تمامًا باللباقة.

تمتم سايمون. وهنا أطلق أنطوني قهقهة عالية، فتجاهله سايمون وقال:

- أتمنى لو كان بإمكاننا أن نحظى بشرف الرقص معًا مرة أخرى في أقرب وقتٍ ممكن.

فامتلأ وجه فيوليت بريدجرتون ببهجة وتوهُّج، وقالت:

- أوه، أنا واثقةٌ تمامًا أن دافني ستحب ذلك كثيرًا.

وعندما لم تُجِب دافني بالسرعة الممكنة، تطوعت فيوليت لتضيف في وضوح:

- أليس كذلك يا دافني؟

- بالطبع.

أجابت دافني في خجل واتزان.

- أنا واثقٌ من أن والدتك لن تكون متساهلةً أبدًا حتى تسمح لي برقصة فالس أخرى. لكنني أتمنى حقًا لو سمحت لنا بجولةٍ حول قاعة الرقص.

قال سايمون، والذي بدا في كل كلمة نطق بها مثل دوقٍ مُهذَّب. إلا إن أنطوني قد اعترض حديثه موضحًا:

- لقد أنهيت للتو جولةً حول قاعة الرقص.

فتجاهله سايمون مجددًا، وتوجَّه بحديثه نحو فيوليت:

- سنظل بالطبع في موضع نظركم طوال الوقت.

كانت المِروحة اليدوية من الحرير الخُزامي، والتي كانت تستقر في راحة فيوليت، قد بدأت في نوبة سريعة من الرفرفة، إذ أجابت فيوليت:

- يسرني ذلك.. أعني أن دافني ستكون مسرورة بذلك. أليس كذلك، دافني؟

فأجابت دافني في براءة:

- أجل، سأكون كذلك.

- أما أنا، فسأختار جرعةً من الأفيون؛ من الواضح أنني مُصابٌ بالحمى. ما الذي يحدث هنا؟

قال أنطوني وقد جُنَّ جنونه.

- أنطوني!

قالت فيوليت متعجبةً. والتفتت نحو سايمون في عُجالة وقالت:

- لا تأبه به.

- أوه، لن أفعل أبدًا.

أجاب سايمون في لطف، فقال أنطوني في وضوح:

- سيكون من دواعي سروري أن أقوم بدور مرافقك.

فقاطعته فيوليت قائلة:

- ما هذا، أنطوني؟ هما بالكاد في حاجة إلى مرافق إن كانا سيتجولان هنا في قاعة الرقص.

- أوه، أنا أُصِرُّ على ذلك.

- أنتما الاثنان، فلتبدآ جولتكما.

قالت فيوليت موجهة حديثها إلى دافني وسايمون. مشيرة بيديها إليهما، ثم أضافت:

- أنطوني سيكون برفقتكما بعد برهة.

حاول أنطوني أن يتبعهما على الفور، لكن فيوليت قد جذبته من معصمه بقوة بالغة، وقالت بصوتٍ حفيف:

- ما الذي تعتقد أنك فاعله؟

- أحمي شقيقتي!

- من الدوق؟ لا يمكن أن يكون بهذا المكر والسوء. في الحقيقة، إنه يذكرني بك.

فأجاب أنطوني في تذمر:

- إذن فهي بحاجة إلى حمايتي.

ربتت فيوليت على ذراعه حتى يهدأ، وقالت:

- لا تكن مبالغًا في حمايتها. إذا حاول أن يتسلل بها إلى خارج قاعة الرقص، فأعدك أن بإمكانك حينها أن تُسرِع لإنقاذها. لكن حتى تقع تلك الأحداث غير المحتملة، أرجو أن تسمح لشقيقتك ببرهة من الرِفعَة.

حملق أنطوني إلى ظهر سايمون وقال:

- غدًا سوف أقتله.

- عزيزي!

قالت فيوليت وهي تهزُّ رأسها في تعجُّب. ثم تابعت:

- لم يكن لدي أي فكرة أنك سريع الغضب إلى هذا الحد. سيعتقد المرء أني بصفتي والدتك، سأكون على علمٍ بتلك الأمور، خاصةً وأنك طفلي الأول؛ ولذلك قد عَرَفتُك فترةً أطول منْ أي من أطفالي، لكن...

- هل هذا كولين؟

قاطعها أنطوني بصوتٍ مختنق، فطرفت عينا فيوليت، ثم أغمضتها نصف غمضة قبل أن تقول:

- لماذا؟ أجل، هذا هو. أليس رائعًا أنه قد عاد مبكرًا؟ بالكاد استطعتُ تصديق عينيَّ عندما رأيته منذ ساعة. في الحقيقة، أنا...

- يَحسُن بي أن أذهب إليه؛ يبدو وحيدًا. إلى اللقاء يا أمي!

قال أنطوني في عُجَالة قبل أن يفر هاربًا.

راقبت فيوليت المشهد إذ أسرع أنطوني نحو شقيقه، مُرَجِّحةً أن فراره ما هو إلا هروبٌ من محاضرتها الثرثارة. وتمتمت في نفسها: «ولدٌ سخيف!» فليس هناك من أطفالها من يبدو على دراية بأيٍّ من حيلها؛ كل ما عليها فعله هو الثرثرة حول لا شيء، ويمكنها أن تتخلص من أيٍّ منهم في لحظة.

سمحت لنفسها بتنهيدة ارتياح، وعادت تتابع ابنتها. والآن على الجانب الآخر من قاعة الرقص، تستقر يدها بارتياح عند انحناءة مرفق الدوق. هذا الثنائي يشكل زوجًا لطيفًا.

وفكرت فيوليت إذ بدت مغشية العينين من أثر البكاء أن ابنتها ستكون دوقة مميزة ورائعة.

ثم سمحت لناظريها بالتجول سريعًا، حتى وصلا إلى أنطوني، الذي يقف الآن تمامًا في المكان الذي أرادت أن يكون فيه –بعيدًا عن ناظرها–. وسمحت لنفسها بابتسامة خبيثة. إن السيطرة على الأطفال مهمة سهلة للغاية.

ثم تحوَّلت ابتسامتها إلى عبوس، إذ لاحظت دافني تسير عائدة نحوها تتأبط ذراع رجلٍ آخر. ففحصت عينا فيوليت قاعة الرقص على الفور، حتى وجدت الدوق.

ما هذا السخف؟ ما الذي يفعله؟ إنه يراقص بينلوبي فيذرنجتون؟

الفصل السادس

30 من أبريل 1813 **جريدة المجتمع**

لقد وصل إلى مسامع كاتبة هذا المقال أن دوق هاستنجز قد ذكر ما لا يقل عن ست مرات –بالأمس فقط– خططه بعدم الزواج أبدًا. فإن كانت نوايا الدوق هي إبعاد الأمهات الطموحات عن طريقه، فقد ارتكب خطأً جسيمًا في الحكم على الأمور؛ فبكل بساطة سيرين أن تعليقاته ما هي إلا واحدة من أكبر التحديات التي ستواجههن.

وفي ملاحظة جانبية مثيرة، أوضح لكم أن تعليقات الدوق الستة المعادية للزواج كانت جميعًا قد قيلت قبل أن يتعرف الدوق إلى الآنسة اللطيفة اللبقة (دافني) بريدجرتون.

ليدي ويسلداون

بعد ظهر اليوم التالي وجد سايمون نفسه يقف على أعتاب منزل دافني، حيث تقرع إحدى يديه على مقرعة الباب النحاسية. أما اليد الأخرى؛ فكانت ممسكةً بباقة كبيرة من زهور التيوليب باهظة الثمن. لم يكن يخطر على باله أن حيلته التمثيلية ستتطلب منه اهتمامًا حتى في ساعات النهار، ولكن في أثناء جولتهما في قاعة الرقص الليلة الماضية، كانت دافني قد أشارت في كلمات حكيمة أنه إذا لم يزرها الدوق في اليوم التالي، فلن يصدق أحد –ووالدتها على الأقل– أنه مُعجبٌ بها حقًا.

أبدى سايمون قبوله لكلماتها على أنها حقيقة مؤكدة، مؤيدًا لفكرة أن دافني بالتأكيد أكثر معرفةً منه بسلوكيات اللياقة من هذا النوع. ولذلك امتثل سايمون في طواعية تلك الحقائق؛ وأعدَّ بعض الزهور وسار مُجهَدًا

يعبر جروسفينور سكوير، حتى وصل إلى منزل عائلة بريدجرتون. لم يكن سايمون قد تودد إلى امرأة جديرة بالاحترام من قبل، لذا فقد كانت تلك الطقوس غريبة تمامًا عنه.

فُتِحَ الباب الأمامي على الفور، وظهر من خلفه رئيس الخدم لدى عائلة بريدجرتون، فقدَّم إليه سايمون بطاقته. كان رئيس الخدم رجلًا طويل القامة، نحيف القوام، ذا أنفٍ بارز. تفحَّص رئيس الخدم البطاقة لجزءٍ من الثانية، قبل أن يومئ له بالدخول، ثم تمتم: «من هذا الطريق، يا صاحب الجلالة».

من الواضح أن حضور سايمون كان متوقعًا، هكذا فكَّر سايمون بشيء من السخرية.

أما ما لم يكن متوقعًا؛ هو المشهد الذي كان ينتظره إذ أرشده رئيس الخدم إلى قاعة الاستقبال في منزل بريدجرتون.

كانت دافني تبدو ملاكًا، في فستانٍ من الحرير الأزرق الثلجي، تتكئ على حافة أريكة دمشقية خضراء تخص ليدي بريدجرتون. وكان وجهها مُزَيَّنًا بواحدة من تلك الابتسامات متناهية الاتساع.

كان من الممكن أن يكون مشهدًا مُحبَّبًا إلى القلب، ما لم تكن دافني مُحاطَةً بنصف دزينة من الرجال على الأقل. وكان أحدهم قد اتكأ على ركبة واحدة بالفعل، وطوفان من الشِّعرِ يفيض من فمه.

وبالنظر إلى النثر المُلقى ذي الطبيعة الوردية، فقد توقع سايمون تمامًا أن غصنًا من الورد سينبت من فم الأبله في أي لحظة.

ورأى سايمون أن المشهد بأكمله بغيضٌ ومزعج.

كان سايمون قد ثَبَّت نظره على دافني، والتي كانت توجه ابتسامتها الآسرة إلى المُهَرِّج الذي يلقي الشعر. وانتظرها في موضعه حتى تُدرِكَ وجوده.

لكنها لم تنتبه.

نظر سايمون إلى يده الفارغة، ولاحظ أن راحته قد التفَّت في قبضة مُحكَمة. فتفحَّص الغرفة على مهلٍ مُحاولًا أن يقرر على أي وجهٍ من وجوه الرجال الحاضرين سيستخدم قبضته.

كانت دافني تبتسم مرة أخرى، ومرةً أخرى لم تكن الابتسامة له.

بالتأكيد كانت الابتسامة موجهة إلى الشاعر الأحمق، الشاعر الأحمق بالتأكيد. أمال سايمون رأسه قليلًا إلى الجانب، إذ كان يحلل وجه القرويّ العاشق. هل ستكون قبضته مناسبة في محجر عينه اليُمنى أم اليُسرى؟ أو ربما كان هذا تصرفًا شديد العنف. ربما ستكون لكمة خفيفة أكثر ملائمة، على الأقل ستُخرِس هذ الرجل بالفعل.

- هذه القصيدة... لقد كتبتها على شرفك الليلة الماضية.

صَرَّح الشاعر في غرور.

تَذَمَّر سايمون عند سماعه لتلك الكلمات. كان سايمون قد اعتبر القصيدة الأخيرة أداءً مهيبًا لإحدى معلقات شكسبير، لكنَّ إلقاء عملٍ أصلي كان أكثر مما يحتمله سايمون.

- يا صاحب الجلالة!

تطلع سايمون إلى الأمام، ليدرك أن دافني أخيرًا قد لاحظت دخوله الغرفة.

أومأ برأسه في عظمة. كان مظهره الجِدِّيُّ البارد لا يتفق أبدًا مع وجوه الجِرَاء اللطيفة التي تقمصها الخُطَّاب الآخرون.

- آنسة بريدجرتون.

- سُرِرتُ برؤيتك.

أجابت دافني وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة مشرقة.

أو كان شيئًا أشبه بذلك. هنا سوَّى سايمون باقة الزهور ونهض يسير نحوها، حتى أدرك أن هناك ثلاثة خُطَّابٍ من الشباب يعترضون طريقه. ولم يبدُ أن أحدًا منهم يميل إلى إفساح الطريق، فحدَّق سايمون بنظرةٍ ثاقبة متغطرسة إلى الخاطب الأول؛ مما جعل الصبي -في الحقيقة كان يبدو في العشرين من عمره، بالكاد يبلغ من العمر ما يكفي حتى يُطلَق عليه لفظ: *رجل*، بل يكفي مراهق- يسعل بطريقة مُنفِّرة. وانطلق راكضًا إلى كُرسيٍّ شاغر بجوار النافذة.

تحرك سايمون إلى الأمام على استعداد تام لتكرار الخطة ذاتها مع الشاب المزعج التالي، عندما اعترضت زوجة الفيكونت طريقه فجأةً في ردائها الأزرق القاتم، فاستقبلته بابتسامة يمكن أن تُضاهي ابتسامة دافني في بهائها.

- يا صاحب الجلالة! كم تسعدني رؤيتك. إن حضورك لشرفٌ لنا.

- لا يمكنني أن أتخيل نفسي في مكانٍ آخر سيدتي.

تمتم سايمون وهو يلتقط يدها المغطاة بالقفازات ويطبع قبلةً رقيقةً عليها، ثم أضاف:

- إن ابنتكِ شابةٌ استثنائية.

تنهَّدت زوجة الفيكونت في رضا وقناعة، ثم تابعت بعد أن أنهت استمتاعها البسيط باعتزاز الأم:

- هذه زهورٌ رائعة. هل هي من هولندا؟ لا بد وأنها مُكلِّفةٌ للغاية.

- أمي!

قالت دافني في حِدَّة. وانتزعت يدها من قبضة أحد الخُطَّاب المُفعمين بالحيوية، وشقت طريقها نحوها، ثم تابعت مُوجهةً الحديث إلى أمها:

- كيف تتوقعين أن يجيب الدوق على ذلك؟

- يمكنني أن أخبرها كم دفعتُ مقابل تلك الزهور.

قال سايمون بابتسامة شيطانية خافتة.

- لن تفعل.

انحنى سايمون إلى الأمام خافضًا صوته حتى تسمعه دافني وحدها، وتمتم قائلًا:

- ألم تُذكِّريني ليلة أمس أنني دوق؟ اعتقدتُ أنكِ قد أخبرتني أن بإمكاني فعل أي شيء أريده.

- أجل، لكن ليس هذا. الأفضل ألا تكون فظًّا أبدًا.

أجابت دافني بإشارة رفضٍ حاسمة من يدها.

- بالتأكيد لا يكون الدوق فظًّا!

تعجَّبت والدتها، وبدا على وجهها الذعر مما ذكرته دافني في حضرة الدوق. ثم تابعت:

- ما الذي تتحدثان عنه؟ لماذا يكون الدوق فظًّا؟

- الزهور، التكلفة.. إن دافني هنا تعتقد أنه لا ينبغي أن أخبركِ عنها.

- أخبرني لاحقًا، عندما لا تكون هي بالقرب منا.

همست زوجة الفيكونت من جانب فمها. ثم تحركت نحو الأريكة الدمشقية الخضراء التي كانت دافني تجلس عليها برفقة الخُطَّاب. وفي ثلاث ثوانٍ كانت الأريكة قد خلت من أي شخص. وكان على سايمون أن يُقِرَّ بإعجابه الشديد بالانضباط العسكري الذي أدارت به المناورة.

- إلى هناك الآن. أليس هذا الوضع أفضل؟ دافني، لماذا لا تجلسين برفقة الدوق هناك؟

- تقصدين المكان حيث كان يجلس لورد رايلمونت والسيد كراين منذ عدة دقائق؟

سألت دافني في براءة.

- تمامًا.

أجابت والدتها بنبرة صوتٍ تفتقر إلى التهكم الواضح، وكان على سايمون أن يُعجب بهذا أيضًا. ثم تابعت:

- إلى جانب أن السيد كراين قد قال إنه على موعد مع والدته في مقهى جانترز في تمام الثالثة.

تطلعت دافني إلى الساعة وقالت:

- لا تزال الساعة الثانية يا أمي.

- ليس هناك شيء أكثر فظاعة من ازدحام المرور هذه الأيام، وعدد الخيول الكبير على الطريق.

أجابت فيوليت بامتعاض.

- إنه لرجلٌ سيئ مَنْ يُبقي والدته في انتظاره.

علَّق سايمون إذ اندمج قليلًا في روح الحديث. وعندها أشرقت ابتسامة فيوليت مُجيبةً:

- أحسنتَ القول يا صاحب الجلالة. ويمكنك أن تكون واثقًا أنني قد أعربتُ عن الشعور ذاته لأطفالي الأعزاء.

- وفي حال لم تكن واثقًا، سيسعدني أن أُثبِتَ لك ذلك.

أجابت دافني بابتسامة مشرقة. على خلاف فيوليت، التي بالكاد ظهرت ابتسامتها، وقالت:

- إن كان لأحدٍ أن يدرك هذا الأمر، فسيكون أنتِ بالتأكيد، دافني. والآن اعذراني؛ فلدي الكثير من الأعمال لأنهيها. أوه، سيد كراين! سيد كراين! إن والدتك لن تسامحني إن لم أرشدك إلى الخروج في الوقت المناسب.

انطلقت فيوليت في عُجالة مُتشبثةً بذراع السيد كراين سيئ الحظ، وقادته نحو الباب. بالكاد منحته الوقت الكافي ليقول وداعًا.

التفتت دافني إلى سايمون ووجهها مُغطى بتعبيرات التعجُّب.

- لا يمكنني القول إن كانت مُهذَّبة بشكل مُريع أم فظة بشكل لا يُصدق.

- ربما تكون مهذبة بشكل لا يُصدق؟

علَّق سايمون بدماثة خلق. فهزَّت دافني رأسها، ثم قالت:

- أوه، ليس هذا بالتأكيد.

- إذن سيكون البديل هو...

- فَظَّة للغاية؟

ضحكت دافني وقد كانت تتابع والدتها، التي تأبطت ذراع لورد رايلمونت، موجهةً إياه نحو دافني، حتى يتسنى له إلقاء الوداع عليها، ثم قادته إلى خارج الغرفة. وبعد ذلك، كما لو أن سحرًا قد غَلَّف المكان، تمتم الخُطَّاب الآخرون برغبتهم في الوداع العاجل، وحَذَوا حَذْوَ السابقين.

- تتمتع بكفاءة مشهودة، أليس كذلك؟

تمتمت دافني.

- تقصدين والدتك؟ إنها أعجوبة.

- ستعود بالتأكيد.

- يا للخسارة! وأنا من ظَنَنتُ أنكِ قد وقعتِ في براثني أخيرًا.

ضحكت دافني، ثم قالت:

- لا أدرى كيف لأحدٍ أن يعتبرك شخصًا فاسقًا. إنَّ حس الدعابة لديك رائعٌ للغاية.

- وأنا الذي كنت أظن أننا نحن الفاسقين نتمتع بحس دعابة خبيث.

- إن أساس حس الدعابة لدى الفاسق هو القسوة.

أوضحت دافني.

كان وقع تعليقها مُفاجئًا على سايمون. فقد حدَّق إليها باهتمام شديد، غارقًا في عينيها البنيتين، ولا يدري حقًّا عم كان يبحث. إلا إنه لاحظ حلقة ضيقة خضراء اللون تحيط ببؤبؤ عينيها من الخارج. كان لونها غنيًّا مُشَبَّعًا مثل الطحالب. وحينها أدرك أنه لم يَرَها من قبل في ضوء النهار قط.

- يا صاحب الجلالة؟

انتشله صوت دافني الهادئ من شروده، فطرفت عيناه قبل أن يجيب:

- أستميحكِ عذرًا؟

- تبدو وكأنك قد سافرت بعيدًا آلاف الأميال.

قالت دافني وهي تقطب حاجبيها.

- لقد كُنتُ على بُعد مئات الأميال.

أجاب سايمون، بينما كان يحارب رغبةً عارمة في أن يعود بناظريه مرة أخرى إلى عينيها، ثم تابع:

- لكن هذا مختلفٌ تمامًا.

أطلقت دافني ضحكة خافتة، لكنها ضحكة ذات لحنٍ موسيقي.

- لقد سافرتَ بعيدًا، أليس كذلك؟ وأنا هنا لم أذهب إلى أبعد من لانكاشاير قط. لا بد وأنني أبدو مثل قروية ساذجة.

تغاضى سايمون عن ملاحظتها تمامًا، وغيَّر دفة الحديث:

- أود لو تغفري لي شرودي. لقد كنا نناقش افتقاري إلى حس الدعابة، أليس كذلك؟

- لم نكن نناقش هذا الأمر، وأنت تعلم ذلك جيدًا.

أجابت دافني. ووجدت يداها طريقهما إلى فخذيها، لتستقرا فوقهما. ثم تابعت:

- لقد قُلتُ لك تحديدًا إنك تتمتع بحس دعابة يفوق كثيرًا حس الدعابة الذي يتمتع به الفاسق العادي.

رفع سايمون أحد حاجبيه في دهشة واستنكار، ثم أردف:

- وأنتِ لا تصنفين أشقاءكِ في خانة الفاسقين؟

- هذا مجرد اعتقاد. إنهم يعتقدون أنهم فاسقون، لكن هذا ليس صحيحًا. هناك فرق كبيرٌ بين هذا وذاك.

أجابت دافني تصحيحًا للمفاهيم. فأطلق سايمون ضحكة خافتة، ثم قال:

- إذا لم يكن أنطوني فاسقًا، فأنا أُشفِقُ على المرأة التي ستقابل حقيقة هذا الرجل.

فأجابته دافني دون اكتراث:

- حتى تكون فاسد الأخلاق، هناك ما هو أكثر من مجرد إغواء لفيالق من النساء. إذا عجز الرجل عن فعل ما هو أكثر من دفع لسانه إلى فم المرأة ليُقبِّلَها...

شعر سايمون باختناقٍ في حلقه، لكنه بطريقة ما استطاع السيطرة على تَلَعثُمِه، ثم قال:

- لا ينبغي أن تتحدثي في أمورٍ كهذه.

رفعت دافني كتفيها استهجانًا. فأضاف سايمون في تذمر:

- لا ينبغي حتى أن تعرفي تلك الأمور.

- أربعة أشقاء.

أجابت دافني، بطريقة بدت معها كلماتها وكأنها توضيحٌ لكل شيء. ثم أضافت:

- حسنًا، ثلاثة أشقاء. إن جريجوري ما زال صغيرًا على أن نعده ذا خبرة.

- على أحدهم أن يخبرهم بإسكات ألسنتهم عندما تكونين بالجوار.

زامت دافني بشفتيها استهجانًا، لكنها في تلك المرة رفعت كتفًا واحدةً.

- إنهم لنصف الوقت لا يدركون حتى وجودي حولهم.

أما سايمون، فقد عجز تمامًا عن تخيل هذا الأمر. كيف لهم ألا يلحظوا وجودها؟

- لكن يبدو أننا قد حِدْنَا عن الموضوع الأصلي. كل ما أقصده هو أن أساس حس الدعابة الذي يتمتع به أي شخصٍ فاسق هو القسوة. إنه بحاجة إلى ضحية، لأنه لا يتخيل أبدًا أن يكون هو نفسه الأضحوكة التي يسخر منها. فأنت يا صاحب الجلالة شخصٌ بارعٌ في إلقاء ملاحظات استنكار الذات.

- لا أدري حقًّا أمن المفترض أن أُعرِبَ لكِ عن امتناني؟ أم أُفَضِّل خنقك؟

- تخنقني؟ يا إلهي! لماذا؟

وضحكت دافني مجددًا، صوت ضحكة عميقة مُفعَمة بالسعادة، حتى شعر بها سايمون بداخله تتناغم مع دقات قلبه.

لكنه تنهَّد في روية. وبالكاد ساعدت نفحة الهواء الطويلة في تنظيم وتيرة نبضه. كان يعلم أنه إذا تابعت دافني ضحكاتها، فلن يكون قادرًا على تحمل مسؤولية العواقب.

إلا إنها لم تتوانَ عن التطلع إليه. وكان فمها الواسع قد نمَّ عن واحدة من تلك الابتسامات، التي تبدو معها وكأنها دائمًا على حافة التحول إلى ضحكة صاخبة.

- سأخنقكِ وفقًا للمبدأ العام.

قال سايمون في تبرُّم.

- وأي مبدأ هذا؟

- المبدأ العام للرجال بالطبع.

أجاب سايمون في توعُّد. فرفعت حاجبيها بارتياب، وقالت:

- وهذا يتعارض مع المبدأ العام للنساء؟

تطلع سايمون حوله، وقال:

- أين شقيقك؟ لقد صِرتِ فتاةً صفيقة، ولا بد أن يتولى أحدهم مسؤوليتك.

- أوه، أنا واثقةٌ من أنكَ سترى أنطوني كثيرًا. في الحقيقة أنا مدهوشة تمامًا من عدم ظهوره حتى الآن. لقد كان ساخطًا للغاية ليلة أمس. وكُنتُ مُجبرةً على سماع محاضرة طويلة لساعة كاملة عن الكثير من أخطائك وآثامك.

- هذه الآثام مبالغٌ فيها بالتأكيد.

- والأخطاء؟

- ربما تكون حقيقية.

اعترف سايمون في خجل.

منحته تلك الملاحظة ابتسامة أخرى من دافني.

- حسنًا، سواء كان هذا صحيحًا أم لا، فهو يعتقد أنك تخطط لشيءٍ ما.

- لكنني أخطط لشيء ما بالفعل.

مالت برأسها قليلًا في تهكم، وقلَّبت عينيها، ثم أكملت:

- أنطوني يعتقد أنك تخطط لشيءٍ سيئ للغاية.

- لَكَم أود أن أخطط لشيءٍ سيئ!

تمتم سايمون.

- ماذا تقول؟

- لا شيء.

عبست دافني وقالت:

- أعتقد أن علينا إخبار أنطوني بشأن خطتنا.

- وما الفائدة التي يمكن أن تعود علينا من هذا الفعل؟

تذكرت دافني الساعة الكاملة من العذاب الذي تحملته في الليلة الماضية، لكنها لم تسرد شيئًا مما قيل، واكتفت بجوابٍ قصير:

- صحيح، أعتقد أنني سأدعك تكتشف هذا بنفسك.

اكتفى سايمون برفع حاجبيه في استغراب، ثم استأنف حديثه:

- عزيزتي دافني...

ففرجت دافني شفتيها قليلًا في دهشة.

- بالتأكيد لن تُجبِريني على مناداتك بالآنسة بريدجرتون.

وتنهد في درامية ويأس قبل أن يضيف:

- بعد كل ما مررنا به معًا.

- لم نمر بشيء قط، أيها الرجل السخيف، ومع ذلك أعتقد أن بإمكانك مناداتي دافني.

- رائع!

أومأ سايمون في تواضع، ثم أضاف:

- يمكنكِ أن تناديني بصاحب الجلالة.

فرَكَلَته دافني في عنف.

- حسنًا، سايمون إن كُنتِ مُصِرَّةً على ذلك.

أجاب سايمون، وقد كانت شفتاه ترتعشان من الجانب. فتابعت دافني:

- أجل، أنا مُصِرَّة. من الواضح أنني مُصِرَّة.

انحنى سايمون قليلًا نحوها. كان شيءٌ غريب يتلألأ في أعماق عينيه الشاحبتين. ثم قال:

- هل أنتِ مُصِرَّة؟ أنا متحمسٌ كثيرًا لسماع اسمي.

أما دافني؛ فقد انتابها هاجسٌ مفاجئ أنه كان يتحدث عن شيء آخر أكثر حميمية من مجرد ذكر اسمه الأول. فأصابت ذراعيها وخزات غريبة، من النوع الذي ينشر الحرارة في الجسد. ودون تفكير، قفزت عائدةً خطوة إلى الوراء، ثم قالت باندفاع:

- هذه الزهور لطيفةٌ جدًا.

تطلع سايمون إلى الزهور في كسل وهو يدير باقة الزهور برسغه، وقال:

- أجل، إنها لطيفة، أليس كذلك؟

- لقد أحببتها كثيرًا.

- لكنها ليست من أجلك.

حُبِسَ الهواء داخل رئتي دافني إذ سمعت تلك الكلمات، فضحك سايمون ثم قال:

- إنها من أجل والدتك.

فغرت فاها في دهشة، وقبل أن تنطق حرفًا، كانت شهقةٌ قصيرة من الهواء قد مرَّت من خلال شفتيها:

- صحيح، أنت رجلٌ ذكيٌّ للغاية. أؤكد لك أنها ستنهار تحت قدميك بتلك الإشارة. لكن هذه الإيماءة ستعود لمطاردتك ذات يومٍ كما تعلم.

تطلع إليها سايمون بنظرةٍ ماكرة، ثم قال:

- أوه، حقًّا؟

- أجل. ستكون الآن أكثر إصرارًا من ذي قبل على الزَجِّ بِكَ لتقف أمام مذبح الكنيسة. وستكون مُحاصَرًا في الحفلات كما لو أننا لم نصطنع تلك الخطة.

- هُرَاء.

أجاب سايمون ساخرًا، ثم تابع:

- من قبل كان عليَّ أن أتحمل اهتمام دزينة من الأمهات الطموحات، والآن عليَّ التعامل مع واحدة فقط.

- إن صلابتها ستُبهِرُكَ يومًا ما.

تمتمت دافني. ثم دارت برأسها قليلًا لتتطلع إلى الباب الذي فُتِحَ جزئيًا، وقالت:

- لا بد وأنها مُعجَبةٌ بك حقًا. لقد تركتنا بمفردنا وقتًا أطول مما يجب.

تأمل سايمون حديثها، ثم انحنى إلى الأمام ليهمس لها:

- أمن الممكن أن تستمع إلى حديثنا من خلف الباب؟

هَزَّت دافني رأسها نافية، وقالت:

- كلا. إن كان هذا صحيحًا، لكان علينا أن نسمع وقع حذائها يدق في الرواق.

شيءٌ ما حيال هذا التصريح جعل ابتسامة عميقة تظهر على محياه، ووجدت دافني نفسها تبتسم أيضًا معه.

- عليَّ أن أُعرِبَ لك عن شكري حقًا قبل أن تعود أمي.

- حقًا؟ لماذا؟

- إن خطتك تنجح نجاحًا باهرًا -على الأقل معي-. هل لاحظت كم من الخُطَّاب قد جاؤوا لزيارتنا هذا الصباح؟

عقد ذراعيه، فتدلت أزهار التيوليب رأسًا على عقب، وأجاب:

- أجل. لاحظت.

- إنها رائعةٌ حَقًا. لم يأتِ من أجلي هذا العدد من الخُطَّاب من قبل في أمسية واحدة. كانت أمي في غاية من الزهو والاعتزاز. حتى هامبولدت -رئيس الخدم في منزلنا- كان يهلِّلُ مبتَهِجًا، ولم أره يبتسم بهذا القدر من قبل. عُذرًا، إنك تُسقِطُ الزهور.

ومالت دافني إلى أسفل حتى تلتقط الزهور، ولامس ساعدها مقدمة معطفه. قفزت دافني إلى الخلف على الفور في ذُعر، كانت ترتجف بفعل ما لامسته فيه من حرارةٍ وقوة.

يا إلهي! إن كانت تستطيع الشعور بكل هذا من خلال قميصه ومعطفه، فكيف سيبدو إن...

واحمرَّ وجه دافني خجلًا مثل بندورة ناضجة في موسمها.

- هل هذا يعني أن عليَّ التخلي عن ثروتي بأكملها من أجل تلك الأفكار.

قال سايمون وهو يرفع حاجبيه في تساؤل.

ولحسن الحظ، اختارت فيوليت تلك اللحظة لتدخل الغرفة.

- أنا آسفة للغاية بشأن تركي إياكما طويلًا، لكن حصان السيد كراين قد فقد حدوته، لذلك –بطبيعة الحال– كان عليَّ اصطحابه إلى إسطبل الخيول حتى يُصلِح السائس هذا الضرر.

طوال تلك السنوات التي عاشاها معًا –والتي تُمَثِّل حياتها بأكملها، هكذا فكرت دافني في سخط – لم تَرَ دافني والدتها قط تخطو خطوةً واحدة داخل إسطبل الخيول.

- أنتِ حقًا مُضيفةٌ لا مثيل لها.

قال سايمون. ثم مدَّ يديه بباقة الزهور، وقال:

- تفضلي، هذه من أجلك.

- من أجلي؟

فغرت فيوليت فاها في دهشة، وأفلتت من بين شفتيها شهقة مُرتبكة، ثم قالت:

- هل أنت متأكد؟ لأنني...

وتطلعت فيوليت إلى دافني، ثم إلى سايمون، ثم عادت أخيرًا إلى ابنتها، وقالت:

- هل أنت متأكد؟

- تمامًا.

طرفت عينا فيوليت في سرعة، ولاحظت دافني أن هناك دموعًا حقيقية قد غمرت عيني والدتها. وأدركت دافني في تلك اللحظة أن أحدًا لم يقدم إليها زهورًا من قبل –على الأقل منذ وفاة والدها، قبل عشرة أعوام–. كانت فيوليت أُمًّا متفانية، حتى نسيت دافني أنها امرأة أيضًا.

- لا أدري ماذا أقول.

قالت فيوليت من وراء أنفاسٍ متقطعة.

- يمكن أن تجربي «شكرًا لك».

همست دافني في أذنها، وقد أضافت ضحكتها الخافتة الدفء إلى صوتها الهامس. فأجابت فيوليت بسخرية:

- أوه، داف، أنتِ أسوأ فتاةٍ على الإطلاق.

ثم لكزتها فيوليت في ذراعها وهي تضحك. بدت فيوليت أكثر شبابًا وحيوية من أي وقتٍ قد رأتها دافني فيه من قبل. ثم أضافت فيوليت:

- لكن بالتأكيد شكرًا لك يا صاحب الجلالة. إنها زهور جميلةٌ للغاية. لكن الأهم هو أنها مبادرةٌ لطيفة منك. وسأحتفظ دائمًا بتلك اللحظة في صندوق ذكرياتي المفضلة.

بدا سايمون وكأنه على وشك أن ينطق بشيء ما، لكنه في نهاية الأمر اكتفى بابتسامة بسيطة وانحناءةٍ من رأسه.

تطلعت دافني إلى والدتها، ورأت سعادة لا تُخطئها العين تغمر عينيها الزرقاوين بلون زهرة الذرة. وأدركت بمسحةٍ من الخجل أنه لم يتصرف أيٌّ من أطفالها معها قط بتلك الطريقة اللطيفة مثلما فعل الرجل الذي يقف بجانبها.

دوق هاستنجز. هنا قررت دافني، في هذه اللحظة وفي هذا المكان، أنها ستكون فتاةً حمقاء إن لم تقع في حُبِّه. وبالطبع سيكون أمرًا لطيفًا أن يبادلها تلك المشاعر.

- أمي، هل تودين مني أن أُحضِرَ لكِ مزهرية؟

- ماذا؟

كانت فيوليت لا تزال منشغلة باستنشاق رائحة زهورها بسعادة عن الانتباه إلى كلمات ابنتها. وإذ عادت إلى الواقع، أجابت:

- أوه. أجل، بالتأكيد. اسألي هامبولدت عن مزهرية البلور المصقول التي تلقيتها من جدتي.

أومض وجه دافني بابتسامة تُعرِبُ عن امتنانها، وتوجهت نحو الباب. ولكن قبل أن تتمكن من أن تخطو أكثر من خطوتين، تجسدت أمامها البنية الضخمة الحاجبة لشقيقها الأكبر عند المدخل.

- دافني! جيد. الشخص الذي كُنتُ في حاجة إلى الحديث معه.

قال أنطوني في تذمر.

إلا إن دافني قد اتخذت قرارًا بأن أفضل استراتيجية للتعامل معه هي ببساطة تجاهل أسلوبه الغليظ.

- سأكون معك خلال ثانية، أنطوني. لقد طلبت مني أمي أن أُحضِرَ لها مزهرية. فقد أحضر لها هاستنجز زهورًا.

أجابت دافني في لُطف.

- هل هاستنجز هنا؟

تطلع أنطوني خلفها إلى الثنائي الآخر الذي يقف داخل الغرفة. ثم أضاف:

- ما الذي تفعله هنا يا هاستنجز؟

- أزور شقيقتك.

اندفع أنطوني متجاوزًا دافني، وسار بخطى واسعة داخل الغرفة. بدا وكأنه مثل سحابة رعدية تسير على قدمين. ورفع صوته عاليًا ليقول:

- أنا لم أمنح لك رُخصَة التودد إلى شقيقتي.

- لكنني فعلت.

هكذا أجابت فيوليت وقد دفعت الزهور بعنفٍ في وجه أنطوني، تُحَرِّك الباقة يمينًا ويسارًا، حتى تتمكن من دفع أكبر كمية من حبوب اللقاح إلى أنفه، ثم أضافت:

- أليست هذه الزهور لطيفة؟

ندت عن أنطوني عطسةٌ قوية، ودفع الزهور عن وجهه.

- أمي، أنا أحاول أن أستكمل حديثًا مع الدوق.

نظرت فيوليت إلى سايمون وقالت:

- هل ترغب في استكمال هذا الحديث مع ابني؟

- ليس تمامًا.

- حسنًا إذن. أنطوني، أرجو أن تلزم الهدوء.

صفَّقَت دافني بإحدى يديها على فمها، لكن صوت قهقهة مفاجئة قد أفلت من بين شفتيها رغم ذلك.

- أنتِ!

أطلق أنطوني إصبعه نحوها مشيرًا إليها، وقال:

- التزمي الهدوء.

- ربما أذهب لإحضار المزهرية.

قالت دافني مُفَكِّرة.

- وتتركينني إلى الرحمة الحنونة التي تغمر عيني شقيقك؟ لا أعتقد ذلك.

قال سايمون بصوتٍ رقيق. فرفعت دافني حاجبيها في دهشة، وقالت:

- هل تُلَمِّح إلى أنك لَستَ رجلًا بما يكفي للتعامل معه؟

- لا شيء من هذا. كل ما في الأمر أن أنطوني ينبغي أن يكون مشكلتكِ أنت، وليست مشكلتي، و...

فاندفع أنطوني صاخبًا:

- اللعنة! ما الذي يحدث هنا؟

- أنطوني! لن أسمح بهذه اللغة النابية في قاعة استقبالي.

قالت فيوليت في غِلظَة.

أطلقت دافني ابتسامة مصطنعة. أما سايمون، فقد اكتفى بأن أمال رأسه جانبًا، مُحَدِّقًا إلى أنطوني في فضول.

ألقى أنطوني بنظرة غاضبة إلى كلٍّ من دافني وسايمون، قبل أن يُديرَ انتباهه إلى والدته.

- إنه شخصٌ لا يمكن الوثوق به. هل لديكِ أي فكرة عما يحدث هنا؟

تساءل أنطوني. فأجابت فيوليت:

- بالتأكيد. إن الدوق هنا في زيارة لشقيقتك.

- وقد جَلَبتُ زهورًا من أجل والدتك.

قال سايمون بلباقة.

حدَّق أنطوني طويلًا إلى أنف سايمون. وقد راود سايمون انطباعٌ ملحوظٌ بأن أنطوني كان يتخيل أنه يُحَطِّم أنفه بقبضته.

دار أنطوني برأسه ليواجه والدته، ثم قال:

- هل تُدرِكِين أبعاد سمعته؟

- الفاسق التائب هو أفضل الأزواج.

قالت فيوليت.

- هذا هُرَاء، وأنتِ تعلمين ذلك.

- إنه ليس فاسِقًا كما تتخيل على أي حال.

أضافت دافني.

كانت النظرة التي ألقاها أنطوني إلى شقيقته تحمل من الضغينة والهزلية ما جعل سايمون على وشك الضحك في أي لحظة. إلا إنه قد تمكن من تقويم نفسه. لكن السبب الرئيسي هو أن سايمون كان واثقًا أن أي محاولة منه لإظهار روح الدُعابة ستتسبب في خسارة الحرب بين قبضة أنطوني وعقله، وعندها سيظهر وجه سايمون كأول ضحية رئيسية لهذا الصراع.

- أنتِ لا تعرفين.. أنتِ لا تعرفين ما الذي كان يفعله.

قال أنطوني بنبرة صوتٍ منخفضة تكاد ترتجُّ من الغضب.

- أنا واثقةٌ أنه لا يزيد على ما كُنتَ تفعله أنت.

أجابت فيوليت بمكر وتَكَتُّم.

- بالضبط! يا إلهي، أنا حقًا أعلم ما يدور في رأسه الآن تمامًا، وأؤكد لكِ أنه شيءٌ لا يتعلق بالشِعر والزهور.

قال أنطوني بصوتٍ جائر.

دارت في مخيلة سايمون صورٌ تتضمن دافني إذ ترقد على فراشٍ من بتلات الورد الأحمر، وحينها تمتم في نفسه: «حسنًا، ربما تكون هناك بعض الورود الحمراء».

- سأقتله!

صرخ أنطوني بصوتٍ حاد. فعلَّقت فيوليت في أدب:

- هذه زهور التيوليب على أي حال، وقد أتت من هولندا. بالإضافة إلى أنك –أنطوني– في حاجة إلى السيطرة على مشاعرك. هذا مشهدٌ غير لائق أبدًا.

- هذا ليس الشخص المناسب للتودد إليها وملاطفتها.

على الجانب الآخر، امتلأ رأس سايمون بالمزيد من الصور الشهوانية؛ في هذه المرة كان قد تخيل نفسه يلعق أصابع قدميها. وقرر ألا يعلق على ما قاله

أنطوني. إلى جانب أنه قد اتخذ قرارًا بالفعل بعدم السماح لأفكاره بالتجول في تلك المنطقة المُحَرَّمة. إن دافني هي شقيقة أنطوني، يا إلهي! لا يمكنه إغواؤها.

- أنا أرفض الاستماع إلى كلمة مهينة أخرى بشأن صاحب الجلالة، وإلى هنا تنتهي المناقشة.

قالت فيوليت بنبرةٍ قاطعة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لكن...

- لا تُعجِبُني نبرة صوتك، أنطوني بريدجرتون.

اعتقد سايمون أنه قد سمع دافني تختنق بضحكة مكتومة، وتساءل ما الذي يعنيه كل هذا.

- إذا لم تُمانِعي يا أمي، أود أن أحظى بحديثٍ خاص مع صاحب الجلالة.

خرجت الكلمات من فم أنطوني بنبرةٍ بالغت في اعتدالها حتى بدت مُفتَعَلَة.

- هذه المرة سأذهب فعلًا لإحضار المزهرية.

أعلنت دافني، واندفعت بخطى حثيثة إلى خارج القاعة. وعلى الجانب الآخر من القاعة، عقدت فيوليت ذراعيها، ووجهت حديثها إلى أنطوني:

- لن أسمح لك أن تُسِيء معاملة ضيفٍ في منزلي.

- لن أحاول الاقتراب منه. أعِدُكِ بذلك.

أجاب أنطوني.

بالنظر إلى حقيقة أن سايمون لم يحظَ قط بأم، فقد وجد هذا التبدل مُذهِلًا؛ ففي نهاية المطاف، منزل عائلة بريدجرتون هو منزل أنطوني من الناحية القانونية، وليس منزل والدته، وقد كان سايمون متأثرًا، إذ امتنع أنطوني عن الإشارة إلى هذا الأمر.

- لا مشكلة في ذلك، ليدي بريدجرتون. أنا واثقٌ من أن أنطوني وأنا لدينا الكثير لنناقشه.

قال سايمون مُقتَحِمًا الحديث. فقطب أنطوني حاجبيه، وضاقت عيناه، ثم عَلَّق:

- الكثير!

- حسنًا، أعلم أنك ستفعل ما تود فعله، بغض النظر عما أقوله على أي حال. لكنني لن أغادر القاعة.

قالت فيوليت. وارتمت بقوةٍ على الأريكة، ثم تابعت:

- هذه قاعة استقبالي، وأنا مستريحة هنا. إن كنتما أنتما الاثنان ترغبان في الدخول في تلك المناقشة الحمقاء السخيفة التي تتخطى المحادثات التي تدور بين الذكور من الجنس البشري إلى أجناس أخرى، يمكنكما أن تفعلا ذلك في مكان آخر.

طرف سايمون بعينيه في دهشة. كان من الواضح أن والدة دافني أكثر تعقيدًا وإثارة للاهتمام مما يبدو عليها.

ولذلك أشار أنطوني برأسه إلى الباب، فتبعه سايمون إلى الرواق.

- غرفة مكتبي من هذا الطريق.

قال أنطوني.

- ألديك غرفة مكتبٍ هنا؟

- إنك تعلم أنني رَبُّ هذه الأسرة.

- بالتأكيد، لكنك تُقِيمُ في مكانٍ آخر.

عَلَّق سايمون.

خيَّم الصمت على أنطوني، وألقى نظرة فاحصة إلى سايمون قبل أن يقول:

- لا يمكن أن يكون قد غاب عن ذهنك أن مكانتي كربٍّ لعائلة بريدجرتون تُحَمِّلُني مسؤوليات جادة.

نظر سايمون مباشرةً إلى عينيه بهدوء، وقال:

- تقصد دافني؟

- تمامًا.

- إذا كُنتُ أتذكر جيدًا، فقد أخبرَتَني في وقتٍ مبكر من هذا الأسبوع برغبتك في تعارفنا.

- كان هذا قبل أن أعتقد أنك ستكون راغبًا فيها!

أمسك سايمون لسانه عن الرد، إذ كان يشق طريقه إلى غرفة مكتب أنطوني، وظل صامتًا حتى أغلق أنطوني الباب، ثم قال في هدوء:

- لماذا كُنتَ تفترض أنني لن أكون مُعجَبًا بها؟
- ناهيك بحقيقة أنك قد أقسمت لي من قبل إنك لن تتزوج أبدًا؟
أجاب أنطوني متشدقًا.

كانت وجهة نظره صحيحة، وكَرِه سايمون أن تكون وجهة نظره صحيحة. فأجاب سايمون على الفور:

- ناهيك بذلك.

طرف أنطوني بعينيه عدة مرات، ثم قال:

- لم تستحوذ دافني على إعجاب أحد، على الأقل أي أحد قد نوافق على زواجها منه.

عقد سايمون ذراعيه ومال إلى الخلف حتى استند إلى الحائط، وقال:

- يعني هذا أنك لا تضعها في مرتبة، ولا تحترمها احترامًا كبيرًا، أليس كذ...؟

ولكن قبل أن يتمكن سايمون من إنهاء استفهامه، كان أنطوني قد أمسكه من رقبته، وقال:

- إياكَ أن تجرؤ على إهانة شقيقتي!

لكن سايمون كان قد تعلم قليلًا من أساليب الدفاع عن النفس في أثناء ترحاله، وقد استغرق منه الأمر عِدَّة ثوانٍ قبل أن تنقلب الأوضاع، ويُمسِكَ برقبة أنطوني. ثم قال بنبرة حانقة تملؤها الضغينة:

- لم أكن أُهِينُ شقيقتك، بل كُنتُ أُهينُكَ أنت.

كانت أصوات غرغرة متقطعة غريبة تصدر من حنجرة أنطوني، فأفلته سايمون من قبضته. وتابع بينما كان يحكُّ إحدى يديه بالأخرى:

- لقد صادف أن أوضحت لي دافني أسباب عدم انجذاب أي خُطَّاب مناسبين إليها.
- حقًّا؟

سأله أنطوني في تهكم.

- من ناحيتي الشخصية، كُنتُ أعتقد أن كل شيء يتعلق بأساليبك وإخوتك، التي تشبه أساليب القرود الحائمة. لكنها أخبرتني أن هذا كله

لأن جميع رجال لندن لا يرونها إلا مجرد صديقة، ولا ينظر إليها أي أحد نظرته إلى بطلة رومانسية.

ظل أنطوني صامتًا لوقت طويل قبل أن يجيب:

- أتفَهَّم ذلك.

ثم أضاف بلُطفٍ بعد فترة صمتٍ أخرى:

- ربما تكون دافني على حق.

لم ينطق سايمون ببنت شفة، واكتفى بمراقبة صديقه، إذ كان يستجمع شتات الأمر. وبعد فترة صمتٍ قصيرة، استأنف أنطوني حديثه:

- مع ذلك ما زلت أبغض أن تَحومَ حولها.

- يا إلهي! إنك تجعلني أبدو مثل كلبٍ شَرِس.

عقد أنطوني ذراعيه وقال:

- لا تَنسَ أننا قد خُضنَا التجارب ذاتها بعد أن تخرَّجنا من أكسفورد؛ أنا أعلم تمامًا ما الذي فَعلتَه من قبل.

- يا إلهي! بحق الله، بريدجرتون، لقد كنا في العشرين من عمرنا! كل الرجال حمقى في هذه السن. إلى جانب أنك تعلم جيدًا أن... أ...

شعر سايمون بثقلٍ غريب في لسانه، وقد تمكن من تزييف سُعَالٍ مناسب حتى يغطي به عثرته. يا لسوء الحظ! كانت لعثمته نادرًا ما تحدث هذه الأيام، لكنها تُهاجِمُه على أي حال، ودائمًا ما تختار التوقيت الذي يكون فيه مُحبَطًا أو غاضبًا. وهو إذا فقد السيطرة على انفعالاته، فقد السيطرة على لسانه. أمرٌ في غاية البساطة.

لسوء الحظ، كانت نوباتٌ مثل هذه النوبة لا تُسهِم إلا في زيادة إحباطه وغضبه من نفسه، وبالمقابل تتفاقم لعثمته. لقد كانت حالته هي أسوأ أنواع الدوائر المُفرغة.

تطلع أنطوني إليه في تساؤل.

- هل أنت بخير؟

أومأ سايمون أن نعم، وأجابه كاذِبًا:

- مجرد ذرات من التراب قد دخلت إلى حنجرتي.

- هل أدق الجرس لطلب بعض الشاي؟

أومأ سايمون بالموافقة مُجَدَّدًا. لم يكن راغبًا في تناول الشاي على وجه الخصوص، لكن بدا وكأن الشاي هو الشيء الوحيد الذي سيطلبه المرء حقًّا إن دخلت بضع ذراتٍ من التراب إلى حلقه.

جذب أنطوني مقبض الجرس، ثم التفت إلى سايمون مُجَدَّدًا وسأله:

- ماذا كُنتَ تقول؟

ابتلع سايمون ريقه بصعوبة، على أمل أن تكون تلك الحركة قد ساعدته حتى يستعيد السيطرة على حنقه وغضبه.

- كل ما كُنتُ أقصده هو أن أوضح لك أنك تعلم جيدًا أكثر من أي شخصٍ آخر أنني لا أستحق جزءًا كبيرًا من سمعتي.

- أجل، ولكنني كُنتُ حاضرًا في الجزء الآخر، الذي تستحقه بالفعل. اسمعني جيدًا! أنا لا أمانع إن كان كل ما يربطك بدافني هو علاقة اجتماعية، لكنني لا أريدك أن تتودد إليها.

حدَّق سايمون إلى صديقه –أو على الأقل الرجل الذي يعتقد أنه صديقه– في دهشة وإنكار، ثم أجاب:

- أتعتقد حَقًّا أنني سأُغوي شقيقتك؟

- لا أدري ما الذي يجب أن أعتقده، لكنني أعلم جيدًا خططك بعدم الزواج. وأعلم أن دافني ترغب حَقًّا في الزواج.

رفع أنطوني كتفيه في استنكارٍ وأضاف:

- في الحقيقة، هذا الأمر كافٍ بالنسبة إليَّ حتى أُبقِيَ كِلَيكما على الجانب المقابل من الآخر من رُقعَة الرقص.

أرخى سايمون رئتيه، وأطلق تنهيدةً طويلة. في الوقت الذي كان فيه موقف أنطوني مثيرًا للغضب، كان سايمون متفهمًا لموقفه، وفي الحقيقة كان موقفًا جديرًا بالثناء والاحترام؛ ففي نهاية المطاف، لم يكن الرجل يتصرف إلا بما يضمن مصلحة شقيقته. حسنًا، كان من الصعب على سايمون أن يتصور تحمله مسؤولية أي شخص آخر عدا نفسه، لكنه افترض أنه لو كانت له شقيقة، لكان انتقائيًّا صعب الإرضاء بشأن من سيتودد إليها أيضًا.

وفي تلك اللحظة، سمع الرجلان وقع طرقات على الباب.

فأجاب أنطوني مناديًا:

- تفضل بالدخول!

وبدلًا من أن يكون الطارق هو إحدى الخادمات حاملةً كأسًا من الشاي، كانت دافني هي من انسلَّت إلى داخل الغرفة.

- أخبرتني أمي أنكما غاضبان تمامًا، وكان من المفترض أن أترككما بمفردكما، لكني اعتقدتُ أن عليَّ التأكد مسبقًا من أنه لم يقتل أحدكما الآخر بعد.

- كلا، مجرد محاولة خنق بسيطة.

أجاب أنطوني بابتسامة قاتمة.

وللإشادة بثبات دافني، لم يطرف لها جفن، فلم تَبدُ مدهوشة تمامًا بما سمعته. ثم قالت:

- مَن الذي خنق مَن؟

فأجاب شقيقها:

- قَبَضتُ أنا أولًا على رقبته، ثم ردَّ إليَّ الصنيع.

فأجابت دافني برويَّة:

- حسنًا، أشعر بالأسف لأنني قد فوَّتُّ فرصةً للاستمتاع.

عجز سايمون عن إخفاء ابتسامته بسبب ملاحظتها، ثم وجَّه حديثه إلى دافني:

- داف!

التفت أنطوني نحو سايمون:

- أتُنادِيها الآن داف؟

واستدار برأسه عائدًا إلى دافني.

- هل سَمَحتِ له أن يُنَادِيَكِ باسمكِ الأول؟

- بالتأكيد.

- ولكن...

فقاطعه سايمون قائلًا:

- أعتقد أن علينا أن نُصارِحَه بالأمر.

أومأت دافني متجهمة، وقالت:

- أعتقد أنك على حق. إذا كُنتَ تتذكر، فقد أخبرتك بهذا.

فتمتم سايمون:

- كم هو لطيفٌ أن تذكريني بذلك!

فابتسمت دافني بشجاعة، وقالت:

- لقد عَجَزتُ عن مقاومة الأمر. فإذا كُنتَ تعيش مع أربعة أشقاء مثلي، في نهاية الأمر عليك دائمًا أن تتحيَّنَ الفُرَصَ التي يمكنك أن تقول فيها: «لقد أخبرتك بهذا من قبل».

انتقل سايمون ببصره بين أنطوني ودافني، ثم قال:

- لا أدري أيكما أُشفِقُ عليه أكثر من الآخر.

فتساءل أنطوني في نفاد صبر:

- ما الذي يحدث هنا؟

ثم أضاف:

- أما فيما يتعلق بملاحظتك، سايمون، يمكنك أن تُشفِقَ عليَّ أنا. إنني شقيقٌ أكثر لُطفًا وودًّا مما هي عليه، باعتبارها الشقيقة الحنونة.

فأجابت دافني:

- ليس صحيحًا!

تجاهل سايمون النزاع القائم، ورَكَّز انتباهه على أنطوني، فقال:

- تُريدُ أن تعرف ما الذي يحدث هنا؟ حسنًا، إليك ما في الأمر...

الفصل السابع

30 من أبريل 1813 **جريدة المجتمع**

مجتمع الرجال مثل قطيع من الأغنام؛ أينما يذهب الواحد منهم، تتبعه البقية على الفور.

ليدي ويسلداون

على كل حال اعتقدت دافني أن أنطوني يتقبل الأمر بشكلٍ جيد. وفي اللحظة التي انتهى فيها سايمون من شرح خطتهما البسيطة –والتي مضت سلسةً إلا من بعض المقاطعات من جانبها–، كان أنطوني قد رفع صوته اعتراضًا سبع مراتٍ فقط.

وقد كان عدد تلك المرات أقل مما توقعته دافني بسبع مراتٍ تقريبًا.

وفي نهاية الأمر، بعدما توسلت إليه دافني أن يمسك لسانه حتى تنتهي هي وسايمون من سرد قصتهما، اكتفى أنطوني بإيماءة مقتضبة، وعقد ذراعيه، وأطبق فمه طوال المدة التي استغرقاها في شرح خطتهما. إلا إن عبوس وجهه كان كافيًا حتى يُذيب جلودهما، لكنه ظل محافظًا على وعده ولم ينطق ببنت شفة.

أنهى سايمون حديثه قائلًا:

- وهذا كل ما في الأمر.

خيَّم الصمتُ على الجميع، صمتٌ قاتل. طوال عشر ثوانٍ لم يكن هناك شيءٌ سوى الصمت، على الرغم من أن دافني تُقسِمُ إنها قد استطاعت أن

تسمع الصوت الصادر من عينيها إذ تتحركان في محجريهما متطلعتين إلى أنطوني ثم سايمون.

وها قد نطق أنطوني أخيرًا:

- هل أنتما مجنونان؟

وجاءت كلمة مجنونان بصوتٍ مرتفع قليلًا.

- لقد اعتقدتُ أن هذه ستكون ردة فعله.

تمتمت دافني.

- هل أُصِبتُما بجنونٍ تامٍّ بغيضٍ لا رجعة فيه؟

وعلا صوت أنطوني في زئير حاد، ثم أضاف:

- لا أدري أيكما أكثر حماقةً من الآخر.

- هلا خفضت من صوتك! ستسمعكَ أمي.

قالت دافني هامسة.

- أمي التي تخافين منها ستُصَابُ بسكتة قلبية إذا علمت بما تخططان له.

أجاب أنطوني سريعًا، لكن نبرة صوته كانت أهدأ هذه المرة.

- لكن أمي لن تعرف بالأمر منك، أليس كذلك؟

أطلقت دافني جملتها في حالة من الدفاع.

- كلا، لن تعرف بالأمر، لأن مخططكما الصغير هذا سينتهي اعتبارًا من هذه اللحظة.

أوضح أنطوني وقد برز ذقنه إلى الأمام قليلًا في صورة آمرة.

عقدت دافني ذراعيها وقالت:

- لا يمكنك فعل أي شيء لإيقافي.

فأشار أنطوني برأسه إلى سايمون وأجاب:

- يمكنني قتله هو.

- لا تكن سخيفًا.

- تنشب الحروب على صغائر الأمور.

- تنشب الحروب بفعل الحمقى!

- لن أتناقش بشأن هذا المسمى احترامًا له فقط.

- لو أذِنتُما لي بالمقاطعة...

قال سايمون في هدوء. لكن دافني قد باغتته بجوابٍ ينمُّ عن احتجاجها على ما قاله أنطوني:

- إنه أقرب أصدقائك!

- ليس...

كان المقطع الفردي الذي نطق به قد فاض بالغضب الذي عجز عن احتوائه، ثم أضاف:

- ... بعد الآن.

حوَّلت دافني بصرها وحديثها تجاه سايمون في حنق، وقالت:

- ألا تُخَطِّط لقول أي شيء في هذا الجدال؟

انحرفت شفتاه في نصف ابتسامة دَهِشَة، ثم قال:

- ومتى أُتيحت لي الفرصة لأتحدث؟

التفت أنطوني نحو سايمون وقال:

- أريدك أن تخرج من هذا المنزل.

- قبل أن أدافع عن نفسي؟

فقالت دافني في جدل:

- إنه منزلي أنا أيضًا، وأريده أن يبقى.

حدَّق أنطوني إلى شقيقته طويلًا، وكان ثمة دليلٌ على سخطه وحنقه في كل سنتيمتر من وقفته، ثم قال:

- حسنًا، سأمنحك دقيقتين حتى تُدَافِع عن نفسك، لا أكثر من ذلك.

تطلعت دافني إلى سايمون في تردد، وتساءلت في نفسها إن كان سيستغل هاتين الدقيقتين بنفسه. لكن كان ما فعله هو أن رفع كتفيه في عدم اكتراث، وقال:

- تفضلي! إنه شقيقكِ أنتِ، وليس شقيقي.

التقطت دافني أنفاسًا طويلة لتُعَزِّزَ من نبرة صوتها، ووضعت يديها على خصرها دون أن تُدرِكَ ذلك، ثم بدأت تقول:

- أولًا: يجب أن أوضح لك أن ما سأربحه من هذا التحالف أكثر مما سيربحه صاحب الجلالة؛ فهو يقول إن كل رغبته هي أن يستغل وجودي حتى يمنع السيدات الأخريات...

- وأمهاتهن.

قاطعها سايمون مُرَدِّدًا ما سبق. ثم تابعت دافني وهي تتطلع إلى سايمون:

- وأمهاتهن من الاقتراب نحوه. لكن بصراحة أعتقد أنه مُخطئ في هذا الأمر. لن تتوقف النساء عن ملاحقته والتودد إليه لمجرد ظَنٍّ يداخلهن باحتمالية تعلقه وارتباطه بسيدةٍ شابةٍ أخرى –خاصة إن كانت تلك السيدة الشابة هي أنا–.

- وما المشكلة فيكِ أنتِ؟

تساءل أنطوني. فبدأت دافني في توضيح الأمر، لكنها التقطت نظرة غريبة بين الرجلين، فقالت:

- ما سبب تلك النظرات الغريبة؟

- لا شيء.

تمتم أنطوني وقد بدا عليه الخجل قليلًا.

- لقد أوضحتُ لشقيقكِ نظريتكِ بشأن الأسباب التي من أجلها لا تحظين بالكثير من الخُطَّاب.

أجاب سايمون بلطف.

- لقد فهمت.

زمَّت دافني شفتيها قليلًا إذ حاولت أن تتخذ قرارًا بخصوص إن كان عليها أن تغضب لهذا الأمر أم لا. لكنها آثرت استكمال حديثها:

- حسنًا، كان عليه أن يكتشف هذا الأمر بنفسه.

أطلق سايمون صوت نخير غريب أشبه بضحكة مكتومة، فوجَّهت دافني نظرةً حادة إلى الرجلين.

- أتمنى ألا تتضمن الدقيقتان كل تلك المقاطعات.

رفع سايمون كتفيه في إنكار وقال:

- لا تنظري إلي، إنه هو مراقب الوقت.

أسند أنطوني قبضته إلى حافة المكتب، فاعتقدت دافني أنه ربما أراد أن يمنع نفسه من الإطباق على رقبة سايمون، لكنه أجاب متوعدًا:

- أما هو، فسيجد نفسه مندفعًا برأسه ناحية النافذة إذا لم يخرس الآن.

- هل تعلم أن شكوكًا كانت تراودني دائمًا بأن الرجال أغبياءٌ حمقى، لكنني لم أكن متأكدة قط، إلى أن حدث ما حدث اليوم.

فضحك سايمون ضحكة مكتومة على تعليقها.

- نظرًا للمقاطعات، لقد تبقى لكِ دقيقة ونصف حتى تُنهي حديثكِ.

أجاب أنطوني بحدة، بينما كان يُطلِقُ نظرة أخرى مُمِيتة اتجاه سايمون، حتى عندما كان يتحدث إلى دافني.

- حسنًا.

أجابت دافني بسرعة، ثم أضافت:

- إذن سأُلَخِّصُ تلك المحادثة في حقيقة واحدة فقط. لقد جاءني اليوم ستةٌ من الزائرين. ستة! هل يمكن أن تتذكر متى كانت آخر مرة أتى فيها ستةٌ من الزائرين؟

اكتفى أنطوني بالتحديق إليها بوجهٍ جامدٍ خالٍ من المشاعر، فتابعت دافني حديثها في صيغة هادئة:

- لا يمكنك أن تذكر، لأن هذا لم يحدث من قبل قط. هناك ستة رجال قد ترجلوا درجات سلمنا، وطرقوا بابنا، وقدموا بطاقاتهم إلى هامبولدت. ستة رجال قدموا إليَّ الزهور، وأنشؤوا أحاديث كثيرةً معي، حتى إن واحدًا منهم قد ألقى الشِعرَ على مسامعي.

أجفل سايمون في دهشة.

- وهل تعرف السبب وراء ذلك؟

تساءلت دافني، وارتفع صوتها في نبرة تُنذِرُ بالخطر. ثم تابعت:

- هل تعلم؟

لم يُجِب أنطوني، فنظرًا لمعرفته المتأخرة قليلًا بكل ما حدث، فَضَّل أن يَحجُمَ لسانه.

- كل هذا كان بسببه هو...

وأشارت بإصبعها إلى سايمون، ثم تابعت:

- لأنه كان لطيفًا بما يكفي ليتظاهر بالاهتمام بي الليلة الماضية في الحفل الراقص في منزل ليدي دانبيري.

أما سايمون، الذي كان يتكئ على حافة المكتب حيثما اتفق، فقد استقامت قامته على حين غفلة، وقال في عُجَالة:

- حسنًا، لم أكن لأصوغَ الأمر على هذا النحو.

فالتفتت دافني نحوه بعينين ثاقبتين على نحو لافت، وقالت:

- وكيف لك أن تَصوغَ الأمر؟

- أنا...

لم تترك دافني لسايمون فسحةً من الوقت يجيب فيها، وأضافت:

- لأن بإمكاني أن أؤكد لك أن هؤلاء الرجال لم يروني مناسبة قط حتى يأتوني قاصدين التودد إليَّ من قبل.

- إذا كانوا قصيري النظر وضيقي الأفق إلى هذا الحد، فلماذا تهتمين بأن تنالي احترامهم؟

أجاب سايمون في هدوء.

إلا إن دافني قد التزمت الصمت، وتراجعت إلى الخلف لتنسحب من الحديث في صمت. كان سايمون قد اعتراه شكٌّ أنه قد نطق بالكلمات الخاطئة تمامًا، لكنه لم يكن واثقًا، حتى رأى عينيها تطرفان في ذهول.

يا للمصيبة!

عندئذٍ جَفَّفَت دافني إحدى عينيها. وكانت قد افتعلت سُعالًا، في محاولةٍ منها لإخفاء تلك الخدعة من خلال التظاهر بتغطية فمها. لكن سايمون لا يزال يشعر بأنه أسوأ أنواع الحقراء.

- والآن انظر ماذا فعلت!

قال أنطوني على الفور، وقد وضع إحدى يديه على ذراع شقيقته لتهدئتها، بينما يُحدِّق إلى سايمون طوال الوقت.

- لا تُعِيريه اهتمامًا، دافني، إنه شخصٌ حقير.

- ربما كان كذلك.

تنَشَّقت دافني، ثم تابعت:

- لكنه حقيرٌ ذكي.

فغر أنطوني فاه ولم يعلق.

لكن دافني كانت قد وَجَّهت نظرة غاضبة نحو سايمون، وقالت:

- حسنًا، إن كُنتَ لم ترغب في أن أكرر الأمر، فما كان عليك أن تقولها من البداية.

أطلق أنطوني تنهيدة مُضجَرَة، ثم قال:

- هل حضر إلى هنا حقًّا ستة رجال هذا المساء؟

أومأت دافني بالموافقة، وقالت:

- سبعة بما أن فيهم هاستنجز.

- وهل كان بينهم أيُّ رجالٍ قد تكونين مهتمة بالزواج من أيهم؟

سأل أنطوني في حذر.

أدرك سايمون حينها أن أظفاره قد تركت حُفَرًا صغيرة في فخذه، وأجبر نفسه على تحريك يديه إلى المكتب.

أومأت دافني مجددًا، وقالت:

- لقد كانوا جميعًا رجالًا كُنتُ أتمتع بصداقة سابقة معهم. إلا إنهم لم يروا فيَّ قط فتاة مُرشَّحة لعلاقة رومانسية قبل أن يقودهم هاستنجز نحو الطريق. وإن أُتِيحَت لي الفرصة، ربما أتمكن من تطوير علاقة مع واحدٍ منهم.

- لكن...

قاطعها سايمون، إلا إنه قد أطبق على فمه سريعًا قبل أن يُكمِلَ جملته.

- ولكن ماذا؟

سألت دافني وهي تتطلع إليه بعينين فضوليتين.

أدرك سايمون في هذه اللحظة أن ما أراد قوله هو أنه إذا كان هؤلاء الرجال لم يلحظوا فتنة دافني وسحرها إلا عندما أظهر الدوق اهتمامه بها، فهذا يعني أنهم بُلَهاء، وبالتالي لا يجدر بها أن تعتزم التفكير في الزواج من أي منهم. ولكن بالنظر إلى حقيقة أنه هو بنفسه من أشار في بداية الأمر إلى أن اهتمامه بها سيُكسِبُها الكثير من الخُطَّاب.. حسنًا بصراحة، بدا أن ذكر هذا الأمر يوحي بشخصية انهزامية، وقد يأتي بنتائج عكسية.

- لا شيء.

أجاب سايمون أخيرًا، رافعًا يده في إشارة تعني: «لا تبالي بي». ثم أضاف:

- لا يهم.

رمقته دافني بنظرة ثاقبة لعدة دقائق، كما لو كانت بانتظاره حتى يغير رأيه، ثم التفتت إلى شقيقها مرة أخرى.

- هل رأيت إذن وجاهة الحكمة التي تحرك خطتنا؟

- ربما تكون كلمة «حكمة» مبالغة منكِ بعض الشيء، ولكن...

بدا أنطوني متألمًا عندما اعترف بذلك، ثم تابع:

- يمكنني أن أرى وجهة نظرك، وكيف ستُفيدكِ هذه الخطة.

- أنطوني، يجب أن أجد زوجًا لي. بالإضافة إلى حقيقة أن أمي تزعجني بهذا الأمر حد الموت، أنا أريد زوجًا، أرغب في ذلك. وأريد أن أتزوج وأحظى بالعائلة التي طالما حلمتُ بها. أنا أريد أكثر مما يمكنك أن تتخيله أبدًا. مع ذلك لم يطلب أحدٌ مني الزواج حتى الآن، أحدٌ أجده مقبولًا.

لم يَدرِ سايمون قط كيف استطاع أنطوني أن يقف ثابتًا أمام التوسلات الدافئة في عينيها الداكنتين. وكما هو مُتوَقَّع، انحنى أنطوني مستندًا إلى المكتب، وأطلق أنينًا مُنهَكًا.

أغمض أنطوني عينيه كما لو أنه عاجزٌ عن تصديق ما هو على وشك النطق به.

- حسنًا، سأوافق على تلك الخطة إذا لزم الأمر.

قفزت دافني مُهَلِّلَة، وأطلقت لذراعيها العنان لتُطَوِّق شقيقها.

- أنطوني، كُنتُ أعلم أنك أفضل شقيقٍ على الإطلاق.

وطبعت على خده قبلة سريعة، ثم تابعت:

- كل ما في الأمر هو أنك أحيانًا ما تكون مُخطِئًا.

هامت عينا أنطوني شاردتين نحو السماء، قبل أن يُثَبِّتَ ناظريه على سايمون.

- أترى ما الذي عليَّ أن أتعامل معه؟

سأل أنطوني بهزَّةٍ من رأسه.

كانت نبرة صوته هي تلك النبرة الخاصة، التي تصدر فقط من أحد الرجال الواقعين في ضائقة إلى رجلٍ آخر.

احتفظ سايمون بضحكته في نفسه، بينما كان يتساءل: متى تحول من المخادع الذميم إلى الصديق الجيد؟

- ولكنني أضع بعض الشروط لهذا الأمر.

كان صوت أنطوني عاليًا حتى اضطرت دافني إلى الاعتدال والاستناد إلى المكتب. وإذ سمعت دافني تلك الكلمات، لم تعلق بشيء سوى بعض طرفات العين، فقد كانت تنتظر أن يكمل شقيقها حديثه.

- أولًا: لا يتجاوزن الحديث عن هذا الأمر جدران تلك الغرفة.

فأجابت دافني على عجل:

- موافقة.

نظر أنطوني بحدة إلى سايمون، فأجاب:

- بالتأكيد.

- ستتحطم مشاعر أمي إن علمت بحقيقة الأمر.

- في الحقيقة، أعتقد أن والدتكما ستصفِّق إجلالًا لعبقريتنا. ولكن بما أن الواضح من الأمر أنكما تعرفان طِباعها أكثر مني، فسأذعن للتكتم على الأمر.

هكذا تمتم سايمون، قبل أن يصوب إليه أنطوني نظرة باردة ويتابع سرد شروطه:

- ثانيًا: لا يحق لكما أن تكونا أنتما الاثنان بمفردكما دون أي مراقبة مهما كانت الظروف.

- حسنًا، هذا أمرٌ بسيط. لأنه، على أي حال، لن يُسمَح لنا أن ننفرد ببعضنا إذا كان توددنا إلى بعضنا أمرًا حقيقيًّا.

في تلك اللحظة، استعادت ذاكرة سايمون مقابلتهما القصيرة في الرواق في منزل ليدي دانبيري، وتَحَسَّر على أنه لن تسنح له الفرصة مجددًا بوقتٍ خاص برفقة دافني. ولكنه يدرك وجود الحاجز الخرساني الذي يقف في طريقه عندما يراه أمامه، خاصة عندما يكون هذا الحاجز هو أنطوني بريدجرتون. لذلك اكتفى سايمون بإيماءة من رأسه، وتمتم بموافقته.

- ثالثًا: ...

- أهناك شرطٌ ثالثٌ أيضًا؟

سألت دافني مُقاطِعَةً شقيقها. فأجاب أنطوني بصوتٍ هادر:

- وسيكون هناك ثلاثون لو هداني تفكيري إليهم.

- حسنًا، كما تريد.

وافقت دافني موافقة المغلوب على أمره.

ولجزءٍ من الثانية، اعتقد سايمون أن أنطوني قد يحاول خنقها. لكنه لم يفعل على أي حال.

- عَلامَ تضحك؟

تساءل أنطوني مُوجهًا حديثه إلى سايمون.

في تلك اللحظة فقط أدرك سايمون أنه قد أطلق ضحكة مكتومة، فأجاب على الفور:

- لا شيء.

- جيد، لأن الشرط الثالث كما يلي: إذا لَمَحتُكَ في أي وقتٍ تتصرف بسلوك قد يمسها... إذا لَمَحتُكَ ذات مرة حتى تحاول تقبيل يديها دون مرافق، سأقتلع رأسك بلا هوادة.

قال أنطوني في عبوسٍ بادٍ على وجهه وصوته.

- ألا تعتقد أنك تبالغ قليلًا في هذا الأمر؟

طرفت عينا دافني في غير تصديق.

كان أنطوني قد أطلق نحوها نظرةً حادة، وقال:

- كلا.

- أجل.

- وأنت يا هاستنجز؟

لم يكن لدى سايمون أي خيار سوى الموافقة.

فاستأنف أنطوني حديثه بصوتٍ خشن:

- جيد. والآن بما أننا قد انتهينا من هذا الأمر، يمكنك (ومال برأسه فجأة نحو سايمون، وأضاف): أن تُغادر.

- أنطوني!

قالت دافني متعجبة.

- أفترض أن هذا يعني أنني لستُ مدعوًّا إلى العشاء هذه الليلة؟

سأل سايمون، فأجابه أنطوني:

- أجل.

- كلا!

قالت دافني، ولكمت ذراع شقيقها لكمة خفيفة. ثم تابعت:

- هل كان هاستنجز مدعوًّا إلى العشاء؟ ولماذا لم تخبرني بهذا الأمر؟

- كان هذا الأمر منذ عدة أيام، منذ سنواتٍ مضت.

أجاب أنطوني متذمرًا.

- لقد كان يوم الاثنين الماضي.

قال سايمون.

- حسنًا إذن، يجب أن تنضم إلينا على العشاء. ستكون أمي سعيدةً للغاية.

أجابت دافني في حزم، ثم أضافت وهي تلكز ذراع شقيقها:

- وأنت عليك أن تتوقف عن التفكير في تسميمه.

وقبل أن يتمكن أنطوني من الرد على شقيقته، أشار سايمون بيديه رافضًا مساعدتها، وعلت وجهه ابتسامة انتصار، وقال:

- لا تقلقي بشأني، دافني. لقد نسيتِ أنني قد زامَلتُه في الدراسة ما يقرب من عشر سنوات، لذلك أعلم أنه لم يستوعب قط مبادئ الكيمياء.

- سأقتله.

قال أنطوني في نفسه، وكرَّرها ثانيةً:

- قبل أن ينتهي هذا الأسبوع، سأقتله.

فأجابت دافني دون اكتراث:

- كلا، لن تقتله؛ فبحلول الغد ستكون قد نسيت كل شيء وستدخنان معًا سجائر شيروتوس في نادي وايتس.

فأجاب أنطوني بنبرة توحي بالتشاؤم:

- لا أعتقد ذلك.

- بالطبع ستفعل. ألا توافق على ذلك يا سايمون؟

تفحَّص سايمون وجه صديقه المقرب قليلًا، وأدرك أنه يرى شيئًا مختلفًا، شيئًا ما في عينيه، شيئًا يبدو جادًّا وخطيرًا.

منذ ستة أعوام، عندما غادر سايمون إنجلترا، كان أنطوني وسايمون لا يزالان صبيةً صغارًا. وحينها كانا يعتقدان أنهما قد صارا رجالًا في ريعان الشباب. لم يتركا شيئًا دون أن يفعلاه؛ من لعب القمار، ومضاجعة النساء، وكانا يسيران دائمًا في خيلاء وعجرفة بين أفراد المجتمع، غارقين في وحل المكانة، ينهشهما الكبر، لكنهما الآن صارا شخصين مختلفين تمامًا عما كانا عليه من قبل.

لقد صارا الآن رَجُلين شديدين بكل معنى الكلمة.

كان سايمون قد شعر بالتغيير داخل نفسه في أثناء ترحاله. لقد كان تحولًا بطيئًا، تُشَكِّله التحديات والمخاطر بمرور الوقت. لكنه الآن قد أدرك أنه، رغم عودته إلى إنجلترا، لا يزال يرى أنطوني ذلك الصبي ذا الاثنين والعشرين عامًا، الذي خَلَّفه وراءه عندما غادر البلاد.

وأدرك سايمون أنه قد أساء لصديقه إساءةً لا تُغتَفر عندما أخفق في التنبؤ بأن صديقه أيضًا قد اشتد عوده، وصار الرجل الذي هو عليه الآن. وبات أنطوني اليوم حاملًا مسؤولياتٍ لم يحلم سايمون قط بأن يتحملها؛ فلديه من الأشقاء من يحتاجون إلى التوجيه، ومن الشقيقات من يحتجن إلى الرعاية والحماية. إن سايمون يمتلك دوقيته، لكن أنطوني يمتلك العائلة التي لم يمتلكها سايمون قط.

وكان ثمة اختلافٌ عميقٌ بينهما، ووجد سايمون أنه عاجزٌ عن إلقاء اللوم على صديقه بسبب مبالغته في الحماية، وبالتأكيد بسبب أسلوبه الجاف العنيد بعض الشيء.

وأخيرًا، قرر سايمون أن يُجيب عن سؤال دافني، فقال في تَرَيُّث:

- أعتقد أنني وشقيقكِ شخصان مختلفان الآن عَمَّا كنا عليه منذ ستة أعوام، عندما كنا نعيث فسادًا. وأعتقد أيضًا أن هذا ليس أمرًا سيئًا في نهاية المطاف.

بعد عدة ساعات، كان منزل عائلة بريدجرتون يضجُّ بفوضى عارمة.

كانت دافني قد بدَّلت بثيابها فستانًا مسائيًّا من المخمل الأخضر الداكن، والذي قال عنه أحدهم يومًا إنه يُبرِزُ عينيها البنيتين بلونٍ خافت. وكانت تتجول في القاعة الكبرى هنا وهناك على مهل، لتكتشف طريقة ما تساعدها على تهدئة والدتها.

كانت فيوليت تُصفِّق بإحدى يديها على صدرها وهي تقف في القاعة الكبرى.

- لا يمكنني أن أصدق أن أنطوني قد نسي أن يخبرني بدعوته للدوق إلى العشاء. ليس أمامي أي وقتٍ حتى أُعِدَّ المائدة المناسبة، ولا حتى ثانية واحدة.

ألقت دافني نظرة فاحصة إلى قائمة الطعام في يديها، والتي كانت تبدأ بحساء السلاحف[1]، مرورًا بثلاثة أطباق أخرى، قبل الانتهاء بطبقٍ من لحم الضأن المُغَطَّى بصلصة الكريمة البيضاء[2]. (وبالطبع تلحقها أربعة أصناف من الحلوى).

حاولت دافني أن تخاطب والدتها بصوتٍ يخلو من التهكم، فقالت:

- لا أعتقد أن هناك سببًا سيجعل الدوق يشكو من أي شيء.

فأجابت فيوليت:

- أدعو الله ألا يشكو من شيء. لكن إن كُنتُ أعلم بمجيئه، لَكُنتُ قد تأكدتُ من إعداد طبقٍ من اللحم البقري أيضًا. لا يمكن للمرء أن يستمتع بالطعام ما لم يكن هناك طبقٌ من اللحم البقري على المائدة.

- إن الدوق على علمٍ بأن هذه وليمة عائلية.

ألقت فيوليت ابنتها نظرة ساخطة قبل أن تجيبها:

- ليس هناك شيءٌ يُدعَى وليمة عائلية إن كان الدوق يزورنا.

تطلعت دافني إلى والدتها بتَمَعُّن. كانت فيوليت تعتصر يديها وتصرُّ على أسنانها من الغضب.

- أمي! لا أعتقد أن الدوق من النوع الذي يتوقع منا تغيير خطط العشاء العائلية جذريًّا من أجله.

---

(1) Turtle Soup. (المترجم)

(2) Lamb á la bechamel. (المترجم)

- ربما لا يتوقع منا هذا، لكنني أتوقع هذا. دافني، هناك قواعد محددة في المجتمع، توقعات يجب أن تحققيها. وبصراحة، لا أتفهم كيف تكونين بهذا الهدوء واللامبالاة.

- لَستُ غير مبالية!

- ما أنا واثقةٌ منه أنكِ لا تبدين قلقة أو منزعجة. كيف لا تكونين منزعجة؟ دافني، بالله عليكِ، هذا الرجل يفكر في الزواج منكِ!

تداركت دافني نفسها قبل أن تصدر ضحكتها عالية، وأَعَدَّت نبرة صوتٍ هادئة لتجيب.

- لكنه لم ينطق بهذا قط يا أمي.

- ليس عليه أن يقول. إذن أخبريني؛ لماذا رقص برفقتكِ ليلة أمس؟ إن السيدة الوحيدة التي نالت شرف الرقص برفقته هي بينلوبي فيذرنجتون، وكلنا يعلم أن تصرفه لم يكن سوى ضربٍ من الشفقة عليها.

- أنا أُحِبُّ بينلوبي يا أمي.

- وأنا أيضًا أحب بينلوبي، وأتطلع إلى اليوم الذي تُدرِكُ فيه والدتها أن فتاةً بهذه السِمنَة لا يمكنها أن ترتدي فستانًا من الحرير البرتقالي. لكن هذا الأمر خارج عن موضوع نقاشنا.

أجابت فيوليت.

- إذن ما هو الموضوع يا أمي؟

- لا أدري!

أجابت فيوليت في صوتٍ أشبه بالشكوى والنُواح. فهَزَّت دافني رأسها في استنكار، ثم قالت:

- سأذهب للبحث عن إلويز.

فأجابت فيوليت في شرودٍ وحيرة:

- أجل، افعلي ذلك، وتأكدي من اغتسال جريجوري ونظافته، إنه لا ينظف خلف أذنيه قط. وهياسنث.. يا إلهي، ماذا نفعل بشأن هياسنث؟ لن يتوقع هاستنجز جلوس طفلة في العاشرة من عمرها بجانبه على مائدة واحدة.

- بل سيتوقع ذلك؛ لقد أخبره أنطوني أن عشاء اليوم هو عشاءٌ عائلي، وأننا نجلس جميعًا إلى المائدة دون نقصان.

عَلَّقت دافني بهدوء.

- لكن معظم العائلات لا تسمح لأطفالها الصغار بالجلوس إلى مائدة العشاء برفقتها.

أوضحت فيوليت، فأجابتها دافني:

- إذن هذه مشكلتهم، وليست مشكلتنا.

ثم أطلقت دافني أخيرًا العنان لسخطها، وسمحت لتنهيدةٍ مسموعة أن تأخذ مسارها، ثم أكملت:

- أمي، لقد تحدثتُ إلى الدوق، وهو على علمٍ بأن هذا العشاء ليس عشاءً رسميًا. وقد أخبرني على وجه الخصوص أنه يتطلع إلى تغيير وتيرة حياته. تعلمين أنه لم يحظَ قط بالعائلة المرجوَّة، لذلك لم يختبر أبدًا أي شيء يشبه العشاء العائلي لعائلة بريدجرتون.

- فليكن الله في عوننا!

أجابت فيوليت بعدما بات وجهها شاحبًا مثل بياض الثلج، فتداركت دافني الحديث سريعًا، وقالت:

- والآن يا أمي، أعلم فيم تفكرين، وأؤكد لكِ أننا لسنا في حاجة إلى القلق من أن يضع جريجوري البطاطس المهروسة بالقشدة في شعر فرانشيسكا مجددًا، أنا واثقةٌ من أنه قد شبَّ عن هذا السلوك الطفولي.

- لقد فعل ذلك الأسبوع الماضي!

فأجابت دافني على الفور دون أن تُفوِّت لحظة واحدة:

- حسنًا إذن، أنا واثقةٌ من أنه قد تعلَّم من خطئه.

كانت النظرة التي أجابت بها فيوليت على موقف ابنتها في غاية الارتياب. فتابعت دافني بنبرة أقل جدية بكثير:

- حسنًا إذن، سأهدده بأني سأقتله إن فعل أي شيء يزعجكِ.

فأجابت فيوليت في تَفَكُّر:

- لن يُخِيفَه الموت بالقدر الذي تتخيلينه، لكن ربما يمكنني أن أهدده ببيع حصانه.

- لن يصدقكِ أبدًا.

- أجل، أنتِ على حق؛ أنا طيبة القلب ولا أقوى على ذلك.

أجابت فيوليت في عبوس. ثم تابعت:

- لكن ربما سيصدقني إن أخبرته أنه ممنوع من الخروج في جولته اليومية بالحصان.

- هذا قد يُجدِي معه.

عَلَّقت دافني باقتناع. فتابعت فيوليت:

- حسنًا.. سأذهب الآن وأُرعِبُه قليلًا.

خطت فيوليت خطوتين إلى الأمام، ثم استدارت نحو دافني مُعَلِّقة:

- إن تربية الأطفال هي تحدٌّ كبير.

اكتفت دافني بابتسامة رقيقة في وجه والدتها؛ فقد كانت تعلم أنها تحدٌّ كبير تعشقه والدتها.

تنحنحت فيوليت في رقة، مُشيرةً إلى تغيرٍ جاد في دفة الحديث، ثم قالت:

- آمل حقًّا أن تسير خطط العشاء على ما يُرَام، دافني. لأنني أعتقد أن هاستنجز ربما يكون زوجًا مناسبًا لكِ.

- ربما؟

قالت دافني لتُثِيرَ غيظ والدتها، ثم تابعت ضاحكةً:

- لقد اعتَقَدتُ أن أي دوقٍ هو زوجٌ مناسب، حتى لو كان له رأسان ويبصق لُعَابَه عندما يتحدث من كلا فميه.

ابتسمت فيوليت برقةٍ وقالت:

- ربما يصعُب عليكِ تصديق ذلك، دافني، لكنني لا أريد أن أراكِ متزوجةً من أي شخصٍ فحسب. ربما أُقدمكِ إلى عدد لا نهائي من الرجال المؤهلين للزواج، لكن الغرض من هذا هو أن تحظي بأكبر عددٍ ممكن من الخُطَّاب الذين يمكن أن تختاري من بينهم الزوج المناسب لكِ.

ثم ابتسمت فيوليت مرة أخرى، وبلهفةٍ معهودة أكملت:

- إن أعز الأماني إلى قلبي هو أن أراكِ سعيدةً مثلما كنتُ أنا سعيدةً مع والدكِ.

وفجأةً، وقبل أن تنطق دافني بردها، كانت فيوليت قد اختفت في غياهب الردهة، تاركةً دافني في ترددٍ وشكوك. ربما لم تكن خطتها مع هاستنجز فكرةً جيدة في نهاية الأمر. سيتحطم قلب فيوليت عندما يُنهيان تحالفهما المُزيَّف. كان سايمون قد أخبرها من قبل أنها ربما تكون هي الطرف الذي يقوم بمهمة الهجر، لكنها بدأت تتساءل إن كان من الأفضل لو تبادلا الأدوار. إلا إن الأمر سيكون مُهينًا بالنسبة إلى دافني إن عُرِفَ أن سايمون هو من هجرها، ولكن على الأقل، بتلك الطريقة لن تتحمل لازمة الهوس «لماذا؟» التي ستمطرها فيوليت بها.

وستعتقد فيوليت أن دافني قد مستها نفحةٌ من الجنون حتى تدع سايمون يُفلت من بين يديها. ونتيجةً لهذا، ستغرق دافني في بحر من الحيرة والتساؤل عما إذا كانت والدتها على حق.

لم يكن سايمون مستعدًّا لحضور العشاء برفقة عائلة بريدجرتون؛ فقد كانت الأجواء صاخبةً وعشوائية، تتخللها الكثير من الضحكات، وحادثة واحدة تتضمن حبة بازلاء طائرة، لحسن الحظ.

(بدا وكأن حبة البازلاء التي هي موضع الحديث قد بدأت رحلتها عند طرف الطاولة الذي تجلس عنده هياسنث، لكن أصغر أفراد عائلة بريدجرتون قد بدت في غاية البراءة والملائكية، حتى إن سايمون قد وجد صعوبة في تصديق حقيقة أنها قد قذفت حبة البقول في وجه شقيقها).

لحسن الحظ لم تلحظ فيوليت حبة البازلاء الطائرة، على الرغم من أنها قد حَلَّقت فوق رأسها مباشرة، واتخذ تحليقها شكل قوسٍ مثالي. لكن دافني، التي كانت تجلس أمام سايمون مباشرة، كانت قد لاحظت تلك البازلاء الطائرة بالتأكيد، لأن منديل الطاولة الخاص بها قد انتُزِع فجأة ليغطي فمها بخفة ملحوظة. وبالنظر إلى الطريقة التي تغضَّنت بها عيناها من الجانبين، فإن دافني كانت غارقة في الضحك أسفل تلك القماشة الكِتَّانيَّة المُربَّعة.

لم يتحدث سايمون كثيرًا في أثناء العشاء. في الحقيقة، كان من السهل عليه الاستماع إلى عائلة بريدجرتون أكثر من محاولة التحدث معهم، خاصةً عند

النظر إلى عدد نظرات الضغينة والحنق التي يتلقاها من أنطوني وبيندكت؛ فقد كان سايمون قد جلس مباشرة على الطرف المقابل من الشقيقين بريدجرتون الأكبرين -وكان متأكدًا أنه لم يجلس مصادفةً على الجانب الذي تجلس عليه فيوليت- لذلك كان من السهل تمامًا تجاهلهما، والاستمتاع بمحاورات دافني مع بقية عائلتها. وبين الفينة والأخرى، كان أحدهما يطرح عليه سؤالًا مباشرًا، فيجيبه، ثم يعود إلى سلوكه المعهود من المراقبة الصامتة.

وأخيرًا، تطلعت هياسنث، التي كانت تجلس عن يمين دافني، إلى عيني سايمون مباشرةً، وقالت:

- أنت لا تتحدث كثيرًا، أليس كذلك؟

كان لكلمات هياسنث وقعها الشديد على فيوليت؛ إذ عَلِقَ النبيذ في أنبوب الحنجرة الخاطئ. إلا إن دافني تولت دفة الجواب عنها، فقالت:

- إن الدوق يتمتع بأسلوب مهذب أكثر منا، نحن الذين دائمًا ما نتدخل في الحديث ونقاطع بعضنا كما لو أننا خائفون من ألا يسمعنا أحد.

- لستُ خائفًا من ألا يسمعني أحد.

قال جريجوري. فعَلَّقت فيوليت في جفاء:

- وأنا أيضًا لَستُ خائفةً من ألا يسمعني أحد. جريجوري، أرجو أن تأكل حبات البازلاء الخاصة بك.

- لكن هياسنث...

إلا إن سايمون قاطع الحديث بصوتٍ مرتفع:

- ليدي بريدجرتون، هل لي أن أُثقِلَ عليكِ بمساعدتي في الحصول على بعض من البازلاء اللذيذة تلك؟

- بالتأكيد، لِمَ لا؟

أجابت فيوليت، ورمت جريجوري بنظرة حادة، وقالت:

- أترى كيف يأكل الدوق حبات البازلاء الخاصة به؟

عندئذٍ عاد جريجوري إلى التهام حبات البازلاء.

ابتسم سايمون في نفسه بينما يضع حفنة أخرى من البازلاء في طبقه. كان كثير الامتنان لليدي بريدجرتون، التي قررت عدم تقديم العشاء على

الطريقة الروسية[1]، فقد يكون من الصعب تفادي اتهام جريجوري الأكيد لشقيقته هياسنث بكونها قاذفة البازلاء إذا اضطر إلى استدعاء الخادم لتقديم البازلاء إليه.

أشغل سايمون نفسه بطبق البازلاء أمامه، نظرًا إلى أنه لم يكن لديه خيارٌ آخر سوى التهام كل حبة من حباتها حتى النهاية. وفي خضم تلك العُزلَة، استرق نظرة إلى دافني، التي كانت رغم كل شيء تُزَيِّنُ وجهها بابتسامة سريعة خافتة. كانت عيناها مفعمتين بحس دُعَابةٍ لطيف مُعدٍ، وسرعان ما شعر سايمون أن جانبي فمه يتكوران إلى ابتسامة أيضًا.

- أنطوني، لماذا تبدو متجهمًا؟

طرحت إحدى فتيات عائلة بريدجرتون الأخريات هذا السؤال، وفكر سايمون في أنها ربما تكون فرانشيسكا، إلا إنه كان من الصعب التأكد من ذلك. كانت الفتاتان اللتان تقعان في المرتبة الوسطى متشابهتين حد التماثل، وصولًا إلى البريق اللامع في أعينهما، الذي يشبه البريق اللامع في عيني والدتهما.

- لَستُ عابِسًا.

أجاب أنطوني على الفور. لكن سايمون، الذي كان على الطرف المقابل لهذا العبوس لمدة تزيد على ساعة كاملة، كان يعلم أن أنطوني كاذب.

- بل أنت كذلك.

كانت تلك الكلمات آتية من إحدى الفتاتين؛ فرانشيسكا، أو إلويز.

وكانت نبرة حديث أنطوني وجوابه قد تناهيا إلى أقصى حدود الغضب حين قال:

- إذا كُنتِ تعتقدين أنني سأقول: «لَستُ كذلك»، فأنتِ مخطئة للأسف.

في تلك اللحظة ضحكت دافني مجددًا من خلف شرشفها، وشعر سايمون حينها أن الحياة أكثر دهشة ومتعةً مما كانت عليه لعقودٍ طويلة.

وهنا قررت فيوليت أن تُصَرِّح للجميع:

---

(1) تقديم العشاء على الطريقة الروسية هو إحدى طرق تقديم الأطباق على الطاولة بشكل متسلسل، وتقسيم الطعام في الأطباق من قبل النادل، قبل تقديمها إلى متناول العشاء. فإذا احتاج الضيف إلى المزيد، طلب من النادل الإتيان بالمزيد. (المترجم)

- تعرفون أنني أعتقد بأن هذه الأمسية هي واحدة من أمتع الأمسيات وأفضلها هذا العام، حتى إن كان أصغر أطفالي يتقاذفون البازلاء عبر الطاولة.

وإذ كانت تنطق بجملتها الأخيرة، أرسلت فيوليت نظرة عبر الطاولة إلى صغيرتها هياسنث.

- كيف تعرفين ذلك؟

هنا تطلع سايمون إلى الجميع عندما نطقت هياسنث الصغيرة بتلك الكلمات، فهزَّت فيوليت رأسها في لا مبالاة وهي تحرك عينيها، ثم قالت:

- يا أطفالي الأعزاء، متى ستتعلمون أنني أعلم بكل شيء يدور؟

هنا قرر سايمون أن فيوليت بريدجرتون تحظى لديه بقدرٍ عالٍ من الاحترام. ومع ذلك، فقد تمكنت من إرباكه تمامًا بسؤالٍ مُفاجئ مُرفَقٍ بابتسامة بادية.

- أخبرني يا صاحب الجلالة؛ هل أنت مشغولٌ غدًا؟

على الرغم من شعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين، كانت فيوليت بريدجرتون قد بدت مماثلةً تمامًا لابنتها دافني عندما طرحت عليه هذا السؤال، حتى إن سايمون للحظةٍ شعر بارتباك جَمّ. كان هذا هو السبب الوحيد الذي جعله لا ينزعج بالتفكير في الأمر قبل أن يتلعثم مُجيبًا إياها.

- كـــ.. كلا.. ليس هناك شيءٌ أذكره.

- رائع!

هتفت فيوليت في حماس وبهجة، ثم قالت:

- إذن أتوقع أن تنضم إلينا في نزهتنا إلى جرينتش.

- جرينتش؟

ردَّد سايمون كلماتها.

- أجل، لقد كنا نخطط لرحلة عائلية منذ عدة أسابيع، وفكَّرتُ في أن يُقِلَّنا القارب. وربما نُقيمُ نزهةً على أحد شواطئ نهر التايمز.

أجابت فيوليت، وابتسمت له بثقة، ثم أكملت:

- ستنضم إلينا، أليس كذلك؟

قاطعتها دافني قائلة:

- أمي. أنا واثقةٌ بأن الدوق لديه الكثير من الالتزامات في الغد.

وهنا وجَّهت فيوليت نظرةً باردة للغاية إلى دافني، حتى إن سايمون قد اندهش من عدم تحول أي منهم إلى كتلة من الثلج. ثم أجابت:

- هُرَاء؛ لقد قال بنفسه للتو إنه ليس مشغولًا.

ثم التفتت إلى سايمون وقالت:

- وسنزور المرصد الملكي[1] أيضًا؛ لذلك لا داعي لأن تقلق من أن تكون النزهة مجرد نزهة تافهة. بالطبع تعلم أن المرصد ليس مفتوحًا للعامة، ولكن زوجي الراحل كان راعيًا عظيمًا، لذلك فإننا مسموحٌ لنا بالدخول بكل تأكيد.

تطلع سايمون إلى دافني، فما كان منها إلا أن رفعت كتفيها باستسلام، واعتذرت له بعينيها.

ثم التفت سايمون عائدًا إلى فيوليت، وقال:

- سأكون مسرورًا بتلك النزهة.

بدا السرور والبهجة على مُحيًّا فيوليت، ورَبَّتت بيدها على ذراعه. وهنا خالج سايمون شعورٌ عميقٌ بأن قدره محتومٌ منذ تلك اللحظة.

---

(1) Royal Observatory - Greenwich, London. (المترجم)

الفصل الثامن

3 من مايو 1813 **جريدة المجتمع**

لقد وصل إلى مسامع كاتبة هذا المقال أن عائلة بريدجرتون بأكملها (برفقة دوق!) قد شرعت في رحلةٍ إلى جرينتش يوم السبت.

ووصل أيضًا إلى مسامع كاتبة هذا المقال أن الدوق المذكور آنفًا، وبرفقته فردٌ محدد من أفراد عائلة بريدجرتون، قد عادا إلى لندن مبتلين تمامًا.

ليدي ويسلداون

- إن اعتذرتِ إليَّ مُجددًا، فربما أضطر إلى قتلك.

قال سايمون وهو يستند برأسه على راحتي يديه، فوجَّهت إليه دافني نظرة غاضبة من موقعها، إذ كانت تجلس على كرسي قارب على مركبٍ صغيرة قد أمرت والدتها بتحضيرها لاصطحاب العائلة بأكملها –والدوق بالطبع– إلى جرينتش.

- اعذرني إن كُنتُ مهذبة بما يكفي حتى أعتذر عن ألاعيب والدتي الواضحة تمامًا. لقد اعتقدتُ أن الغرض من خطتنا الصغيرة هو حمايتك من فيض حنان الأمهات اللاتي يُفَضِّلنَ توفيق الزيجات.

أشار سايمون بيديه اعتراضًا على تعليقها، بينما كان يغوص في أعماق كرسيه بارتياح، ثم قال:

- كان الأمر ليتحول إلى مشكلة لو لم أكن مستمتعًا بما يحدث.

ترنَّح رأس دافني قليلًا إلى الخلف في قليلٍ من الدهشة، ثم قالت:

- أوه –والتي كانت تعني في رأيها: «يا للغباء!»– ثم أضافت:

- هذا أمرٌ لطيف.

ضحك سايمون وقال:

- أنا مُغرَمٌ برحلات القارب على نحو مُبالغ فيه، حتى لو كانت مجرد رحلة إلى جرينتش، إلى جانب أنه بعد قضائي وقتًا طويلًا في البحر، أُفَضِّل زيارة فاخرة إلى المرصد الملكي، لرؤية خط الطول الأساسي[1] في العالم.

ثم اتجه برأسه نحوها وأضاف:

- هل تعرفين الكثير عن المِلَاحة وخطوط الطول؟

هَزَّت دافني رأسها بإحباط، ثم قالت:

- أخشى أن أقول: أقل القليل. يجب أن أعترف أنني لَستُ واثقةً حتى بمعرفتي بما يعنيه خط الطول الأساسي هنا في جرينتش.

- إنها النقطة التي تُحسَب منها جميع خطوط الطول. لقد جرت العادة قديمًا أن يحسب البَحَّارة والمَلَّاحون المسافة الطولية من نقطة مغادرتهم، ولكن في القرن الأخير، قرر الفلكيون الملكيون جعل جرينتش نقطة الانطلاق للجميع.

رفعت دافني حاجبيها في دهشة، وقالت:

- يبدو هذا غرورًا مِنَّا، ألا تعتقد ذلك؟ أن نجعل من أنفسنا مركز العالم؟

- في الحقيقة، بل من المناسب تمامًا أن يكون لدينا نقطة مرجعية عالمية إذا أراد المرء مِنَّا الإبحار في أعالي البحار.

رغم محاولات سايمون أن يبدو مُقنِعًا، فإن دافني ما زالت متشككة في ما عُرِضَ عليها من جواب.

- إذن هل وافق الجميع ببساطة على جرينتش؟ أجد صعوبة في التصديق بأن الفرنسيين لم يُصِرُّوا على أن تكون باريس هي النقطة المرجعية. أنا واثقةٌ أيضًا من أن الحَبرَ الأعظم كان سيُفَضِّل أن تكون روما هي النقطة المرجعية...

- حسنًا، لم يكن ثمة اتفاقٌ بالشكل المعهود.

وسمح سايمون لنفسه بضحكةٍ قبل أن يتابع:

---

(1) Greenwich Meridian. (المترجم)

- لا وجود لأي اتفاقية رسمية إذا كان هذا ما تقصدينه. ولكن المرصد الملكي ينشر كل عام مجموعة رائعة من المخططات والجداول – وتُسمى *بالتقويم الملاحي*–. وأي بَحَّار سيحاول فقط عبور المحيط دون وجود هذا التقويم على متن سفينته سيكون مجنونًا بالتأكيد. وبما أن *التقويم الملاحي* يقيس خطوط الطول بدءًا من جرينتش، التي يتعامل معها على أنها خط الطول صفر... إذن فقد تبَنَّى الجميع هذا الأمر أيضًا.

- يبدو أنك تعرف الكثير عن هذا الأمر.

رفع سايمون كتفيه وقال:

- إذا قَضيتِ وقتًا طويلًا على متن إحدى السفن، ستتعلمين.

- حسنًا، أخشى أن هذا ليس نوعًا من الأمور التي يتعلمها المرء في حضانة عائلة بريدجرتون.

أجابت دافني وحركت رأسها جانبًا بطريقة تعكس احتقارًا للذات، ثم أضافت:

- كان معظم ما تعلمته مُقتَصِرًا على ما تعرفه مربيتي.

- يا للخسارة!

تمتم سايمون، ثم سألها:

- مُعظَمُ ما تَعَلَّمتِه وليس جميعه؟

- أجل، فلو حدث أن أثار موضوعٌ ما اهتمامي، فبإمكاني أن أجد العديد من الكتب لأقرأها عن هذا الموضوع في مكتبتنا.

- أُراهِنُ إذن على أن اهتماماتكِ لا تَنصَبُّ على الرياضيات البحتة.

ضحكت دافني وقالت:

- أتقصد مثلك أنت؟ أخشى أن أقول إنني بالكاد أهتم لها. كانت أمي دائمًا تقول إن قدرتي على التركيز بما يكفي حتى أنتعل حذائي أعجوبة من الأعاجيب.

أجفل سايمون. فتابعت دافني بابتسامة لا تزال تُزَيِّنُ وجهها:

- أعلم، أعلم ما تفكر فيه. أنتم البارعون في العمليات الحسابية لا تستوعبون كيف يمكننا نحن المخلوقات الأقل شأنًا أن ننظر إلى صفحة

ملآنة بالأرقام ولا نعرف الجواب –أو على الأقل لا ندري كيف يمكننا الحصول على الجواب حتى– على الفور. تعلم أن كولين يفكر بنفس الطريقة أيضًا؟

كان سايمون مبتسمًا طوال حديثها، لأنه يدري أنها كانت على حق تمامًا.

- إذن ما هي الموضوعات المُفضَّلة لديكِ؟

- هممم... أجل، التاريخ، والأدب. وكان هذا لحُسن حظي؛ لأن مكتبتنا زاخرةٌ بكتبٍ لا حصر لها في هذين الموضوعين.

ارتشف سايمون رشفةً أخرى من عصير الليمون في يده قبل أن يجيب:

- لم يكن لديَّ قط أي شغفٍ للتاريخ.

- حَقًّا؟ لماذا في رأيك؟

شرد سايمون للحظة مفكرًا ومتسائلًا إن كان افتقاره إلى الحماس ناحية التاريخ بسبب كرهه الشديد لدوقيته، وكل ما يتعلق بها من تقاليد. فقد كان والده مُفعَمًا بالشغف والحماس نحو اللقب...

لكن بالتأكيد كان كل ما قاله سايمون هو:

- لا أدري حَقًّا، أعتقد أنني لا أحبه فحسب.

ثم خيَّم عليهما صمتٌ أنيس، وكانت رياح النهر الهادئة تُكَدِّر من هدوء خصلات شعرهما. وابتسمت دافني في وجهه قبل أن تستأنف الحديث:

- حسنًا، لن أعتذر ثانيةً؛ لأنني أخشى على حياتي، فلن أُضَحِّيَ بها دون داعٍ على يديك. لكنني سعيدة لأنك لست بائسًا بعدما أرهبتك أمي كي ترافقنا.

كانت النظرة التي ألقاها سايمون إليها ساخرة وغامضة، ثم أجابها:

- لو لم أكن راغبًا في الانضمام إليكم، فما كان لشيءٍ تقوله والدتك أن يحملني على مرافقتكم.

ضحكت دافني في سخرية وقالت:

- وهذا الحديث قد أتى من الرجل الذي تظاهر بالتودد إليَّ أنا –دون جميع الناس– فقط لأنه كان أكثر تهذيبًا من أن يرفض الدعوات الموجهة إليه من الزوجات الجدد لأصدقائه.

وعلى الفور خَيَّمت سحابةٌ من العبوس والغضب على ملامح وجهه، وقال:

- ماذا تقصدين بقولكِ: «أنتِ من بين جميع الناس»؟

- حسنًا...

طرفت عيناها طويلًا في دهشة؛ فلم تكن لديها أي فكرة عما كانت تعنيه حَقًّا بما قالته، لذلك كان هذا جوابها عندما نطقت أخيرًا:

- لا أدري.

- حسنًا، توقفي عن قول هذا.

أجاب سايمون متذمرًا، ثم أسند ظهره إلى كرسيه.

كانت عينا دافني تستقران دون سبب واضح على بقعة مُبتَلَّة على سياج القارب، بينما كانت تُجَاهِدُ حتى تزول تلك الابتسامة العبثية عن وجهها. وكان كل ما تفكر فيه هو أن سايمون كان لطيفًا للغاية عندما كان متذمرًا.

- ما الذي تتطلعين إليه؟

بادر سايمون بالسؤال، فزَمَّت شفتيها وقالت:

- لا شيء.

- إذن عَلامَ تبتسمين؟

كانت واثقةً من أنها لن تكشف عن جوابها عن هذا السؤال تحديدًا، فاكتفت بأن قالت:

- لا أبتسم.

- إذن لم تكوني تبتسمين، إذن فهذا يعني أنكِ إما على وشك أن تعاني من نوبة صرع أو عطس.

تمتم سايمون بصوتٍ خافت، فأجابته بصوتٍ مبتهج:

- لا شيء مما سبق، أنا أستمتع بالطقس الرائع فحسب.

كان سايمون مستندًا برأسه على ظهر الكرسي، لذلك اكتفى بأن أمال رأسه قليلًا إلى الجانب حتى يمكنه أن يتطلع إليها. ثم قال مشاكسًا:

- والصحبة لا بأس بها.

ألقت دافني نظرةً ثاقبة على أنطوني، الذي كان يستند إلى السياج على الجانب المقابل لظهر القارب يحدق متجهمًا إلى وجهيهما معًا.

ثم طرحت سؤالها على سايمون:

- الصحبة كلها؟

- إذا كُنتِ تقصدين شقيقكِ العدواني، فالحقيقة هي أنني أجد شقاءه مسليًا للغاية.

كافحت دافني حتى لا تُظهِرَ ابتسامتها، لكنها خسرت المعركة، ثم قالت:

- هذا ليس لطيفًا منك.

- لم أقل قط إنني شخصٌ لطيف. واسمعي...

وحرَّك سايمون رأسه قليلًا باتجاه أنطوني، وحينها صار التجهم على وجه أنطوني أسوأ مما كان عليه من قبل.

- إنه يعلم أننا نتحدث عنه، وهذا الأمر يقتله.

- اعتَقَدتُ أنكما صديقان.

- إننا صديقان حقًّا، وهذا ما يفعله الأصدقاء ببعضهم.

- الرجال مجانين.

- أجل، إذا كنا نتحدث بشكلٍ عام.

أجاب سايمون موافقًا.

قَلَّبت دافني عينيها وقالت:

- كنت أعتقد أن القاعدة الأولى للصداقة هي أنه من المفترض ألا يُغَازِلَ المرء شقيقة صديقه.

- أجل، ولكنني لا أُغَازِل، أنا بالكاد أتظاهر بالغزل.

أومأت دافني في تَفَكُّر، واختلست نظرةً إلى أنطوني.

- وما زال الأمر يؤرِّقه، على الرغم من أنه يعلم حقيقة الأمر.

- أعلم ذلك. أليس أمرًا عبقريًّا؟

في تلك اللحظة جاءت فيوليت تسير بتؤدةٍ ورفق على سطح القارب، ونادت بصوتٍ مرتفع:

- يا أطفال! يا أطفال!

وإذ وقعت عيناها على سايمون، قالت:

- أوه، أرجو أن تعذرني يا صاحب الجلالة؛ بالتأكيد ليس من اللائق أن أعدَّك ضمن أطفالي.

اكتفى سايمون بابتسامة رقيقة، وأشار بيديه أن لا داعي للاعتذار.

- لقد أخبرني قبطان السفينة أننا أوشكنا على الوصول؛ لذا يجب أن نحزم أمتعتنا.

نهض سايمون واقفًا، وقَدَّمَ يد العون إلى دافني، التي التقطتها بامتنان، إذ كانت تترنح عند نهوضها.

- لم أعتد ركوب القوارب بعد.

قالت دافني ضاحكةً وهي تمسك بذراعه لتستعيد اتزانها.

- وها نحن هنا، بالكاد نُبحِرُ في النهر.

تمتم سايمون بصوتٍ خافت.

- أحمق! ليس من المفترض أن تُشِيرَ إلى افتقاري إلى اللياقة والتوازن.

وبينما كانا يتبادلان أطراف الحديث، التفتت بوجهها لتتطلع إلى وجهه، وفي تلك اللحظة، إذ كانت الرياح تَعبَثُ بخصلاتِ شعرها وتُحِيل لون وجنتيها إلى الحُمرة، بدت جميلةً فاتنة، حتى كاد سايمون أن ينسى كيف يتنفس.

كان ثغرها الممتلئ غارقًا في مكانٍ ما؛ بين ضحكة وابتسامة تسير على شفتيها، وقد سقطت أشعة الشمس المتلألئة على شعرها الكستنائي فأحالته إلى اللون الأحمر الناري. هنا بين أمواج النهر المتلاطمة، بعيدًا عن قاعات الرقص المُكَدَّسة، والهواء النقي يهدر من حولهما ويُغازِلُهُما، بدت دافني بسيطةً وجميلة. وكونه بالقرب منها، جعل هذا سايمون يرغب في الضحك مثل البُلَهاء.

لو لم يكونا على وشك الرسو في المرفأ، ولو لم تكن عائلتها بأكملها تتحرك هنا وهناك من حولهما، لكان قَبَّلها. كان يعلم أنه لا يستطيع مغازلتها، وكان يعلم أنه لن يتزوجها قط، ومع ذلك وجد نفسه يميل نحوها، حتى إنه لم يدرك ما الذي كان على وشك فعله، حتى شعر بفقدان توازنه فجأة، وترنح إلى الخلف حتى استقامت قامته.

لسوء الحظ كان أنطوني قد تابع المشهد بأكمله، ولذلك فقد تسلل بجفاء بين سايمون ودافني، قابضًا على ذراعها بقوة تجافي اللياقة، وقال في تجهم:

- بصفتي شقيقكِ الأكبر، أعتقد أنه شرفٌ لي أن أرافقكِ إلى الشاطئ.

انحنى سايمون وسمح لأنطوني أن يشق طريقه برفقة دافني، فقد كان سايمون شديد الغضب والارتجاف بسبب فقدانه اللحظي لسيطرته، حتى عجز عن الجدال مع أنطوني.

كان القارب قد استقر في المرفأ، ووُضِعَ سُلَّم السفينة في موضعه. كان سايمون واقفًا يراقب عائلة بريدجرتون بأكملها تترجل من القارب، ثم جاء في آخر الموكب، متتبعًا خطواتهم إلى الضفاف العشبية لنهر التايمز.

وفي أعلى التلة، استقر المرصد الملكي؛ مبنى جليل قديم من الطوب الأحمر الفخم. وكانت أبراجه مزينة بقباب رمادية، وشعر سايمون كما لو أنه -مثلما قالت دافني- في مركز الأرض. وأدرك أن كل شيء يُحسَب من هذه النقطة.

فبعد ما قطع مسافاتٍ طويلةً في ترحاله حول العالم، كانت تلك الفكرة التي خطرت بباله تحمل شيئًا من الإهانة.

- هل الجميع حاضرون؟

قالت زوجة الفيكونت بصوتٍ مرتفع، ثم أضافت:

- توقفوا جميعًا، حتى يمكنني التأكد من حضور الجميع، وأن أتأكد من تمام العدد.

بدأت فيوليت في إحصاء عدد الرؤوس، حتى انتهت أخيرًا بنفسها في بهجة:

- عشرة، جيد؛ الجميع هنا.

- عليك أن تكون سعيدًا أنها لم تعد تجعلنا نصطف حسب العمر بعد الآن.

التفت سايمون إلى اليسار ليجد كولين يبتسم له، فأكمل كولين حديثه:

- ولحفظ النظام، كان العمر طريقة فعَّالة عندما كان متوافقًا مع الطول. ولكن بيندكت صار أطول من أنطوني بأكثر من سنتيمترين اثنين ونصف، ثم ازداد نمو جريجوري عن فرانشيسكا...

وحينها، رفع كولين كتفيه دون اكتراث وقال:

- لذلك أقلعت أمي عن تلك الطريقة ببساطة.

تفحَّص سايمون الحشد الواقف حوله ورفع كتفًا واحدة في استنكار، ثم سأل كولين:

- أحاول أن أكتشف أين سيكون موقعي مناسبًا.

- في مكانٍ ما بالقرب من أنطوني، إن كُنتُ سأخاطر بالتخمين.

- لا قدَّر الله!

تمتم سايمون في نفسه.

فألقى كولين إليه نظرة مُفعمَةً بالدهشة والفضول. إلا إن فيوليت قاطعت أفكاره حين علا صوتها مُناديًا:

- أنطوني! أين أنطوني؟

حدد أنطوني موقعه بتنهيدةٍ حادة باردة.

- أوه، هذا أنت، أنطوني. تعالَ ورافقني إلى الداخل.

ترك أنطوني على مضضٍ ذراع دافني، وسار إلى جانب والدته.

- إنها صفيقة قليلًا، أليس كذلك؟

همس كولين. إلا إن سايمون قد اعتقد أنه من الأفضل له ألَّا يعلق. ثم أضاف كولين:

- حسنًا، لا تُخَيِّب آمالها؛ فبعد كل ما فَعَلَتْه من مكائد، أقل ما يمكنك فعله هو أن تذهب لتتأبط ذراع دافني.

التفت سايمون نحو كولين بنظرة مراوغة، ثم قال:

- ربما تَكونُ مُخادِعًا أيضًا مثل والدتك.

فضحك كولين وقال:

- أجل، باستثناء أنني على الأقل لا أتظاهر بالغموض مثل أحدهم.

اختارت دافني تلك اللحظة حتى تسير نحوهما.

- لقد وجدتُ نفسي دون مرافق.

- أتتخيلين هذا!

أجابها كولين. ثم أضاف:

- والآن إذا سمحتما لي، سأترككما للبحث عن هياسنث، فإذا اضطُرِرتُ إلى مرافقة إلويز، ربما أركض عائدًا إلى لندن. لقد صارت فتاةً بائسة تَعِسَة منذ أن بلغت الرابعة عشرة.

طرفت عينا سايمون في حيرة، ثم قال متسائلًا:

- ألم تعد من رحلتك حول القارة الأوروبية الأسبوع الماضي؟

أومأ كولين، ثم قال:

- أجل، ولكن عيد ميلاد إلويز الرابع عشر قد مضى عليه عامٌ ونصف.

فلكزت دافني شقيقها كولين بعنفٍ في مرفقه، وقالت:

- إن كُنتَ محظوظًا، فلن أخبرها بما قُلتَه للتو.

قَلَّب كولين عينيه، ثم اختفى وسط الحشد الصغير مناديًا هياسنث بأعلى صوته.

استندت دافني بأصابعها على انحناءة مرفق سايمون حينما عرض عليها ذراعه لتتأبطها، ثم سألته:

- هل أخفناك بعد؟

- أستميحكِ عذرًا؟

ابتسمت له ابتسامة مؤسفة وقالت:

- ليس هناك ما هو أكثر إنهاكًا واستنزافًا للطاقة من حضور نزهة مع عائلة بريدجرتون.

- أوه، تقصدين هذا؟

وخطا سايمون بسرعة نحو اليمين قبل أن يُكمِل جملته، ليتجنب جريجوري الصغير، الذي كان يركض خلف هياسنث، وهو يصرخ بشيء عن الوحل والانتقام. ثم تابع:

- إنها –ممم– تجربةٌ جديدة.

- صياغة مُهذبةٌ تمامًا، لقد أثارت إعجابي.

قالت دافني في إعجابٍ شديد.

- أجل، حسنًا...

وقبل أن يُكمِلَ سايمون جملته قفز إلى الخلف؛ إذ كانت هياسنث تُسرِع في سيرها وتصرخ في حدة، حتى إن سايمون كان واثقًا بأن الكلاب من هنا إلى لندن ستبدأ في العواء.

- ففي نهاية الأمر، ليس لديَّ أشقاء.

أطلقت دافني تنهيدة حالمة، ثم قالت في تَفَكُّر:

- لا أشقاء، تبدو لي الآن حياةً مثل الجنة.

تطلعت في نظرة بعيدة، وظلت نظرتها ثابتة لبعض الدقائق، ثم اعتدل رأسها وتلاشى حلم اليقظة من مخيلتها.

- مهما يكن، على الرغم من...

اندفعت يدها في اللحظة التي كان يركض فيها جريجوري مرورًا بها، وقبضت على ذراعه بقوة، ثم قالت موبخةً إياه:

- جريجوري بريدجرتون! عليك التصرف بشكل أفضل؛ فلا تركض مخترقًا حشدًا من الناس. أنت مسؤولٌ إن تسببت في إسقاط أحدهم.

- كيف فَعَلتِ ذلك؟

- ماذا؟ تقصد الإمساك به؟

- أجل.

رفعت دافني كتفيها في لا مبالاة وقالت:

- أمتلك أعوامًا من الخبرة.

- دافني!

تذمَّر جريجوري في نحيب؛ ففي نهاية الأمر لا تزال دافني قابضة على ذراعه. لذلك قررت إطلاق سراح ذراعه بعد أن حذَّرته:

- والآن، على مهلك!

أخذ جريجوري خطوتين واسعتين، ثم انطلق في هرولة.

- ألن تنال هياسنث توبيخًا أيضًا؟

سألها سايمون. وهنا تطلعت دافني من خلف كتفها وقالت:

- يبدو أن هياسنث قد وقعت في قبضة أمي.

رأى سايمون فيوليت، وكانت تشير بإصبعها في عنفٍ في وجه هياسنث. ثم التفت نحو دافني مرة أخرى وقال:

- ماذا كُنتِ تقولين قبل أن يقتحم جريجوري حديثنا؟

طرفت دافني متفكرة، وقالت:

- ليست لديَّ فكرة.

- أعتقد أنكِ كُنتِ على وشك أن تطيري فرحًا من مجرد التفكير في عدم وجود الأشقاء.

- أوه، بالطبع.

أودعت دافني ضحكة رقيقة على شفتيها بينما كانا يتبعان بقية عائلة بريدجرتون صاعدين التلة نحو المرصد، ثم تابعت:

- في الحقيقة، صدق أو لا تصدق، كُنتُ على وشك أن أقول إن مفهوم العُزلَة الأبدية يبدو مُغريًا في العديد من الأوقات، لكن أعتقد أني سأكون وحيدةً دون عائلة، وهذا شيءٌ لا أُطيقه.

التزم سايمون الصمت، وترك لها المجال حتى تضيف:

- لا يمكنني أن أتخيل اكتفائي بطفلٍ واحدٍ فقط.

فأجاب سايمون في نبرة جافة:

- أحيانًا لا يمتلك المرء خيارًا في هذا الأمر.

خيَّمت سحابةٌ من الحُمرةِ على وجنتي دافني على الفور.

- يا إلهي! أنا آسفة للغاية.

تعثرت دافني في إيجاد الكلمات، حتى إن قدميها رفضتا أن تخطوا خطوة واحدة، ثم تابعت:

- لقد نَسيتُ تمامًا. والدتك...

توقف سايمون بجانبها، ثم رفع كتفيه في عدم اكتراث وقال:

- لم أكن أعرفها، ولم أحزن عليها.

لكن النظرة التي علت عينيه الزرقاوين كانت جوفاء غريبة مثل بوابةٍ مغلقة، وأدركت دافني بطريقةٍ ما أن كلماته كانت كاذبة. وفي الوقت نفسه، كانت تعلم جيدًا أنه قد صَدَّق تلك الكلمات حتى النخاع.

تساءلت عما يمكن أن يكون قد حدث لرجلٍ مثله يجعله يكذب على نفسه طوال تلك السنوات. قررت دافني أن تتفحَّص وجهه، ومالت برأسها قليلًا نحو الجانب إذ كانت تدقق في ملامحه. كانت الرياح قد أثارت سحابةً من الحُمرَة التي غطت وجنتيه، وعبثت بشعره الداكن، فبدت ملامحه قلقة تحت تأثير فحصها وتدقيقها، ثم تنحنح أخيرًا وقال:

- إننا نتأخر عنهم.

تطلعت دافني إلى التلة. كانت عائلتها على بُعد مسافةٍ ليست بقصيرة عنهما.

- أجل، بالتأكيد. يجب أن نجدَّ في السير.

قالت دافني بعد أن استقامت كتفاها وأشاحت بعينيها عن وجهه.

لكنها كانت تصعد التلة في ثقل. لم تكن تفكر في عائلتها، ولا في المرصد، ولا في خطوط الطول، فبدلًا من كل هذا كانت تتساءل في نفسها عن السبب الذي جعلها تشعر برغبة شديدة الغرابة في أن تُلقي بذراعيها حول الدوق، وألا تتخلى عنه أبدًا.

بعد عدة ساعات كانوا جميعًا قد عادوا إلى الضفاف العشبية لنهر التايمز، يستمتعون باللقيمات الأخيرة من مأدبة الغداء البسيطة، الفاخرة رغم ذلك، والتي أعَدَّها طَبَّاخ عائلة بريدجرتون. ومثلما فعل في الليلة الماضية، اكتفى سايمون بالحديث المقتضب، وفَضَّل بدلًا من ذلك مراقبة أوجه الحديث والتفاعل الصاخبة لعائلة دافني.

لكن من الواضح أن هياسنث كان لها رأيٌ آخر.

- يومٌ سعيد يا صاحب الجلالة.

قالت هياسنث، ووجدت لنفسها بقعة فارغة بجانب سايمون على الغطاء الذي بسطه أحد الخدم من أجل نزهتهم.

- هل استمتعتَ بجولتك في المرصد؟

عجز سايمون عن إخفاء ابتسامته عندما أجاب:

- بالتأكيد، لقد استمتعت، آنسة هياسنث. ماذا عنكِ؟

- أوه، لقد استمتعتُ كثيرًا. وقد استحسنتُ أنا خصوصًا محاضرتك عن خطوط الطول ودوائر العرض.

- حسنًا، لا أدري إن كُنتُ سأُطلق عليها محاضرة بالمعنى الحرفي للكلمة.

علق سايمون وقد جعلته تلك الكلمة يشعر بقدرٍ قليلٍ من العجز والملل.

وعلى الجانب الآخر من الغطاء المبسوط على الأرض العشبية، كانت دافني تضحك بصوت خافت على شقائه.

اكتفت هياسنث بابتسامة دلال وغنج -*دلال؟*- ثم قالت:

- هل تعلم أن جرينتش أيضًا لها تاريخ رومانسي للغاية؟

بدأت دافني تهتز في قهقهة عالية، تلك الخائنة الصغيرة.

- حقًا؟

تمكَّن سايمون من الترجل.

- بالتأكيد.

أجابت هياسنث، في نبرة صوتٍ رفيعة، حتى تساءل سايمون لبعض الوقت عما إذا كانت مدبرة منزل في الأربعين من عمرها محبوسة داخل جسد في عمر العاشرة. ثم أضافت:

- لقد سمعنا أن السيد والتر رالي قد بسط عباءته على الأرض حتى لا يضطر الملكة إليزابيث[1] إلى تلطيخ خُفِّها في البركة.

- هل حدث هذا حقًا؟

قال سايمون وقد كان على وشك النهوض ليفحص المنطقة.

- يا صاحب الجلالة!

قالت هياسنث وقد ارتد وجهها إلى وجه فتاةٍ ضجرة في عمر العاشرة عندما قفزت لتقف على قدميها، ثم أضافت:

- ماذا تفعل؟

- أفحص تضاريس المنطقة.

أجاب سايمون، وألقى بنظرة خاطفة إلى دافني، التي كانت تتطلع إليه في بهجة وفُكَاهة، وشيء آخر جعله يشعر وكأن طوله عشرة أقدام.

- لكن ما الذي تبحث عنه؟

تساءلت هياسنث في إصرار.

- بِرَك المياه.

- بِرَك المياه؟

كان وجهها قد اكتسى بالبهجة والسرور عندما أدركت ما يقصده، ثم رددت:

- بِرَك المياه؟

(1) يُقصد بها الملكة إليزابيث الأولى (1558 - 1603). (المترجم)

- بالتأكيد. إذا كُنتُ سأُفسِدُ عباءة حتى أُنقِذَ خُفَّيكِ، آنسة هياسنث، فأود أن أعلم بشأن الأمر مسبقًا.

- لكنكَ لا ترتدي عباءة.

- يا إلهي! إذن أنتِ لا تقصدين أنني سأُجبَرُ على خلع قميصي؟

أجاب سايمون بصوتٍ جعل دافني تنفجر في الضحك وهي في موقعها جالسة على الأرض.

- كلا!

صرخت هياسنث، ثم أضافت:

- لَستَ مُضطرًا إلى خلع أي شيء! ليس هناك أي بِرَك مياه.

- حمدًا لله.

تنفس سايمون الصعداء وهو يضع إحدى يديه على صدره، حتى يزيد من الأثر الدرامي للمشهد. والحق أنه كان مستمتعًا أكثر مما يمكن أن يحلم به أبدًا. ثم أضاف:

- أنتن يا سيدات عائلة بريدجرتون يصعب إرضاؤكن، أتعلمين هذا؟

تطلعت هياسنث إليه في خليط من الريبة والبهجة، وقد كانت الغلبة لشعور الريبة في نهاية الأمر. كانت يداها قد وجدتا طريقهما إلى فخذيها الصغيرتين عندما ضاقت عيناها في شك، وسألته:

- هل تسخر مني؟

ابتسم لها سايمون مباشرة، وقال:

- ماذا تعتقدين؟

- أعتقد أنك تسخر مني.

- أعتقد أنني محظوظٌ لأنه ليس هناك أي بِرَك مياه حولنا.

فكَّرت هياسنث في ذلك للحظة، ثم قالت:

- إذا قَرَّرتَ الزواج من شقيقتي...

وهنا اختنقت دافني إذ كانت تتناول رقائق البسكويت.

- ... إذن فأنا أمنحك موافقتي.

أما في تلك المرة، كان سايمون هو من حُبِسَ الهواء في حنجرته.

تابعت هياسنث حديثها وهي تبتسم في خجل.

- ولكن إذا لم تقرر الزواج منها، عندئذٍ سأكون مُلزَمة بالزواج منك إذا انتظرتني.

لحسن حظ سايمون، الذي لم يحظَ بخبرة كافية في التعامل مع الفتيات الصغيرات، ولم يكن لديه أي فكرة كيف سيجيب، اقتحم جريجوري المشهد مُسرِعًا، وجذب شعر هياسنث بقوة. وعلى الفور غادرت خلفه، وقد ضاقت عيناها بإصرارٍ صادق على الانتقام.

- لم أفكر قط في أنني سأقول ذلك، ولكنني أعتقد أن أخي الصغير قد أنقذك من براثن الموقف.

قالت دافني بصوتٍ ضاحك.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- كم عمر شقيقتك؟

- عشرة أعوام. لماذا؟

هزَّ سايمون رأسه في حيرة وإنكار، ثم قال:

- لأنني للحظة، يمكنني أن أُقسِمَ إنها في الأربعين.

ابتسمت دافني وقالت:

- أحيانًا ما تشبه أمي في أسلوب الحديث، وهذا أمرٌ مخيفٌ كما تعلم.

في تلك اللحظة، كانت المرأة موضع الحديث قد نهضت وبدأت في استدعاء أطفالها ليعودوا إلى القارب.

- هيا، أسرعوا! أخذ الوقت يتأخر!

نظر سايمون إلى ساعة الجيب الخاصة به وقال:

- إنها الثالثة!

رفعت دافني كتفيها في استنكار بينما كانت تنهض لتقف على قدميها، وقالت:

- بالنسبة إليها صار الوقت متأخرًا. وفقًا لمعتقدات أمي، يجب دائمًا أن تكون السيدة في منزلها بحلول الخامسة مساءً.

- لماذا؟

انحنت دافني قليلًا لتلتقط الغطاء المبسوط على الأرض، ثم أجابت:

- ليست لديَّ فكرة. ربما للتحضير للمساء. إنها واحدة من تلك القواعد التي ترعرعتُ عليها وأرى أنه من الأفضل ألا أسأل عنها.

استقامت دافني وهي تضم الغطاء الأزرق الناعم إلى صدرها، ثم ابتسمت وقالت:

- هل أنت مستعدٌ للذهاب؟

بسط سايمون ذارعه وأجاب:

- بالتأكيد.

كانا قد قطعا خطواتٍ بسيطة نحو القارب، عندما قالت دافني:

- لقد تعاملتَ جيدًا مع هياسنث؛ لا بد وأنك قضيتَ وقتًا طويلًا مع الأطفال.

أجاب سايمون باقتضاب:

- كلا.

- أوه!

قالت دافني وقد علا وجهها التجهُّم والحيرة، ثم أضافت:

- أعلم أنك لا تملك أي أشقاء، ولكنني افترضتُ أنك قد قابلت بعض الأطفال في ترحالك.

- كلا.

التزمت دافني الصمت لوهلة بينما كانت تتساءل في نفسها إن كانت تستأنف الحديث مرة أخرى أم لا. كانت نبرة سايمون قد تحوَّلت تدريجيًا إلى نبرة خشنة ومُنَفِّرة، ووجهه...

لم يبدُ نفسَ الرجل الذي كان يُشاكس هياسنث منذ دقائق بسيطة. ولكن لسببٍ ما –ربما لأنها كانت أمسية جميلة، وربما لأن الطقس كان لطيفًا– زيَّفت دافني ابتسامةً مشرقة واستأنفت حديثها:

- حسنًا، سواءً كنتَ تتمتع بالخبرة أم لا، من الواضح أنك تملك الموهبة، فكما تعلم؛ بعض البالغين لا يعلمون كيف يتحدثون إلى الأطفال.

اكتفى سايمون بالصمت هذه المرة، فقررت دافني أن تربت على ذراعه وتقول:

- يومًا ما ستربي طفلًا محظوظًا ليصير أبًا عظيمًا.

التفت برأسه ليواجهها، وقد تسببت النظرة في عينيه في إيقاف قلبها عن الخفقان.

- أعتقد أنني أخبرتُكِ من قبل أن لا نيَّة لي في الزواج...

وصمت قليلًا قبل أن يضيف:

- أبدًا.

- ولكن بالتأكيد...

- لذلك من غير المحتمل أن أُرزَق بأطفال أبدًا.

- أنا... أنا أتفهم.

ابتلعت دافني ريقها وحاولت أن تُظهِرَ ابتسامة مترددة، لكن شعورًا ما قد تخللها بأنها لم تُحرِز شيئًا سوى رعشةٍ خفيفة من شفتيها. وعلى الرغم من أنها تعلم جيدًا أن توددهم ليس سوى خدعة... مسرحية تمثيلية، إلا إنها شعرت بإحباطٍ لم تُدرِك كنهه.

وصلا معًا إلى حافة المرفأ، حيث كانت غالبية عائلة بريدجرتون تتسكع حوله. في حين أن قليلًا منهم قد وطأ القارب بالفعل، وكان جريجوري يرقص على درج القارب المُتحرك.

- جريجوري! توقف عن هذا على الفور!

علا صوت فيوليت مُناديًا، وكانت نبرتها حادة جدًّا، وعندها ثبت جريجوري في موضعه، ولم يُحرك إصبعًا واحدة، فعادت فيوليت تُحدِّثه:

- إما أن تصعد إلى القارب أو تعود إلى المرفأ.

استل سايمون ذراعه من ذراع دافني، ثم تمتم قائلًا:

- هذا الدَرَجُ المتحرك يبدو مُبتَلًا.

وبدأ سايمون يُسرِع في خُطَاه إلى الأمام، إذ كانت هياسنث تصرخ قائلة:

- لقد سَمِعتَ ما قالته والدتك!

- أوه، هياسنث! ألا يمكنكِ ألا تتدخلي في الأمر؟

قالت دافني وتنهَّدت في نفسها.

وهنا قرر جريجوري أن يُعَلِّق لسانه خارج فمه، فزجرته دافني. ثم لاحظت أن سايمون ما زال يسير نحو الدرج المتحرك، فأسرعت بجانبه وهمست في أذنه:

- سايمون، أنا واثقةٌ من أنه سيكون بخير.

- ليس إن زلَّت قدماه وعلق في الحِبال.

أجاب سايمون، وأومأ مشيرًا إلى كومة متشابكة من الحِبَال التي كانت تتدلَّى من القارب.

وصل سايمون إلى نهاية الدرج المتحرك بينما يسير في هدوء تام، كما لو أنه لا يحمل قلق العالم في جعبته.

- هل ستتحرك من هنا؟ حتى يمكنني أن أعبر الدرج؟

قال سايمون مُناديًا. وكانت قدماه تخطوان خطواتٍ بسيطة على قطعة الخشب الضيقة.

طرف جريجوري في دهشة وقال:

- أليس عليك أن ترافق دافني؟

تذمَّر سايمون قليلًا، وتحرك إلى الأمام، ولكن في اللحظة نفسها ظهر أنطوني -الذي كان قد استقل القارب الصغير بالفعل- عند مقدمة الدرج المتحرك، ونادى بصوتٍ حاد:

- جريجوري! اصعد إلى القارب على الفور!

ومن أسفل المرفأ، راقبت دافني مشهد الرعب. فجأةً دار جريجوري حول نفسه، وزَلَّت قدمه حتى فقد توازنه فوق الخشب الزلق. قفز أنطوني إلى الأمام، محاولًا الإمساك بجريجوري بقبضته المذعورة، لكن جريجوري كان قد انزلق إلى الأسفل، ولم يمسك أنطوني سوى الهواء.

كان أنطوني يصارع حتى يستعيد توازنه، بينما كان جريجوري قد انزلق أسفل الدرج المتحرك، ممسكًا بعناية بسيقان سايمون.

- سايمون!

علا صوت دافني بنبرةٍ أشبه بنعيق الغربان، واندفعت إلى الأمام.

تعثَّر سايمون حتى سقط في المياه الحالكة لنهر التايمز، في اللحظة التي صاح فيها جريجوري بصدقٍ قائلًا:

- أنا آسف!

صعد جريجوري الدرج المتحرك من الخلف على مؤخرته -حتى بدا في الحقيقة مثل سلطعون بحري- دون أن ينظر إلى أين يذهب، مما يفسر تمامًا السبب وراء عدم معرفته بأن أنطوني -الذي كان قد تمكن من استعادة توازنه للتو- كان على بعد خطواتٍ قليلة خلفه.

اصطدم جريجوري بأنطوني بصوت مكتومٍ من جانبه، وبصوت نخير قد صدر من أنطوني، وقبل أن يدرك أي أحد ما حدث، كان أنطوني يتخبط في الماء، تمامًا بجانب سايمون.

صَكَّت دافني إحدى يديها على فمها، واتسعت عيناها مثل عنان السماء، فجذبتها فيوليت من ذراعها وقالت:

- من الأفضل ألا تضحكي الآن.

أطبقت دافني شفتيها معًا في جهودٍ مُضنية حتى تمتثل لنصيحة والدتها، لكن الأمر كان صعبًا عليها.

- أنتِ تضحكين أيضًا.

أشارت دافني.

- لا أضحك.

أجابت فيوليت كاذبة. فقد كانت رقبتها بأكملها ترتعش في جهدٍ جهيد حتى تُبقي ضحكتها دون صوتٍ مسموع.

- بالإضافة إلى ذلك أنا أمٌ؛ لن يجرؤ أحدٌ على قول أي شيء لي أنا.

خرج أنطوني وسايمون من الماء متوتري الأعصاب، تتقاطر المياه من ملابسهما، ويحدقان إلى بعضهما. أما جريجوري، فكان قد زحف ما تبقى من الدرج المتحرك واختفى خلف حافة القارب.

فاقترحت فيوليت قائلةً:

- ربما من الأفضل أن تتدخلي في الأمر.

- أنا؟

أجابت دافني في صوتٍ حاد.

- يبدو أنهما على وشك تبادل الضربات.

- ولكن لماذا؟ لقد كان خطأ جريجوري.

- بالتأكيد، ولكنهما رجلان، ويشعران بالغضب والحرج الآن، ولا يمكنهما أن يُنَفِّسا عن غضبهما في طفلٍ في الثانية عشرة.

وكما هو متوقع، كان عراكٌ بالألسنة قد اشتعلت شرارته بين أنطوني وسايمون، عندما تمتم أنطوني قائلًا:

- كان بإمكاني أن أتولى أمره.

فأجاب سايمون متذمرًا:

- إذا لم تُفاجئه...

وإذ كانت الحرب مشتعلة، قَلَّبت فيوليت عينيها وقالت لدافني:

- ستتعلمين قريبًا أن أي رجلٍ لديه رغبة تعجيزية لإلقاء اللوم على أي شخصٍ آخر إذا جعله يبدو مثل الأحمق.

أسرعت دافني نحوهما ممتلئة بالنية الخالصة لمحاولة النقاش مع الرجلين بالعقل. إلا إن نظرة واحدة ثاقبة إلى وجهيهما جعلتها تُدرك أنه لا يوجد شيء يمكنها أن تقوله بإمكانه أن يتأصل في ذهنهما مثل الذكاء والحصافة اللذين ستمتلكهما أي امرأة في مثل هذا الموقف، لذلك ألصقت دافني ابتسامة حانية بوجهها، وتناولت ذراع سايمون، ثم قالت:

- هل ترافقني إلى أعلى القارب؟

حدَّق سايمون إلى أنطوني.

وبادله الأخير بالمثل.

أما دافني، فقد جذبته بشدة.

- لم ينتهِ الأمر بعد، هاستنجز.

قال أنطوني بصوتٍ يشبه فحيح الأفاعي.

- بل على العكس.

وأجابه سايمون بصوت فحيحٍ مشابه.

أدركت دافني أنهما ببساطة يبحثان على عذرٍ حتى يندلع الشجار بينهما. وحينها أصرَّت دافني على أن تجذبه بشدة. وكانت على استعداد تام لتخلع كتف سايمون إن اضطرت إلى ذلك. وبعد نظرة متوعِّدة أخيرة، أذعن سايمون أخيرًا وتبعها إلى القارب.

كانت رحلةً طويلةً شاقَّة تلك التي قطعوها حتى وصلوا إلى المنزل.

في وقتٍ لاحق من تلك الليلة، بينما كانت دافني تستعد للنوم، وجدت نفسها قلقة على غير العادة. يمكنها الآن أن تقول إن النوم صار أمرًا مستحيلًا، لذلك جذبت الرداء، وتجولت في الطابق السفلي بحثًا عن كوبٍ من اللبن الدافئ والصحبة الهادئة. ومع وجود الكثير من الأشقاء والشقيقات، فكَّرت دافني في سخرية بأن أحدهم -وكانت تعني أنطوني- سيكون بالتأكيد قد تعافى من مرضه.

وفي طريقها نحو المطبخ، سمعت دافني أصوات حفيفٍ غريبة في غرفة مكتب أنطوني، لذلك دسَّت رأسها من خلال الباب. كان شقيقها الأكبر يجلس منحنيًا على مكتبه، وبُقَع الحِبر تنتشر على أصابعه بعدما كتب جوابه على المراسلات الواقعة أمامه. لم يكن أمرًا شائعًا أن تجده هنا في هذا الوقت المتأخر من الليل. كان أنطوني قد فضَّل الاحتفاظ بمكتبه في منزل عائلة بريدجرتون حتى بعدما انتقل إلى منزل العزوبية، لكنه عادةً ما يهتم بأمور عمله في أثناء النهار.

- ألم تُعين أمينًا للسر حتى يقوم بتلك الأمور بدلًا عنك؟

سألت دافني بابتسامة رقيقة.

تطلع أنطوني إليها وتمتم مُجيبًا:

- هذا الأحمق تزوج وانتقل إلى برستول.

- أجل.

قالت دافني وقد خَطَت داخل الغرفة، ثم جلست على الكرسي المقابل للمكتب وأضافت:

- هذا يفسر وجودك هنا في الساعات الأولى من النهار.

اختلس أنطوني نظرةً إلى الساعة وقال:

- بالكاد يمكننا أن نسمي منتصف الليل الساعات الأولى من النهار. إلى جانب أنني استغرقتُ فترة الأصيل بأكملها حتى أنظِّف شعري من بقايا نهر التايمز.

جاهدت دافني لئلا تبتسم عندما تذكرت الحادث.

- لكنكِ على حق؛ صار الوقت متأخرًا، ولا يوجد أي شيء هنا ليس بإمكانه الانتظار حتى الصباح.

قال أنطوني، ثم أطلق تنهيدة عميقة ووضع ريشته من بين أصابعه. أسند ظهره إلى الكرسي، وبسط رقبته، ثم أضاف:

- وأنتِ، ما الذي تفعلينه في هذا الوقت؟

رفعت دافني كتفيها في لا مبالاة وأوضحت:

- لم أستطع النوم؛ لذلك هبطتُ إلى الطابق السفلي أبحث عن بعض الحليب الساخن، وسمعتك تَسُبُّ وتلعن.

سمح أنطوني لصوتِ نخير خافت أن يخرج من أنفه قبل أن يجيب:

- إنها تلك الريشة الملعونة. أقسم إنني...

ابتسم أنطوني في خجل، ثم أضاف:

- أعتقد أن عبارة «أقسم إنني» تفي بالغرض تمامًا، أليس كذلك؟

ابتسمت دافني لابتسامته. كانت قد اعتادت على أن أشقاءها لا يهتمون لألفاظهم عندما تكون بجوارهم. ثم قالت:

- إذن ستتجه إلى منزلك الآن؟

أومأ أنطوني بإيجاب، وقال:

- على الرغم من أن الحليب الدافئ الذي ذَكَرتِه يبدو أكثر لطفًا. لماذا لا تقرعين الجرس حتى يُحَضِّروا لنا بعض الحليب؟

نهضت دافني وقالت:

- لديَّ فكرةٌ أفضل؛ لماذا لا نعده بأنفسنا؟ لسنا بُلَهاء لتلك الدرجة. من المفترض أن نتمكن من تدفئة بعض الحليب. إلى جانب أنه ربما ذهب الخدم إلى النوم.

تبعها أنطوني إلى خارج غرفة المكتب، وقال:

- حسنًا إذن، ولكنكِ ستقومين بكل العمل؛ فليست لديَّ أدنى فكرة عن الكيفية التي يُغلَى بها الحليب.

- لا أعتقد أنه من المفترض أن ندع الحليب يغلي.

قالت دافني وقد قطبت حاجبيها. كانت قد أخذت المنعطف الأخير في طريقها إلى المطبخ، ثم دفعت الباب، فانفرج على مصراعيه. كانت الغرفة مظلمة، اللهم إلا بعض ضوء القمر الذي يسطع من خلال النافذة.

وهنا قالت دافني لأنطوني:

- ابحث عن مصباحٍ للإضاءة بينما أبحث عن بعض الحليب.

ثم أضافت وقد علت وجهها ابتسامة مصطنعة:

- أعتقد أن بإمكانك إشعال المصباح، أليس كذلك؟

- أوه، أعتقد أن بإمكاني أن أتولى هذا الأمر.

أجاب أنطوني بلُطفٍ وطبعٍ حسن.

ابتسمت دافني في نفسها في الوقت الذي تعثرت فيه وسط الظلام، وسحبت إناءً صغيرًا من الحامل المُثَبَّت فوقها. كان كلٌّ من دافني وأنطوني يتمتعان بعلاقة مرحة سلسة، وقد كان لطيفًا أن تراه يعود إلى طبيعته مرة أخرى؛ فقد كان في مزاجٍ موحش طوال الأسبوع الماضي، ومعظم مزاجه الحاد كان مُوجَّهًا إليها مباشرةً، وإلى سايمون أيضًا بالتأكيد. لكن سايمون نادرًا ما يكون حاضرًا ليتلقى عبوس أنطوني، ونوبات تَجَهُّمه.

أومض ضوء المصباح خلفها، فأعاد الحياة إلى المكان. والتفتت دافني حتى ترى أنطوني يبتسم بانتصار. ثم سألها:

- هل وَجَدتِ الحليب؟ أم يجب أن أخرج باحثًا عن إحدى البقرات؟

ابتسمت دافني وأمسكت بزجاجةٍ لترفعها عاليًا:

- وجَدتُه!

ثم تجولت دافني قليلًا حتى وصلت إلى النطاق المحدد، وكان أشبه بآلة غريبة حديثة المظهر كان الطبَّاخ قد اشتراها في وقتٍ مبكر من هذا العام. وعندها سألت دافني:

- هل تعلم كيف نُشعِلُ هذا الشيء؟

- ليست لديَّ فكرة. ماذا عنكِ؟

هزَّت دافني رأسها سلبًا وقالت:

- ليست لديَّ فكرة.

تحركت دافني إلى الأمام، وبحذر حاولت لمس سطح الموقد، ثم قالت:

- ليس ساخنًا.

- ولا حتى قليلًا؟

هزَّت دافني رأسها وقالت:

- في الحقيقة، يبدو باردًا.

وقف الشقيقان جنبًا إلى جنب في صمتٍ تام لعدة ثوانٍ، حتى نطق أنطوني أخيرًا:

- تعلمين؟ ربما يكون الحليب البارد أكثر إنعاشًا.

- لقد كُنتُ أفكر في الأمر نفسه!

ضحك أنطوني قليلًا، وبحث عن كوبين، ثم قال:

- تفضلي، أفرغي أنتِ الحليب في الكوب.

أفرغت دافني الحليب، وبعد لحظاتٍ كانا جالسين معًا على كراسي القدمين الصغيرة يتجرعان الحليب الطازج. أفرغ أنطوني كوبه في فمه بعد وقتٍ قصير، وسكب لنفسه كوبًا آخر.

- تريدين المزيد؟

سأل أنطوني بينما كان يمسح بيديه الشارب الأبيض الذي رسمه الحليب على شفته العليا.

- كلا، ما زال أمامي نصف الكوب.

أجابت دافني، ثم ارتشفت رشفةً أخرى. وإذ كانت تتململ في كرسيها، كانت تلعق شفتيها. والآن، بما أنها تجلس بمفردها برفقة أنطوني، وبيد أنه قد عاد إلى حسه الفُكاهي المعهود، بدا أن الوقت صار مناسبًا من أجل... حسنًا، الحقيقة هي...

فكرت دافني في نفسها: *«أوه، انسي الأمر، تَحَلَّي بالشجاعة واسأليه عما تريدين»*.

- أنطوني؟

قالت دافني بمسحةٍ من التردد، ثم أضافت:

- هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالًا؟

- بالتأكيد.

- إنه يتعلق بالدوق.

ارتطم كوب أنطوني بالطاولة، وأحدث قرقعةً صاخبة.

- ما الذي يتعلق بالدوق؟

بدأت دافني، ثم أخذت كلماتها تنهار شيئًا فشيئًا:

- أعلم أنك لا تحبه...

أجاب أنطوني بتنهيدةٍ مُتعَبَة.

- ليس الأمر أنني لا أحبه، إنه واحدٌ من أصدقائي المقربين.

رفعت دافني حاجبيها في دهشة، وقالت:

- سيصعُبُ على المرء استنتاج هذا الأمر بالنظر إلى سلوكك الأخير.

- الأمر كله هو أنني لا أثق به عندما يتعلق الأمر بالنساء، عندما يتعلق الأمر بكِ أنتِ على وجه الخصوص.

- أنطوني، يجب أن تعرف أن ما قلته هو أحد أسخف الأمور التي نطقت بها في حياتك. ربما كان الدوق فاسقًا -وأعتقد أنه ربما ما زال فاسقًا على حد معرفتي- ولكنه لن يحاول إغوائي، وهذا فقط لأنني شقيقتك.

بدا أنطوني غير مقتنع بما قالته، فتابعت دافني، وكانت نادرًا ما تقاوم رغبتها في تقليب عينيها:

- حتى لو لم يكن هناك بعضٌ من قواعد الشرف بين الرجال بشأن تلك الأمور، فإنه يعلم جيدًا أنك ستقتله حَقًّا إن لمسني. هذا الرجل ليس أحمق.

امتنع أنطوني عن التعليق على ما قالته، وبدلًا من ذلك قال:

- ما الذي كُنتِ تريدين أن تسأليني عنه؟

أجابت دافني على مهل:

- في الحقيقة، كُنتُ أتساءل إن كُنتَ تعلم السبب وراء معارضة الدوق لفكرة الزواج.

تناثر رذاذ الحليب من فم أنطوني حتى منتصف الطاولة.

- بالله عليكِ، دافني! كُنتُ أعتقد أننا قد اتفقنا على أن الأمر لا يتعدى كونه خدعة! لماذا حتى تُفَكِّرين في الزواج منه؟

- أنا لا أفكر في الزواج منه!

شَدَّدت دافني كثيرًا على جوابها، إلا إنها كانت تفكر في الاحتمال القائم أنها تكذب. لكنها عزفت عن اختبار مشاعرها جيدًا حتى تتأكد من ذلك. ثم تمتمت لتدافع عن نفسها:

- أنا أشعر بالفضول فحسب.

- من الأفضل لكِ ألا تفكري في محاولة الزواج منه، لأنني أقول لكِ الآن إنه لن يتزوج. أبدًا. هل تفهمينني، دافني؟ لن يتزوج منكِ أبدًا.

أجاب أنطوني بصوتٍ حاد.

- يجب أن أكون بلهاء حتى لا أفهمك.

أجابت دافني في تذَمُّر.

- جيد. إذن فهذه نهاية نقاشنا.

- كلا، ليست نهاية نقاشنا! ما زِلتَ لَم تُجِب عن سؤالي.

ألقى أنطوني نظرةً قاسية إليها عبر الطاولة، فقالت دافني مُحَرِّضَةً إياه على الحديث:

- بشأن السبب وراء عدم زواجه.

- لماذا تَبدِين مهتمة لهذا الأمر؟

تساءل أنطوني في ضجر.

كانت دافني تخشى أن الحقيقة تبدو قريبةً للغاية من اتهامات أنطوني، لكنها اكتفت بأن قالت:

- أنا أشعر بالفضول. إلى جانب أنني أعتقد أن من حقي أن أعرف السبب، لأنه إذا لم أجد الخاطب المناسب في أقرب وقت، فربما سأصير منبوذة من المجتمع بعدما يتركني الدوق.

- لقد اعتقدتُ أنكِ أنتِ من سيهجره.

أجاب أنطوني في ريبة.

ضحكت دافني بصوتٍ خافت وقالت:

- ومن سيصدق ما تقوله؟

لم يقفز أنطوني على الفور للدفاع عنها، وكان تصرفًا وجدته دافني مزعجًا لا يمكن تفسيره، لكنه قال:

- لا أدري ما السبب الذي من أجله يرفض هاستنجز الزواج. كل ما أعرفه هو أنه مُصِرٌّ على رأيه طوال الفترة التي عرفته فيها.

وقبل أن تنفرج شفتا دافني للحديث، قاطعها أنطوني مُضيفًا:

- بالإضافة إلى أنه قد وضح هذا الأمر بطريقة تجعلني أعتقد أن رأيه ليس مجرد عَهدٍ ركيك من أعزب مُنزَعِج.

- ماذا تعني؟

- أعني أنه، على خلاف معظم الرجال، عندما يقول إنه لن يتزوج أبدًا، فإنه يعني ما يقوله.

- أتفَهَّم ذلك.

زفر أنطوني نفسًا طويلًا مُرهَقًا، ولاحظت دافني خطوطًا دقيقة من التجاعيد التي تكوَّنت حول عينيه من القلق، ولم تكن قد رأتها من قبل.

- اختاري رجلًا من حشد الخُطَّاب الجُدُد، وانسي أمر هاستنجز. إنه رجلٌ جيد، لكنه ليس جيدًا بالنسبةِ إليكِ.

تعَلَّقت دافني بالجزء الأول من عبارته، وقالت:

- لكنك تعتقد أنه رجلٌ جيد...

- ليس مناسبًا لكِ.

كَرَّر أنطوني كلماته مرة أخرى.

لكن دافني لا يمكنها سوى أن تعتقد أنه ربما –ربما فحسب– كان أنطوني مُخطئًا.

الفصل التاسع

14 من مايو 1813 **جريدة المجتمع**

شُوهِدَ دوق هاستنجز مُجددًا برفقة الآنسة بريدجرتون. (ونعني الآنسة دافني بريدجرتون، لمن يجد منكم صعوبة –مثل كاتبة هذا المقال– في التفرقة بين العديد من أفراد نسل عائلة بريدجرتون). لقد مضى بعض الوقت منذ أن شاهدت كاتبة هذا المقال زوجًا يظهر ارتباطهما تمامًا ببعضهما كهذا الزوج.

ورغم ذلك يبدو الأمر غريبًا، فباستثناء النزهة التي قامت بها عائلة بريدجرتون إلى جرينتش، والتي تحدثنا عنها قبل عشرة أيام في هذه الجريدة، إلا إن الزوجين لم يظهرا معًا سوى في المناسبات الاجتماعية المسائية. وقد عرفت كاتبة هذا المقال من مصدر ثقة أنه في حين أن الدوق قد قام بزيارة الآنسة بريدجرتون في منزلها منذ أسبوعين، إلا إن تلك المجاملة اللطيفة لم تتكرر منذ ذلك الوقت، وبالتأكيد لم نرهما يمتطيان الخيل معًا في هايد بارك حتى ولو لمرةٍ واحدة!

ليدي ويسلداون

بعد مرور أسبوعين، وجدت دافني نفسها تقف في هامبستيد هيث[1]، على أطراف قاعة الرقص في منزل ليدي تروبريدج، بعيدةً تمام البعد عن الحشد المتأنق. وكانت راضية تمامًا بموقعها من الحفل.

---

(1) أرض خضراء شاسعة، قديمة المنشأ، تقع في لندن، ومساحتها 790 قيراطًا. (المترجم)

لم تكن دافني ترغب في أن تكون موضع تركيز الحفل. لم تكن ترغب في أن تجد حولها دزينة من الخُطَّاب الآن يتذمرون ويدَّعون استحقاقهم الرقص معها. في الحقيقة، لم تكن ترغب في الحضور إلى قاعة الرقص الخاصة بليدي تروبريدج على الإطلاق. لأن سايمون لم يكن هناك.

هذا لا يعني أن قدرها المحتوم هو أن تقضي الأمسية مثل نبتة الحائط الخجولة. فمن الواضح أن جميع توقعات سايمون بشأن شهرتها المتزايدة قد أثبتت صحتها. ودافني، التي كانت دائمًا الفتاة التي يُعجَبُ بها الجميع لكن لا يعشقها أحد، قد أُعلِنَت فجأة لتكون فتاة الموسم منقطعة النظير. وبدا كل شخصٍ مهتمًّا بإبداء رأيه في الأمر –وتقصد بكل شخص جميع أفراد الوسط الرفيع–؛ فقد أعلنوا أنهم كانوا يعلمون دائمًا أن دافني فتاةٌ مميزة، وكانوا ينتظرون من الآخرين جميعًا أن يلاحظوا ذلك الأمر. فقد أخبرت ليدي جيرسي جميع من كانوا يستمعون إليها أنها كانت تتنبأ بنجاح دافني لشهورٍ طويلة، وكان اللغز الوحيد هو السبب الذي لم يجعل أي شخص يستمع إليها في وقتٍ قريب. والذي كان بالتأكيد مجرد كلامٍ فارغ. لم تكن دافني قط موضع استهزاء ليدي جيرسي، وفي الوقت ذاته لا يتذكر أي فردٍ من أفراد عائلة بريدجرتون أنه قد سمع ليدي جيرسي تشير إلى دافني –كما كانت تفعل الآن– على أنها «كنز الغد».

ومع ذلك صارت بطاقة الرقص الخاصة بدافني تمتلئ الآن في غضون لحظاتٍ من وصولها إلى أي حفل. وعلى الرغم من أن الرجال يقاتلون بعضهم بعضًا حتى ينالوا شرف خدمتها بكأس من عصير الليمون (في المرة الأولى التي حدث فيها هذا الأمر، علت ضحكة دافني في تصرفٍ لا يليق بالوسط الرفيع)، فإنها وجدت أن أي أمسية لا تكون مميزة حقًّا ما لم يكن سايمون حاضرًا بجانبها.

لا يهم بالنسبة إليها أن سايمون قد قرر أنه من الضروري أن يذكر مرة واحدة على الأقل في كل أمسية معارضته الحادة لمؤسسة الزواج بأكملها. (وللإنصاف، عادةً ما يذكر سايمون هذا الأمر بالتزامن مع إعرابه عن جزيل شكره لدافني، التي أنقذته من حشود الأمهات الطموحات). ولا يهم إن كان يخيم عليه صمتٌ رهيب، وأنه قد يكون وقحًا عند تعامله مع أفرادٍ معينين من المجتمع.

كل ما كان يهم هي تلك اللحظات التي تقل فيها الحشود من حولهما، فيبدو وكأنهما بمفردهما (لم يُترَكا بمفردهما قط دون مرافق)، ومع ذلك يختليان ببعضهما بطريقة ما لإظهار رغباتهما؛ ربما محادثات مضحكة في الأركان، أو رقصة الفالس في قاعة الرقص. كانت دافني تتطلع إلى عينيه الزرقاوين الشاحبتين وتكاد تنسى أنها مُحَاطة بخمسمئة مُتَرَقِّب، يبدون جميعهم بالغي الاهتمام بقضية التودد بينها وبين الدوق. وتكاد أن تنسى أيضًا أن حيلة التودد بينها وبين الدوق ما هي إلا مودة مُصطَنَعة تمامًا.

حاولت دافني ألا تتحدث إلى أنطوني بشأن سايمون مرة أخرى؛ فقد كان عداء شقيقها واضحًا وضوح الشمس في كبد السماء في كل مرة يُذكر فيها اسم سايمون في أي محادثة. وعندما يلتقي أنطوني وسايمون في أي حفل - حسنًا يمكننا القول إن أنطوني عادةً ما يُتقن مستوًى معينًا من المودة والحميمية، لكن كان هذا كل ما يمكنه استعراضه.

ومع ذلك، وسط جميع موجات الغضب المتناثرة حولهما، تمكنت دافني أن ترى وميضًا خافتًا للصداقة القديمة بينهما. وكل ما كانت تأمله أنه عندما ينتهي كل شيء -وتتزوج هي من إيرل ممل لطيف يعجز قلبها أمامه عن الغناء- أن تعود صداقة هذين الرجلين إلى سابق عهدها.

وبناءً على طلب أنطوني القسري، كان على سايمون أن يختار عدم حضور جميع المناسبات الاجتماعية التي قد قبلت كلٌّ من فيوليت ودافني قبولها سلفًا. وقال أنطوني إن السبب الوحيد لموافقته على هذا المخطط السخيف هو أن تجد دافني الزوج المناسب من بين جميع خُطَّابها الجدد. ولسوء الحظ في رأي أنطوني -ولحسن الحظ في رأي دافني- لم يجرؤ أي من هؤلاء الشباب المتحمسين على التقرُّب منها في حضور سايمون.

- لا يفيدنا هذا الأمر على الإطلاق.

كانت هذه كلمات أنطوني بالتحديد. في الحقيقة، كانت تلك الكلمات بالتحديد قد لحقها كَمٌّ لا بأس به من اللعنات والدوافع، لكن دافني لا ترى أي سبب لتركز على هذا الأمر، فمنذ هذا الحادث الذي وقع قُربَ -أو بالأحرى في- نهر التايمز، قضى أنطوني وقتًا طويلًا يكيل السُباب لسايمون؛ سواء ذُكِرَ اسمه أم لا. لكن سايمون قد تَفَهَّم منطق أنطوني، وقد صَرَّح سايمون لدافني ذات مرة أنه يتمنى لو تجد الزوج المناسب في أقرب وقت.

وبذلك ابتعد سايمون عن طريقها.

وصارت دافني فتاةً بائسة.

اعتقدت دافني أنه كان عليها أن تتوقع ما سيحدث. وكان عليها أن تُدرِكَ أخطار التودد إليها -حتى لو كان أمرًا مزيفًا- من قِبَلِ رجلٍ يلقِّبه المجتمع مؤخرًا باسم «**الدوق الفتَّاك**». كان هذا اللقب قد أُطلِقَ عليه عندما قالت عنه فيليبا فيذرنجتون: «الدوق ذو الوسامة الفتَّاكة». وبما أن فيليبا لا تدري ما تعنيه كلمة «يهمس»، شهد جميع أفراد الوسط الرفيع على عبارتها. وفي غضون دقائق، كان بعض الشباب المتأنقين الظُرَفاء، الذين عادوا لتوهم من جامعة أكسفورد، قد اختصروا العبارة واستخدموا الجِنَاس، حتى وُلِدَ لقب الدوق الفتَّاك.

ووجدت دافني أن اللقب يعكس عليها سخرية حزينة؛ لأن الدوق الفتَّاك قد فتك بقلبها. بالطبع لم يقصد ذلك، فلم يمنحها سايمون سوى الاحترام والتقدير، وحس الدعابة. حتى إن أنطوني قد اضطر إلى الاعتراف بحقيقة أن سايمون لم يمنحه أي سبب حتى يشتكي منه في هذا الجانب. لم يحاول سايمون الاختلاء بدافني قط، ولم يفعل أي شيء يزيد على قبلته التي يطبعها على يديها المغطاة بالقفازات (وبسبب فزع دافني، لم يتكرر هذا الأمر سوى مرتين فقط).

لقد صارا أفضل رفيقين، وكانت محادثاتهما تدور في إطار فترات الصمت الهادئة، وبراعة الإجابة عن التساؤلات. وفي كل حفلة، كانا يرقصان معًا مرتين، وهو الحد الأقصى المسموح به دون إثارة الشائعات في المجتمع. ومع كل هذا كانت دافني تعرف -دون أي شك- أنها تقع في حبه.

كانت المفارقة طريفة؛ فقد بدأت دافني بالطبع قضاء المزيد من الوقت برفقة سايمون على وجه الخصوص حتى تجذب رجالًا آخرين، ومن جانبه، بدأ سايمون قضاء المزيد من الوقت برفقة دافني حتى يتجنب الزواج. وفكَّرت دافني إذ كانت تستند بارتخاء على أحد الحوائط أنه بالتفكير في الأمر، وجدت أن المفارقة كانت مؤلمة بشكل يثير الضحك.

على الرغم من أن سايمون كان لا يزال يعبر عن رأيه في عدم الزواج، وإصراره على عدم اللحاق بهذا الوضع المبارك، فإنها قد لمحته يتطلع إليها بطريقةٍ جعلتها تعتقد أنه ربما يكون راغبًا فيها، فلم يعد يكرر تلك التعليقات الفاضحة التي كان يلقيها قبل أن يدرك أنها إحدى أفراد عائلة بريدجرتون، لكنها أحيانًا ما تلمحه ينظر إليها بنفس النظرة التوَّاقة الوحشية التي عهدتها

فيه منذ الليلة الأولى. وبالطبع أشاح بوجهه عنها في اللحظة التي لاحظت فيها نظرته، لكن الوقت كان كافيًا تمامًا حتى يشتعل جسدها بالوخزات، وتعاني رئتاها نقص الهواء، وتلتهمها أعراض الرغبة.

وعيناه! أحب الجميع عينيه الثلجيتين. وعندما كانت دافني تشاهده وهو يتحدث مع أفراد المجتمع الآخرين، كانت تدرك السبب وراء عشقهم لعينيه. لم يكن سايمون ثرثارًا يحب الكلام مع الآخرين مثلما كان معها. كانت عباراته قصيرة، ونبرة صوته جافة خشنة، وعيناه ترددان صدى الخشونة في سلوكه.

لكن عندما كانا يضحكان معًا، ويقتصر الحديث عليهما فحسب، ويسخران من بعض قواعد المجتمع السخيفة، كانت النظرة في عينيه تتغير؛ يتلألأ الحنو والرقة فيهما، وتبدوان يملؤهما الطمأنينة والارتياح. وعندما كانت دافني تغوص في لحظاتٍ من نسج الخيال، كانت تعتقد أنهما يبدوان كما لو أن روحيهما تذوبان في بعضهما حتى التآلف.

تنهدت دافني في حزن، واستندت بارتياح أكثر إلى الحائط. بدا أن لحظاتها الخيالية كانت تتعاقب واحدة تلو الأخرى هذه الأيام.

- دافني! أنتِ هنا. لماذا تتوارين في هذا الركن؟

تطلعت دافني إلى مصدر الصوت، لتجد كولين يقترب منها بابتسامته المتباهية المعتادة، التي كانت ترتسم في موضعها المناسب لتُبرِزَ وسامة وجهه. فمنذ عودته إلى لندن، كان قد اجتاح المدينة بوسامته تمامًا، ويمكن لدافني أن تذكر بسهولةٍ شديدة أسماء عشراتٍ من السيدات الشابات اللاتي قد وقعن في حبه، ويتشوقن لجذب انتباهه. الأهم هو أنها لم تكن قلقة بشأن مبادلة شقيقها تلك المشاعر مع واحدة من السيدات الشابات، فمن الواضح أن كولين لا يزال أمامه الكثير من رعونة الشباب وعلاقات العشق ليعيشها قبل أن يقرر الإستقرار والزواج.

- أنا لا أتوارى، بل أتجنب.

أجابته دافني مصححةً ظنونه.

- تتجنبين مَن؟ هاستنجز؟

- كلا، بالتأكيد لا؛ هاستنجز ليس هنا الليلة على أي حال.

- بلى، إنه هنا.

وبما أننا نتحدث عن كولين، الذي كان غرضه الرئيسي في الحياة –بعد ملاحقة العاهرات والمراهنة على الأحصنة بالطبع– هو تعذيب شقيقته وإزعاجها، قررت دافني أن تتصرف بلا مبالاة. ومع ذلك مالت دافني إلى إظهار اهتمامها –رغما عنها– فسألته:

- حَقًّا؟

أومأ كولين في مكر، ودار برأسه نحو مدخل قاعة الرقص.

- لقد رأيته يدخل من هنا قبل أقل من خمس عشرة دقيقة.

ضاقت عينا دافني في ريبة، وقالت:

- هل تخدعني؟ لقد أخبرني بنفسه بالتحديد أنه لم يخطط للحضور هذه الليلة.

- ومع ذلك أتيتِ؟

وضع كولين يديه الاثنتين على وجنتيه وادَّعى المفاجأة، فأجابت دافني على الفور:

- بالتأكيد سأحضر. إن حياتي لا تدور حول هاستنجز.

- حقًّا؟

اجتاح دافني شعورٌ بأنه لم يكن يمزح معها، فأجابته:

- أجل، لا تدور حوله.

كانت الكذبة تخرج من بين أسنانها دون أن تحرك فكيها. الحقيقة هي أن حياتها ربما لا تدور حول سايمون، لكن أفكارها بالتأكيد كانت مشغولةً به.

فجأةً تحوَّلت النظرة في عيني كولين الخضراوين إلى نظرةٍ جادة على نحوٍ غير معهود.

- لقد ساء الأمر معكِ، أليس كذلك؟

- ليست لديَّ فكرة عما تقصده.

فابتسم كولين متعمدًا كما لو أنه يعلم شيئًا، ثم قال:

- ستعرفين قريبًا.

- كولين!

- أما في الوقت الحالي -وأشار برأسه مجددًا إلى مدخل قاعة الرقص- لماذا لا تذهبين للبحث عنه؟ من الواضح أن رفقتي المفعمة بالحيوية تحتضر إن قارنتها برفقته. ويمكنني أن أرى أن قدميكِ قد ابتعدتا عني بالفعل بما يزيد على خطوتين.

ارتعدت دافني من مجرد التفكير في أن جسدها كان على استعداد لخيانتها بتلك الطريقة، ونظرت إلى قدميها.

- أجل! لقد جعلتكِ تنظرين إلى أسفل.

أجابت دافني بطريقة آلية:

- كولين بريدجرتون! أقسم أحيانًا إنني أجد عمرك لا يزيد على ثلاثة أعوام.

فقال كولين مفكرًا:

- تصوُّر مُدهِش، ويمكن للمرء أن يضعكِ في عمر مبكر عن ذلك؛ مثل عامٍ ونصف يا شقيقتي الصغيرة.

ولعجزها الشديد عن الإتيان بجوابٍ سريعٍ قاطع، اكتفت دافني بإلقاء نظرةٍ عابسة سوداوية إلى شقيقها. لكن كولينَ قابل نظرتها بضحكة عالية، ثم قال:

- بالتأكيد هذا تعبير وجهٍ جَذَّاب جدًّا، لكنه تعبيرٌ ربما ترغبين في إخفائه؛ فصاحب الجلالة الفَتَّاك مُتَّجِهٌ نحونا.

رفضت دافني أن تقع في شَرَكِ ألاعيبه هذه المرة. فلم تكن لتسمح له بأن يجعلها تنظر مثل المرة السابقة. إلا إن كولين مال نحوها إلى الأمام وهمس بنبرة تآمرية:

- هذه المرة أنا لا أمزح، داف.

ما زال وجه دافني عابسًا.

وضحك كولين ضحكة خافتة.

- دافني!

حتى أتى صوت سايمون من جانبها تمامًا.

التفتت دافني حولها بسرعة، وصارت ضحكات كولين أكثر ودًّا، ثم قال:

- ينبغي لكِ حقًّا أن تثقي أكثر في شقيقكِ المفضل، يا أختي.

- هو –كولين– شقيقكِ المفضل؟

سألها سايمون بينما رفع أحد حاجبيه الداكنين في تشكيك.

- فقط لأن جريجوري قد وضع ضفدع الطين في فراشي الليلة الماضية، أما موقف بيندكت؛ فلم يتحسن قط منذ اللحظة التي اقتلع فيها رأس دميتي المفضلة.

فتمتم كولين قائلًا:

- هذا يجعلني أتساءل عما فعله أنطوني حتى يستحق هذا الإنكار، وتتجنبين حتى مجرد ذكره بطريقة جديرة بالاحترام.

فسألته دافني في جزع:

- أليس هناك مكانٌ آخر تود الذهاب إليه؟

رفع كولين كتفيه في لا مبالاة:

- ليس تمامًا.

فقالت دافني وهي تعض على أسنانها غضبًا:

- ألم تخبرني للتو أنك قد وعدت بروديس فيذرنجتون بالرقص معها؟

- يا إلهي! كلا، لا بد أنكِ قد أسأتِ الفهم.

- ربما كانت أمي تبحث عنك إذن. في الحقيقة، أنا واثقةٌ من أنني سمعتها تنادي باسمك.

ضحك كولين ساخرًا من ضيقها، وقال:

- ليس من المفترض أن يكون سلوككِ ظاهرًا إلى هذا الحد.

ثم أضاف بهمسةٍ مسرحية، متعمدًا أن يكون صوته مرتفعًا حتى يسمعه سايمون:

- سيكتشف هكذا أنكِ مُعجبةٌ به.

في تلك اللحظة، ارتجَّ جسد سايمون بأكمله بهجةً ونشوة بالكاد كان قادرًا على إخفائها.

فأجابت دافني بنبرةٍ لاذعة:

- إن صحبته ليست ما أحاول الفوز به، بل صحبتك أنت ما أحاول تجنبه.

صكَّ كولين صدره بإحدى يديه، وقال:

- لقد جَرَحتِ قلبي، داف.

ثم التفت نحو سايمون وقال:

- أوه، كيف جَرَحتْ قلبي بتلك الطريقة؟

قال سايمون بلُطف:

- لقد نَسيتَ رقصتك، بريدجرتون. يجب أن تكون واقفًا في قاعة الرقص الآن.

- فكرةٌ جيدة، لكنها بالتأكيد فكرةٌ ستجعل أمي على وشك الإغماء.

أجاب كولين ثم اشتعلت عيناه في مرح، ثم أكمل حديثه:

- والآن، هذه فكرة جيدة. تمامًا عندما صار الحفل مُمِلًّا. ليلة سعيدة لكما!

وانحنى كولين في لباقة، ثم سار مبتعدًا عنهما.

مكث كلٌّ من دافني وسايمون صامتين لفترةٍ إذ كانا يشاهدان كولين يختفي بين الجموع. حتى كسرت دافني حاجز الصمت، وقالت في رقة:

- الصرخة القادمة ستكون حتمًا صرخة أمي.

- وصوت الارتطام سيكون صوت جسدها الذي سقط على الأرض فاقدًا الوعي؟

أومأت دافني بينما ظهر شبح ابتسامة نافرة على شفتيها.

- ولكن بالتأكيد...

ثم انتظرت لحظة طويلة قبل أن تضيف:

- لم أكن أتوقع مجيئك هذه الليلة.

رفع كتفيه في لا مبالاة، فتجعَّدت قليلًا القماشة السوداء التي صُنِعَت منها سُترَته المسائية بفعل حركته، ثم قال:

- كنتُ أشعرُ بالملل.

- كُنتَ تشعر بالملل، لذلك قررت قطع كل هذا الطريق إلى هامبستيد هيث لحضور الحفل السنوي الذي تقيمه ليدي تروبريدج؟

ورفعت دافني حاجبيها في ذهول وتساؤل.

كانت هامبستيد هيث تقع على بعد سبعة أميالٍ من مايفير[1]، ويستغرق الطريق ساعةً على الأقل بالعربة في أفضل الظروف المناخية والمرور السلس، ويستغرق المزيد في ليلةٍ مثل هذه الليلة، عندما يشغل الوسط الرفيع بأكمله جميع الطُرُق.

ثم أضافت دافني:

- اعذرني إن بدأتُ في التشكيك في قواكَ العقلية.

فتمتم سايمون مجيبًا:

- لقد بدأتُ أشكك فيها أنا أيضًا.

فقالت دافني بارتياح:

- حسنًا، على أي حال، أنا سعيدةٌ لأنك هنا؛ لقد كانت ليلة مُريعَة.

- حقًّا؟

أومأت دافني وقالت:

- لقد كنتُ أعاني من كثرة الأسئلة عنك.

- حسنًا، الآن صار الموضوع مثيرًا للاهتمام.

- أرجو أن تُعِيدَ التفكير مجددًا. لنَرَ... أول شخصٍ استجوبني كان أمي، وكانت تريد أن تعلم لماذا لا تزورني بعد الظهيرة قط.

عبس سايمون ثم قال:

- هل تعتقدين أن هذا الأمر ضروري؟ لقد كنت أعتقد أن اهتمامي الكامل بشؤون تلك الأمسيات سيكون كافيًا لإتمام الحيلة.

اندهشت دافني من ردة فعلها، إذ تمكنت من ألَّا تتذمر في غضب. لم يكن في حاجة إلى أن يجعل الأمر يبدو مثل عملٍ رتيب.

- إن اهتمامك الكامل سيكون كافيًا لخداع أي شخص إلا أمي. وربما لم تكن لتتحدث في أي شيء، إلا إن خبر زياراتك القليلة قد ذُكِرَ في جريدة ويسلداون.

- حقًّا؟

---

(1) منطقة مايفير Mayfair تقع في ضاحية وسط لندن، على الحافة الشرقية لحديقة هايد بارك. وهي واحدة من أغلى الضواحي في لندن والعالم بأكمله. (المترجم)

سأل سايمون في اهتمام شديد.

- أجل. لذلك من الأفضل الآن أن تأتي للزيارة غدًا، وإلا سيبدأ الجميع في التساؤل وإثارة الشكوك.

فتمتم سايمون مجيبًا:

- أود أن أعرف من هم جواسيس تلك المرأة، ثم سأعيِّنهم للتجسس من أجلي.

- وفِيمَ تحتاج إلى الجواسيس؟

- لا شيء. لكن يبدو مؤسفًا أن ندع تلك الموهبة المتميزة تضيع هباءً.

تردد الشك في قلب دافني في أن ليدي ويسلداون الأسطورية ستوافق على أن أي موهبة ستضيع هباءً. لكنها لم تُرِد على وجه الخصوص أن تتوغل في مناقشة حول مزايا وعيوب تلك الجريدة، لذلك اكتفت دافني برفع كتفيها في عدم اكتراثٍ لتعليقه. وتابعت حديثها:

- وبعد ذلك، بمجرد أن أنهت أمي حديثها معي، بدأ الآخرون جميعًا، وكانوا أسوأ مما كانت عليه أمي.

- فليحمنا اللهّ!

ألقت دافني نظرةً لاذعةً إلى وجهه وقالت:

- كان جميع السائلين إناثًا عدا واحدًا فقط، وعلى الرغم من أنهم جميعًا قد أعربوا عن سعادتهم بشدة من أجلي، إلا إنه كان من الواضح أنهم يحاولون استنتاج احتمالية حدوث خطبتنا.

- أعتقد أنكِ قد أخبرتِهم جميعًا أنني غارقٌ في حبكِ بجنون؟

شعرت دافني بشيء يختلج في صدرها فجأةً، قبل أن تجيب كاذبةً:

- أجل.

وبابتسامة عريضة لطيفةٍ للغاية تابعت:

- ففي نهاية الأمر، أحتاج إلى بناء سمعتي.

ضحك سايمون وقال:

- إذن من هو الرجل الوحيد الذي سأل عني؟

تغيرت قسمات وجه دافني كنايةً عن عدم رضاها، قبل أن تجيب:

- في الحقيقة كان دوقًا آخر، رجل عجوزٌ غريب، ادَّعى أنه كان صديقًا لوالدك.

خيَّم الضيق على وجه سايمون فجأة.

واكتفت دافني بأن رفعت كتفيها في حيرة؛ فلم تكن قد لاحظت التغيير الذي طرأ على تعبيرات وجهه بعد، لذلك تابعت:

- استرسل في الحديث كثيرًا عن والدك، وعن طباعه التي جعلته دوقًا جيدًا كما يقول.

وأطلقت دافني ضحكة خافتة إذ كانت تحاول تقليد صوت الرجل العجوز، فقالت:

- لم تكن لديَّ أدنى فكرة عن أنكم أيها الدوقات عليكم أن تترقبوا وتتفحَّصوا بعضكم بعضًا بهذا القدر. ففي نهاية الأمر، لا نرغب في أن يأتي دوقٌ غير كُفء يُسيء إلى سمعة اللقب.

ما زال الصمتُ مخيمًا على لسان سايمون.

نقرت دافني بإصبعها على خدها في وضع التفكير، وقالت:

- هل تعلم أنني لم أسمعك تتحدث عن والدك قط؟

فأجاب سايمون باقتضاب:

- هذا لأنني اخترت ألا أتحدث عنه.

فطرفت عينا دافني في قلقٍ قبل أن تقول:

- هل هناك مشكلة؟

فأجاب سايمون في نبرة صوتٍ مبتورة:

- لا شيء على الإطلاق.

- أوه.

وفي تلك اللحظة أدركت دافني أنها تقضم على شفتها السفلية، حتى أجبرت نفسها على التوقف، وأضافت:

- لن أذكر الأمر إذن.

- لقد قُلتُ إنه لا مشكلة.

حافظت دافني على تعبيرات وجهها فاترة، وقالت:

- بالتأكيد.

كان صمت طويل مُزعج قد خيَّم عليهما مجددًا. وبشعورٍ غريب حَرِج، كانت دافني تجذب برفقٍ قماش تنورتها، قبل أن تقول أخيرًا:

- لطيفة هي الزهور التي استخدمتها ليدي تروبريدج من أجل الزينة، ألا تعتقد ذلك؟

تتبع سايمون حركة يدها نحو باقة كبيرة من الزهور الوردية والبيضاء، ثم قال:

- أجل.

- أتساءل إن كانت هي من زرعت تلك الزهور ورعتها.

- ليست لدي أدنى فكرة.

وخيَّم صمتٌ مُربِك آخر على حديثهما.

- الاعتناء بالزهور أمرٌ صعبٌ للغاية.

هذه المرة لم يتجاوز رده صَوتَ نخير خافت بالموافقة.

تنحنحت دافني، ثم سألته عندما لم يكلف نفسه حتى عناء النظر إليها:

- هل جربت عصير الليمون؟

- لا أتناول عصير الليمون.

فأجابت دافني على الفور، وقررت أنها قد اكتفت من مزاجه الحاد:

- حسنًا، أنا أشرب الليمون، وأشعر بالعطش أيضًا. إذن فلتسمح لي؛ سأذهب لإحضار كأس من العصير لنفسي، وسأتركك ومزاجك العَكِر بمفردكما. أنا واثقةٌ أنك ستجد شخصًا أكثر تسلية مني.

والتفتت دافني لتغادر الزاوية، ولكن قبل أن تتمكن حتى من أخذ خطوةٍ واحدة، شعرت بيدٍ ثقيلة تستقر على ذراعها. نظرت إلى أسفل، مأخوذةً للحظةٍ بمشهد يديه المغطاتين بالقفازين الأبيضين تستقران على الحرير الخَوخِيِّ لفستانها. وحدَّقت دافني إلى يديه دون حراك. ربما كانت تنتظر حركة يديه، أن يتحسس بيده طول ذراعها حتى يصل إلى بشرتها العارية عند مرفقها.

لكنه بالطبع لم يفعل ذلك، بل يفعل تلك الأمور في أحلامها فحسب.

وأخيرًا نطق سايمون قائلًا:

- دافني، أرجوكِ أن تستديري.

كان صوته خافتًا، لكن الحِدَّةَ في صوته جعلت جسدها يقشعر.

التفتت دافني نحوه، وفي اللحظة التي التقت فيها أعينهما قال:

- أرجو أن تقبلي اعتذاري.

أومأت دافني بالموافقة، واكتفت بذلك. وعلى الجانب الآخر؛ بدا من الواضح أن سايمون كان في حاجة إلى شرح المزيد عن تصرفه، فقال:

- لم أكن...

وتوقف ليسعل بهدوء في قبضته، قبل أن يُكمِل:

- لم أكن على وِفاقٍ مع والدي. أنا... أنا لا أحب الحديث عنه.

حدَّقت دافني إليه في دهشة. لم تكن قد رأته من قبل عاجزًا عن نطق الكلمات بتلك الطريقة.

أطلق سايمون تنهيدة عصيبة. حينها فكَّرت دافني أن الأمر بدا غريبًا، لأن سايمون بدا غاضبًا من نفسه.

- عندما ذَكَرتِ سيرته...

توقف سايمون وهزَّ رأسه، كما لو أنه قد قرر تجربة سبيل مختلفة للحديث، ثم تابع:

- استحوذ الأمر على تفكيري، وقد عَجزتُ عن أن أكُفَّ عن التفكير في أمره. جعـــــــــ... جعـــــــــ... جعلني الأمر شديد الغضب.

- أنا آسفة.

قالت دافني. وكانت على علمٍ بأن حيرتها لا بد وأن تظهر على وجهها تمامًا. وفكرت في أن عليها أن تقول شيئًا آخر، لكنها لم تكن تعلم أي الكلمات تستخدم في هذا الموقف.

- لَستُ غاضبًا منكِ.

أجاب سايمون على الفور.

وبينما كانت عيناه الزرقاوان الشاحبتان تتطلعان إليها، بدا واضحًا أن فيهما شيئًا آخر. كان وجهه قد سكن في هدوءٍ أيضًا، خاصة تلك التجاعيد التي ظهرت على جانبي فمه. ثم ابتلع ريقه في صعوبة، قبل أن يقول:

- أنا غاضبٌ من نفسي.

فأجابت دافني برقة:

- ومن الواضح أنك غاضبٌ من والدك أيضًا.

لم يُجِب سايمون بشيء تلك المرة، وأدركت دافني أنها لم تكن تتوقع منه أن يجيب. كانت يده لا تزال مستقرةً على ذراعها، فربتت بيدها على يده، وسألت بلُطف:

- هل تود استنشاق بعض الهواء المنعش؟ تبدو وكأنك في حاجة إليه.

فأومأ سايمون بالإيجاب، ثم قال:

- ابقَي أنتِ هنا. سيقطع أنطوني رأسي إذا اصطحبتُكِ إلى الشرفة.

- يمكن لأنطوني أن يقول ما يشاء، لا أهتم.

وزمَّت شفتيها قليلًا في نوبة غضبٍ مفاجئة قبل أن تُكمِل:

- لقد مَلَلتُ من مراقبته المستمرة على أي حال.

- كل ما يحاول أنطوني فعله هو أن يكون أخًا جيدًا لكِ.

انفرجت شفتاها في ذهول وسألته:

- مع أي جانب أنت؟

تجاهل سايمون سؤالها ببراعة، وقال:

- حسنًا، لكنها ستكون نزهة قصيرة. يمكنني أن أتولى أمر أنطوني، ولكن إن قرر الاستعانة بأشقائك الآخرين، فأنا رجلٌ ميت لا محالة.

كان هناك بابٌ جانبي يؤدي إلى الشرفة على بُعد عدة ياردات من مكان وقوفهما، فأومأت دافني له، وانزلقت يد سايمون إلى أسفل ذراعها، والتَفَّت حول انحناءة مرفقها.

قالت دافني:

- أعتقد أن هناك دزينةً من الأزواج يتسكعون في الشرفة على أي حال. لن يكون هناك شيء يشتكي منه.

ولكن قبل أن يتمكنا من شق طريقهما نحو الخارج، تردد صوتٌ ذكوريٌّ صاخب من خلفهما مناديًا:

- هاستنجز!

توقف سايمون، ثم التفت نحوه، وأدرك متجهمًا أنه قد اعتاد هذا الاسم، وفي غضون وقتٍ قصير سيتعامل مع هذا الاسم على أنه اسمه. وبطريقة ما أصابه هذا الاعتقاد بالإعياء.

كان المنادي رجلًا عجوزًا يستند على عكازه، ويسير متعرِّجًا في طريقه إليهما.

- هذا هو الدوق الذي أخبرتك عنه، دوق ميدلثورب حسب ما أعتقد.

أومأ سايمون باقتضاب، فلم تكن لديه أدنى رغبةٍ في الحديث.

- هاستنجز!

قال الرجل العجوز وهو يربت بيده على ذراع سايمون. ثم تابع:

- لقد كُنتُ أرغب في التعرف إليك منذ وقتٍ طويل. أنا ميدلثورب. كان والدك أحد أصدقائي الأعزاء.

أومأ سايمون مُجددًا، وكانت حركته ذات دقة عسكرية.

- لقد افتقدك كثيرًا عندما كُنتَ بالخارج في ترحالك.

بدأت نوبة غضب تشق طريقها في ملامح وجهه؛ كان غضبًا شديدًا جعل لسانه يتورم وخديه ينقبضان في صلابة. وكان يعلم جيدًا بما لا يدعُ مجالًا للشك أنه إذا حاول الحديث في تلك اللحظة، سيبدو تمامًا في تلك الحالة التي كان عليها عندما كان فتًى في الثامنة من عمره. وكان من المستحيل أن يُحرِجَ نفسه بتلك الطريقة أمام دافني.

بطريقة ما -لم يعلم قط كيف يحدث معه ذلك، أو ربما كان ذلك لأنه لم يكن يعاني من أي مشكلة في نطق الحروف المتحركة بخلاف الحروف في كلمة «أنا»- استطاع أن يجيب قائلًا:

- أوه!

وكان سعيدًا بأن نبرة صوته قد خرجت في حدةٍ وتواضع.

ولكن إن كان الرجل العجوز قد لاحظ الحنق في نبرة صوته، فما كان ليفعل شيئًا حيال الأمر.

ثم قال ميدلثورب:

- لقد كُنتُ بجانبه عندما تُوفي.

ظل سايمون صامتًا دون جواب.

فاندفعت دافني -بارك الله فيها- إلى المشادَّة الكلامية بعبارات تعاطف وود، فقالت:

- يا إلهي!

- وطلب مني أن أخبرك ببعض الرسائل التي وجهها إليك، فلديَّ في منزلي العديد من الخطابات.

فأجاب سايمون قائلًا:

- أحرِقهُم.

شهقت دافني، وأمسكت ذراع ميدلثورب وقالت:

- كلا، كلا، لا تفعل ذلك. ربما لا يرغب في رؤيتهم الآن، لكنه بالتأكيد سيغير رأيه في المستقبل.

هاجمها سايمون بنظرةٍ باردة عنيفة، قبل أن يلتفت إلى ميدلثورب قائلًا:

- لقد قُلتُ أحرِقهُم.

- أنا... آه...

بدا ميدلثورب في جوابه يائسًا في حيرة من أمره. لا بد وأنه كان على علمٍ بأن باسيت الأب والابن كانا على خِلافٍ دائم. لكن من الواضح أن الدوق الراحل لم يكشف له الحقيقة المُرَّة لهذا العداء. تطلع الدوق العجوز إلى دافني -مُميزًا في شخصها حليفًا مُحتَمَلًا- وقال لها:

- بالإضافة إلى الخطابات، هناك أشياء طلب مني الدوق الراحل أن أخبره بها. ويمكنني أن أخبره بها الآن.

لكن سايمون كان قد ترك ذراع دافني بالفعل وسار ببطء إلى الخارج.

- أنا آسفة للغاية. أنا واثقة من أنه لا يقصد أن يكون وقحًا.

هكذا قالت دافني لميدلثورب، فقد كانت تشعر بالحاجة إلى الاعتذار عن سلوك سايمون البغيض.

لكن تعبير وجه ميدلثورب كان يخبرها بمعرفته الجيدة بأن سايمون يقصد أن يكون وقحًا.

وعندها أضافت دافني:

- إن الأمر حساسٌ بالنسبة إليه عندما يكون الحديث عن والده.

أومأ ميدلثورب وقال:

- لقد حذرني الدوق من أن ردة فعله ستكون على تلك الشاكلة. لكنه ضحك عندما قال ذلك، ثم سرد مزحة حول فخر عائلة باسيت وكبريائهم. يجب أن أعترف أنني لم أعتقد قط أنه كان جادًّا تمامًا.

تطلعت دافني بانزعاج إلى الباب المفتوح على الشرفة، وتمتمت قائلة:

- من الواضح أنه كان جادًا. من الأفضل أن أذهب إليه الآن.

أومأ ميدلثورب موافقًا، وأضافت دافني:

- أرجوك، لا تُحرِق تلك الخطابات.

- لن أفكر حتى في الأمر. لكن...

كانت دافني قد أخذت خطوةً نحو باب الشرفة، والتفتت عائدةً إلى النبرة المتعثرة لصوت الرجل العجوز، وسألته:

- ماذا هناك؟

فأجاب ميدلثورب:

- أنا لَستُ بصحةٍ جيدة. أنا... يقول الأطباء إن الأمر قد يحدث في أي وقتٍ الآن. هل يمكنني أن أضع الخطابات في أمانتك؟

حدَّقت دافني إلى الدوق بخليطٍ من مشاعر الصدمة والرعب؛ الصدمة لأنها لا تصدق أنه قد يضع تلك المراسلات الشخصية في أمانة امرأة شابة لم يعرفها إلا قبل ساعة من الآن، والرعب لأنها تعرف جيدًا أنها لو قبلت تلك الخطابات، فربما لن يسامحها سايمون قط.

ثم أجابت دافني بصوتٍ متوتر:

- لا أدري. لَستُ واثقةً إن كُنتُ أنا الشخص المناسب.

تغضَّنت عينا ميدلثورب العجوزتين بالحكمة، وقال بلُطف:

- أعتقد أنكِ ستكونين الشخص المناسب تمامًا. وأؤمن أنكِ ستعرفين متى يكون الوقت المناسب حتى تقدمي إليه تلك الخطابات. هل لي أن أبعث بها إليكِ؟

أومأت دافني موافقةً في صمت، فلم تكن تعلم شيئًا آخر لتفعله.

رفع ميدلثورب عكازه وأشار به إلى الشرفة، ثم قال:

- من الأفضل أن تذهبي إليه.

تفهَّمت دافني نظرته وأومأت في تحية، ثم اندفعت إلى الخارج. كانت الشرفة الخارجية مُضاءة ببضعة مصابيح مُعَلَّقة في حوامل جدارية، ولم تتمكن دافني من رؤية سايمون يقبع في إحدى الزوايا إلا بمساعدة ضوء القمر الساطع في تلك الليلة. كانت خطواته واسعة وغاضبة، وكانت ذراعاه معقودتين على صدره. كان يتطلع بعينين فارغتين إلى البستان مترامي الأطراف، الذي كان يمتد أمام الشرفة. لكن دافني قد انتابها شكٌّ صادق في أن يكون قد لاحظ شيئًا بخلاف مشاعره الغاضبة.

تحركت دافني في صمتٍ نحوه، وقد استقبلها نسيمٌ بارد بعدما غادرت الهواء الدافئ المُعَبَّق بالروائح في قاعة الرقص المزدحمة. وكانت همهماتٌ خفيفة تصل إليها في أجواء المساء الهادئة من أماكن مختلفةٍ حولها، تؤكد لها أنهما ليسا بمفردهما في الشرفة. لكن دافني لم ترَ أحدًا على الضوء الخافت. كان من الواضح أن الضيوف الآخرين قد اختاروا عزل أنفسهم في الأركان المظلمة، أو ربما كانوا قد اتخذوا خطواتهم إلى الأسفل نحو الحديقة، وكانوا ماكثين على المقاعد بالأسفل.

وبينما كانت دافني تسير نحوه، فكرت في شيء تقوله مثل: «لقد كُنتَ وقِحًا تمامًا عند حديثك مع الدوق»، أو ربما: «لماذا أنت غاضبٌ إلى هذا الحد من والدك؟» لكنها في النهاية قررت أن الوقت لم يكن مناسبًا حتى تُقحِمَ نفسها في مشاعر سايمون، ولذلك عندما وقفت بجانبه، اتكأت على الدرابزين، وقالت:

- أتمنى لو أمكنني أن أرى النجوم.

تطلع سايمون إليها، في دهشة أولًا، ثم تحوَّلت نظرته إلى فضول، فتابعت دافني:

- لا يمكنك أن ترى النجوم في لندن أبدًا.

كانت قد قررت الحفاظ على نبرة صوتها خافتة عن عمد. ثم أكملت أيضًا:

- إما أن تكون الأضواء زاهية للغاية، وإما أن يزحف الضباب على امتداد السماء. وإما أن يكون الهواء مُلوَّثًا أحيانًا فلا تتمكن من أن ترى خلاله.

رفعت دافني كتفيها في استهجان، وتطلعت بناظريها إلى السماء، التي كانت مُلَبَّدة بالغيوم في تلك اللحظة، ثم تابعت:

- لقد كُنتُ أتمنى أن أراها هنا في هامبستيد هيث، ولكن للأسف، لم تتعاون الغيوم لتحقيق حلمي.

كان ثمة فراغ طويل من الصمت، ثم تنحنح سايمون وسألها:

- هل تعلمين أن النجوم مختلفةٌ تمامًا في النصف الجنوبي من الأرض؟

لم تكن دافني تُدرِك كم كانت متوترة، حتى شعرت بسائر جسدها يهدأ عند سؤاله. كان من الواضح تمامًا أنه يحاول جاهِدًا أن يعيد الأمسية إلى سابق عهدها، وقد كانت دافني سعيدة حين سمحت له بذلك. فتطلعت إليه متسائلةً وقالت:

- أنت تمزح.

- لا أمزح. ابحثي عن الأمر في أيٍّ من كُتُبِ علم الفلك.

- مممممم!

ثم تابع سايمون حديثه بصوتٍ أقل تَكَلُّفًا إذ كان قد شق طريقه في الحديث حتى عادت الأجواء إلى سابق عهدها:

- الأمر المثير للاهتمام هو أنه حتى وإن لم تكوني عالمة فلك –وأنا لَستُ بعالم فلك–...

فقاطعته دافني بابتسامة استنكارية:

- ومن الواضح أنني لَستُ كذلك أيضًا.

رَبَّت سايمون على إحدى يديها مبتسمًا، فلاحظت دافني بارتياح أن السعادة قد عادت أخيرًا إلى عينيه. ثم تحوَّل شعورها بالارتياح إلى شيء أكثر قيمة وأعز على القلب؛ الفرح، لأنها كانت الشخص الذي يطارد الظلال في عينيه حتى اختفت جميعها. وأدركت أنها أرادت أن تبدد تلك الغيوم التي تغطي عينيه إلى الأبد. فقط إذا سمح لها بذلك.

ثم قال:

- لقد لاحظت الفرق على أي حال، وهذا هو أكثر الأمور غرابة. لم أهتم قط بالاطلاع على الكويكبات، ومع ذلك، عندما كُنتُ في إفريقيا، نَظَرتُ إلى السماء، وكانت سماء الليل شديدة الصفاء. أقسم إنكِ لم تَرَي ليلةً مثل تلك قط.

حدَّقت دافني إلى وجهه باندهاش وإعجاب.

ثم تابع سايمون حديثه بهزَّة مرتبكةٍ من رأسه وقال:

- تَطَلَّعتُ إلى السماء آنذاك، وبدا لناظري أن هناك شيئًا خاطئًا.

- كيف يمكن للسماء أن تبدو في حالة من الخطأ؟

رفع سايمون كتفيه في استسلام، ورفع إحدى يديه في إيماءة غير معروفة، ثم قال:

- هذا ما بدا لي. كانت جميع النجوم في مواضع خاطئة.

فأجابت دافني في تَفَكُّر:

- أعتقد أنني راغبةٌ في رؤية السماء في النصف الجنوبي من الأرض. لو كُنتُ فتاةً غريبة جسورة مُفعَمةٌ بالحيوية، وكُنتُ من هذا النوع من النساء الذي يُنشِدُ الرجال من أجله الشِعر، فأعتقد أنني كنت سأرغب في الترحال.

- أنتِ هذا النوع من النساء الذي يُنشِدُ الرجال من أجله الشعر. كل ما في الأمر أنه كان شِعرًا سيئًا.

كان سايمون يُذَكِّرها بما حدث من قبل وقد مالَ رأسه قليلًا في سخرية.

ضحكت دافني ثم قالت:

- أوه، أرجوك لا تشاكسني، لقد كان أمرًا ممتعًا؛ فقد كان يومي الأول وقد جاءني ستة زائرين، وقد كتب نيفيل بينسبي الشعر من أجلي حقًّا.

فأجاب سايمون مصححًا:

- سبعةُ زائرين من بينهم أنا.

- سبعة من بينهم أنت. ولكنك لا تُحسَب في الحقيقة.

- لقد جَرَحتِ قلبي.

قال سايمون مُشاكِسًا وقد كان يُقلِّد كولين في ردوده قليلًا، ثم تابع:

- أوه! كيف لَكِ أن تجرحيني؟

- ربما عليك أن تفكر في البحث عن عملٍ في المسرح أيضًا.

- ربما لا أحتاج إلى ذلك.

ابتسمت دافني في رقةٍ وقالت:

- ربما لا تحتاج إلى ذلك. لكن ما كُنتُ سأقوله هو أنني فتاةٌ إنجليزيةٌ مُمِلَّة، ليست لدي أي رغبةٍ في الذهاب إلى أي مكان. أنا سعيدةٌ هنا.

هزَّ سايمون رأسه، فلاح ضوءٌ لامع مثل وميضٍ كهربي في عينيه، وقال:

- كلا، لَستِ مُملَّة. إلى جانب –وخفت صوته إلى همساتٍ حانية– أنني سعيدٌ بسعادتك. لم أقابل في حياتي أُنَاسًا كثيرين يشعرون بسعادةٍ حقيقية.

تطلعت دافني إليه وقد اتضح لها رويدًا أنه قد اقترب منها. وبطريقة ما انتابها شكٌّ في أنه قد أدرك الأمر حتى، لكن جسده كان يتمايل نحوها، وقد وجدت أنه من المستحيل تقريبًا أن تُبعِدَ عينيها عنه.

فهمست قائلة:

- سايمون؟

فأجابها بصوتٍ ثقيل مختنق في غرابة:

- ثَمَّة أُناسٌ حولنا.

استدارت دافني برأسها إلى أركان الشرفة، فكانت الأصوات الهامسة التي سمعتها من قبل قد اختفت، لكن هذا قد يعني أن جيرانهم السابقين يسترقون السمع. من أمامها كانت الحديقة تُلوِّح لها وتُغريها. وفكرت في أنه إذا كان هذا الحفل مُقامًا في لندن، فلن يكون هناك أي مكانٍ تذهب إليه أمام الشرفة، لكن ليدي تروبريدج تعتز بنفسها وتفخر دائمًا باختلافها، ولذلك دائمًا ما تستضيف حفلها الراقص السنوي في منزل إقامتها الثاني في هامبستيد هيث. كان المنزل يقع على بعد أقل من عشرة أميال عن مايفير، لكنه أيضًا في عالمٍ آخر مختلف تمامًا. تبدو المنازل الأنيقة مثل نقاطٍ منتشرة على طول المساحات الخضراء، وفي حديقة ليدي تروبريدج، كانت تنتشر الأشجار، والزهور، والشجيرات، والأسيجة، والأركان المظلمة التي يمكن أن يفقد فيها الحبيبان شعورهما بالزمان والمكان.

شعرت دافني وكأن شيئًا وحشيًّا وماكرًا يملك زمام أمرها، فقالت بلُطف:

- دعنا نتجول في الحديقة.

- لا يمكننا ذلك.

- يجب أن نفعل ذلك.

- لا يمكننا!

كانت الكلمات قد خرجت من بين شفتي سايمون في يأس.

وكان الإحباط في صوته قد أخبرها بكل شيء تحتاج إلى معرفته. لقد كان راغبًا فيها، كان مشتاقًا إليها، وكان مجنونًا بها.

شعرت دافني وكأن قلبها يدندن لحنًا من The Magic Flute [1]، وينقلبُ في رعونة، إذ يتعثر في النوتة الموسيقية العالية C.

وفكرت دافني: ماذا لو قَرَّرَت أن تُقَبِّله؟ ماذا لو سحبته إلى الحديقة ومالت برأسها إلى أعلى حتى تشعر بشفتيه تلامسان شفتيها؟ هل سيدرك حينها كم تحبه؟ ومقدار الحب الذي يمكنه أن يمنحها إياه؟ وربما -فقط ربما- سيدرك كم ستجعله سعيدًا. عندئذٍ ربما سيتوقف عن ترديد تفاهات إصراره على تجنب الزواج.

أعلنت دافني:

- أنا ذاهبة للتجوال في الحديقة. يمكنك أن تأتي إن كنت ترغب في ذلك.

وبينما كانت تسير مبتعدةً -رويدًا رويدًا حتى يمكنه أن يلحق بها- سَمِعَته يغمغم بسُبابٍ صادق من القلب، ثم سمعت خطواته تُنقِصُ المسافة بينهما.

- دافني، هذا جنون.

قال سايمون. ولكن الخشونة في صوته قد أخبرتها أنه يحاول جاهدًا إقناع نفسه بذلك أكثر من إقناعها به.

لم تُجِب دافني بشيء، واكتفت بأن تنزلق مبتعدةً في أعماق الحديقة.

- يا فتاة، توقفي هنا واسمعيني!

قبضت يده على رسغها، فاستدارت نحوه، ثم تابع في لهجةٍ عنيفة:

- لقد وَعَدتُ شقيقكِ، وألزَمتُ نفسي بعهد.

ابتسمت دافني ابتسامة امرأة تعلم جيدًا كم هي مرغوبة، ثم قالت:

- إذن غادر المكان.

- تعلمين أنه لا يمكنني. لا يمكنني أن أتركِكِ وحدكِ هنا في الحديقة دون حماية. ربما يحاول أحدهم استغلالكِ.

---

(1) أوبرا من تأليف موتزارت عام 1791م. (المترجم)

رفعت دافني كتفيها في أناقة ولا مبالاة، وحاولت أن تؤرجح يدها التي قبض عليها لتحررها من قبضته، لكن أصابعه لم تزدد إلا شدةً وانقباضًا على رسغها. ولذلك، وعلى الرغم من أنها كانت تعلم أن هذا لم يكن في خطته، إلا إنها سمحت لنفسها بأن تنجذب نحوه. وتحركت رويدًا مقتربةً منه، حتى لم يبقَ سوى قدمٍ واحد يفصل بينهما.

تباطأت رئتا سايمون حتى كاد أن يتوقف عن التنفس، ثم قال:

- لا تفعلي ذلك، دافني!

حاولت دافني أن تنطق شيئًا ظريفًا، حاولت أن تقول شيئًا مُغريًا وفاتنًا. لكن تظاهرها بالشجاعة واستعراضها قد خذلها في اللحظة الأخيرة. لم تكن دافني قد اختبرت ما تعنيه القُبلَةُ من قبل، والآن وقد فعلت كل شيء إلا أن تدعوه ليكون تجربتها الأولى، لم تكن تعلم ما الذي عليها فعله.

انبسطت أصابعه قليلًا حول رسغها، ثم قبضت عليه مرةً أخرى، لتجذبها نحوه بينما كان يقف مستقيمًا طويل القامة، مُختَبِئًا خلف سياجٍ منحوتٍ بإتقان.

هَمَسَ سايمون باسمها ولامس وجنتيها.

اتسعت عيناها، وانفرجت شفتاها.

وفي النهاية، كان الأمر حتميًا.

الفصل العاشر

14 من مايو 1813 **جريدة المجتمع**

كثيراتٌ هـــن النســـاء اللاتي انهارت
حياتهن من أجل قُبلَةٍ واحدة.

ليدي ويسلداون

لم يكن سايمون يدري في أي لحظةٍ تيقَّنَ أنه مُقبِلٌ على تقبيلها. ربما كان شيئًا لم يعرفه بالعلم، بل شيئًا قد شعر به فحسب.

حتى تلك اللحظة الأخيرة كان قادرًا على إقناع نفسه بأنه قد جذبها خلف السياج لتوبيخها وزجرها على هذا السلوك المستهتر الذي سيوقع بهما معًا في مشكلاتٍ خطيرة.

ثم وقع حدثٌ ما –أو ربما كان يحدث طوال الوقت– وكان سايمون يحاول جاهدًا ألا يلحظ ما يحدث. تبدَّلت النظرة في عينيها؛ فقد كانتا على وشك التوهُّج، ثم انفرجت شفتاها انفراجًا بسيطًا، بالكاد يكفي لتَنَفُّسِها، لكنه كان كافيًا ليعجز هو عن أن يرفع عينيه عنها.

تسللت يده مثل أفعى تشق طريقها على امتداد ذراعها، فوق النسيج الأملس الأبيض لقفازها، حتى وصلت إلى ذراعها العارية، ثم انتهى إلى الحرير الناعم لأكمامها القصيرة. وتسللت يده ملتفة إلى ظهرها، جاذبةً جسدها نحو جسده أقرب فأقرب، تُقَلِّص المسافة بينهما. كان يرغب فيها أقرب إليه، كان يرغب فيها تحيط به، تعتليه ويعتليها. كان شديد الرغبة فيها حتى اختلج قلبه خوفًا من عاقبة رغبته.

وبعدها، إذ تَدَلَّى رأسه مُقَرِّبًا شفتيه من صدرها العاري، ليُعلِنَها جائزته الخاصة تلك الليلة، سمع...

- أنت أيها اللعين!

تعرَّفت دافني إلى الصوت قبل أن يتعرَّف إليه سايمون، فصرخت وانتفضت مبتعدة.

قالت لاهثةً:

- أوه، يا إلهي! أنطوني!

كان شقيقها على بعد عشرة أقدامٍ فقط، وكان يجري نحوهما مُقَلِّصًا المسافة بينهم. كان حاجباه قد انعقدا حتى صار وجهه قناعًا من الغضب، والسخط، والضراوة. وبينما كان يلقي بنفسه مهاجمًا سايمون، أطلق صيحة مُحارِبٍ بدائيٍّ لا تُشبِهُ أي شيء قد سمعته دافني من قبل في حياتها. ولم تكن تلك الصيحة تشبه صيحة إنسانٍ في أي شيء.

كانت دافني تمتلك الوقت الكافي لتُنقِذَ نفسها قبل أن يصطدم جسد أنطوني بجسد سايمون بتلك القوة، التي طرحتها هي أيضًا أرضًا بسبب ركلةٍ من ذراع أحدهما.

- سأقتلك أيها الملعون...

أما عن بقية اللعنات العنيفة التي أطلقها أنطوني؛ فقد ضاعت في خضم المعركة التي قامت بينهما، إذ كان سايمون يقلب أنطوني على الأرض، منتزعًا الأنفاس من صدره.

- أنطوني، كلا! توقف!

صرخت دافني بينما لا تزال متشبثة بصدرية فستانها، على الرغم من أنها قد سحبتها لأعلى بالفعل، ولم يكن هناك خطر أن تسقط لأسفل ثانيةً.

لكن أنطوني كان رجلًا قد مسَّه الجنون، وقد ضرب سايمون بكل ما أوتي من قوة؛ فقد كان غضبه وسخطه باديين على ملامح وجهه، وعروق قبضتيه، وصيحات النخير الغاضبة البدائية التي تخرج منطلقةً من بين شفتيه.

أما فيما يتعلق بسايمون؛ فقد كان يدافع عن نفسه، لكنه لم يكن مهاجمًا قط. ودافني، التي كانت تقف جانبًا وتشعر بأنها حمقاء ضعيفة، فقد أدركت فجأة أن عليها التدخل لتفصل بينهما، وإلا فستكون النهاية حتمًا أن يقتل أنطوني سايمون، هنا، في حديقة ليدي تروبريدج. انحنت دافني إلى الأرض في محاولةٍ منها لإبعاد شقيقها عن الرجل الذي تحبه، لكن في تلك اللحظة

انقلب الرجلان فجأةً في حركة سريعة، فركعت دافني على ركبتيها قبل أن تنقلب مرتطمةً بالسياج.

- آآآآآآآآآآآآه!

صرخت دافني بتأوهٍ بينما كان الألم يطعن العديد من الأجزاء في جسدها أكثر مما كانت تعتقده ممكنًا. لا بد وأن صرختها قد حملت نبرةً حادة من الألم أكثر مما اعتقدت أن تسمح بخروجه من فمها، لأن كلا الرجلين قد توقف عن القتال على الفور.

- يا إلهي!

صرخ سايمون الذي كان راقدًا فوق أنطوني عندما سقطت دافني، وأسرع لمساعدتها. وإذ وصل إليها قال:

- دافني! هل أنتِ بخير؟

لم تجب دافني، بل اكتفت بتأوهاتٍ متفاوتة، وحاولت ألا تتحرك. كانت الأسلاك الشائكة للسياج تجرح جسدها، ومع كل حركة كانت تستطيل الخدوش التي أُحدِثت في جسدها.

- أعتقد أنها أُصيبت.

قال سايمون مُوجهًا حديثه إلى أنطوني، وكان صوته حادًّا ومُفعَمًا بالقلق. ثم أضاف:

- نحتاج إلى أن نرفعها بشكل مستقيمٍ تمامًا؛ فإذا فكرنا في قلبها، فثمة احتمال كبير بأن تعلق في تلك الأسلاك الشائكة.

أومأ أنطوني بإيماءة جادة مقتضبة، وكان قد وضع غضبه في تلك اللحظة جانبًا، على الأقل في الوقت الراهن؛ فقد كانت دافني تتألم، ويجب أن تكون سلامتها مُقدَّمةً على أي شيء.

قال سايمون برتمٍ هادئ، وكان صوته رقيقًا لطيفًا:

- تماسكي، داف. سأضع ذراعيَّ حولكِ، ثم أرفعكِ إلى أعلى بشكلٍ مستقيم وأسحبكِ إلى الخارج. هل تفهمينني؟

هزت دافني رأسها في رفضٍ وقالت:

- سَتَجرحُ نفسك.

- لا تقلقي بشأني، فأنا أرتدي أكمامًا طويلة.

وهنا قال أنطوني:

- دعني أقم بهذا الأمر.

لكن سايمون تجاهله تمامًا. وبينما كان أنطوني يقف عاجزًا بلا حيلة، وصل سايمون إلى الأسلاك الشائكة المتشابكة للسياج، وببطءٍ دفع يديه ذاتي القفازات خلال تلك الفوضى، محاولًا أن يحشر ذراعيه اللتين تغطيهما أكمام معطفه بين الفروع الشائكة وبين جسد دافني العاري المتألم. وعندما وصل إلى أكمام فستانها، كان عليه أن يتوقف حتى يحرر الأطراف حادة الشفرات من حرير فستانها. وكانت عدة فروع قد شقت طريقها خلال القماش وبرزت حتى وخزت بشرتها من الداخل.

- لا يمكنني أن أحرركِ تمامًا، سيتمزق فستانكِ.

أومأت في حركة مجنونة وقالت لاهثة:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- لا أهتم، لقد تمزَّق بالفعل.

- ولكن...

على الرغم من أن سايمون كان في مرحلة يسحب فيها نفس الفستان من صدرها حتى خصرها، إلا إنه ما زال يشعر بعدم الراحة من الإشارة إلى أن قماش الفستان كان على وشك أن ينكشف عن جسدها في اللحظة التي يتمزق فيها بفعل الفروع التي برزت خلال الحرير. وبدلًا من ذلك، التفت نحو أنطوني وقال:

- ستحتاج إلى مِعطفك.

وكان أنطوني يتحرر منه بالفعل.

التفت سايمون نحو دافني مجددًا، وثبَّت عينيه على عينيها وقال بلُطف:

- هل أنتِ مستعدة؟

أومأت دافني بالموافقة، وربما كان الأمر من صنع خياله، لكنه فكَّر في أنها تبدو الآن أقل هدوءًا من ذي قبل، بعد أن تركَّزت عيناها على وجهه. وبعد أن تأكد من تحرر جميع الفروع من قماش فستانها، دفع سايمون ذراعيه مجددًا نحو الأسلاك الشائكة، ثم أدار جسدها حتى تقابلت يداه وتشابكتا معًا خلف ظهرها.

- استعدي، عند العد حتى ثلاثة.

تمتم سايمون، فأومأت مجددًا وبدأت في العد:

- واحد... اثنان...

سحبها سايمون إلى الأعلى، ثم إلى الخارج، فكانت قوة الاندفاع كافية ليرتطما ببعضهما، ثم تمددا على الأرض.

صاحت دافني:

- لقد قُلتَ عند ثلاثة!

- كذبت. لم أرد أن أجعلكِ تتوترين.

ربما كانت دافني ترغب في بدء شِجارٍ معه، لكنها في تلك اللحظة بالذات أدركت أن فستانها صار كأسمال بالية، فتذمرت بضجيجٍ حاد إذ كانت ترفع ذراعيها لتغطي نفسها.

وهنا قال أنطوني:

- خذي هذا!

ثم دفع بِمعطفه إليها، فقبلته دافني بامتنان، والتفَّت في مِعطف أنطوني الفاخر. كان يناسبه تمامًا حد الكمال، أما وقد ارتدته دافني، فقد كان فضفاضًا للغاية، حتى كان بإمكانها أن تلتفَّ فيه.

وسأل أنطوني بنبرةٍ خشنة:

- هل أنتِ بخير؟

فأومأت دافني إيجابًا.

- جيد.

أجاب أنطوني، ثم التفت نحو سايمون وقال:

- شكرًا لكَ لإنقاذك إياها.

لم ينبس سايمون ببنت شفة، لكن ذقنه مال إلى الأسفل في عرفانٍ بملاحظة أنطوني. أما أنطوني؛ فقد عادت عيناه مجددًا نحو دافني، وقال:

- هل أنتِ متأكدة أنكِ بخير؟

- مجرد ألمٍ بسيط، وبالتأكيد سأحتاج إلى وضع مرهمٍ مُعالِج عندما أعود إلى المنزل، لكن لا شيء أعجز عن تحمله.

- جيد.

قال أنطوني مجددًا.

ثم سحب قبضته وصفقها في وجه سايمون على الفور، فطرح صديقه المتغافل أرضًا بسهولة.

بصق أنطوني وصرخ قائلًا:

- هذا من أجل تدنيس سمعة شقيقتي.

فصرخت دافني قائلة:

- أنطوني! توقف عن هذا الهُرَاء فورًا! إنه لم يُدنِّس سمعتي.

تأرجح أنطوني قليلًا، ثم تطلع إليها بعينين تحترقان من الغضب، وقال:

- لقد رأيتُ...

تقلَّصت معدة دافني، وللحظة خَشِيَت أن تُفرِغَ معدتها في تلك البقعة حقًّا. يا إلهي! لقد رأى أنطوني ثديها! شقيقها! هذا ليس أمرًا فطريًّا على الإطلاق.

صرخ أنطوني بصوت نخير واضح وقال:

- انهض، حتى يمكنني أن أضربك مجددًا.

- هل جُنِنت؟

صرخت دافني، وقفزت لتقف بينه وبين سايمون، الذي كان لا يزال مُمدَّدًا على الأرض ويده متشبثة بعينه المصابة.

ثم أضافت دافني:

- أنطوني، أقسم لك إذا ضربته مرةً أخرى، فلن أسامحكَ أبدًا.

دفعها أنطوني جانبًا، ولم تكن طريقته رقيقةً كما يقول الموقف. وقال كمن يطرد الكلمات من فمه:

- اللكمة القادمة من أجل خيانتك لصداقتنا.

في تلك اللحظة، وببطء شديد، حاول سايمون النهوض على قدميه. وقد كانت حركته صدمةً كبيرة لدافني.

- كلا!

صرخت دافني، وقفزت لتقف بينهما مرة أخرى.

- ابتعدي عن الطريق، دافني، هذا الأمر بيننا.

أمرها سايمون بلُطف.

- بالتأكيد لا يتعلق الأمر بكما! وفي حالة إذا لم يتذكر أحدٌ منكما، فأنا الشخص الذي...

توقفت دافني في منتصف الجملة. لم يكن هناك هدفٌ من الحديث؛ فلم يكن أي من الرجلين ينصت إليها على أي حال.

- ابتعدي عن الطريق، دافني.

جاء الأمر هذه المرة من أنطوني، الذي كان صوته هادئًا على نحو يثير الرعب. لم يكن حتى ينظر إليها عندما أملى عليها أوامره؛ فقد كانت عيناه مُرتكزتين فوق رأسها، مباشرة على عيني سايمون.

- يا لسخافة ما تفعلانه! ألا يمكننا أن نناقش الأمر جميعًا مثل أفرادٍ بالغين؟

نقلت عينيها بين سايمون وشقيقها، ثم التفتت برأسها نحو سايمون وقالت:

- فليرحمنا الله! سايمون! انظر إلى عينيك!

أسرعت دافني نحوه وحاولت الوصول إلى عينه، التي كانت قد تورَّمت بالفعل وانغلقت على نفسها. ظل سايمون هادئًا فاقدًا لأي إحساس، دون أن يحرك عضلة واحدة، حتى تحت تأثير لمستها القَلِقة. كانت أصابعها تتلمَّس عينه المتورِّمة وتتفحَّص البشرة حولها بلُطفٍ ساحر. كان لا يزال يتألم من أجلها، على الرغم من أن تلك المرة لم يكن يتألم رغبةً فيها. وشعرت بجانبه أنها على أفضل ما يُرام، شعرت أنها امرأةٌ في أحسن حال، تحظى بالتبجيل، ونقاء السريرة.

أما هو؛ فكان على وشك أن يفعل واحدًا من أكثر الأمور خِزيًا التي قد يفعلها في حياته كلها. فعندما ينتهي أنطوني من إفراغ عنفه، عندما ينتهي من غضبه، ويطالب أخيرًا بأن يتزوج سايمون من شقيقته، فإن سايمون قد قرر أن يرفض عرضه.

- ابتعدي عن الطريق، دافني.

قال سايمون وقد بدا صوته غريبًا في أذنيه.

- كلا، أنا...

- تحركي!

قال سايمون بصوتٍ جهوريٍّ مُخيف.

اندفعت دافني لتستند بظهرها على نفس السياج الذي عَلِقَت به، تتطلع في رُعبٍ نحو هذين الرجلين.

أومأ سايمون إلى أنطوني بشراسة وقال:

- اضربني.

بدا أنطوني مشدوهًا لطلبه.

- افعلها، أنهِ الأمر الآن.

تراخت قبضة أنطوني، ولم يحرِّك رأسه، لكن عينيه رفرفتا تبحثان عن دافني، ثم قال مندفعًا:

- لا يمكنني، ليس وهو يقف هناك سائلًا إياي أن أضربه.

تقدم سايمون خطوةً إلى الأمام، حتى اقترب بوجهه أكثر نحو أنطوني ساخرًا وقال:

- افعلها الآن، دعني أدفع الثمن.

فأجاب أنطوني:

- ستدفع الثمن عند مذبح الكنيسة[1].

شهقت دافني حتى جذب الصوت انتباه سايمون. لماذا تبدو دافني مدهوشةً إلى هذا الحد؟ بالتأكيد هي تتفهَّم عواقب -إن لم تكن أفعالهما، فبالتأكيد- غبائهما ليُقبَض عليهما بتلك السهولة.

قالت دافني:

- لن أجبره على ذلك.

فصاح أنطوني:

- أنا سأجبره.

هزَّ سايمون رأسه رافضًا، وقال:

- بحلول الغد سأكون قد رَحَلتُ نحو القارة.

---

(1) كناية عن الزواج. (المترجم)

- سترحل؟

سألت دافني.

كانت النبرة المنكوبة لصوتها قد طعنت قلب سايمون بسكينٍ حاد من الشعور بالذنب.

- إذا مَكَثتُ هنا ستشعرين بالإهانة للأبد في وجودي؛ من الأفضل لنا أن أرحل.

كانت شفتها السفلى ترتعش في خوفٍ، وقد كان يؤلمه أن يراها ترتعش على تلك الحال. كلمةٌ واحدة فقط قد خرجت من بين شفتيها؛ نطقت باسمه، وكان ممتلئًا بالشوق، الذي اعتصر قلبه حتى صار أشلاء مترامية.

استغرق سايمون برهةً ليُحَضِّر الكلمات في رأسه:

- لا يمكنني أن أتزوجكِ، داف.

فتساءل أنطوني:

- لا يمكنك؟ أم لا ترغب؟

- كلاهما.

فلكمه أنطوني مجددًا.

ارتطم سايمون بالأرض، مشدوهًا باللكمة التي تلقاها في أسفل ذقنه. لكنه يستحق كل لكمة، كل سبيل إلى الألم. لم يكن يرغب في النظر إلى دافني، لم يكن يرغب حتى في أن يلمح أبسط النظرات على وجهها. لكنها جثت على ركبتيها بجانبه، واستلَّت يدًا حانية خلف كتفه حتى تساعده ليعتدل في جلسته.

- أنا آسفٌ، داف.

قال سايمون مُجبِرًا نفسه على النظر إليها، فانتابه شعورٌ غريب كما لو كان على وشك أن يفقد توازنه. كان بإمكانه أن يرى بعينٍ واحدة، لكنها قد جاءت لمساعدته، حتى بعدما رفضها، وكان يعلم جيدًا أنه يدين لها بالكثير.

ثم قال مُكَرِّرًا في ندم:

- أنا آسفٌ للغاية.

فقال أنطوني بنبرةٍ شرسة تشي بالخِصام:

- احتفظ بكلماتك البائسة. سأراك عند الفجر.

صرخت دافني:

- كلا!

إلا إن سايمون قد تطلع إلى أنطوني ومنحه إيماءةً وجيزة، ثم التفت مجددًا نحو دافني، وقال:

- داف، لو كان هناك شخصٌ ما قد قُدِّر لي أن أكون برفقته ما تبقى من حياتي، فسيكون أنتِ. أعدكِ بذلك.

فسألته دافني وقد أحال الارتباك عينيها الداكنتين إلى أجرامٍ سماويةٍ محمومة تسبح في الفضاء:

- ما الذي تتحدث عنه؟ ماذا تقصد؟

أغلق سايمون عينيه وتنهَّد في أسى؛ ففي هذا الوقت من الغد سيكون ميتًا، لأنه كان متأكدًا أنه لن يرفع البندقية في وجه أنطوني، وقد كان متشككًا في أن يهدأ غضب أنطوني بما يكفي حتى يطلق الرصاص في الهواء.

ومع ذلك -وبطريقة غريبة وبائسة- سيحصل أخيرًا على ما تمناه دائمًا من الحياة؛ سيحصل أخيرًا على انتقامه النهائي من والده. بدا أمرًا غريبًا، ومع ذلك لم تكن تلك هي الكيفية التي اعتقد أن تنتهي بها حياته. لقد اعتقد... حسنًا، لا يدري ما الذي كان يعتقده. لكننا نرى أن معظم الرجال يحاولون تجنب التفكير في موتهم. لكنه لم يعتقد أن موته سيكون بتلك الطريقة؛ ليس وعينا أقرب أصدقائه تشتعلان بالكراهية، ليس في حقلٍ مهجور عند الفجر، ليس موتًا موسومًا بالعار.

التفَّت يد دافني التي كانت تُمَسِّده بلُطفٍ حول كتفيه، وهَزَّت جذعه، فما كان من تلك الحركة إلا أن تُرَقرِقَ الدموع في عينه المفتوحة. وقد رأى وجهها قريبًا للغاية من وجهه، قريبًا، ومذعورًا.

- ما مشكلتك؟

تساءلت دافني.

بدا وجهها كما لم يره من قبل قط. عينان تقطران غضبًا، تعتصران حسرةً، يتخللهما بعض اليأس.

- لقد عزم على قتلك! وسيقابلك في حقلٍ ناءٍ غدًا ويُرديكَ قتيلًا بالرصاص. وأنت تتصرف كما لو أنك ترغب في ذلك حقًا!

- أنا لــ... لا أ... أ... أرغب في الموت. لــــ... لكن لا يمكنني الزواج منكِ.

أجاب سايمون بأنفاسٍ مُتعَبَة للغاية وذهنٍ مُنهَك، حتى عجز عن الانتباه إلى لعثمته.

سقطت يداها عن كتفيه، ثم ترنَّحت مبتعدة عنه. كان من المستحيل تحمل نظرات الألم والرفض في عينيها. بدت بائسة مثل زهرةٍ مُهمَلة، تلتفُّ في معطف شقيقها الكبير، وقِطَعٌ من الأغصان والأسلاك الشائكة ما زالت عالقة بشعرها الداكن. عندما فتحت دافني شفتيها لتتحدث، بدت وكأن كلماتها تُنسَج من داخلها حتى تمزَّقت روحها.

- لـــ... لقد عَرَفتُ دائمًا أنني لَستُ من هذا النوعِ من النساء الذي يحلم به الرجال، ولكنني لم أعتقد قط أن أحدًا سيُفَضِّلُ الموت على الزواج مني.

- كلا!

صرخ سايمون مُتعثرًا في قدميه على الرغم من الأوجاع الثقيلة، والآلام اللاذعة التي يرتجف جسده بفعلها. ثم أكمل وسط تأوهات الألم:

- دافني، الأمر ليس كما تتخيلين.

- لقد قُلتَ ما يكفي.

قال أنطوني بنبرةٍ خشنة، ثم تقدم ليقف بينهما، ووضع يديه على كتفي شقيقته، ثم قادها مبتعدين عن الرجل الذي حَطَّم قلبها، وربما قد شوّه سمعتها إلى الأبد.

- دعاني أوضح شيئًا آخر!

قال سايمون وقد كره نظرة الالتماس البائسة البادية، التي يعلم جيدًا أنها قد بدت في عينيه. لكن كان عليه أن يتحدث إلى دافني، كان عليه أن يتأكد أن تتفهم الأمر.

لكن أنطوني هَزَّ رأسه في لا مبالاة.

- انتظر!

وضع سايمون إحدى يديه على أكمام الرجل الذي كان أقرب أصدقائه يومًا ما، ثم قال:

- لا يمكنني أن أُصلِحَ الأمر، لقد...

أطلق سايمون أنفاسًا ثقيلة قد مَزَّقت قلبه، وحاول أن يلملم شتات أفكاره، ثم تابع:

- لقد أخَذتُ على نفسي عهدًا، أنطوني. لا يمكنني الزواج منها، لا يمكنني أن أعالج هذا الأمر. ولكن يمكنني أن أُخبِرَها...

- تخبرها بماذا؟

ألقى أنطوني سؤاله بوجهٍ جامدٍ ونبرةٍ جافةٍ باردة.

رفع سايمون يده عن ذراع أنطوني، وعبث بشعر رأسه. لا يمكنه أن يخبر دافني، لن تتفهم ما سيقوله، أو ربما أسوأ من هذا؛ ربما تتفهَّمُ الأمر، وسيكون كل ما سيحصل عليه هو شفقتها. وأخيرًا، إذ كان على علمٍ أن أنطوني يتطلع إليه بنفاد صبر، قال:

- ربما يمكنني أن أجعل الأمور أفضل قليلًا.

لم يتحرك أنطوني قيد أنملة.

ثم تابع سايمون:

- أرجوك!

حينما نطق سايمون بتلك الكلمة، تساءل إن كان قد منح تلك الكلمة من قبل هذا العمق من المعنى الذي تحمله.

ظل أنطوني ساكنًا لبضع ثوانٍ، ثم تَنَحَّى جانبًا.

- شكرًا لك.

قالها سايمون في صوتٍ مُتَّزِن، وقد تجنب إلقاء أي نظراتٍ بسيطة حتى إلى أنطوني قبل أن يركز عينيه على دافني. لقد اعتقد أنه ربما سترفض النظر إليه، وتهينه بالاستهزاء والسخرية، لكنه وجدها ترفع عظام ذقنها إلى أعلى بعينين جامحتين جسورتين. ولم يُعجَب بها في أي لحظةٍ من قبل مثلما أُعجِبَ بها في تلك اللحظة.

- داف!

هكذا بدأ سايمون حديثه. والحقيقة هي أنه لم يكن واثقًا مما سيقوله، ولكنه أمل أن تخرج الكلمات بطريقة ما من بين شفتيه في موضعها الصحيح، وفي جملةٍ واحدة دون تلعثم، ثم تابع:

- إن... إن الأمر لا يتعلق بكِ. لو كان هناك شخصٌ ما من أجلي، فستكونين أنتِ. لكن زواجكِ مني سيدمركِ. لا يمكنني قط أن أمنحكِ ما ترغبين فيه، وستسقط أوراق شبابكِ المُزهِرة كل يومٍ في حضوري، وسيقتلني الأمر إن رأيتكِ تذبلين أمامي بتلك الحال.

فأجابت دافني هامسةً:

- لا يمكنك أن تجرحني أبدًا.

هَزَّ سايمون رأسه وقال:

- عليكِ أن تثقي بي.

كانت عيناها دافئتين صادقتين وهي تتطلع إليه بجوابها:

- أنا أثقُ بكَ حقًّا، لكنني أتساءل إن كُنتَ تَثِقُ بي.

كانت كلماتها مثل لكمةٍ في الصدر. حينها التهم سايمون شعورٌ بالعجز والخواء وهو يجيب:

- أرجو أن تعلمي أنني لم أقصد قط أن أجرحكِ، هذا كل ما يمكنني أن أقوله، هذا كل ما أريد منكِ أن تتأكدي منه.

ظلت دافني دون حراكٍ لفترةٍ طويلة، حتى إن سايمون تساءل إن كانت قد توقفت عن التنفس. لكنها بعد برهةٍ قالت -دون حتى أن تتكبد عناء النظر إلى شقيقها-:

- أود أن أعود إلى المنزل الآن.

وضع أنطوني ذراعيه حول كتفيها، والتفتا مُبتَعِدَين عن مسرح الحدث، كما لو أن بإمكانه أن يحميها ببساطة بمجرد أن يحجب عنها رؤية الشخص الآخر.

ثم قال أنطوني في نبرةٍ هادئة:

- سنذهب إلى المنزل، ونضعكِ في الفراش، ونسكب لكِ بعض النبيذ.

فأجابت دافني في حِدَّةٍ:

- لا أرغب في النبيذ، أريد أن أفكر.

اعتقد سايمون أن أنطوني بدا مُرتَبِكًا من جراء جملتها الأخيرة. لكن إحقاقًا للحق، كان كل ما فعله أنطوني هو أن قبض على ذراعها من الأعلى بودٍّ قبل أن يقول:

- حسنًا إذن.

أما سايمون؛ فقد وقف ساكنًا، داميًا، في حالٍ يُرثى لها، حتى اختفى الاثنان في جنح الظلام.

الفصل الحادي عشر

17 من مايو 1813 **جريدة المجتمع**

كان الحفل السنوي الراقص الذي أقامته ليدي تروبريدج في هامبستيد هيث ليلة السبت -كعادته- يلقي الضوء على شائعات الموسم. لمحت كاتبة هذا المقال كولين بريدجرتون يُراقِص الشقيقات فيذرنجتون الثلاث (لم يراقصهن معًا بالطبع) وعلى الرغم من ذلك، لا بد وأنه قيل إن هذا الشاب بريدجرتون لا يبدو فاتنًا بالفطرة. بالإضافة إلى ذلك، شُوهِد نايجل بيربرووك يتودد إلى امرأة ليست الآنسة دافني بريدجرتون. ربما أدرك السيد بيربرووك أخيرًا إخفاق مساعيه.

وبالحديث عن الآنسة دافني بريدجرتون، فقد غادرت الحفل مبكرًا. وقد أجاب بيندكت بريدجرتون من تساءل عن رحيلها المبكر، بأنها قد شعرت بصُداعٍ في الرأس. لكن كاتبة هذا المقال قد لمحتها في وقتٍ مبكر من تلك الليلة، بينما كانت تتحدث إلى دوق ميدلثورب العجوز، وبدت في أفضل صحة.

ليدي ويسلداون

كان من المستحيل أن تخلد دافني إلى النوم بالتأكيد بعد كل ما حدث.

وقضت طوال الليل تذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا، وتخطو قدماها على السجادة الملطَّخة بالأبيض والأزرق، والتي كانت تمتد في غرفتها منذ الطفولة. كان رأسها يدور مفكرًا في عشراتٍ من الاتجاهات المختلفة، ولكن أمرًا واحدًا كان واضحًا بالنسبة إليها وضوح العيان.

كان عليها أن توقف تلك المبارزة.

لم تكن دافني تقلل من تقدير الصعوبات التي ستظهر أمامها عند تنفيذ تلك المهمة. أولًا: لأن الرجال يميلون عادةً للتصرف بعنفٍ وحماقة عندما يتعلق الأمر بالشرف والمبارزة. وانتابها شكٌّ أكيد في أن يكون تدخلها محل تقدير من أنطوني أو سايمون. ثانيًا: لم تكن دافني تعلم المكان الذي ستُعقَد فيه المبارزة. وكان من الواضح أنَّ الرجلين لم يناقشا هذ الأمر في حديقة ليدي تروبريدج؛ لذا افترضت دافني أن أنطوني سيرسل خادمًا برسالةٍ إلى سايمون، أو ربما سيختار سايمون الموقع، بما أنه الشخص الذي قَبِلَ التحدي. كانت دافني واثقةً من وجود آدابٍ وسلوكياتٍ تتعلق بالمبارزة، لكنها بالتأكيد لا تعلم أي شيء عنها.

توقفت دافني بجانب النافذة لبعض الوقت، ودفعت بالستائر جانبًا لتتطلع إلى الخارج. كانت الليلة ما زالت في أولها وفقًا لمعايير الوسط الرفيع؛ وبالتالي فقد غادرت دافني وأنطوني الحفل مبكرًا. وعلى حد علمها، ما زال بيندكت وكولين ووالدتها في منزل ليدي تروبريدج. وحقيقة أنهم لم يعودوا بعد حتى الآن –فقد وصل دافني وأنطوني إلى المنزل منذ ساعتين تقريبًا– اعتبرتها دافني إشارة جيدة، فلو كان هناك أحدٌ قد رأى ذلك المشهد الذي دار بينها وبين سايمون، لكانت الشائعات ستنتشر بلا شك في أرجاء قاعة الرقص في ثوانٍ عديدة، وحينها كانت والدتها ستُسرِع إلى المنزل في خِزي.

وربما ستمر الليلة مُخَلِّفةً وراءها فستان دافني ممزقًا إربًا إربًا، الأهم أنه ليس سمعتها. لكن القلق بشأن الحفاظ على سمعتها كان أقل ما تفكر فيه من مشكلات. لقد رغبت في عودة عائلتها الآن لسببٍ آخر؛ فقد كان من المستحيل أن تتمكن من إيقاف تلك المبارزة بنفسها. حمقاء هي إن امتطت خيلًا وحدها في لندن خلال ساعات الصباح، محاولةً إقناع رجلين بينهما عداء بنفسها. وفكرت في أنها ستحتاج إلى مساعدة.

خشيت أن بيندكت سيتخذ جانب أنطوني في الأمر بأكمله على الفور، والحقيقة هي أنها ستندهش حقًّا إذا لم يتصرف بيندكت مثل أنطوني تمامًا.

لكن كولين.. ربما يجاريها كولين في طريقة تفكيرها. قد يتذمر كولين، وربما يقول إن سايمون يستحق تلك الرصاصة عند الفجر، لكن إذا توسَّلت إليه واستعطفته، سيوافق على مساعدتها.

والأهم هو أن تتوقف المبارزة. لم تكن دافني تعلم ما الذي يدور في عقل سايمون، لكن الواضح أنه كان يتألم حيال شيء ما، ربما شيء يتعلق

بوالده. لقد كان باديًا لها تمامًا منذ وقتٍ طويل أنه يحيا مُعذَّبًا بدواخله القاتمة وصندوقه الأسود. بالتأكيد استطاع أن يخفيها جيدًا، خاصةً عندما يكون برفقتها، لكنها كثيرًا ما لاحظت نظرةً يائسة موحشة في عينيه. وكان من الطبيعي أن يكون هناك سبب وراء صمته المتكرر. وأحيانًا كان يبدو لدافني أنها الشخص الوحيد الذي يشعر معه سايمون بالارتياح حقًا، حتى إنه ليضحك ويمزح، ويعقد محادثاتٍ صغيرة من آنٍ لآخر.

وربما كان أنطوني.. حسنًا، ربما كان أنطوني قبل أي من هذا.

لكن على الرغم من كل شيء، على الرغم من تصرف سايمون القدري الذي لم يكن لنا دَخلٌ فيه في حديقة ليدي تروبريدج، على الرغم من كل هذا، لا تعتقد دافني أن سايمون يرغب في الموت.

وبعد قليل، وصل إلى مسامع دافني صوت العجلات على حصى الرصف، فأسرعت عائدة إلى النافذة المفتوحة في الوقت المناسب، لترى عربة عائلة بريدجرتون تستدير مارةً بالمنزل في طريقها إلى الإسطبل.

بدا القلق عليها إذ اعتصرت أصابع يديها، وأسرعت عبر الغرفة، وألصقت إحدى أذنيها بالباب. لن يصبح الأمر جيدًا بالنسبة إليها إن هبطت إلى الطابق السفلي، فقد اعتقد أنطوني أنها نائمة، أو على الأقل مُدثَّرة في فراشها تفكر في أحداث تلك الأمسية وأفعالها.

لقد وعدها ألا يخبر والدتها بأي شيء، أو على الأقل لن يخبرها حتى يتمكن من تحديد ما تعرفه والدتها عن تلك الليلة. أما عن تأخر فيوليت في العودة إلى المنزل تلك الليلة؛ فقد جعل دافني تعتقد أنه لم يكن هناك أي شائعات ضخمة أو سيئة بشأنها تنتشر هنا وهناك، ولكن هذا لا يعني أنها قد نجت من العقاب، فسيكون هناك همساتٌ حولها، دائمًا ما يكون هناك همساتٌ حول كل شيء. وتلك الهمسات إذا ظلت دون تحقق، فسرعان ما تنمو حتى تصير ضجيجًا وصخبًا مترامي الأطراف.

كانت دافني تعلم أن عليها مواجهة والدتها في وقتٍ قريب، فعاجلًا أو آجلًا سيصل إلى مسامع فيوليت شيء ما، وسيتأكد جميع أفراد الوسط الرفيع أن يصل إلى مسامعها شيء ما. إلا إن دافني قد تمنت أنه في الوقت الذي تتعرض فيه للإهانة بتلك الشائعات –والتي سيكون كثيرٌ منها صحيحًا للأسف– تكون ابنتها قد عبرت إلى خط الأمان وخُطِبَت بالفعل إلى أحد الدوقات. الجميع يعلم أن كل شيء يمكن أن يُغفَر إن كان متعلقًا بدوق.

وهذا بالضبط هو جوهر الخطة التي ستتبعها دافني لإنقاذ حياة سايمون. إنها تعلم جيدًا أنه لن ينقذ نفسه، لكن ربما يستطيع إنقاذها هي.

وعلى الجانب الآخر من الباب، كان كولين بريدجرتون يسير على أطراف أصابعه في القاعة الرئيسية، وكان حذاؤه يتحرك بصمتٍ على السجادة الطويلة الممتدة على الأرض. كانت والدته قد خلدت إلى النوم، أما بيندكت؛ فقد اختفى برفقة أنطوني في غرفة مكتب الأخير. ولكنه لم يكن مهتمًّا بالحديث مع أيٍ منهما، لقد كانت دافني هي من يريد رؤيتها.

نقر برشاقةٍ على باب غرفتها، وقد شجعه بصيص الضوء الخافت الذي يضيء الغرفة ويظهر ضوؤه من أسفل عقب الباب. كان من الواضح أنها قد تركت عدة شمعاتٍ متوهجة، وبما أنها كانت تخشى أن تغط في النوم دون إطفاء الشمعات، فهذا يعني أنها ما زالت مستيقظة.

وإن كانت دافني مستيقظة، فعندئذ عليها أن تتحدث إليه.

رفع كولين يديه لينقر على الباب مجددًا، لكن الباب تأرجح منفتحًا وعلى جانبيه مفصلات جيدة التشحيم، فلم يصدر صريرًا، وتحركت دافني في صمتٍ لتسمح له بالدخول.

- أود الحديث معك.

همست دافني بتلك الكلمات وقد خرجت من بين شفتيها على عجل في دفعة واحدة، فأجابها كولين:

- أنا أيضًا أود الحديث معكِ.

أرشدته دافني بيدها ليخطو إلى الداخل. وبعد نظرة سريعة ألقتها على الممر يمينًا ويسارًا، أغلقت الباب، وقالت:

- أنا في مشكلةٍ كبيرة.

- أعرف ذلك.

انسحبت الدماء من وجهها إذ فجأة وشحبت، ثم قالت:

- هل تعرف حقًّا؟

أومأ كولين، وكانت عيناه الخضراوان تشيان بالجدية التامة لأول مرة، ثم قال:

- هل تتذكرين صديقي ماكليسفيلد؟

أومأت دافني بالموافقة. كان ماكليسفيلد هو الإيرل الشاب الذي أصرَّت والدتها أن تقدمها إليه منذ أسبوعين، في نفس الليلة التي قابلت بها سايمون لأول مرة.

- حسنًا، لقد رآكِ تختفين إلى داخل الحديقة الليلة برفقة هاستنجز.

شعرت دافني فجأة بضيق حلقها وتورُّمه، لكنها استطاعت أن تتغلب على تلك الحالة، وسألته:

- هل رآنا حقًّا؟

أومأ كولين في تجهُّم، ثم أجاب:

- لن يقول أي شيء، أنا واثقٌ من ذلك؛ إننا أصدقاءٌ منذ ما يقرب من عقد من الزمان. لكن ما أقوله هو إن كان ماكليسفيلد قد رآكِ، فربما رآكِ شخصٌ آخر أيضًا. وثمَّةَ أمرٌ آخر؛ كانت ليدي دانبيري تتطلع نحوي في نظراتٍ غريبة عندما كان يخبرني بما رآه.

فسألت دافني في حدة:

- هل رأتنا ليدي دانبيري؟

- لا أدري إن كانت قد رأتكما أم لا، كل ما أعرفه هو (وارتجف كولين قليلًا قبل أن يضيف): أنها كانت تتطلع إليَّ كما لو أنها تعلم جميع تجاوزاتي وانتهاكاتي.

هزَّت دافني رأسها قليلًا وقالت:

- هذه طريقتها المعتادة، لا شيء آخر. وإن كانت قد رأت أي شيء، فلن تنطق بكلمة.

فسأل كولين في تشكيك:

- ليدي دانبيري؟

- إنها امرأةٌ شرسة ومخيفة، ويمكنها أن تسخر منك وتستهزئ بك، لكنها ليست من النوع الذي يقضي على حياة أحدهم من أجل المتعة فقط. وإذا رأت شيئًا، فستواجهني مباشرةً.

بدا كولين غير مقتنع بما تقوله دافني، لكنه ظل صامتًا.

تنحنحت دافني عدة مرات بينما كانت تحاول إيجاد طريقة مناسبة لصياغة سؤالها القادم.

- ما الذي رآه بالضبط؟

ألقى كولين إليها نظرةً ثاقبة مرتابة، وقال:

- ماذا تقصدين؟

أجابت دافني على الفور، فقد كانت أعصابها متوترةً من الأمسية الطويلة المُقلِقة وما حدث فيها:

- أقصد ما قلته تمامًا. ما الذي رآه؟

اعتدل كولين مستقيمًا في وقفته، وعاد برأسه إلى الخلف قليلًا في طريقة دفاعية قبل أن يجيب:

- ما قلته بالضبط؛ لقد رآكِ تختفين إلى داخل الحديقة برفقة هاستنجز.

- لكن هل هذا كل شيء؟

- كل شيء؟

ردد كولين كلماتها. واتسعت عيناه كثيرًا، قبل أن تضيقا في ارتياب ويقول:

- ما الذي حدث هناك بالضبط؟

سقطت دافني جالسةً على مُتَّكَإٍ عثماني، ودفنت وجهها بين يديها.

- آه، كولين. إنني في حيرةٍ شديدة.

لم يقل كولين شيئًا، لذلك بعدما جففت دافني عينيها أخيرًا، والتي لم تكن دامعة بالضبط، لكنها بدت مبللة قليلًا، ثم تطلعت إلى كولين، بدا شقيقها في تلك اللحظة أكبر سنًّا –أقسى ملامح– عما اعتادت أن تراه منه من قبل في أي وقتٍ مضى. كان قد عقد ذراعيه، وقد انفرجت ساقاه في وقفةٍ تشي بالصرامة والعِند. أما عيناه؛ فعادةً ما تكونان سعيدتين، وفيهما شيءٌ من العبث، أما في تلك اللحظة، فقد كانتا قاسيتين مثل حجرٍ من الزمرُّد. وكان من الواضح أنه ينتظر منها أن تتطلع إليه قبل أن يتحدث.

- والآن، بعدما انتهيتِ من إظهار بعض من رثاء النفس، أعتقد أن عليكِ أن تخبريني بما حدث بينكِ وبين هاستنجز هذه الليلة في حديقة ليدي تروبريدج.

فأجابت دافني على الفور:

- لا تستخدم تلك اللهجة معي، ولا تتهمني بالانغماس في رثاء النفس. يا إلهي! إن رجلًا سيُقتَل غدًا، ويحق لي أن أشعر بالقليل من الحزن والإحباط.

جلس كولين على الكرسي المقابل لها، ولانَ وجهه على الفور إلى ملامح تشي بالقلق الشديد، ثم قال:

- من الأفضل لكِ أن تخبريني بكل شيء.

أومأت دافني، وتابعت حديثها لتسرد أمامه أحداث الليلة بأكملها. بالتأكيد لم توضح دافني المدى الذي وصل إليه عارها، لكن كولين لم يكن في حاجة إلى معرفة ما رآه أنطوني بالضبط، فإن حقيقة أنها قد ضُبِطَت في موضعٍ مُخِلٍّ تكفي أن توضح الأمر في ذهنه.

وانتهت من سرد الأحداث، فقالت:

- والآن ستكون هناك مبارزة، وسايمون سيموت.

- أنتِ لا تعلمين هذا يا دافني.

هزَّت رأسها في يأسٍ وقالت:

- لن يُطلِقَ سايمون النار على أنطوني، ويمكنني أن أراهن بحياتي كلها على هذا الأمر. أما أنطوني...

وانقطع الهواء من حنجرتها، فتوقفت فجأة، وكان عليها أن تبتلع ريقها قبل أن تكمل:

- أنطوني غاضبٌ للغاية، ولا أعتقد أنه سيطلق الرصاص في الهواء وينهي الخلاف.

- وما الذي تريدين فعله؟

- لا أدري، أنا حتى لا أعلم أين ستكون المبارزة. وكل ما أعرفه هو أن عليَّ إيقافها.

أطلق كولين بعض السُباب بصوتٍ خافت، ثم عاد ليجيب بلُطف:

- لا أدري إن كان بإمكانكِ فعل ذلك، دافني.

فصرخت دافني قائلةً:

- يجب أن أفعل ذلك! كولين، لا يمكنني الجلوس هنا والتحديق إلى السقف وترك سايمون يموت هناك.

تحطَّم تماسك صوتها عند تلك اللحظة، قبل أن تضيف:

- أنا أُحِبُّه!

بُهِتَ كولين من وقع المفاجأة، ثم قال:

- حتى بعدما رفضك؟

أومأت دافني في حزنٍ وقالت:

- لا أهتم إن كان هذا يجعلني حمقاء بائسة، لكنني لا أتحمل الأمر؛ فأنا لا أزال أحبه، وهو بحاجة إليَّ الآن.

فأجاب كولين في هدوء:

- إن كان هذا صحيحًا، ألا تعتقدين أنه كان ليوافق على الزواج منكِ عندما طالبه أنطوني بذلك؟

هزَّت دافني رأسها وأجابت:

- كلا. هناك شيءٌ آخر لا أعلم بشأنه، ولا يمكنني إيضاح الأمر لك حقًّا، لكنه بدا وكأن جزءًا منه قد رغب بالزواج مني.

شعرت دافني وكأنها قد دخلت في طورٍ من الاضطراب والانفعال، وأن أنفاسها قد تحوَّلت إلى شهقات متشنجة، لكنها تابعت:

- لا أدري، كولين. لكن إن كان بإمكانك أن ترى وجهه، فستفهم ما أقصده. لقد كان يحاول حمايتي من شيء ما، أنا واثقةٌ من ذلك.

- حسنًا، أنا لا أعلم طبيعة هاستنجز تمامًا مثلما أعلم طبيعة أنطوني، أو حتى مثلما أعلم طبيعتك، لكنني لم أسمع حتى أبسط همسٍ بشأن أي أسرارٍ خفية عنه. هل أنتِ واثقة...؟

قطع كولين حديثه في منتصف الجملة، وسمح لرأسه أن يسقط بين يديه للحظةٍ قبل أن يتطلع إليها مرة أخرى. وعندما تحدث ثانيةً، كان صوته يضجُّ باللطف والألم في الآن نفسه:

- هل أنتِ واثقةٌ من أنكِ لا تتخيلين مشاعره تجاهكِ؟

لم تأخذ دافني سؤاله على محمل الإساءة؛ فقد كانت تعلم جيدًا أن قصة مثل هذه تبدو ضربًا من الخيال، لكنها كانت تعلم في صميم قلبها أنها على حق.

أجابت دافني في صوتٍ رخيم:

- لا أريده أن يموت، ففي النهاية هذا كل ما يهم.

أومأ كولين، ولكنه طرح سؤالًا أخيرًا، فقال:

- أنتِ لا تريدينه أن يموت؟ أم لا تريدينه أن يموت بسببك؟

نهضت دافني لتقف على ساقين وقدمين مرتعشتين، وقالت:

- أعتقد أن من الأفضل لك أن تغادر. لا أصدق أنك قد طرحت عليَّ سؤالًا كهذا.

بينما كانت تنطق بالكلمات، كانت تستنفد كل ذرةٍ بسيطةٍ من القوة لديها حتى تحافظ على صوتها هادئًا.

لكن كولين لم يغادر، بل اكتفى بأن سار نحوها، وأمسك بإحدى يدي شقيقته ليربت عليها، وقال:

- سأساعدكِ، داف. تعلمين أنني سأفعل أي شيءٍ من أجلك.

في تلك اللحظة سقطت دافني بين ذراعيه، وأطلقت العنان لكل الحزن حتى يعبر عن نفسه بسيولٍ من الدموع التي كانت تحتفظ بها في داخلها بشجاعة.

بعد ثلاثين دقيقة، كانت عيناها قد جفَّتا، وذهنها قد صفا. وأدركت أنها كانت في حاجة إلى البكاء، فقد كان هناك الكثير مما ظل محبوسًا بداخلها؛ الكثير من المشاعر، الكثير من الحيرة، والألم، والغضب. كان عليها أن تدع المجال لكل هذا حتى يغادر روحها. ولكن الآن لم يعد هناك وقت للمشاعر؛ فقد كانت في حاجةٍ إلى الحفاظ على هدوء رأسها، وأن تظل مركزةً على هدفها المنشود.

كان كولين قد غادر غرفتها ليستفهم من أنطوني وبيندكت، اللذين كانا يتحدثان بصوتٍ خافت ومضطرب في غرفة مكتب أنطوني. لقد وافقها كولين على أن أنطوني سيطلب من بيندكت أن يكون رفيقه في تلك المبارزة، ويحافظ على سريان شروطها. وكانت مهمة كولين هو أن يقنعهما بإخباره عن موقع المبارزة. ولم يكن لدى دافني أي شَكٍّ في أن كولين سينجح في مهمته؛ لقد كان دائمًا يتمتع بالقدرة على إقناع الآخرين بأن يخبروه عن أيِّ شيء يرغب في معرفته.

كانت دافني قد ارتدت بعض ملابس الخيل القديمة التي تمنحها الراحة المطلوبة لرحلةٍ كهذه. لم تكن لديها أدنى فكرة كيف سيكون الطقس في الصباح، لكن آخر شيء كانت ترغبِ فيه هو التعثر في أشرطة الدانتيلا والتنورات الداخلية.

نقرةٌ رشيقة على الباب قد استدعت انتباهها، وقبل أن تتمكن حتى من الوصول إلى المقبض، كان كولين قد دخل الغرفة، وكان هو أيضًا قد بَدَّل ملابسه إلى ثياب النوم.

- هل حصلتَ على كل شيء؟

سألت دافني في لُطف، فأجاب بإيماءة حادةٍ وقصيرة، ثم قال:

- ليس لدينا الكثير من الوقت لنضيعه، وأعتقد أنكِ تودين الوصول إلى هناك قبل أن يصل أي شخصٍ آخر!

- إن وصل سايمون إلى هناك قبل أنطوني، فربما أتمكن من إقناعه بالزواج مني قبل أن يسحب أي أحد زناد بندقيته.

أطلق كولين تنهيدةً ثقيلة وبدأ قائلًا:

- داف، هل فكرتِ في احتمالية عدم نجاحكِ في ذلك؟

ابتلعت دافني ريقها في صعوبة، وبدت حنجرتها كما لو أنها قد سُدَّت بقذيفة مدفعية، إلا إنها تمكنت من الإجابة:

- أنا أحاول عدم التفكير في هذا الأمر.

- ولكن...

قاطعته دافني قائلةً بنبرةٍ مُتكلّفة:

- إذا فكرتُ في الأمر، فربما أفقد تركيزي، وربما أفقد أعصابي، ولا يمكنني أن أدع ذلك يحدث. من أجل سايمون، لا يمكنني أن أدع ذلك يحدث.

أجاب كولين في هدوء:

- أتمنى لو يعلم بما يكمن بداخلكِ نحوه، لأنه إن لم يفعل، فربما أضطر إلى إطلاق النار عليه بنفسي.

اكتفت دافني بأن قالت:

- من الأفضل أن نذهب الآن.

فأومأ كولين، وانطلَقا معًا.

قاد سايمون خيله على امتداد بروود ووك[1]، شاقًّا طريقه إلى أقصى ركنٍ من أركان ريجنتس بارك[2] الجديدة وأكثرها عزلة. كان أنطوني قد اقترح أن يعقدا أعمالهما بعيدًا عن مايفير، وقد وافق سايمون على ذلك. كان الفجر قد بزغ بالفعل، وكانت الشوارع خاليةً تمامًا، ولكن لم يكن هناك أي سبب حتى يعرضا مبارزةً في هايد بارك.

ليس وكأن سايمون يأبه كثيرًا بمخالفة المبارزة للقوانين؛ ففي نهاية الأمر لن يكون سايمون حاضرًا حتى يعاني التبعات القانونية لها.

ورغم ذلك، فإنها تظل طريقة بغيضة للموت. ولكن سايمون لم يرَ أية بدائل أخرى؛ لقد لطخ سمعة سيدةٍ شابة رقيقة، حسنة النسب، لم يستطع الزواج منها، والآن يجب أن يعاني تبعات ما أحدثه. وما كانت تلك التبعات سوى أمورٍ كان سايمون يعلمها جيدًا حتى قبل أن يُقَبِّلَها في تلك الليلة.

وبينما كان يشق طريقه نحو الحقل المحدد، رأى أنطوني وبيندكت قد ترجَّلا عن أحصنتهما ووقفا بانتظاره. كان شعرهما الكستنائي مُشَعَّثًا بفعل النسيم، وبدا على وجهيهما التجهُّم والعبوس، مثل تلك القبضة التي تملَّكت قلب سايمون.

جلب سايمون فرسه إلى منطقة وقوف الخيل على بعد ياردات قليلة من الشقيقين بريدجرتون، ثم ترجَّل.

وهنا صاح بيندكت قائلًا:

- أين رفيقك في المبارزة؟

فأجاب سايمون:

- لم أهتم لهذا الأمر.

- لكن يجب أن تحدد رفيقًا في المبارزة! لا تكون المبارزة مبارزةً دون رفيق.

---

(1) Broad Walk: طريق طويل متسع، ممتد في وسط أكسفورد.

(2) Regent's Park: واحدة من الحدائق الملكية في لندن، وسُميت تيمنًا بالأمير ريجنت، الذي صار فيما بعد الملك جورج الرابع.

رفع سايمون كتفيه في لا مبالاة، وقال:

- ليس هناك جدوى من ذلك. لقد أحضَرتَ البنادق، وأنا أثق بكَ.

سار أنطوني نحوه وقال:

- أنا لا أرغب في فعل ذلك.

فأجاب سايمون:

- ليس لديك خيارٌ آخر.

فقال أنطوني على عجل:

- ربما أنت تمتلك خيارًا آخر؛ يمكنك أن تتزوجها. ربما لا تحبها، ولكني أعلم أنك مُعجَبٌ بها بما يكفي لإتمام الزواج. لماذا لا تريد الزواج منها؟

فكر سايمون في إخبارهما بكل شيء يحمله في صدره؛ كل تلك الأسباب التي جعلته يقسم ألا يتخذ زوجةً أو يخَلِّد سلالة. لكنهما لن يتفهما أسبابه، ليس آل بريدجرتون، الذين لا يعرفون سوى أن العائلة هي أمرٌ جيد، ولطيف، وصادق في حياة المرء. لا يعلمون شيئًا عن الكلمات القاسية، والأحلام المُحطَّمة، لا يعلمون شيئًا عن شعور الرفض الذي تستحيل معه الحياة.

فكر سايمون حينها في أن يقول شيئًا قاسيًا، أي شيء سيجعل أنطوني وبيندكت يحتقرانه، ويسرعان لينتهيا من سخرية تلك المبارزة، ولكن هذا الأمر سيتطلب منه الطعن في شرف دافني، وهذا بالذات ما لا يطيق فعله.

ولذلك، في نهاية الأمر، كان كل ما فعله سايمون هو أن حدَّق إلى وجه أنطوني بريدجرتون، الرجل الذي كان صديقه منذ أيامهما الأولى في إتون، وقال:

- كل ما أريدك أن تعلمه هو أن الأمر لا يتعلق بدافني. شقيقتك هي أفضل النساء اللاتي حظيت بفرصة مقابلتهن في حياتي.

وعندئذ، وبعدما أومأ إلى كلٍّ من أنطوني وبيندكت، التقط سايمون إحدى البندقيتين اللتين في الحقيبة التي وضعها بيندكت على الأرض، وبدأ رحلته الطويلة إلى الجانب الشمالي من الحقل.

- انتظر!!

شهق سايمون، والتفت حوله. يا إلهي، لقد كانت دافني!

كانت دافني تنحني قليلًا فوق مهرها في اندفاعٍ تام، بينما كانت تركض حتى تعبر الحقل. وللحظةٍ واحدة، وقف سايمون مَبهوتًا بما يراه، حتى إنه قد نسي غضبه منها تمامًا لتدخلها في تلك المبارزة، وبدلًا عن ذلك كان مدهوشًا بروعة مظهرها إذ كانت على صهوة الجواد.

وفي الوقت الذي كانت تقبض فيه على اللجام لتسير بالفرس إلى مربطٍ أمامه مباشرةً، كان قد استرد وعيه، وعاد غضبه إلى موضعه أسوأ من ذي قبل.

حينها سألها سايمون في عنف:

- أخبريني؛ ما الذي تفكرين في فعله هنا؟

- أنقذ حياتك البائسة!

كانت عيناها تنبضان بنيران مشتعلة نحوه، وقد أدرك حينها أنه لم يرها غاضبةً إلى هذا الحد من قبل، وربما كانت غاضبة تمامًا بمقدار غضبه أيضًا.

- دافني، أيتها الحمقاء الصغيرة، هل تدركين خطورة تلك البنادق؟

ودون أن يكون مُدرِكًا لما يفعله، قبض سايمون على كتفيها بيديه، وراح يهزُّ جسدها، ثم تابع:

- كان بإمكان واحدٍ منا أن يصيبكِ.

أجابت دافني ساخرةً:

- أوه، أرجوك! إنك لم تصل إلى نهايتك من الحقل بعد.

كانت دافني على حقٍّ تلك المرة، لكنه كان غاضبًا بما يكفي ليعترف بما تقوله، لذلك صاح مجيبًا:

- وامتطاء الخيل في هذا الوقت من الليل بمفردك، يجب أن تكوني أكثر وعيًا من ذلك.

لذلك أجابته دافني بنفس الحدة:

- أنا أكثر وعيًا من ذلك؛ لقد رافقني كولين إلى هنا.

- كولين؟

والتفت رأس سايمون يمينًا ويسارًا بينما كان يبحث عن أصغر أشقائها الكِبَار، وقال:

- سوف أقتله!

- وهل هذا سيكون قبل أم بعد أن يطلق أنطوني الرصاص على قلبك؟

- أوه، بالتأكيد قبل هذا.

أجاب سايمون متذمرًا، ثم تابع بصوت أشبه بالزئير:

- أين هو؟ بريدجرتون!

استدارت ثلاثة رؤوس كستنائية الشعر في اتجاهه. دهس سايمون العشب بقدميه إذ كان يتقدم نحو الثلاثة وتضج عيناه بنيران الهلاك، ثم قال:

- أقصد بريدجرتون الأحمق.

حينها أجاب أنطوني بنبرةٍ معتدلة إذ كان يشير بذقنه إلى كولين:

- أما هذا، فأعتقد أنه يقصدك أنت.

فأطلق كولين نظرةً ثاقبةً إليه، وقال:

- وكان من المفترض مني أن أدعها تمكث في المنزل وتبكي طوال الليل؟

- أجل!

جاء هذا الجواب من المصادر الثلاثة المختلفة.

فصاحت دافني بينما كانت تتعثر في العشب من ورائه:

- سايمون! عُد إلى هنا!

التفت سايمون نحو بيندكت وقال:

- أخرجها من هنا.

بدا بيندكت مترددًا من أخذ خطوةٍ في هذا الأمر، إلا إن أنطوني صاح آمرًا إياه:

- افعل ذلك.

وقف بيندكت عاجزًا في محله، تدور عيناه ذهابًا وإيابًا؛ بين شقيقيه، وشقيقته، والرجل الذي جلب لها العار.

كان الغضب قد بلغ ذروته إذ نطق أنطوني:

- يا إلهي!

فأجاب بيندكت وعقد ذراعيه:

- إنها تستحق فرصةً للحديث.

- ما مشكلتكما أنتما الاثنين؟

زأر أنطوني مُحَدِّقًا بعينين مشتعلتين إلى شقيقيه الأصغرين.

- سايمون!

قالت دافني وهي تلهث من أجل بعض الهواء بعدما ركضت عبر الحقل. ثم تابعت:

- يجب أن تستمع إلى ما سأقوله.

حاول سايمون تجاهل محاولاتها في جذب أكمام سُترَتِه، وقال:

- دافني، دعي الأمر عنكِ، ليس هناك ما يمكنكِ فعله.

نظرت دافني متوسلةً إلى أشقائها. كان من الواضح أن كولين وبيندكت قد تعاطفا مع ما يدور من أحداث، لكن لم يكن بمقدورهما فعل المزيد لمساعدتها. أما أنطوني؛ فقد بدا حانقًا مثل ربِّ أسرةٍ يتطاير شرر الغضب من عينيه.

وأخيرًا قررت دافني أن تفعل الشيء الوحيد الذي استطاعت التفكير فيه لتأجيل المبارزة؛ سددت دافني لكمةً إلى سايمون.

في عينه السليمة.

ناح سايمون وزعق في ألمٍ بينما كان يترنح إلى الخلف.

- لماذا فَعَلتِ ذلك؟

فهمست دافني من بين أسنانها:

- اسقط أرضًا أيها الأحمق.

فإذا جثم سايمون على الأرض، فلن يتمكن أنطوني من إطلاق الرصاص عليه.

فتمتم سايمون بينما كان يقبض على عينه قائلًا:

- بالتأكيد لن أسقُطَ على الأرض. يا إلهي، أن أسقُطَ صريعًا لامرأة، هذا أمرٌ لا أقبله أبدًا.

نخرت دافني وقالت:

- الرجال حمقى! جميعهم!

ثم التفتت نحو أشقائها الذين وقفوا مُحَدِّقين بملامح مماثلةٍ من الصدمة وفغروا أفواههم، ثم قالت في حدة:

- إلامَ تتطلعون؟

بدأ كولين في التصفيق، عندما صفعه أنطوني على كتفه.

- هل لي أن أحظى بلحظةٍ واحدة مع صاحب الجلالة؟

سألت دافني، وكانت نصف كلماتها على الأقل قد صدرت في هسيسٍ حاد.

أومأ كولين وبيندكت، وسارا مُبتَعِدَين. أما أنطوني؛ فلم يتحرك من موقعه قيد أنملة.

حَدَّقت دافني إلى عينيه وقالت:

- سأصفعك أنت أيضًا.

وربما كانت لتفعلها، إلا إن بيندكت قد عاد وجذب ذراع أنطوني من جيبه، ثم سحبه معه مبتعدين.

عادت دافني فحدَّقت إلى سايمون، الذي كان الآن يضغط بأصابعه على حاجبه، كما لو كانت حركته ستخفف الألم في عينه.

- لا أصدق أنكِ سددتِ إليَّ لكمة.

أطلقت دافني نظرةً إلى أشقائها لتتأكد من ابتعادهم عن مرمى السمع، ثم قالت:

- بدت لي فكرةً جيدة في ذلك الوقت.

- لا أدري ما الذي تمنيتِ تحقيقه هنا.

- أعتقد أن هذا سيكون واضحًا تمامًا.

أطلق سايمون تنهيدةً قصيرة، وفي تلك اللحظة بدا مُتعَبًا، وحزينًا، وعجوزًا للغاية، ثم أجاب:

- لقد أخبرتكِ من قبل أنني لا أستطيع الزواج منكِ.

- يجب أن تتزوجني؛ هذا لم يعد خيارًا.

خرجت كلماتها في عُجالةٍ وحِدَّةٍ أجبرته على التطلع إليها، وقد كانت عيناه في حالة تأهبٍ حادة.

- ماذا تقصدين؟

وكان سؤاله قد خرج في نبرةٍ مُحكَمةٍ لافتةٍ للانتباه.

- أقصد أنَّ هناك من رآنا.

- مَن؟

- ماكليسفيلد.

ظهر على سايمون الارتياح، وقال:

- لن يتكلم بشيء.

- لكن كان هناك آخرون!

عضت دافني على شفتيها إذ نطقت بتلك الكلمات. لم تكن كذبةً منها على الأرجح؛ فربما كان هناك آخرون. في الحقيقة، على الأرجح كان هناك آخرون.

- مَن؟

- لا أدري، لكنني سَمِعتُ همهماتٍ حولنا. وبحلول الغد، سينتشر الأمر في لندن بأكملها.

أطلق سايمون سلسلة من السُبَاب، حتى إن دافني قد تراجعت خطوةً إلى الوراء. ثم قالت في صوتٍ رخيم:

- إذا لم تتزوجني، فسينتهي أمري.

- هذا ليس صحيحًا.

أجاب سايمون، لكن صوته كان يفتقر إلى الكثير من الإقناع.

- بل صحيح، وأنت تعلم هذا جيدًا.

قالت دافني وحدَّقت إلى عينيه.

لقد كان مستقبلها بأكمله -وحياته!- كما لو كانا يتسابقان في اتجاه بعضهما بعضًا في تلك اللحظة، ولم تتحمل دافني التعثر في تلك اللحظة من حياتها.

- لن يرضى بي أحد، وسأرحل بعيدًا إلى بقعةٍ مهجورةٍ من البلاد...

- تعلمين أن والدتك لن ترسلكِ بعيدًا أبدًا.

- لكنني لن أتزوج، وأنت تعلم ذلك.

أخذت دافني خطوةً إلى الأمام، وأجبرته على أن يشعر بقربها منه، ثم تابعت:

- سأُوسَمُ إلى الأبد مثل بضاعةٍ مستخدمة، لن أحظى بزوجٍ أبدًا، ولن أُنجِبَ أطفالًا أبدًا...

صاح سايمون بصوتٍ مرتفع:

- توقفي! أرجوكِ، توقفي!

اندفع كلٌّ من أنطوني، وبيندكت، وكولين جميعهم إذ سمعوا صياح سايمون، لكن هزَّة مذعورة من رأس دافني قد أجبرتهم جميعًا على الاحتفاظ بأماكنهم.

قالت دافني في صوتٍ خافت:

- لماذا تعجز عن الزواج بي؟ أعلم أنك تهتم لأمري، لذا أخبرني؛ ما الأمر؟

سار سايمون بيده على وجهه، وانتهى الأمر بأن استند بإصبعيه؛ الإبهام، والسبابة، على صدغيه بقوة. يا إلهي، لقد أُصيب بالصُداع. ودافني –يا إلهي الرحيم– إنها تقترب منه. وقفت دافني أمامه، ولامست كتفه، ثم وجنتيه. لم يكن سايمون رابط الجأش بما يكفي. يا إلهي، لن يكون رابط الجأش بما يكفي!

حينها نطقت دافني متوسلةً باستعطاف:

- سايمون.. أنقذني!

ثم غرق سايمون في بحرها.

الفصل الثاني عشر

جريدة المجتمع **19 من مايو 1813**

مبارزة، مبارزة، مبارزة. هل هناك شيءٌ أكثر إثارةً أو أكثر رومانسيةً؟ أو ربما أكثر حماقة من ذلك؟

لقد وصل إلى مسامع كاتبة هذا المقال أن مبارزة قد وقعت في وقتٍ مُبكر من هذا الأسبوع في ريجنتس بارك. ولأن المبارزات تُعد أمرًا غير قانوني، لا يصح لكاتبة هذا المقال أن تكشف أسماء المتنافسين، ولكن ليعلم الجميع أن كاتبة هذا المقال تستهجن تمامًا هذا العنف.

وبالتأكيد، في الوقت الذي كان فيه هذا العدد في طريقه إلى المطبعة، اتضح أن المتبارزين الأحمقين (إنني أشمئز من إطلاق لفظ الرجال النُبلاء عليهما؛ والذي سيتضمن مستوًى مُعينًا من الذكاء، وهي صفةٌ ربما لو كانا يمتلكانها، ما كانت لتغيب عن بالهما في ذلك الصباح) لم يتأذيا في شيء.

ويتساءل المرء إن كان ملاك العقلانية والإدراك قد نظر إليهما بعين الرحمة في ذلك الصباح المشؤوم.

وإذا كان الأمر كذلك، فإن كاتبة هذا المقال تشعر بالارتياح، لأن هذا الملاك عليه أن يُمطِرَ عطفه وتأثيره على عددٍ كبير من رجال الوسط الرفيع. ولا يمكن لمثل هذا التصرف إلا أن يؤدي إلى بيئة أكثر سلميةً وتعاطفًا، وبدورها تترك أثرًا عظيمًا على عالمنا بأكمله.

ليدي ويسلداون

رفع سايمون عينيه المحطمتين لتُقابِلَا عينيها، وقال بصوتٍ خافت:

- سأتزوجكِ. لكن يجب أن تعرفي...

انقطعت جملته دون أن يُكمِلَها بوقع صراخها وعناقها القوي.

- أوه، سايمون، لن تَندَمَ على هذا أبدًا. سأجعلك سعيدًا، أعدكَ بذلك. سأجعلكَ سعيدًا للغاية. لن تندم على ذلك أبدًا.

كانت كلماتها قد خرجت من فمها في اندفاع وارتياح، ولمعت عيناها بدموعٍ تأبى أن تسيل، لكنهما تلألأتا فرحًا.

- توقفي!

قال سايمون بطريقة آلية، دافِعًا إياها عن طريقه؛ فقد كانت سعادتها الصريحة تلك أكثر مما يمكن أن يحتمله. ثم تابع:

- يجب أن تستمعي إلي.

سكنت دافني في موضعها، وعلى وجهها تعبيرات وَجِلَة.

- يجب أن تستمعي إلى ما أريد قوله، ثم قرري إن كُنتِ تريدين الزواج مني أم لا.

خرجت الكلمات بنبرةٍ حادةٍ وسريعة.

قضمت دافني على شفتها السُفلَى، وأومأت إليه بإيماءة مقتضبة.

أخذ سايمون نفسًا متقَطِّعًا. كيف يخبرها؟ ماذا يخبرها أولًا؟ لا يمكنه أن يصارحها بالحقيقة؛ ليس الحقيقة بأكملها على الأقل. لكن عليها أن تفهم... إن كانت ستَقبَل الزواج منه... فإنها ستتخلى عن أكثر ما تمنته في حياتها مُطلَقًا.

وكان عليه أن يمنحها فرصةً لرفضه، فقد استحقت هذا كثيرًا. ابتلع سايمون لُعابَه وقد مرت غُصَّةٌ في حلقه أشعرته بعدم الارتياح. لقد استحقت دافني أكثر من ذلك، ولكن هذا كل ما كان بإمكانه أن يمنحها إياه.

- دافني...

كان اسمها دائمًا ما يرطب حديثه المُفكك، ثم تابع:

- إذا تَزوَّجتِ مني...

خطت دافني خطوةً نحوه ومدت يدها لتصل إلى يديه، لتسحبها إلى الخلف مجددًا إذ تطلعت إلى نظرة الحذر التي تشتعل في عينيه.

همست دافني:

- ما الأمر؟ بالتأكيد ليس هناك أمرٌ بهذا السوء حتى...

- لا يمكنني أن أنجب أطفالًا.

أخيرًا. لقد نطقها، وقد كانت الحقيقة تقريبًا.

انفرجت شفتا دافني، ولكن دون ذلك لم يكن هناك أي مؤشر على أنها حتى قد سمعت ما قاله. كان يعلم أن كلماته ستكون قاسية، لكنه لم يجد أي طريقة أخرى لإجبارها على أن تفهم ما قاله.

- إذا قَبِلتِ الزواج بي، فلن تحظي بأي أطفال، لن تحملي أي طفلٍ بين ذراعيكِ وتعلمي أنه طفلكِ أنتِ الذي جاء نتاج الحب. لن...

قاطعته دافني قائلة:

- كيف لك أن تعرف هذا؟

كان صوتها رتيبًا، ومرتفعًا على غير عادتها.

- إنني أعرف ذلك.

- ولكن...

فردد كلماته بقسوة:

- لا يمكنني أن أنجب أطفالًا، ويجب أن تفهمي هذا الأمر.

- أفهم ذلك.

كانت شفتاها ترتجفان قليلًا، كما لو أنها لم تكن واثقةً مما إذا كان هناك أي شيء تقوله في هذا الموقف أم لا، وبدا جفناها يطرفان أكثر قليلًا من المعتاد.

تطلع سايمون إلى وجهها، متعقبًا النظرات والتعبيرات، لكنه لم يستطع قراءة انفعالاتها بالطريقة التي اعتاد عليها. عادةً ما كانت انفعالاتها واضحةً للغاية، وعيناها تضجان بالصدق، إذ فجأة كان الأمر كما لو أن بإمكانه أن يرى ما بداخل روحها. أما الآن، فقد بدت ملامحها صلبة لا تعبر عن شيء.

كانت مُحبَطَة وحزينة، وكان هذا الأمر واضحًا للغاية. أما سايمون، فلم يكن لديه أدنى فكرة عما سيكون عليه ردها. ليس لديه أدنى فكرةٍ عن ردود أفعالها نحوه. كان قد انتابه شعورٌ غريب بأن دافني أيضًا لا تعلم ما ستقوله.

وبعد وقتٍ قصير، أدرك وجود أحدهم بجانبه الأيمن، ثم التفت ليرى أنطوني، الذي تمزّق وجهه بين الغضب والقلق.

- هل هناك مشكلة؟

سأل أنطوني في لطف، بينما انجرفت عيناه إلى وجه شقيقته المُعَذَّب. وقبل أن يتمكن سايمون من إيجاد الرد المناسب، أجابت دافني:

- كلا.

كانت جميع العيون قد تحولت إليها في تلك اللحظة، ثم تابعت:

- لا داعي لأن تُقَام مبارزة؛ فأنا وصاحب الجلالة سنتزوج.

- حسنًا.

بدا أنطوني كما لو أنه قد رغب في إبداء جوابٍ يحمل المزيد من الارتياح والاسترخاء، لكن وجه شقيقته الجاد قد فرض سكونًا غريبًا على المشهد.

- سأخبر الآخرين.

قال أنطوني، ثم سار مبتعدًا عنهما.

شعر سايمون باندفاعِ شيءٍ غريب تمامًا ليملأ رئتيه؛ لقد كان الهواء. وأدرك سايمون ببلاهةٍ أنه كان يحبس أنفاسه، ولم يدرك حتى إنه كان يحبس أنفاسه طوال هذا الوقت.

كان هناك شيءٌ آخر قد غمره أيضًا، شيءٌ دافئ ومخيف، شيءٌ أشعره بالنصر والروعة. لقد كانت مشاعره واضحة، نقية، مزيجٌ غريب من الارتياح، والسعادة، والرغبة، والفزع كان قد غمره. أما سايمون، الذي كان قد قضى معظم حياته يتجنب المشاعر الهوجاء، فلم يكن لديه أدنى فكرة عما يفعله بشأن كل تلك المشاعر التي غمرته فجأةً.

التقت عيناه بعيني دافني.

- هل أنتِ واثقة؟

سألها بصوتٍ رقيقٍ هامس، فأومأت بوجهٍ يخلو من المشاعر والانفعالات، ثم أجابت:

- أنت تستحق المحاولة.

ثم سارت مبتعدةً عنه رويدًا لتعود إلى فرسها. وقد تركت سايمون بمفرده يتساءل ما إذا كان قد ارتفع فجأةً إلى الجنة، أم ربما قد هوى إلى الدرك الأسفل من الجحيم.

قضت دافني بقية يومها مُحاطةً بعائلتها المحبوبة. بالطبع كان الجميع سعيدًا ومدهوشًا بأخبار خطبتها. ويُقصَدُ بالجميع هم الجميع باستثناء أشقائها الكبار، الذين كانوا مع سعادتهم من أجلها، يشعرون بأنهم ملجومون بطريقة ما. لم تعاتبهم دافني؛ فقد كانت هي نفسها تشعر بأنها ملجومة أيضًا. وكانت أحداث اليوم قد تركتهم جميعًا مُنهَكين.

كان قد تقرر أن يُقام حفل الزفاف في أسرعِ وقتٍ ممكن. (فقد وصل إلى مسامع فيوليت أن دافني ربما شُوهِدَت وهي تُقَبِّل سايمون في حديقة ليدي تروبريدج، وقد كان هذا كافيًا بالنسبة إليها حتى تبعث بطلبٍ إلى المطران تسأله السماح بمنح رخصةٍ خاصة للزواج). ثم غمرت فيوليت نفسها في دوامات تفاصيل الحفل، وقد أعلنت أن كون حفل الزفاف صغيرًا فهذا لا يعني أبدًا أن يكون أجوفَ وبائسًا.

كانت الشقيقات الصُغريات: إلويز، وفرانشيسكا، وهياسنث، جميعهن متحمسات لفكرة ارتداء فساتين وصيفات العروس. وقد ظللن يطرحن وابلًا مستمرًّا من الأسئلة على دافني: كيف كان عرض سايمون للزواج؟ هل ركع على ركبةٍ واحدة أمامكِ؟ ما اللون الذي سترتديه دافني؟ ومتى سيمنحها الخاتم؟

كانت دافني قد بذلت أقصى جهودها للجواب على أسئلتهن، لكنها بالكاد كانت قادرة على التركيز مع شقيقاتها. وبمرور الوقت، جاءت فترةُ ما بعد الظهيرة، ثم الأصيل، ثم المساء. كانت إجاباتها قد اضمحلت إلى أجوبةٍ من مقطع واحد. وأخيرًا، بعدما سألتها هياسنث عن لون الزهور الذي ترغب فيه من أجل باقة العروس، كان جواب دافني كالآتي: «ثلاثة». حينها استسلمت الشقيقات الثلاث، وتخلين عن الحديث معها، ثم تركنها بمفردها.

إن ضخامة أفعال دافني في اليوم السابق واليوم الحاضر قد تركتها عاجزةً عن الحديث تقريبًا. لقد أنقذت حياة أحدهم، وحصلت على وعدٍ بالزواج من الرجل الذي تعشقه، وألزمت نفسها بحياةٍ خاليةٍ من الأطفال.

جميعها في يومٍ واحد.

خرت دافني ضاحكة، وربما كانت ضحكتها بائسةً بعض الشيء. لقد جعلت المرء يتساءل عما يمكن أن تفعله دافني غدًا حتى تسترجع بعضًا من أحداث اليوم. كانت ترغب في معرفةِ ما مرَّ بعقلها في تلك اللحظات الأخيرة قبل أن تلتفت إلى أنطوني وتقول كلماتها: «لا داعي لأن تُقَام مبارزة». ولكن

في الحقيقة، لم تكن واثقةً أن هناك شيئًا يمكنها فعله حتى تتذكر. مهما يكن ما كان يدور في رأسها، فإنه لا يمكن صياغته في كلمات، أو جُمَل، أو فكرةٍ واعية. كان الأمر يبدو كما لو أنها مُطوَّقةٌ بلونٍ ما؛ أحمر، وأصفر، وخليطٌ دوَّار من اللون البرتقالي في المكان الذي التقيا فيه. مشاعر وفطرة نقية. هذا كل ما كان هناك تلك اللحظة. لا أسباب، لا منطق، لا شيء يمكن أن يمُتَّ للعقلانية، أو العقل بصلة.

وبطريقةٍ ما، بينما كانت جميع تلك الأمور تعتصر في ذهنها وداخل روحها، كانت تعرف جيدًا ما الذي عليها فعله. ربما تكون قادرة على الحياة دون أطفال لم تحملهم في أحشائها بعد، ولكنها لا تستطيع الحياة دون سايمون. الأطفال مخلوقاتٌ بدائية غير معروفة، لا ملامح لها، ولا يمكنها حتى أن تتصورها في مخيلتها، أو تلمسها بيديها.

لكن سايمون.. سايمون كان حقيقيًّا، واقِعًا، حاضِرًا ها هنا. كانت تدرك جيدًا ملمس وجنتيه، وشعور ضحكتها في وجوده. كانت قد أدركت حلاوة قُبلَتِه، وابتسامة المراوغة الممتعضة، التي تنبت على شفتيه.

والأهم أنها كانت تحبه.

وعلى الرغم من أنها بالكاد تجرأت على التفكير في الأمر، إلا إنه ربما كان سايمون مُخطئًا، ربما كان بإمكانه إنجاب الأطفال. ربما تعرَّض للتضليل من جانب جَرَّاحٍ غير كُفء، أو ربما كان الرب يؤجله إلى اللحظة المناسبة حتى يمنحه المعجزة. لم تكن تتوقع أن تكون أُمًّا لسلالة بحجم آل بريدجرتون، لكن إن تمكنت حتى من إنجاب طفلٍ واحد، فإنها ستشعر بالكمال والرضا.

بالطبع لن تذكر تلك الأفكار في حضرة سايمون، فربما إن اعتقد أنها تحمل ولو بصيص أملٍ في إنجاب طفل، فلن يتزوج منها. كانت واثقة مما تفكر فيه. لقد قطع أشواطًا طويلة حتى يحقق أمانته، وصدقه القاسي. ولن يسمح لها باتخاذ قرارٍ إن لم يكن يعتقد أنها قد علمت بجميع الحقائق المطلقة دون إخلال.

- دافني؟

دافني التي كانت تجلس كسولةً فاترة الهمة على الأريكة في قاعة استقبال منزل عائلة بريدجرتون، تطلعت إلى الأعلى لترى والدتها ترمقها في قلق شديد.

- هل أنتِ بخير؟

سألت فيوليت، فأجبرت دافني عضلات وجهها على إظهار ابتسامة ضجرة، ثم أجابت:

- أنا مُتعَبَةٌ فحسب.

وقد كانت كذلك. لم يخطر الأمر ببالها، حتى تلك اللحظة التي أدركت فيها أنها لم تنم منذ أكثر من ستٍّ وثلاثين ساعة. جلست فيوليت بجانبها وقالت:

- كنت أعتقد أنكِ ستكونين أكثر حماسًا. أنا أعلم كم تحبين سايمون.

التفتت دافني بعينين دَهِشَتين نحو والدتها، فقالت فيوليت في لُطف:

- ليس من الصعب أن أرى ذلك في عينيكِ.

ربتت فيوليت على يدها، ثم تابعت:

- إنه رجلٌ صالح، لقد اخترتِ جيدًا.

شعرت دافني بابتسامةٍ مترددة تنبت على وجهها، لقد اختارت جيدًا من قبل، وستسعى لتحقيق أفضل ما يمكنها تحقيقه حتى تجعله زواجًا سعيدًا. فإذا لم يُرزَقَا بأطفالٍ فلا بأس. وقد فكرت دافني في أنها ربما تكون هي الأخرى عاقرًا على أي حال. لقد كانت على معرفةٍ بعددٍ من الأزواج الذين لم يحظوا بأي أطفال في حياتهم، وقد راودها شَكٌّ في إن كان أحدٌ منهم قد عرف بأمر عجزه قبل أن ينطق بعهود الزواج. ومع وجود سبعةٍ من الأشقاء والشقيقات، كانت على ثقةٍ من أنها ستحظى بالكثير من أبناء الإخوة، والأخوات، وبناتهم حتى تستمتع بعناقهم وتدليلهم.

كان من الأفضل لها أن تحيا برفقة الرجل الذي تحبه على أن تحظى بأطفالٍ مع رجلٍ لا تحبه.

- لماذا لا تحظين بقيلولة؟ تبدين مُنهَكةً للغاية، وأنا أكره أن أرى تلك الهالات السوداء أسفل عينيكِ.

اقترحت فيوليت، فأومأت دافني، وتعثرت لتقف على قدميها. كانت والدتها تعلم ما هو أفضل لها في تلك اللحظة، فقد كان النوم هو كل ما تحتاج إليه.

أجابت دافني:

- أنا واثقةٌ بأنني سأشعر بالكثير من التحسن إذا نِمتُ ساعةً أو ساعتين.

وانفرج فاها عن تثاؤبٍ ناعِسٍ للغاية.

نهضت فيوليت، وعرضت ذراعها إلى ابنتها لتستند إليها، وقالت بابتسامة:

- لا أعتقد أنكِ ستكونين قادرة على اعتلاء الدرج بمفردكِ.

وقادت دافني خارج الغرفة، حتى اعتلتا الدرج. ثم تابعت فيوليت:

- وبصدقٍ أشكُّ في أننا سنراكِ بعد ساعةٍ أو ساعتين. سأُصدِرُ تعليمات واضحةً للجميع ألا يزعجكِ أحدٌ حتى الصباح.

أومأت دافني في نُعاسٍ وتمتمت:

- هذا جيد.

وبينما كانت تتعثر في الولوج إلى غرفتها، تمتمت متابعة:

- صباح جيد.

دفعت فيوليت دافني إلى الفراش، وساعدتها لتتدثر فيه. كان الحذاء هو ما خلعته من قدميها، واكتفت بذلك، ثم قالت بلُطف:

- ربما تنامين بملابسكِ أيضًا.

ثم انحنت لتُقَبِّل ابنتها على جبهتها، وتابعت:

- لا أتخيل أني قادرة على تحريككِ أكثر من ذلك لخلع ملابسك.

وكان الردُّ الوحيد الذي جاء من دافني هو صوت شخيرٍ هادئ.

كان سايمون أيضًا مُنهَكًا؛ فليس من قبيل العادة اليومية أن يقدم المرء نفسه بخضوعٍ إلى الموت، ثم تنقذه -وتخطبه!- المرأة التي شغلت جميع أحلامه طوال الأسبوعين الماضيين.

لو لم يكن قد حظي بعينين متورمتين، وكدمةٍ كبيرة الحجم على ذقنه، ربما كان ليعتقد أن كل ما مرَّ به لا يتعدى كونه حلمًا.

هل أدركت دافني ما قد فعلته؟ وما الذي كانت تحرم نفسها منه؟ إنها فتاةٌ حكيمة، لا ترضخ للأحلام السخيفة، ومُغرِيات الخيال؛ لذلك لم يعتقد سايمون أنها ستوافق على الزواج منه دون أن تخوض في جميع الاحتمالات والعواقب.

ولكن مجددًا، لقد وصلت إلى قرارها في برهةٍ قصيرة، فكيف لها أن تفكر في كل شيء في لحظةٍ واحدة؟ بالطبع ما لم تكن الحقيقة أنها تخيلت أنها مُغرَمةٌ به وواقعةٌ في حبه. هل تتخلى دافني عن حلمها في الأمومة والعائلة من أجل حبها له؟

أو ربما وافقت على الزواج منه بدافع الشعور بالذنب. فإذا كان قد تقرر لسايمون أن يموت في تلك المبارزة، فقد كان واثقًا من أن دافني ستأتي ببعض الأسباب التي ستجعل الأمر يبدو كما لو كان خطأها. تبًّا لكل شيء، إنه يحب دافني. لقد كانت واحدة من أفضل النساء اللاتي عرفهن في حياته. ولم يعتقد سايمون أن بإمكانه الحياة إن تخيل موتها في ذهنه فقط. وربما شعرت دافني حياله بالشيء نفسه.

أيًّا تكن دوافعها، فإن الحقيقة الواضحة الآن هي تلك التي جاءت هذا السبت -فقد أرسلت إليه ليدي بريدجرتون بالفعل رسالة قصيرة تخبره أن مدة الخطبة لن تطول-، وعليه فإنه سيرتبط بدافني برباطٍ مقدس مدى الحياة.

أدرك سايمون أنه لم يعد هناك مجالٌ للتراجع الآن؛ فدافني لن تنسحب من هذا الزواج في تلك المرحلة، ولن ينسحب هو أيضًا. ولدهشته التامة، منحته تلك الحقيقة القدرية...

شعورًا جيدًا.

ستكون دافني حلالًا له. كانت تعلم جميع نواقصه، وكانت تعلم ما لا يمكنه أن يمنحها إياه، ومع ذلك اختارت البقاء معه والزواج منه. لقد أثلج الأمر صدره أكثر مما اعتقد أن يكون ممكنًا.

- يا صاحب الجلالة؟

تطلع سايمون إلى الأعلى، بينما كان يجلس في وضع ارتخاء على كرسي مكتبه الجلدي. لم يكن في حاجة إلى التطلع حتى؛ فقد كان من الواضح أن الصوت الخافت الهادئ هو صوت رئيس خدمه.

- أجل، جيفريز؟

- لورد بريدجرتون هنا لرؤيتك. هل أخبره أنك لست بالمنزل؟

نهض سايمون على قدميه على الفور. تبًّا، لكنه كان مُتعَبًا، إلا إنه أجاب:

- لن يصدقك.

أومأ جيفريز باستسلام، وقال:

- حسنًا يا سيدي.

وأخذ ثلاث خطوات، ثم استدار إلى الخلف، لكنه تابع:

- هل أنت واثقٌ من أنك ترغب في تلقي أي زائرين؟ تبدو متوعكًا وشاحبًا.

أطلق سايمون ضحكة خالية من حس الدعابة، وقال:

- إذا كُنتَ تشير إلى عيني، فلك أن تعلم أن لورد بريدجرتون هو الشخص المسؤول عن كُبرى هاتين الندبتين.

طرف جيفريز بعينين واسعتين في عدم تصديق، وقال:

- الكبرى يا صاحب الجلالة؟

تمكن سايمون من إظهار نصف ابتسامةٍ، ولم يكن الأمر سهلًا بالنظر إلى جروح وجهه المتعددة؛ فقد كان وجهه يتألم بشدة.

- أعلم أنه من الصعب التمييز بينهما، ولكن عيني اليمنى في الحقيقة تبدو أسوأ قليلًا من العين اليسرى.

ترنَّح جيفريز مُقتَرِبًا من سايمون يعتريه الفضول والدهشة.

فأجاب سايمون:

- ثق بما أقوله.

اعتدل رئيس الخدم وقال:

- بالتأكيد. هل أرافق لورد بريدجرتون إلى قاعة الاستقبال؟

- كلا، أحضره إلى هنا.

وعندما لاحظ ابتلاع جيفريز لُعابَه بصعوبة، أضاف:

- لَستَ في حاجةٍ إلى القلق على سلامتي، ليس هناك احتمال أن يضيف اللورد بريدجرتون إلى إصاباتي شيئًا في تلك المرحلة.

ثم أضاف متمتمًا:

- ليس وكأنه سيتمكن بسهولة من إيجاد بقعةٍ لم تُصَب بعد.

اتسعت عينا جيفريز، وانطلق مُسرِعًا خارج الغرفة.

بعد برهة، سار أنطوني بريدجرتون بخُطى واسعة إلى داخل الغرفة، وبنظرةٍ واحدة إلى سايمون قال:

- تبدو في حالٍ مزرية.

نهض سايمون ورفع حاجبه -بالطبع لم يكن إنجازًا سهلًا في وضعه الحالي- ثم قال:

- أهذا يُدهِشُك؟

ضحك أنطوني. كانت ضحكته كئيبةً بعض الشيء، وربما جوفاء قليلًا، لكن سايمون شعر بشبح صديقه القديم، شبح صداقتهما القديمة، وقد اندهش قليلًا من امتنانه لشيء كهذا.

سار أنطوني مُقتَرِبًا من سايمون، ومد يده نحو عيني سايمون قائلًا:

- أيهما تخصني؟

- اليمنى.

أجاب سايمون بينما يتلمس بشرته المتورمة، ثم تابع:

- دافني تمتلك لكمة جيدة بالنسبة إلى فتاة، لكنها تفتقر إلى حجم قبضتك وقوتها.

مال أنطوني إلى الأمام ليُعاين عمل يدي شقيقته، وقال:

- ومع ذلك، أنجزت عملًا جيدًا للغاية.

ضحك سايمون قائلًا:

- يجب أن تكون فخورًا بها. إنها تؤلمني بشدة.

- جيد.

ثم أطبق عليهما صمتٌ مميت. كان لديهما الكثير ليُقال، لكنهما يفتقران إلى كيفية التعبير عنه. حتى كسر أنطوني الصمت أخيرًا، وقال:

- لم أرغب قط في أن تؤول الأمور إلى ما آلت إليه.

- ولا أنا أيضًا.

استند أنطوني إلى حافة مكتب سايمون، لكنه بدَّل وضعيته إذ شعر بعدم الارتياح، وبدا جسده مضطربًا على نحو غريب، كما لو أنه لا يرتاح داخل ملابسه، ثم قال:

- لم يكن من السهل عليَّ أن أدعك تتودد إلى شقيقتي.

- لقد كُنتَ تعلم أن الأمر ليس حقيقيًّا.

- لكنك جعلته حقيقيًّا بالأمس.

كيف يجيب عن هذا؟ هل يخبره أن دافني هي من لعبت دور الغاوية ولم يكن هو؟ هل يخبره أنها كانت من قاده خارج الشرفة وأغراه إلى الحديقة في

ظُلمة الليل؟ أيٌّ من هذا لم يكن مهمًّا. لقد كان أكثر خبرةً وتجربةً من دافني، وكان عليه أن يوقفها حينئذٍ.

لكن آثر ألا يجيب بشيء.

- آمل أن نترك تلك الأمور وراء ظهورنا.

قال أنطوني. فأجاب سايمون:

- أنا واثقٌ أن هذا سيكون أحَبَّ الرغبات إلى دافني.

ضاقت عينا أنطوني في تشكك، وقال:

- والآن صار هدفك في الحياة أن تمنحها أحبَّ رغباتها؟

فكر سايمون قبل أن يجيب، قائلًا في نفسه: «*جميعها دون واحدة. جميعها دون الواحدة التي تُهِمُّها حقًّا*».

ثم أجاب سايمون في هدوء:

- أنت تعلم أنني سأبذل قصارى جهدي حتى أجعلها سعيدة.

أومأ أنطوني وقال:

- إن آذيتها...

فقاطعه سايمون بلَهجَةِ مَن يقطع وعدًا:

- لن أتسبب في إيذائها أبدًا.

كانت عيناه متوهجتين في تلك اللحظة.

تطلع إليه أنطوني بنظرةٍ طويلة ورتيبة، وقال:

- كنتُ مستعدًّا لقتلك من أجل تشويه سمعتها. ولكن إذا آذيت روحها، أعدك أنك لن تجد الراحة طوال حياتك، والتي...

كانت نظرة عينيه قد صارت أشد برودة وقسوة حين أضاف:

- والتي لن تدوم طويلًا.

أجاب سايمون مُلَطِّفًا الأمور:

- ستدوم بما يكفي حتى أتذوق آلامًا شديدة مُوجِعة؟

- بالضبط.

أومأ سايمون باقتضاب، فعلى الرغم من أن أنطوني كان يتوعده بالعذاب والموت، لم يستطع سايمون الشعور بشيء نحوه سوى احترامه على هذا الأمر. وفاؤه وتفانيه في سبيل شقيقته كان أمرًا مُشَرِّفًا جديرًا بالاحترام.

وتساءل سايمون ما إذا كان أنطوني قد رأى في شخصيته شيئًا لم يره أحدٌ من قبل. لقد امتدت صداقتهما إلى ما يزيد على نصف حياتيهما. هل اختبر أنطوني بطريقةٍ ما الجوانب المظلمة في روح سايمون؟ الأسى والحسرة والغضب الذين حاول جاهدًا إخفاءهم؟

وإن كان هذا ما حدث، أكان هذا سببَ قلقه على سعادة شقيقته؟

نفض سايمون عن عقله تلك الأفكار، وقال:

- أعدك بذلك. سأبذل كل ما في وسعي من جهود حتى أجعلها آمنة وراضية.

أومأ أنطوني بفظاظة، وقال:

- حسنًا إذا كان هذا وعدك.

ودفع نفسه مبتعدًا عن المكتب، وسار نحو الباب، ثم تابع:

- وإلا ستراني كثيرًا.

وغادر الغرفة.

أنَّ سايمون قليلًا قبل أن يعود غارقًا في كرسيه الجلدي. متى صارت حياته بكل هذا التعقيد؟ متى صار الأصدقاء أعداء؟ ومتى قاد الغزل إلى الشهوة؟

وما الذي سيفعله مع دافني بعد كل هذا؟ لم يكن يرغب في إيذائها، في الحقيقة لن يتحمل إيذاءها. ومع ذلك فقد تقرر له ببساطةٍ فعل ذلك، إذ وافق على الزواج منها. كان يحترق شوقًا إليها، يتمنى ذلك اليوم الذي فيه سترقد على الفراش أمامه حتى يغطي جسدها بجسده، يستكشفها رويدًا رويدًا حتى تموء باسمه...

أجفل سايمون فجأة. تلك الأفكار لن تعود بأي نفعٍ على صحته.

- يا صاحب الجلالة!

كان هذا جيفريز مجددًا، وكان سايمون مُنهَكًا، حتى إنه عجز عن التطلع إليه، لذلك اكتفى بإيماءة مُقتَضَبة بيده.

- ربما ترغب في أن تأوي إلى الفراش يا صاحب الجلالة.

تمكن سايمون من إلقاء نظرةٍ إلى الساعة، ولكن هذا لأنه لن يضطر إلى تحريك رأسه لفعل ذلك. وبالكاد كانت تشير إلى السابعة مساءً، ولم يكن موعد نومه المعتاد قط.

فغمغمِ قائلًا:

- ما زال الوقت مبكرًا.

فأجاب رئيس الخدم موضحًا:

- ربما تود الإيواء إلى الفراش للراحة.

أغلق سايمون عينيه. كان جيفريز على حق؛ ربما ما كان في حاجةٍ إليه هو عناقٌ طويلٌ بفراشه المحشو بالريش، وملاءته الكتانية الناعمة. يمكنه الهرب إلى غرفة النوم، حيث يتمكن من تجنب رؤية بريدجرتون آخر طوال تلك الليلة.

اللعنة، فبما يشعر به من تعبٍ وإرهاق، ربما يختبئ في غرفة نومه لأيام طويلة.

الفصل الثالث عشر

21 من مايو 1813 **جريدة المجتمع**

إنــه زواج دوق هاســتنجز والآنســة بريدجرتــون!

لا بد أن تنتهز كاتبة هذا المقال هذه الفرصة لتُذَكِّرك -عزيزي القارئ- أنها قد تنبأت في هذا العمود بحفل الزفاف المرتقب. ولم يغب عن ملاحظة كاتبة هذا المقال أنه عندما تنشر هذه الجريدة ارتباطًا جديدًا بين رجلٍ نبيل وسيدة غير متزوجة، فإن الاحتمالات في أعراف المراهنة التي تقع في أندية الرجال تتغير في غضون ساعات، ودائمًا ما تكون في صالح الزواج.

ومع أن كاتبة هذا المقال غير مسموحٍ لها بالدخول إلى نادي وايتس، إلا إنها تمتلك أسبابًا تعتقد من أجلها أن نسبة الاحتمالات الرسمية التي تتعلق بزواج الدوق والآنسة بريدجرتون هي 2 إلى 1.

ليدي ويسلداون

مرَّت بقية الأسبوع في عُجَالة، ولم تكن دافني قد رأت سايمون طوال عدة أيام متتالية. ربما اعتقدت أنه قد غادر المدينة، إلا إن أنطوني قد أخبرها أنه قد ذهب لزيارة منزل هاستنجز، لتسوية تفاصيل عقد الزواج مع سايمون.

ومما أثار دهشة أنطوني، أنه قد رفض سايمون قبول قرشٍ واحد مهرًا له[1]. وأخيرًا، اتفق الرجلان على أن يضع أنطوني الأموال التي تركها والده من

(1) مفهوم المهر في إنجلترا يختلف عن معناه في بقية دول القارة الأوروبية؛ ولذلك ففي إنجلترا، كانت تُقَسَّم تركة الأب عند زواج ابنته، وليس عند وفاته، حتى تحظى بحقها الذي تدفعه عائلة العروس مهرًا لزواجها إلى عائلة الزوج المستقبلي، من أجل مصروفاتها المستقبلية طوال حياتها، أو نفقة أطفالها. ويؤدي عدم الاتفاق على قيمة المهر إلى إلغاء الزواج. (المترجم)

أجل زواج دافني في عقارٍ منفصل، ثم نَصَّب نفسه أمينًا عليه، وسيكون ملكًا لها إن أرادت إنفاقه أو ادخاره كيفما تحب.

وقد اقترح أنطوني عليها قائلًا:

- ويمكن أن تخصصيه لأولادك.

اكتفت دافني ببسمة مقتضبة، فإما هذا وإما البكاء.

وبعد أيامٍ قليلة من تلك المحادثة، حضر سايمون لزيارة منزل بريدجرتون بعد الظهيرة. ولم يبقَ سوى يومين فقط على موعد الزفاف. كانت دافني تنتظر في قاعة الاستقبال بعدما أعلن هامبولدت وصوله. جلست دافني باحتشام على حافة الأريكة الدمشقية، مستقيمة الظهر وقد تشابكت أصابعها معًا في حجرها. كانت واثقةً تمامًا من أنها تبدو النموذج المثالي للأنوثة الإنجليزية الأرستقراطية. لكن هذا لا ينفي شعورها بالتوتر، والقلق أيضًا.

حسنًا، تصحيح: لقد شعرت –عندما انقلبت معدتها رأسًا على عقب– بأن رأسها عبارة عن حزمة من الأعصاب المعرضة للاحتراق في أي لحظة.

تطلعت إلى أسفل نحو يديها المتشابكتين، وأدركت أن أظفارها قد تركت تجاويف حمراء هلالية على راحتي يدها.

تصحيحٌ آخر: شعرت وكأن رأسها عبارة عن حزمة من الأعصاب المعرضة للاحتراق في أي لحظة وقد اخترقها سهمٌ ثاقب.

كان الدافع للضحك العصبي في تلك اللحظة قد غالبها، كما كان غير ملائم تمامًا. لم تشعر قط بالتوتر لرؤية سايمون من قبل، وفي الحقيقة، كان هذا الأمر تحديدًا هو الجانب المميز لصداقتهما. حتى عندما أدركته يتطلع إليها بشوقٍ مستكين، وكانت واثقةً من أن عينيها قد عكستا له ذلك الشوق، فقد كانت دائمًا ما تشعر بالارتياح التام برفقته. حسنًا، كانت معدتها مضطربة، وقد سارت القشعريرة في جسدها حتى ارتعد شعر رأسها، لكنها كانت أعراض الرغبة فيه، وليس عدم الارتياح معه. فأولًا وأخيرًا، كان سايمون صديقها، وكانت دافني تعلم جيدًا أن الشعور بالسعادة والارتياح اللذين اختبرتهما في صحبته متى كان بالقرب منها كان أمرًا لا يجب الاستخفاف بقيمته.

كانت واثقةً تمامًا من أنهما سيعودان إلى الشعور بالارتياح والصُحبة. ولكن بعد ذلك المشهد الذي وقع في ريجنتس بارك، خشيت من أن تستغرق

رحلة العودة إلى سابق عهدهما وقتًا أطول مما اعتقدته، في وقتٍ آجل دون عاجل.

- نهارٌ سعيد، دافني!

ظهر سايمون عند عتبة الباب، يملأ الأجواء بحضوره الساحر. حسنًا، ربما لم يكن حضوره ساحرًا كما هو مُعتادٌ منه؛ فقد كانت عيناه لا تزالان تحظيان ببضع كدمات بنفسجية متماثلة، أما تلك الكدمة في ذقنه، فقد بدأت تتحول إلى إحدى درجات الأخضر الرائعة.

ومع ذلك، لم تزل تلك الكدمات أفضل من رصاصةٍ في قلبه.

أجابت دافني تحيته قائلةً:

- سايمون، كم هو رائع أن أراك. ما الذي جلبك إلى منزل بريدجرتون؟

فمنحها نظرة استغراب وقال:

- ألسنا مخطوبين؟

أجابت دافني في خجل:

- أجل، بالطبع.

- كنت أظن أنه من المفترض على الرجال أن يذهبوا لزيارة سيداتهم المستقبليات.

جلس سايمون قبالتها، وراح يتابع:

- ألم تقل ليدي ويسلداون شيئًا ما عن هذا الأمر؟

غمغمت دافني:

- لا أعتقد ذلك، ولكني واثقةٌ أن أمي لا بد وأنها قالت شيئًا ما عن هذا الأمر.

ابتسم الزوجان معًا، وللحظة شعرت دافني أن كل شيء سيعود إلى سابق عهده مجددًا. ولكن بمجرد أن تلاشت الابتسامة عن شفاهما، خيَّم صمتٌ مضطرب على الغرفة.

سألت دافني أخيرًا:

- هل عيناك في حالٍ أفضل؟ لا تبدوان متورمتين كما كانتا في السابق.

- أتعتقدين ذلك؟

والتفت سايمون ليواجه مرآة مُذَهَّبة كبيرة، ثم تابع:

- أعتقد أن الكدمات قد تحولت إلى إحدى درجات اللون الأزرق الرائع.

- بنفسجي.

انحنى سايمون إلى الأمام، ليست تلك الانحناءة القصوى التي تجعله أكثر قربًا من المرآة، ثم قال:

- بنفسجي إذن. ولكني أعتقد أنها ربما تكون حقيقة مُختَلَف فيها.

- هل لا تزال تؤلمك؟

- فقط عندما يضغط عليها أحد.

أجاب سايمون مبتسمًا. لكن ابتسامته كانت جدية، يعوزها حِسُّ الدعابة، فتمتمت دافني:

- سأمتَنِعُ إذن عن الضغط عليها.

كانت شفتاها تزومان في رعشةٍ مُحذِّرة، ثم تابعت:

- سيكون أمرًا صعبًا بالطبع، ولكني سألتزم بالأمر.

أجاب سايمون بوجهٍ صارم:

- أجل، أحيانًا ما أخبروني أنني أجعل النساء يرغبن في تسديد اللكمات إلى عيني.

كانت ابتسامة دافني تفريجًا عن النفس. إن كان بإمكانهما أن يمزحا بشأن أمورٍ كهذه، فسيعود كل شيء بينهما كسابق عهده تمامًا.

تنحنح سايمون قليلًا، قبل أن يكسر الصمت الذي خيَّم لبرهة، وقال:

- لديَّ سببٌ محدد جعلني أحضر لرؤيتك اليوم.

حدَّقت دافني إلى وجهه بترقب، منتظرةً إياه ليتابع حديثه.

أخرج سايمون من جيب سترته علبة مجوهراتٍ وتابع:

- هذه من أجلك.

غصَّت دافني بأنفاسها، التي توقفت فجأة بينما تمد يدها إلى العلبة المخملية الصغيرة، ثم تمكنت أخيرًا من سؤاله:

- هل أنت واثق؟

- أعتقد أن خواتم الخطبة تعتبر ضرورية من أجل مراسم اللياقة والذوق.

- صحيح. كم أنا غبية! لم أدرك...

- أن هذا خاتم خطبة؟ إذن ماذا كُنتِ تعتقدينه؟

- أنا لم أعتقد شيئًا على الإطلاق.

أجابت دافني بشيء من التردد.

لم يكن سايمون قد منحها أي هدية من قبل، وقد أُخِذَت على حين غرة بلفتته الرقيقة، حتى إنها قد نسيت تمامًا أنه يدين لها بخاتم خطبة.

«يدين!» لم تحب دافني وقع الكلمة على أذنيها، ولم ترحب قط بأنها قد فكرت فيها حتى. ولكنها كانت واثقةً تمامًا من أن سايمون لا بد وأنه كان يفكر بتلك الكلمة عندما قرر اختيار الخاتم، وهذا أحبطها كثيرًا.

أجبرت دافني ثغرها على رسم ابتسامة لطيفة، ثم سألت:

- هل هذا ميراثٌ عائلي؟

- كلا!

كان نفيه المفاجئ مصحوبًا بجِدَّةٍ صارمة جعلت عينيها تطرفان في دهشة.

- صحيح.

وهذا صمتٌ غريبٌ آخر قد خيَّم على الغرفة.

سعل سايمون عدة مرات، ثم قال:مكتبة .. سُر مَن قرأ

- لقد اعتقدتُ أنكِ ربما ترغبين في شيء يكون ملكًا خاصًا لكِ؛ فجميع مجوهرات هاستنجز قد اختيرت من أجل شخصٍ آخر، أما هذا، فقد اخترته من أجلكِ.

كان من العجيب حقًا في تلك اللحظة ألا تذوب دافني بين يديه.

- هذا لطيفٌ للغاية!

تلفظت دافني بالكلمات إذ بالكاد تمكنت من أن تكبح جماح شهقاتها العاطفية في هذا الموقف.

تلوَّى سايمون في مقعده، ولم يكن أمرًا غريبًا أثار دهشتها، فعادةً ما يكره الرجال أن يوصفوا باللطف.

قال سايمون ضاحكًا:

- ألن تفتحيه؟

- صحيح، أجل، بالتأكيد.

وهزَّت رأسها بخفةٍ إذ كانت تفيق من شرودها وتعود إلى الحاضر، ثم تابعت:

- كم أنا سخيفة!

كانت عيناها قد أضاءتا بوهجٍ لطيف إذ تركزت نظراتها على علبة المجوهرات. وطرفت عدة مرات لتتضح رؤيتها، وبحذرٍ شديد حررت إبزيم العلبة وفتحتها. وقد عجزت تمامًا عن النطق بأي شيء، سوى تلك الكلمات الثلاث:

- يا إلهي، سايمون!

حتى تلك الكلمات كانت قد خرجت من بين شفتيها بشهقةٍ حالمة حتى اختفى صوتها.

كانت العلبة تحتضن خاتمًا من الذهب الأبيض، مُزيَّنًا بزمردة كبيرة بيضاوية الشكل، ذات حواف مدببة، ومحاطة من كلا الجانبين بماسة وحيدة مُتقَنَة. ببساطة كان أجمل قطعة مجوهرات كانت قد رأتها دافني في حياتها؛ لامعة، لكنها أنيقة، ويتضح من مظهرها كم هي ثمينة، لكنها ليست صاخبة.

همست دافني:

- إنه جميل. لقد أعجبني كثيرًا.

- هل أنتِ واثقة؟

خلع سايمون قفازيه، ثم انحنى إلى الأمام والتقط الخاتم من العلبة، ثم تابع:

- لأنه خاتمكِ أنتِ، وأنتِ من سترتدينه، ومن الأفضل أن يُظهِرَ ذوقكِ أنتِ، وليس ذوقي.

شعر سايمون برجفةٍ خفيفة في صوتها إذ أجابت:

- يبدو أن ذوقينا متوافقان.

تنفس سايمون الصعداء إذ نطقت بتلك الكلمات، ثم مد يده ليلتقط يدها. لم يكن يدري حقًا كم يعني له أن يعجبها الخاتم حتى تلك اللحظة، فقد كان يبغض شعوره بالتوتر برفقتها الآن، بينما كانت صداقتهما سلسةً طوال

الأسابيع القليلة الماضية. كان يبغض تلك الفترات المستقطعة الصامتة في حديثهما، بينما في السابق كانت دافني هي الشخص الوحيد الذي لم يشعر سايمون برفقته بالحاجة إلى الصمت، والتفكير في كلماته قبل النطق بها.

ليس الأمر أنه يعاني أية مشكلاتٍ في الحديث الآن، بل كان الأمر ببساطة أنه بدا جاهلًا بما يمكن أن يقوله حتى يقطع الصمت. لقد خيَّمت الغرابة على محادثتهما.

سأل سايمون بلطف:

- هل لي أن أضع الخاتم في إصبعكِ؟

أومأت دافني وقد بدأت في خلع قفازها، لكن سايمون كان قد التقط أصابعها بأصابعه، ثم تولى تلك المهمة عنها. سحب مقدمة القفاز من كل إصبع، ثم جذب القفاز شيئًا فشيئًا من يدها. كانت حركته مثيرةً لا تعرف الخجل، ومن الواضح أنها نسخة مختصرة مما كان يود فعله؛ أن يزيل عن جسدها كل ما هو مَخيط.

شهقت دافني عندما انحسرت حافة القفاز عن أطراف أناملها. وكانت أصوات أنفاسها المتسارعة عبر شفتيها قد جعلته راغبًا فيها أكثر من ذي قبل.

وبيدٍ مرتعشة، أدخل الخاتم في إصبعها، وجذبه برفقٍ حتى بُرجُمتها، حيث استقر في موضعه أخيرًا.

- إنه يناسب يدي تمامًا.

عَلَّقت دافني بينما تحرك يدها هنا وهناك حتى ترى انعكاسه في الضوء.

أما سايمون؛ فلم يترك يدها قط، وبينما كانت تتحرك، كانت يدها تحتك بيده احتكاكًا ولَّدَ معه دفئًا غريبًا عليهما. ثم رفع سايمون يدها إلى فمه، وطبع قُبلَةً رقيقة على براجم أصابعها.

وتمتم:

- أنا سعيدٌ... لأنه ناسبكِ.

تقوَّست شفتاها.. تلك اللمحة التي تأتي معها الابتسامة العريضة التي طالما عشقها، وربما هي اللمحة التي تنبئ بأن كل شيء بينهما سيكون على ما يُرام.

- كيف عَرفتَ أنني أحب الزمرد؟

سألت دافني في دهشة. فأجاب:

- لم أعرف، لكن الزمرد قد ذَكَّرني بعينيكِ.

- بعينيّ...

ومالت دافني برأسها قليلًا إذ زَمَّت شفتيها فيما يمكن وصفه فقط بضحكة تعنيف، ثم تابعت:

- سايمون! إن عيني بنيتان.

فأجابها مُصَحِّحًا:

- بل بنيتان في أغلب الأحيان.

التفتت دافني حتى واجهت المرآة المُذَهَّبَة التي تطلع إليها سايمون في وقتٍ مبكر لفحص كدماته، وطرفت عدة مرات، ثم قالت في هدوءٍ كما لو أنها تتحدث إلى شخصٍ ذي ذكاءٍ محدود:

- كلا، إنهما بنيتان.

مد يده نحوها ومسح بطرف إصبعه برفق على الحافة السفلية من عينها. كانت رموشها الرقيقة تَخِزُ إصبعه مثل قبلة فراشة. ثم أجاب:

- ليستا بنيتين حول هالة عينيكِ.

ألقت إليه دافني نظرةً غلب عليها الشك والارتياب، لكنها مع ذلك مُحَمَّلةٌ بقليل من الأمل. ثم أطلقت تنهيدة مقتضبة مضحكة، ونهضت قائلةً:

- سأرى بنفسي.

راقبها سايمون بإعجابٍ إذ نهضت من كرسيها وسارت نحو المرآة، ثم اقتربت بوجهها من الزجاج. طرفت عيناها عدة مرات حتى تتضح لها الرؤية، ثم أبقت عينيها مفتوحتين، وطرفت عدة مراتٍ أخرى.

ثم قالت في تَعَجُّب:

- يا إلهي! لم أرَ هذا من قبل!

نهض سايمون وتحرك إلى جانبها. بينما كانا يستندان إلى الطاولة المصنوعة من خشب الماهوجني التي استقرت أمام المرآة، أردف سايمون مُعَلِّقًا:

- ستعلمين قريبًا أنني دائمًا على حق.

ألقت إليه نظرةً تهكمية، وقالت:

- ولكن كيف لاحظت ذلك؟

رفع سايمون كتفيه بعدم اكتراث، وأجاب:

- لقد تَطَلَّعتُ إليهما من كثب.

- أنت...

بدت دافني غير راغبةٍ في إتمام جملتها، ثم انحنت إلى الطاولة مجددًا، وأبقت على عينيها مفتوحتين على اتساعهما لترى اللون الأخضر مجددًا.

ثم تمتمت:

- تخيل هذا! أنا أمتلك عينين خضراوين.

- حسنًا، لن أتمادى حتى أقول...

قاطعته دافني مُعَلِّقةً:

- بدءًا من اليوم، أنا أرفض التصديق بأن عينيَّ تحملان لونًا آخر غير الأخضر.

فضحك سايمون مُجِيبًا:

- كما ترغبين.

تنهدت في حسرةٍ وقالت:

- كُنتُ دائمة الغيرة من كولين؛ هاتان العينان الجميلتان ما هما إلا مضيعة إذا امتلكهما رجل.

- أنا واثقٌ من أن السيدات الشابات اللاتي يتخيلن أنفسهن واقعات في حبه لن يتفقن مع ما تقولين.

ألقت إليه دافني نظرة ساخرة، وقالت:

- أجل، ولكن هذا لا يدل على شيء، أليس كذلك؟

أدرك سايمون رغبته في الضحك، ولكن بدلًا من ذلك اكتفى بردٍّ دبلوماسي.

- ليس إن حَكَمتِ بذلك.

قالت دافني بمكرٍ:

- ستعلم قريبًا أنني دائمًا على حق.

تلك المرة عجز تمامًا عن كبح ضحكته، كان من المستحيل أن يكتمها بداخله. وعندما توقفت ضحكته أخيرًا، أدرك أن دافني كانت صامتة. كانت تتطلع إليه بدفء، وقد تقوست شفتاها في ابتسامة أوحت إليه بالحنين إلى وقتٍ مضى.

- هذا رائع... تقريبًا كما كانت عادتنا، أليس كذلك؟

كانت تلك هي كلمات دافني التي نطقت بها، وهي تستقر بيدها على يده.

أومأ إليها موافِقًا، وراح يُدير راحة يده إلى أعلى حتى يمكنه أن يعانق يدها بيده.

- سيكون الأمر بيننا مثل اليوم، أليس كذلك؟

كانت رجفة ذعرٍ قد تلألأت في عينيها وهي تتابع:

- سنعود إلى سابق عهدنا، أليس كذلك؟ سيكون كل شيء تمامًا كما كان.

- أجل.

وافقها سايمون، على الرغم من أنه يعلم جيدًا أن هذا قد يكون غير صحيح. ربما يشعران بالقناعة والرضا في رحاب بعضهما بعضًا، لكن الحياة بينهما لن تعود أبدًا إلى ما كانت عليه من قبل.

اختلج ثغرها بابتسامة هادئة، ثم أغلقت عينيها، وأراحت رأسها على كتفه.

- جيد.

راقب سايمون انعكاسها على المرآة لعدة دقائق، وكاد أن يصدق أنه سيكون قادرًا على أن يجعلها إنسانًا سعيدة.

كان المساء التالي هو المساء الأخير لدافني بصفتها الآنسة بريدجرتون. وفي تلك الليلة، طرقت فيوليت باب غرفة ابنتها.

كانت دافني تجلس على فراشها، وقد تبعثرت أمامها تذكارات طفولتها الكثيرة، عندما سمعت طرق الباب.

صاحت دافني:

- تفضل بالدخول!

أقحمت فيوليت رأسها عبر الباب وقد ارتسمت على وجهها ابتسامة خجلة، ثم قالت بصوتٍ مضطرب:

- دافني، هل لديكِ بعض الوقت للحديث؟

تطلعت دافني إلى والدتها بقلق، وأجابت:

- أجل، بالتأكيد.

نهضت دافني بينما كانت فيوليت تطأ أرض الغرفة. كانت بشرة والدتها المميزة تتماشى تمامًا مع ثوبها الأصفر.

- هل أنتِ بخير يا أمي؟ تبدين شاحبة.

تساءلت دافني. فقالت:

- أنا بخير. أنا...

تنحنحت فيوليت وتصلَّبت أكتافها، ثم تابعت:

- لقد حان الوقت لنتحدث قليلًا.

- صحيح.

أخذت دافني نفسًا عميقًا، وكانت ضربات قلبها تتسارع في توقع لما ستسمعه. لقد كانت تنتظر تلك اللحظة منذ وقتٍ طويل؛ فقد أخبرتها جميع صديقاتها أنه في الليلة التي تسبق يوم الزفاف، تخبرها الأم بجميع أسرار الزواج، وفي اللحظة الأخيرة، تدخل الفتاة إلى طور الأنوثة، ويخبرها الجميع بكل الحقائق الماكرة الرائعة التي ظلَّت محفوظة بعيدة عن آذان الفتيات غير المتزوجات. وكان بعض من السيدات الشابات في مثل عمرها قد تزوجن بالفعل، وقد حاولت دافني وأصدقاؤها أن يحملنهن على كشف ما لن يقوله أي شخصٍ آخر، ولكن الفتيات الشابات المتزوجات كُنَّ يكتفين بالضحك والابتسامات الخجلة، ثم يقلن:

- ستكتشفن بأنفسكن قريبًا.

«قريبًا» قد صارت «الآن»، وباتت دافني لا تطيق الانتظار.

أما فيوليت؛ فقد بدت وكأنها ستُفرِغُ جميع ما في معدتها في أي لحظة.

ضربت دافني بلُطفٍ على رُقعَةٍ ما على فراشها، وقالت:

- هل تودين الجلوس هنا يا أمي؟

طرفت فيوليت بذهنٍ مُشتت، وأجابت:

- أجل، أجل، هذا جيد.

جلست فيوليت إلى الفراش. لم تكن جلستها كاملة، بل كان نصف جسدها جالسًا على الفراش، والنصف الآخر مُعلَّقًا في الهواء. لكنها بدت مُرتاحة للغاية.

قررت دافني أن ترأف بحال والدتها التي طغى عليها الخجل والشتات، وبدأت هي الحديث. فسألت بلطف:

- هل الأمر يتعلق بالزواج؟

كانت إيماءة فيوليت بالموافقة مقتضبة، حتى كانت بالكاد ملحوظة، لذلك جاهدت دافني حتى تكبح جماح الغبطة والبهجة في صوتها:

- ليلة الزفاف؟

تلك المرة تمكنت فيوليت أن تومئ برأسها إيماءة واضحة ظاهرة قوية، حتى إنها رفعت رأسها لأعلى مسافة بوصةٍ كاملة. ثم نطقت أخيرًا:

- أنا حقًّا لا أدري كيف أخبركِ بذلك؛ إنه أمرٌ غاية في الحساسية والجرأة.

حاولت دافني أن تنتظر في سُلوانٍ دون جزع؛ ففي نهاية المطاف ستصل والدتها إلى النقطة الرئيسية المنتظرة.

تابعت فيوليت بتلعثم:

- كما تعلمين؛ هناك أمورٌ أنتِ في حاجةٍ إلى معرفتها، أشياء ستحدث ليلة الغد، أشياء...

وسعلت فيوليت، ثم تابعت:

- تحدث بينكِ وبين زوجكِ.

انحنت دافني إلى الأمام، واتسعت عيناها مثل عدستين مكبرتين. أما فيوليت؛ فقد تراجعت إلى الفراش حتى اعتدلت في جلستها كُليًّا، بيد أنها لم تشعر بالارتياح وقد لاحظت اهتمام دافني الواضح.

ثم تابعت فيوليت:

- كما تعلمين؛ إن زوجكِ –والمقصود به هو سايمون بالطبع، بما أنه سيكون زوجكِ–...

لم تُظهِر فيوليت أي إشارةٍ تفيد بأنها ستُنهي هذه الفكرة، فتمتمت دافني:

- أجل، سايمون سيكون زوجي.

صدرت عن فيوليت أصواتُ أنين وتذمر، وكانت عيناها الزرقاوان بلون وردة الذرة تتطلعان إلى كل مكانٍ عدا وجه دافني. ثم نطقت أخيرًا:

- هذا أمرٌ عسيرٌ عليَّ للغاية.

فتمتمت دافني:

- هذا واضحٌ تمامًا.

أخذت فيوليت نفسًا عميقًا، وجلست على الفراش بظهرٍ مستقيم، وكانت قد ألقت بكتفيها النحيلتين إلى الخلف كما لو أن جسدها تصلَّب من أجل أكثر المهام بُغضًا بالنسبة إليها. ثم عاودت البدء مجددًا:

- في ليلة زفافكِ، سيتوقع منكِ زوجكِ أن تؤدي واجباتكِ الزوجية.

لم يكن هذا أمرًا لا تعلمه دافني بالفعل.

- يجب أن تؤدي طقوس الزواج.

- بالتأكيد.

هكذا تمتمت دافني.

- سيشاركِكِ فراشَكِ.

أومأت دافني بالموافقة، فقد كانت تعرف هذا أيضًا.

- وسيؤدي زوجكِ...

تحسست فيوليت طريقها نحو الكلمة المناسبة. وقد لوَّحت بيديها في الهواء، وتابعت:

- أفعالًا حميمية معينة معكِ.

انفرجت شفتا دافني قليلًا، وكان صوت شهقتها القصيرة هو الصوت الوحيد في الغرفة في تلك اللحظة. لقد بدأ الأمر يثير اهتمامها أخيرًا.

تابعت فيوليت وقد بدأ صوتها يتحول إلى شيء من الحِدَّة:

- وقد أتيت لأخبركِ أن واجباتكِ الزوجية ليست بالضرورة مؤلمة.

- ولكن ما هي واجباتي الزوجية؟

اشتعل وجه فيوليت بالحُمرة إذ قالت:

- أعلم أن بعض النساء قد يجدنَ الفعل بغيضًا إلى النفس، ولكن...

قاطعتها دافني سائلةً في فضول:

- هل يجدنه كذلك؟ إذن لماذا أرى الكثير من الخادمات يتسللن مختبئات برفقة الخدم من الرجال؟

تحول وجه فيوليت وحالتها على الفور إلى طابع صاحب العمل الذي يشتعل غضبًا، وسألتها في حدة:

- أيُّ خادمةٍ هي؟

فقالت دافني محذرةً إياها:

- لا تغيري الموضوع، لقد انتظرتُ أسبوعًا كاملًا حتى تلك اللحظة.

كانت بعض نيران الغضب التي اشتعلت في صوت فيوليت وعينيها قد خمدت إذ سمعت كلمات ابنتها، فقالت:

- حقًّا؟

كانت نظرة دافني نقيَّة تنطق بتلك الكلمات: «ما الذي كُنتِ تتوقعينه؟» لكنها أجابت:

- أجل، بالطبع.

تنهدت فيوليت وغمغمت:

- أين كنت؟

- كُنتِ تُخبِرينني أن بعض النساء يجدن واجباتهن الزوجية بغيضة إلى النفس.

- صحيح. حسنًا، مممممم...

نكست دافني رأسها متطلعةً إلى يدي والدتها. وقد لاحظت أنها قد مزَّقت منديل جيب كانت ممسكةً به.

- كل ما أريدكِ حقًّا أن تعرفيه...

كانت الكلمات تخرج متعثرة كما لو أنها لا تطيق الانتظار حتى تتخلص منها، وتابعت:

- هو أن الأمر ليس بغيضًا إلى النفس على الإطلاق، إذا كان الزوجان يهتمان لبعضهما بعضًا –وأنا واثقةٌ من أن الدوق يهتم لأمركِ كثيرًا–...

قاطعتها دافني بلطف:

- وأنا أهتم لأمره.

- بالطبع. صحيح.. حسنًا، كما تعلمين؛ بالنظر إلى أن كليكما يهتم لأمر الآخر، فلن يكون الأمر بينكما سوى لحظات خاصة ورائعة.

كانت فيوليت قد بدأت تتحرك نحو حافة الفراش، وكان الحرير الأصفر الباهت لتنورتها يمتد على شراشف الفراش بينما تتحرك. ثم تابعت فيوليت:

- ولا يُفتَرَضُ بكِ أن تكوني متوترة. أنا واثقةٌ أن الدوق سيكون لطيفًا للغاية.

استعادت دافني ذكرى قُبلَة سايمون الملتهبة، ولم تكن كلمة «لطيفة» تنطبق عليه.

- ولكن...

نهضت فيوليت عن الفراش مثل طلقةٍ مندفعة، وقالت:

- حسنًا، ليلةً سعيدة! هذا كل ما أتيت إلى هنا من أجله.

- هل هذا كل شيء حقًّا؟

اندفعت فيوليت نحو الباب، وقالت:

- مم.. أجل.

بدت نظرة عينيها المضطربة تحمل شعورًا بالذنب، لكنها تابعت:

- هل كُنتِ تتوقعين شيئًا آخر؟

- أجل!

ركضت دافني خلف والدتها، وألقت بنفسها وقد أعطت ظهرها إلى الباب حتى تمنع والدتها من الهرب، وتابعت:

- لا يمكنكِ أن تتركيني الآن وقد أخبرتِنِي بهذا فحسب!

تطلعت فيوليت إلى النافذة بشوق. وقد شعرت دافني بالامتنان لأن غرفتها في الطابق الثاني؛ وإلا ما كانت ستستطيع أن تمنع والدتها إن حاولت العثور على مخرج من النافذة.

- دافني...

قالت فيوليت وقد بدا صوتها مختنقًا أكثر منه لطيفًا، فقاطعتها دافني:

- ولكن ما الذي سأفعله أنا؟ ما هي واجباتي الزوجية؟

أجابت فيوليت في أدب واحتشام:

- زوجكِ سيعرف.

- أمي، لا أريد أن أبدو بلهاء.

فتذمرت فيوليت، وأردفت:

- لن تكوني بلهاء. ثقي بي. الرجال...

تعلَّقت دافني بالجملة غير المنتهية:

- الرجال ماذا؟ ماذا يا أمي؟ ما الذي كُنتِ ستقولينه؟

في الوقت الذي أنهت فيه دافني جملتها، كان وجه فيوليت بأكمله قد استحال إلى اللون الأحمر القاني، واستحالت رقبتها وأطراف أذنيها إلى الوردي.

لكنها تمتمت أخيرًا:

- الرجال يسهل إرضاؤهم، لن يشعر سايمون بالإحباط.

- ولكن...

- ولكن كفى!

أجابت فيوليت بصرامة، ثم تابعت:

- لقد أخبرتكِ كل شيء أخبرتني به أمي. ولا تكوني بلهاء حادة المزاج، ومارسا الأمر بما يكفي حتى تحظي بطفل.

فغرت دافني فاها عن آخره إذ قالت:

- ماذا...؟ ماذا تقصدين؟

ضحكت فيوليت في توتر، ثم قالت:

- هل نَسيتُ أن أخبركِ بأمر الأطفال؟

- أمي!

- حسنًا، واجباتكِ الزوجية –أقصد إتمام طقوس الزواج– هي الكيفية التي تحظين من خلالها بطفل.

التصقت دافني بالحائط، ثم همست:

- إذن لقد فَعَلتِ ذلك ثماني مرات؟

- كلا!

طرفت دافني عدة مرات في حيرة. لا يزال شرح والدتها غامضًا ومُبهَمًا، حتى عجزت عن الفهم تمامًا، وما زالت لم تعلم بعد ما هي الواجبات الزوجية بالتحديد. لكن شيئًا ما لم يكن منطقيًّا فيما تقوله.

نطقت دافني أخيرًا:

- ولكن، ألم يتعين عليكِ أن تمارسي الأمر ثماني مرات؟

بدأت فيوليت تضرب الهواء حولها بيدها في توتر، ثم أجابت:

- أجل.. كلا! دافني، هذا أمرٌ خاصٌّ للغاية.

- ولكن كيف تمكنتِ من إنجاب ثمانية أطفال إذن؟

خرجت فيوليت عن صمتها أخيرًا، وقالت:

- لقد مارسته أكثر من ثماني مرات.

بدت فيوليت وكأنها ترغب في الذوبان داخل الجدران على الفور. أما دافني، فقد حَدَّقت إليها في شك، وقالت:

- هل فَعَلتِ حقًّا؟

- أحيانًا.

أجابت فيوليت، وكانت بالكاد تحرك شفتيها، أما عيناها، فكانتا بالتأكيد مُركَّزَتين على بقعة واحدة على الأرض دون حراك. ثم تابعت:

- يمارس الناس الأمر لأنهم يحبون ذلك.

اتسعت عينا دافني عن آخرهما، وكان صوتها لاهثًا إذ قالت:

- حقًّا؟ هل يحبون فعل ذلك؟

- مم، أجل.

- مثل قُبلَةِ الرجل والمرأة؟

- أجل، بالضبط.

تنفست فيوليت الصعداء بعدما ألقت بكلماتها أخيرًا، لكنها تابعت:

- تشبه كثيرًا...

ضاقت عينا فيوليت، وبدا صوتها صاخبًا فجأة:

- دافني! هل قَبَّلتِ الدوق؟

شعرت دافني وكأن وجهها يستحيل إلى درجة من اللون الأحمر تنافس حُمرَة وجه والدتها، ثم غمغمت:

- ربما كان هذا صحيحًا.

أطلقت فيوليت إصبع السبابة في وجه ابنتها، وقالت:

- دافني بريدجرتون، لا يمكنني أن أصدق أنك قد تفعلين شيئًا كهذا. تعلمين جيدًا أنني قد حَذَّرتُكِ من قبل ألا تمنحي أي رجلٍ تلك الامتيازات قط!

- هذا لا يفيد الآن ونحن على وشك الزواج!

- ولكن مع ذلك (أطلقت فيوليت زفيرًا مُثقَلًا وتابعت): لا عليكِ، أنتِ على حق. هذا لا يفيد؛ أنتِ على وشك الزواج، ومن دوق، لا شيء أقل من ذلك. وإن كان قد قَبَّلكِ.. حسنًا إذن، كان هذا متوقعًا.

حدَّقت دافني إلى والدتها في شكوك؛ فقد كانت ثرثرة فيوليت العصبية المتقطعة خارجةً تمامًا عن المألوف منها.

- إذن، والآن، ما دام ليس لديكِ أي أسئلةٍ أخرى، فسأتركك تعودين إلى...

وتطلعت بذهنٍ مشتت إلى الأشياء التذكارية التي كانت دافني تنقِّب فيها، ثم تابعت:

- أي ما كُنتِ تفعلينه.

- لكن ما زالت لديَّ أسئلةٌ أخرى!

كانت فيوليت قد وجدت مهربها حتى قبل أن تُنهيَ دافني جملتها.

أما دافني، فمهما كانت ترغبُ بإلحاحٍ في أن تتعلم أسرار الواجبات الزوجية، ما كانت لتلحق بوالدتها قط عبر الرواق -على مرأى ومسمعٍ من جميع العائلة والخدم- ليكتشفوا ما تسأل عنه.

فضلًا على أن والدتها قد أثارت حفيظتها لمجموعةٍ جديدة من الهموم. كانت فيوليت قد قالت إن الواجبات الزوجية هي مطلبٌ أساسي من أجل إنجاب الأطفال. وإذا كان سايمون عاجزًا عن إنجابهم، هل هذا يعني أنه عاجز عن ممارسة تلك الأفعال الحميمية التي كانت قد ذكرتها والدتها؟

حسنًا لنتوارَ عن هذا السخف أولًا، ما هي تلك الممارسات الحميمية بالضبط؟ كانت دافني قد ساورتها شكوكٌ بأنها تتعلق بالتقبيل، بما أن المجتمع بدا عازمًا تمام العزم على التأكد من أن الآنسات الشابات يُحافِظن على شفاههن طاهرة وبتولًا. وزحفت سحابةٌ وردية من الخجل على وجنتيها، إذ تذكرت دافني وقتهما معًا في الحديقة، وفكرت في أن تلك الممارسات الحميمية قد تتعلق بثدي المرأة أيضًا.

تذمرت دافني وقد تذكرت أوامر والدتها ووصاياها بأن تنفض عنها التوتر، ولكن لا يمكن أن تدرك كيف لها أن تكون بالهدوء المطلوب، لا يسير الأمر هكذا بينما هي تتوقع إبرام هذا العقد الجديد دون أن يكون لديها أدنى فكرة حتى عن كيفية أداء واجباتها.

ولكن ماذا عن سايمون؟ إن لم يتمكن من إتمام طقوس الزواج، هل يكون هذا زواجًا حقيقيًّا؟

كان كل هذا كافيًا، بلا شك، حتى يجعل عروسًا جديدة تشعر بمثل هذا الحزن وانشغال البال.

في النهاية، كانت التفاصيل البسيطة لحفل الزفاف هو ما تذكرته دافني؛ تلك الدمعات اللامعة في عيني والدتها –والتي انهمرت فيما بعد على وجنتيها–، وصوت أنطوني الأجش عندما تقدم لتسليمها إلى زوجها المستقبلي. أما هياسنث؛ فقد بعثرت جميع بتلات زهورها سريعًا، حتى لم يتبقَّ منها شيء في الوقت الذي وصلت فيه إلى مذبح الكنيسة، أما جريجوري؛ فقد سعل ثلاث مرات قبل أن يصلوا حتى إلى فقرة قراءة النذور.

وتذكرت نظرة التركيز على وجه سايمون عندما كان يردد نذوره؛ كان كل مقطعٍ منها يُتلَى بحِرصٍ ودون عجل. كانت عيناه قد اشتعلتا بصدق ما يقوله، وكان صوته صادقًا رغم خفوته. وبالنسبة إلى دافني، فقد بدا لها وكأن لا شيء في هذا العالم يحق له أن يكون بأهمية تلك الكلمات، التي نطق بها سايمون عندما كانا يقفان متقابلين أمام المطران.

كان قلبها قد سكن في تلك اللحظات. ليس هناك رجلٌ على تلك البسيطة ينطق نذوره بتلك اللوعة، ويمكنه أن يرى الزواج مجرد توافق محض لا شيء أكثر.

أولئك الذين كتب الله لهم الرباط المقدس، فلا يفرقنَّ إنسانٌ ما جمعه الله.

سرت قشعريرة في جسد دافني حتى النخاع، حتى إنها تَرَنَّحت من هول الموقف؛ ففي غضون لحظة واحدة، ستنتمي إلى هذا الرجل إلى الأبد.

استدار رأس سايمون قليلًا. كانت عيناه قد استقرتا على وجهها، وقد نطقت عيناه: «*هل أنتِ بخير؟*»

فأومأت باقتضاب، حركة بسيطة تمامًا من ذقنها يمكن لسايمون فقط أن يراها، فالتمع شيءٌ ما في عينيه. أيمكن أن يكون شعورًا بالارتياح؟

والآن أُعلِنُكُما...

سعل جريجوري للمرة الرابعة، ثم الخامسة، والسادسة، ماحيًا تمامًا أي أثرٍ لعبارات المطران:

زوجًا وزوجة.

وشعرت دافني فجأة بنوبةٍ مخيفة من الضحك تندفع عبر حلقها، فأطبقت على شفتيها، عازمةً على أن تحافظ على واجهتها الجادة الملائمة للموقف؛ ففي نهاية الأمر، الزواج ما هو إلا أساسٌ مقدس، ولا يصح لأحدٍ أن يتعامل معه بسخرية واستهزاء.

ألقت نظرةً إلى سايمون، لتكتشف أنه كان يتطلع إليها وقد علت وجهه نظرة ارتياب. كانت عيناه الشاحبتان قد تركزتا على فمها، وقد بدأت أركان فمه ترتجف.

شعرت دافني بنوبةٍ من الضحك تندفع خلال حلقها أكثر فأكثر.

يمكنك أن تُقَبِّلَ العروس.

جذبها سايمون بذراعين متشوقتين. وقد انقَضَّ فمه على فمها بقوةٍ حملت الجمع الصغير من الضيوف على إصدار شهقاتٍ جماعية.

ثم انفجرت شفاههما –العروسان معًا– في ضحكاتٍ هستيرية، حتى عندما كانا متشابكين.

ولاحقًا، قالت فيوليت بريدجرتون إنها كانت أغرب قُبلَةٍ أسعفها الحظ برؤيتها طوال حياتها.

وقال جريجوري بريدجرتون –بعدما أنهى سعلاته المتكررة– إنها كانت قُبلةً مقززة.

أما المطران، الذي عاش أعوامًا طويلة يقوم بهذا الدور، فقد كان مشدوهًا.

أما هياسنث بريدجرتون –التي كان من المفترض لها، وهي في سن العاشرة، أن تكون أقل معرفةً من الجميع بالقُبلات– فقد طرفت في تَمَعُّن، وقالت:

- أعتقد أنها قبلة لطيفة. فإذا كانا يضحكان الآن، فربما سيضحكان إلى الأبد.

ثم التفتت إلى والدتها وسألت:

- أليس هذا أمرًا جيدًا؟

أخذت فيوليت يد ابنتها الصغرى وقبضت عليها، ثم قالت:

- دائمًا ما يكون الضحك أمرًا جيدًا، هياسنث. وشكرًا لكِ على تذكيرنا بهذا الأمر!

ومن ثَمَّ فقد بدأ انتشار تلك الشائعة، وهي أن دوق ودوقة هاستنجز الجديدين هما أكثر الأزواج سعادةً وهناءً من أي زوجين قد عُقِدَ قرانهما منذ عقود. ففي نهاية الأمر، من له أن يتذكر زواجًا آخر قد اختبر هذا الكم الهائل من الضحك؟

الفصل الرابع عشر

24 من مايو 1813 **جريدة المجتمع**

لقد وصل إلى مسامعنا أن زفاف دوق هاستنجز والآنسة بريدجرتون سابقًا كان زفافًا حافلًا بالأحداث، على الرغم من بساطته، وقلة عدد الحضور. فقد همست الآنسة هياسنث بريدجرتون (ذات الأعوام العشرة) إلى الآنسة فيلستي (ذات الأعوام العشرة أيضًا) بأن العروسين كانا غارقين في الضحك طوال مراسم الزواج في الكنيسة، ثم كررت الآنسة فيلستي هذه المعلومات على مسامع والدتها –السيدة فيذرنجتون– والتي بدورها قد كررتها على مسامع العالم بأكمله.

وسيتعين على كاتبة هذا المقال أن تثق فيما قالته الآنسة هياسنث، بما أن كاتبة هذا المقال لم تكن ضمن المدعوين إلى حضور مراسم الزواج.

ليدي ويسلداون

لقد تقرر عدم القيام برحلة زفاف؛ ففي نهاية المطاف، لم يتوفر الوقت الكافي لتخطيط رحلة ما بعد الزفاف. وبدلًا من ذلك، أجرى سايمون الترتيبات لقضاء عدة أسابيع في قلعة كلايفيدون، المقر المتوارث لعائلة باسيت. وقد اعتقدت دافني أنها فكرةٌ جيدة؛ فقد كانت متلهفةً للفرار من لندن، ومن العيون السائلة، والآذان التي تسترق السمع من أفراد الوسط الرفيع.

إلى جانب أنها كانت شديدة الحماس لرؤية المكان الذي ترعرع فيه سايمون.

وقد وجدت نفسها تتخيله عندما كان صبيًّا صغيرًا. هل كان يتمتع بشخصية جامحة يتعذر السيطرة عليها مثلما هو معها الآن؟ أم إنه كان طفلًا هادئًا يتمتع بالسلوك المتحفظ الذي أظهره لمعظم أفراد المجتمع؟

المهم هو أن الزوجين الجديدين قد غادرا منزل بريدجرتون وسط الكثير من هتافات وأحضان الوداع، وأسرع سايمون يساعد دافني في ركوب عربته الرائعة. ومع أن الجو كان صيفًا، والشمس حارقة، إلا إن برودة الهواء المنعش قد لفحتهما، حتى إن سايمون قد وضع غطاءً على ساقي دافني بحذر لتدفئتهما.

فضحكت، ثم شاكسته قائلةً:

- ألا يبدو هذا كثيرًا بعض الشيء؟ لا أعتقد أنني سأُصاب بالبرودة ونحن على مسافةٍ قريبة من منزلك.

فتطلع إليها في تساؤل، ثم أجاب:

- سنسافر إلى كلايفيدون.

- الليلة؟

عجزت دافني عن إخفاء دهشتها. كانت قد افترضت أنهما سيبدآن رحلتهما في اليوم التالي -فقد كانت قرية كلايفيدون تقع بالقرب من مدينة هاستنجز- قاطعين كل تلك المسافة على الساحل الجنوبي الشرقي لإنجلترا. وقد كان الوقت قد تأخر كثيرًا عن بعد الظهيرة؛ وهذا يعني أنهما سيصلان إلى القلعة عند منتصف الليل.

ولم تكن تلك هي ليلة الزفاف التي عاشتها دافني في مخيلتها.

- أليس من الأفضل أن نستريح هنا في لندن لليلة واحدة ثم نسافر إلى كلايفيدون؟

فأجاب سايمون بنبرةٍ من يرغب في إنهاء النقاش قبل بدئه:

- لقد تمت الترتيبات بالفعل.

- أنا... أتفهم ذلك.

وأقدمت دافني على محاولة باسلة لإخفاء ما شعرت به من إحباط. وظلت صامتة لدقيقة كاملة بينما كانت العربة تترنح في حركة، فقد عجزت العجلات الدائرية عن تبديد التخبطات التي تحدث بسبب الحصى غير المنتظم أسفل

منها. وبينما كانت العربة تستدير عند زاوية الطريق إلى بارك لين، سألت دافني:

- هل سنتوقف للراحة في حانة؟

فأجاب سايمون:

- بالتأكيد، إننا في حاجة إلى تناول العشاء. ليس من اللائق من جانبي أن أجعلكِ تجوعين في أول يومٍ من زواجنا، أليس كذلك؟

فسألت دافني في إلحاح:

- هل سنقضي الليلة في تلك الحانة؟

- كلا، إننا...

عجز سايمون عن إتمام جملته، فقد تحجَّرت شفتاه وأطبقتا على بعضهما في خطٍّ مستقيم، ثم عادت شفتاه إلى طبيعتهما الهادئة دون أي سببٍ واضح. التفت إليها سايمون بعدها وقد ارتسم على وجهه لُطفٌ يُذيب القلب، ثم قال:

- لقد كُنتُ قاسيًا، أليس كذلك؟

احمرت وجنتا دافني. دائمًا ما تحمر وجنتاها عندما يتطلع إليها بتلك النظرة. إلا إنها تمكنت من الجواب:

- كلا، كلا، كل ما في الأمر أنني كنتُ دَهِشَة من...

- كلا، أنتِ على حق. سنستريح الليلة في حانة. أنا أعرف حانةً جيدة في منتصف طريق الساحل، تُدعى هير آند هاوندز، دائمًا ما تقدم الطعام ساخنًا، وتوفر أسِرَّةً نظيفة.

ثم مد يده يلامس ذقنها في رقة، وأكمل:

- لا ينبغي لي أن أسيء إليكِ وأجبركِ على قطع الرحلة بأكملها إلى كلايفيدون في يومٍ واحد.

- ليس الأمر وكأنني لستُ قوية بما يكفي لتلك الرحلة.

بادرته دافني، وقد تبدلت الألوان في وجهها أكثر فأكثر بينما كانت تفكر في كلماتها التالية:

- كل ما في الأمر أننا قد تزوجنا اليوم، وإذا لم نتوقف في أي حانة، فسنظل على الطريق عندما يحل الليل، و...

- لا تزيدي شيئًا آخر.

قاطعها سايمون وقد وضع إصبعه على شفتيها.

فأومأت له دافني في امتنان. الحقيقة هي أن دافني لم تكن ترغب في مناقشة ليلة زفافهما بتلك الطريقة، إلى جانب أن هذا الأمر يبدو من هذا النوع من الموضوعات التي يتعين على الزوج بدء الحديث فيها، وليس الزوجة؛ ففي نهاية الأمر، كان سايمون -بلا شك- هو الأكثر معرفةً في هذا الموضوع بينهما هما الاثنين.

من المستحيل أن يكون سايمون أقل معرفة منها بالأمر وتفاصيله، هكذا فكرت دافني وقد علت وجهها تكشيرة ساخطة. فعلى الرغم من كل التطويق الذي فرضته دافني على والدتها، واللعثمة التي كَبَّلت لسان والدتها، إلا إن أمها لم تخبرها بأي شيء ذي فائدة. حسنًا، باستثناء هذا المقطع القصير الذي يتعلق بإنجاب الأطفال، لم تحصِّل دافني أي فهمٍ حول تفاصيل الليلة بأكملها. ولكن على الجانب الآخر، ربما...

اختنقت دافني بأنفاسها التي علقت في حنجرتها. ماذا لو أن سايمون قد عجز...؟ أو ماذا لو أنه لم يرغب في...؟

كلا! لا شك في أنه يرغب في ذلك. وكبحت دافني أفكارها في صرامة. إلى جانب أنه يرغب فيها هي. لم تكن دافني تتخيل نيران الرغبة المشتعلة في عينيه، أو دقات قلبه القوية تلك الليلة في الحديقة.

تطلعت دافني من النافذة تراقب لندن وهي تختفي خلف الأراضي الخضراء الريفية. يا إلهي، يمكن لأي امرأةٍ أن تُصاب بالجنون هوسًا بأشياء كهذه. ولذلك قررت دافني أن تمحو هذا الأمر من رأسها. لقد عزمت على أن تمحو هذا الأمر من رأسها تمامًا، وإلى الأبد.

حسنًا، على الأقل تلك الليلة؛ ليلة زفافها.

وقد جعلتها الفكرة تقشعر من رأسها حتى أخمص قدميها.

تطلع سايمون إلى دافني، وذَكَّرَ نفسه بأنها قد صارت زوجته الآن على الرغم من أنها حقيقة لا تزال يصعب تصديقها. لم يكن الأمر ضمن خططه قط أن تكون له زوجة. في الحقيقة لقد خطط على وجه التحديد ألا تكون له زوجة. ومع ذلك، ها هو ذا الآن برفقة دافني بريدجرتون.. كلا، بل دافني باسيت. اللعنة، إنها دوقة هاستنجز، هذا هو ما هي عليه الآن.

ربما كان هذا أغرب ما في الأمر. لم تكن الدوقية تحظى بأي دوقة طوال حياته. وقد بدا اللقب شاذًّا وعتيقًا حتى عفا عليه الزمن.

أطلق سايمون أنفاسًا هادئة طويلة، وقد سمح لعينيه أن تستقرا على وجه دافني. ثم قطب حاجبيه، وسألها:

- هل تشعرين بالبرد؟

فقد كانت ترتجف.

انفرجت شفتاها قليلًا، لذلك تمكن سايمون من رؤية لسانها وقد التصق بسقف فمها ليكون صوت اللام، ثم تحركت قليلًا لتجيب:

- أجل. أجل، ولكن ليس كثيرًا. لا داعي...

أحكم سايمون الغطاء حولها جيدًا، متسائلًا عن السبب الذي يجعلها تكذب بشأن حقيقة واضحة وضوح الشمس كهذه.

تمتم سايمون:

- لقد كان يومًا طويلًا.

لم يقل هذا لأن هذا شعوره –على الرغم من أنه لم يتوقف عن التفكير في الأمر، لقد كان يومًا طويلًا حقًّا– ولكن لأنه بدا كما لو أن هذا هو النوع الصحيح من الملاحظات اللطيفة المهدئة المناسبة لتلك اللحظة.

لقد ظل طويلًا يفكر بشأن الملاحظات المهدئة، والاعتبارات اللطيفة. سيحاول أن يكون زوجًا جيدًا لها؛ فقد كانت تستحق هذا على الأقل، وقد كان هناك الكثير من الأمور التي لن يكون قادرًا على منحها لدافني، وللأسف كانت السعادة الكاملة من بين تلك الأمور. ولكن بإمكانه أن يبذل قصارى جهده حتى يمنحها الأمان، والحماية، والرضا الذي يقدر على منحها إياه.

لقد اختارته هو، وظل يُذَكِّر نفسه بتلك الحقيقة. على الرغم من أنها تعرف جيدًا أنها لن تنجب أبدًا، إلا إنها اختارت الزواج منه. وهو يرى أن جهوده ليصبح زوجًا جيدًا وفيًّا لزوجته هي أقل ما يمكنه أن يقدمه لها.

أجابت دافني بلطف:

- لقد استمتعتُ به.

طرفت عينا سايمون وقد التفت إليها بنظرةٍ جوفاء، ثم قال:

- أستميحكِ عذرًا؟

لامس شفتيها شبح ابتسامة. وقد كان مشهدًا يأسر العينين؛ مسحة من الدفء، والمشاكسة، والقليل من المشاغبة فحسب. وقد شعر بموجاتٍ من البهجة تغمر قلبه وعقله، وقد كان هذا كل ما يمكنه فعله للتركيز على كلماتها حينما قالت:

- لقد قُلتَ إن اليوم كان طويلًا، وقد أَجَبتُك بأنني استمتعتُ به.

تطلع إليها بنظرةٍ جوفاء أيضًا.

عبس وجهها وقد تأثر بحنقٍ فاتن، حتى شعر سايمون بابتسامةٍ ترتسم على شفتيه. ثم قالت دافني مجددًا:

- أنت قُلتَ إن اليوم كان طويلًا، وأنا قُلتُ إنني استمتعتُ به.

وعندما ظل متمسكًا بصمته، أطلقت دافني تنهيدةً عصيبة، ثم أضافت:

- ربما كان هذا ليبدو أكثر وضوحًا إن أوضحتُ لك بكلماتٍ ضمنية مثل: «أجل» و «لكن»، كما في: «أجلللللل، لكنني استمتعتُ به».

فتمتم سايمون وقد استدعى كل ما بحوزته من لباقة:

- أتفهم ذلك.

- أشكُّ في أنك ترى الأمر مهمًّا، ثم تتجاهل نصفه على الأقل.

قطب سايمون حاجبيه، وقد جعلها هذا الأمر تضحك ضحكةً خافتة، وبالتالي فقد حمله الأمر على الرغبة في تقبيلها.

لم يكن هذا خطأها، فقد حمله كل شيء على الرغبة في تقبيلها. وقد بدأ هذا الأمر يبدو مؤلمًا إلى حدٍّ ما. هذا الأمر.

استأنف سايمون الحديث مجددًا وقد ارتدى وجهه قناعًا جادًّا كما لو أنه سيزيل توتره، ثم قال:

- يتعين علينا أن نصل إلى الحانة عند حلول الليل.

وبالتأكيد فشلت مساعيه، ولم يتلاشَ توتره. كل ما أحدثه هذا الوجه الجاد هو أن ذَكَّره بأنه سيؤجل ليلة زفافه ليومٍ كامل. يومٌ كامل من الرغبة والاحتياج، يومٌ كامل سيصرخ فيه جسده طلبًا للتحرر. لكنه سيكون رجلًا ملعونًا إن فَكَّر في أن يختلي بها في حانة على قارعة الطريق، مهما كانت نظيفة ومرتبة.

إن دافني تستحق ما هو أفضل من ذلك؛ فقد كانت تلك هي ليلة زفافها الوحيدة التي ستحظى بها في حياتها، وقد عزم على أن يجعلها ليلةً مثالية بالنسبة إليها.

رمقته دافني بنظرةٍ حملت القليل من الدهشة عند تغيير دفة الحديث، ثم أجابت:

- سيكون هذا رائعًا.

فأضاف سايمون:

- إن الطرقات ليست آمنة هذه الأيام بعد حلول الظلام.

وقد حاول سايمون أن يُذَكِّر نفسه بأن خطته الأصلية كانت هي أن يتابع طريقه مباشرةً إلى كلايفيدون دون توقف.

فأجابته بالموافقة:

- صحيح.

- وسنكون جوعى.

- أجل.

أجابت دافني وقد بدأت الحيرة تظهر على نظراتها، من هوسه الحالي بتوقفهما الذي تقرر حديثًا في الحانة. حسنًا، ما كان لها أن تلومه، ولكن لم يكن أمامه سوى خيارين؛ إما أن يناقشا خطط السفر حد الملل، وإما أن يجذبها نحوه ويختلي بها هنا في تلك العربة. وبالتأكيد لم يكن هذا خيارًا مُتاحًا على الإطلاق.

لذلك قال سايمون:

- سنجد في الحانة طعامًا جيدًا.

طرفت دافني مرةً واحدة قبل أن توضح:

- أجل، لقد قُلتَ ذلك.

- لقد فعلت.

وسعل سايمون، ثم أضاف:

- أعتقد أنني سآخذ قيلولة.

اتسعت عيناها الداكنتان، وقد مال وجهها بأكمله إلى الأمام بينما كانت تسأل:

- الآن؟

منحها سايمون إيماءة مقتضبة، ثم قال:

- يبدو أنني بالفعل بدأت في تكرار نفسي، ولكنني فعلت حقًّا إذ إنكِ قد ذكرتني بهذا الأمر، فقد كان يومًا طويلًا كما تعلمين.

- بلا شك.

تابعته دافني بعينيها إذ كان يتحرك في مقعده، باحثًا عن أكثر الأوضاع راحةً له ليبدأ قيلولته. وأخيرًا سألته:

- هل ستتمكن حقًّا من الغط في النوم هنا في هذه العربة المتحركة؟ ألا تجد الطريق على شيءٍ من التعرج؟

رفع سايمون كتفيه في عدم اكتراث وأجاب:

- يمكنني أن أحظى بنومٍ جيد في أي مكانٍ أرغب فيه؛ لقد تعلمت هذا الأمر في أسفاري.

فتمتمت دافني:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- إنها موهبة.

أجاب سايمون موافقًا:

- أجل، إنها موهبة جيدة.

ثم أغلق عينيه وتظاهر بالنوم لمدةٍ تزيد على ساعةٍ ونصف.

حدَّقت دافني إليه طويلًا وبتركيز. حسنًا، لقد كان يتظاهر بالنوم. وإذا وضعنا في الاعتبار حقيقة أن دافني قد عاشت حياتها حتى الآن برفقة سبعةٍ من الأشقاء، فهي تعلم جيدًا كل خدعة يمكن أن تخطر على باله، ودون أدنى شك، لم يكن سايمون نائمًا.

كان صدره يعلو ويهبط في رتمٍ منتظم، وكانت أنفاسه قد تضمنت قدرًا مناسبًا من الأزيز، حتى بدا لها أن سايمون يقع في النقطة الفاصلة بين الشخير والسكون.

لكن دافني أذكى من أن تُخدَع بهذا.

وفي كل مرةٍ كانت تتحرك فيها، أو تصدر صوت حفيف، أو تتنفس بصوتٍ أكثر ارتفاعًا عن الطبيعي، كان ذقنه يتحرك بطريقة ما. كان أمرًا يصعب إدراكه وملاحظته، لكنه كان يحدث. وعندما كانت تتثاءب، أو تصدر صوت مواءٍ ناعس خافت، كانت ترى عينيه تتحركان أسفل جفنيه المغلقين.

ورغم ذلك، كان هناك شيءٌ يستحق الإعجاب؛ وهو حقيقة أن سايمون كان قد تمكن من متابعة مسرحيته الهزلية تلك لمدة تزيد على ساعتين حتى الآن، فلم تكن هي لتستمر أكثر من عشرين دقيقة على هذا الوضع.

إن كان راغبًا في التظاهر بالنوم، فقد قررت دافني في شيء من الشهامة النادرة أن تدعه يتظاهر بالنوم. حاشا لها أن تُفسِدَ أداءً رائعًا كهذا.

وبعدما سمحت لنفسها بالتثاؤب لمرةٍ أخيرة –بصوتٍ مرتفع تلك المرة لتشاهد عينيه تعودان إلى الانتباه أسفل جفنيه– تطلعت إلى نافذة العربة، وقد سحبت الستائر المخملية الثقيلة إلى الخلف حتى يتسنى لها أن تتطلع إلى الخارج. كانت الشمس قد ارتدت اللون البرتقالي، وباتت بعيدةً في الأفق الغربي، وقد كان ثلث قرص الشمس قد اختفى بالفعل عند حافة الأرض.

حسنًا، إن كان سايمون مُحِقًّا في تقديره لمدة الرحلة –وكان لديها شعورٌ بأنه عادةً ما يكون على حق بشأن تلك الأمور؛ فتلك هي عادة هؤلاء الذين يحبون الرياضيات– إذن فلا بد وأنهما قد قطعا نصف الطريق في رحلتهما، وهما الآن على وشك الوصول إلى هير آند هاوندز، وبالتالي كانت ليلة زفافها على وشك البدء.

يا إلهي الرحيم، لقد صار من الأفضل لها أن تتوقف عن التفكير بتلك الطرق المأسوية، فقد بات الأمر سخيفًا للغاية.

- سايمون؟

قالت دافني منادية. لكنه لم يتحرك، وقد أزعجها هذا الأمر.

- سايمون؟

كانت تلك المرة بصوتٍ أكثر ارتفاعًا.

اختلج جانب فمه قليلًا، ثم شكَّل فيما بعد عبوسًا طفيفًا. وكانت دافني واثقةً تمامًا من أنه يحاول أن يتخذ قرارًا بشأن ما إذا كانت دافني قد نادت باسمه بصوتٍ مرتفع بما يكفي حتى يتوقف عن التظاهر بالنوم أم لا.

- سايمون!

لكزته دافني –بشدة– في الموضع الذي تلتحم فيه ذراعه بصدره، فقد كان من المستحيل على أي شخصٍ أن يستمر في النوم وسط كل هذا.

وأخيرًا طرف جفناه في سرعةٍ حتى يكشفا عن عينيه، وقد أصدر أصواتًا هامسة مضحكة؛ ذلك النوع من الأصوات الذي يصدره الناس عندما يستيقظون من النوم.

إنه ممثلٌ جيد. كان هذا ما فكَّرت فيه بكثير من الإعجاب.

تثاءب سايمون وهو ينطق باسمها، فقررت دافني ألا تتلاعب بالكلمات، وقالت:

- هل وصلنا؟

فرك عينيه حتى يطرد عنهما النوم الذي لم يكن موجودًا في الأصل، ثم أجاب:

- أستميحكِ عذرًا؟

- هل وصلنا؟

- ممم...

تطلع سايمون حوله داخل العربة، وكان يعلم جيدًا أن هذا لن يفيده بشيء على الإطلاق في الإجابة عن سؤالها، لكنه أجاب على أي حال:

- أما زلنا نتحرك؟

- أجل، ولكن يمكن أن نكون قد اقتربنا.

أطلق سايمون تنهيدةً مقتضبة، وتطلع إلى خارج النافذة. كان –من جانبه– يواجه الشرق، لذلك بدت السماء أكثر ظلمةً مما رأته دافني من نافذتها ناحية الغرب.

- أوه...

بدت نبرة صوته دَهِشَةً بما اكتشفه في تلك اللحظة، ثم أكمل:

- إن الحانة أمامنا مباشرةً.

أما دافني؛ فبذلت أفضل ما بوسعها حتى تُبدِيَ له ضحكةً صفراء ساخرة.

استدارت العربة إلى موقف العربات، وهبط سايمون قافزًا منها، ثم تبادل بعض الكلمات مع السائق. وقد اعتقدت دافني أن سايمون يخبره بتغيير

خطتهما، وقد عزما الآن على قضاء الليلة في تلك الحانة. ثم مد يده حتى يلتقط يد دافني ويساعدها على الترجل خارج العربة.

- ما رأيكِ بها؟ هل تحوز رضاك؟

قال سايمون وهو يومئ برأسه ويشير إلى الحانة.

لم تفهم دافني كيف لها أن تلقي بأحكامها دون أن ترى الحانة من الداخل، ولكنها أجابت بالموافقة على أي حال، فقادها سايمون إلى الداخل، ثم تركها عند الباب عندما ذهب للتعامل مع صاحب الحانة، فقررت دافني أن تراقب الغُدَاة والرواح باهتمامٍ شديد؛ فأمامها الآن زوجان من الشباب –يبدو على وجهيهما أنهما من طبقة النبلاء– يصحبهما العامل في الحانة إلى غرفة الطعام الخاصة، وأمٌّ أخرى ترشد أطفالها الأربعة نحو السلم.

كان سايمون يتجادل مع صاحب الحانة، ورجل آخر نحيف طويل القامة، يستند إلى...

التفتت دافني برأسها عائدةً تتطلع إلى زوجها. سايمون يتجادل مع صاحب الحانة؟ لماذا يفعل ذلك بحق الله؟ أطالت دافني رقبتها لترى المزيد. كان الرجلان يتحدثان بنبراتٍ خافتة، لكن بدا من الواضح أن سايمون كان الأكثر استياءً. وبدا صاحب الحانة وكأنه سيموت خجلًا وعارًا لعجزه عن إرضاء دوق هاستنجز.

عبست دافني، وقطبت حاجبيها؛ فلم يبدُ هذا الوضع مُريحًا.

هل عليها أن تتدخل؟

ظلت دافني تراقب الرجلين يتجادلان لعدة دقائق أخرى، وكان من الواضح أن عليها التدخل.

أخذت عدة خطواتٍ لا يمكن أن يُطلَق عليها خطوات مترددة، ومع ذلك لا يمكن أيضًا أن تكون خطواتٍ واثقة. وشقت طريقها إلى جانب زوجها.

ثم سألت في تهذيب:

- أثمة خطأٌ ما؟

ألقى إليها سايمون نظرةً سريعة، ثم أجاب:

- لقد اعتقدتُ أنكِ تنتظرين عند الباب.

فأجابت دافني مبتسمةً:

- أجل، ولكني تحركتُ إلى هنا.

تجَهَّمَ وجه سايمون، ثم التفت عائدًا إلى صاحب الحانة.

أطلقت دافني سُعالًا خفيفًا، لترى ما إذا كان سيلتفتُ عائدًا إليها، لكنه لم يفعل. عبس وجهها إثر ردة فعله، فلم تكن تحب أن يتجاهل أحدهم وجودها.

- سايمون؟

لكزته دافني في ظهره، ثم نادت مرةً أخرى:

- سايمون؟

استدار عائدًا إليها ببطء، وقد كان وجهه مثل سحابةٍ رعدية مكتملة.

ابتسمت له دافني مجددًا، وبكل براءة نطقت:

- ما المشكلة؟

رفع صاحب الحانة يديه في توسلٍ واعتذار، ثم تكلم حتى قبل أن يتمكن سايمون من إيضاح أي شيء:

- ليس لديَّ سوى غرفة واحدة شاغرة.

كان صوته دراسةً في الاعتذار الذليل. ثم أكمل الرجل:

- لم تكن لديَّ أدنى فكرة أن صاحب الجلالة قد قرر تشريفنا بحضوره هذه الليلة. لو كنتُ أعلم، لما كنتُ قد تركتُ الغرفة الأخيرة تلك للسيدة ويذرباي وأطفالها، أؤكد لكِ...

مال صاحب الحانة إلى الأمام، ومنح دافني نظرة استعطاف، ثم تابع:

- أؤكد لكِ أنني كُنتُ سأرسلهم في طريقهم إلى حانة أخرى على الفور!

كانت تلك الجملة الأخيرة متبوعة بإشارة درامية من كلتا اليدين، يتخللها صوت أزيز من ارتطام يديه بالهواء، حتى جعلت دافني تشعر بمسحةٍ من دوار البحر.

- هل السيدة ويذرباي هي المرأة التي مرَّت من هنا قبل قليل برفقة أربعة أطفال؟

أومأ صاحب الحانة، وقال:

- لولا وجود الأطفال، لكنت...

قاطعته دافني، غير راغبةٍ في أن تسمع أي شيء يذكِّرها بجملةٍ تتضمن إلقاء امرأةٍ بريئة بأطفالها على قارعة الطريق في الليل.

قالت دافني:

- لا أرى سببًا لعجزنا عن الاكتفاء بغرفةٍ واحدة. بالطبع لسنا مغرورين إلى هذا الحد.

وبجانبها، تَخَشَّب فكُّ سايمون حتى كان بإمكانها أن تُقسِمَ إنها قد سمعت صرير أسنانه.

لقد كان يرغب في غرفتين منفصلتين، أليس كذلك؟ لقد كان هذا كافيًا حتى يجعل عروسًا جديدة تشعر بالإهانة وقلة التقدير لوجودها.

التفت صاحب الحانة إلى سايمون منتظرًا موافقته، فمنحه سايمون إيماءةً مقتضبة. وصفَّق صاحب الحانة بيديه في بهجة –وربما ارتياح، فلم يكن هناك من الأعمال ما هو أسوأ من إثارة غضب دوق في عقار المرء–. جذب صاحب الحانة المفاتيح وسار بخُطًى واسعة خارجًا من خلف مكتبه.

ثم قال:

- هلا تتبعانني من فضلكما!

تحرك سايمون حتى تذهب دافني أولًا، لذلك مرت بجانبه، وصعدت درجات السلم خلف صاحب الحانة. وبعد القليل من المنعطفات، والطرقات الملتوية، وصل الثلاثة إلى غرفة واسعة، ذات أثاث مريح، وشرفةٍ تُطِلُّ على القرية.

وبمجرد أن خرج صاحب الحانة مُغلِقًا باب الغرفة خلفه، قالت دافني:

- حسنًا، والآن، هذا يبدو لطيفًا للغاية.

أما جواب سايمون؛ فلم يتعدَّ صوتَ نخيرٍ مقتضب.

تمتمت دافني:

- يا للباقتك!

ثم اختفت خلف ستار خلع الملابس.

راقبها سايمون لعدة دقائق قبل أن يدرك أين اختفت، فنادى بصوتٍ بدا مختنقًا بأنفاسه المتهدجة:

- دافني؟ هل تُبَدِّلين ملابسكِ؟

أخرجت دافني رأسها من خلف الستار، وقالت:

- كلا، بل أتأمل المكان.

ظلت ضربات قلبه تعلو مثل عاصفةٍ رعدية، على الرغم من أنها لم تكن بنفس القوة التي انتابته منذ لحظة، لكنه استطاع أن يجيب:

- جيد. فسيُطلَبُ منا النزول إلى العشاء قريبًا.

- بالتأكيد.

قالت دافني مبتسمةً، وقد كانت ابتسامة فوزٍ وثقة تثير الغضب في رأيه، لكنها تابعت على أي حال:

- هل أنت جائع؟

- للغاية.

كانت ابتسامتها تتسع شيئًا فشيئًا إذ سمعت نبرته الجافة. كان سايمون قد ألقى على نفسه محاضرةً لتوبيخه على تصرفاته. وبلا شك، كانت تلك المحاضرة تدور في عقله فحسب. أما وإنه غاضب من نفسه، فإن هذا لا يعني مطلقًا أن يصب غضبه عليها. لم تفعل دافني أي شيء خاطئ تستحق عليه كل هذا الحنق.

لذلك سألها، وقد حاول أن يحافظ على نبرة صوته لطيفة:

- وأنتِ؟

خرجت دافني من خلف الستار، وجلست عند مؤخرة الفراش، ثم أجابت:

- قليلًا.

ابتلعت ريقها بصعوبة، لكنها تمكنت من أن تُكمِل:

- لكني لَستُ واثقةً إن كان بإمكاني أن آكل أي شيء.

- لقد كان الطعام ممتازًا في المرة الأخيرة التي أَكَلتُ فيها هنا. أؤكد لكِ...

- لَستُ قَلِقَةً بشأن جودة الطعام.

قاطعته دافني. ثم تابعت:

- أنا قلقةٌ بشأن توتر أعصابي.

حدَّق إليها سايمون في صمت، فتابعت دافني:

- سايمون...

كان باديًا على وجهها تمامًا كل المحاولات المبذولة لإخفاء الجزع في صوتها، لكن ما يراه سايمون هو أنها لم تنجح في ذلك. ثم أكملت:

- لقد تزوجنا هذا الصباح.

وإذ أدرك ما ترمي إليه بكلماتها، أجاب سايمون في لُطف:

- دافني، لَستِ في حاجةٍ إلى القلق.

طرفت عيناها في دهشة وقالت:

- حَقًّا؟

التقط سايمون نفسًا عميقًا مُعَبَّأً ببعض الحنق؛ فأن يكون زوجًا لطيفًا حنونًا على زوجته لم يكن بالأمر السهل كما كان يتخيل. ثم تابع:

- سننتظر حتى نصل إلى كلايفيدون لإتمام طقوس الزواج.

- سنفعل؟

اتسعت عينا سايمون في دهشة. بالتأكيد لم يبدُ عليها الإحباط، أليس كذلك؟

- لا أخطط للاختلاء بكِ في حانة على قارعةِ الطريق؛ إنني أُكِنُّ لكِ من الاحترام ما يعلو بكِ عن ذلك.

- لا تخطط؟ صحيح؟

توقفت أنفاسه في تلك اللحظة. لقد بدت مُحبَطَةً بالفعل.

- أجل، كلا.

تقدمت دافني إلى الأمام خطوتين، ثم سألت:

- لماذا؟

حدَّق سايمون إليها لعدة ثوانٍ، واكتفى بأن جلس قبالتها على الفراش يُحدِّق إليها. كانت عيناها الداكنتان قد اتسعتا عن آخرهما إذ حدَّقت إليه بدورها، وقد امتلأت باللطف، والفضول، ومسحةٍ من التردد. لقد لعقت شفتيها –وقد كانت تلك علامة أخرى على توترها– لكن جسد سايمون الغاضب قد استجاب لتلك الإيماءة المغرية بنشاطٍ فوري.

ابتسمت دافني بلطف، لكن عينيها لم تُقابِلَا عينيه حين أجابت:

- لن أُمانِع.

تجمدت أوصال سايمون، وقد انحدر إلى تلك البقعة التي يصرخ فيها جسده: «*انقض عليها! اطرحها على الفراش! اسحب جسدها نحوك! افعل أي شيء! اعتَلِها!*»

وبعد ذلك، في اللحظة التي بدأت غرائزه تتغلب على وقاره، أطلقت دافني صرخةً قصيرةً مُعَذَّبة، وقفزت واقفةً على قدميها، وأدارت ظهرها له بينما كانت تغطي فمها بيدها.

أما سايمون، الذي كان قد مَدَّ إحدى ذراعيه في الهواء ليجذبها نحوه، فوجد نفسه وقد اختل توازنه ليسقط بوجهه على الفراش.

ثم تمتم بصوتٍ قد اختنق في غطاء الفراش:

- دافني؟

أجابت في أنين:

- كان من المفترض أن أعرف. أنا آسفة للغاية.

علامَ تأسف؟ دفع سايمون جسده ليستقيم على الفراش. هل كانت تتشنج وتئن؟ ما الذي يحدث هنا؟ لم أرها تتشنج من قبل قط.

في تلك اللحظة، التفتت دافني نحوه، وهي تتطلع إليه بعينين ثاقبتين. كان لسايمون أن يزداد قلقه في تلك الحالة، إلا إنه لم يبدأ حتى في تخيل ما أحبطها هكذا فجأةً. وإن كان عاجزًا عن تخيل ما يحدث معها، فسيميل إلى الاعتقاد بأن الأمر لا يستحق كل هذا العناء.

يبدو غرورًا منه، ولكن هٰذا ما حدث.

استأنف سايمون حديثه، وقد حاول جاهدًا الحفاظ على الرقة في نبرة صوته:

- دافني؟ ما المشكلة؟

جلست قبالته على الفراش ووضعت يدها على خده، ثم همست:

- أنا شخصٌ عديم الإحساس. كان من المفترض أن أفهم، ما كان من المفترض أن أقول أي شيء.

فأجاب سايمون بنبرةٍ آلية:

- ما الذي كان من المفترض أن تفهميه؟

سقطت يدها إلى جانبها، ثم أجابت:

- أنك لا تستطيع... أنك لن تستطيع...

- لا أستطيع ماذا؟

تطلعت دافني إلى يديها الراقدتين في حجرها الآن، واللتين تحاولان تحطيم بعضهما بعضًا إلى أشلاء، ثم أجابت:

- أرجوك لا تجعلني أنطق بها.

فغمغم سايمون:

- هذا -بلا شك- هو السبب الذي يجعل الرجال يتجنبون الزواج.

كان المقصد من كلماته أن تصل إلى أذنيه هو وليس أذنيها، لكنها سمعت كلماته، ولسوء الحظ، كانت ردة فعلها على تلك الكلمات هي أنينٌ بائسٌ آخر.

فتساءل أخيرًا وقد سيطر الحنق على نبرة صوته فعجز عن كبحه:

- ما الذي يحدث هنا؟

همست دافني:

- أنت غير قادرٍ على إتمام طقوس الزواج.

سيظل يتعجب لهذه الليلة. كيف لشهوته ألا تنطفئ عند تلك اللحظة؟ بصراحة، كان من العجب أنه كان حتى قادرًا على النطق بتلك الكلمات من بين أنفاسه المختنقة:

- أستميحكِ عذرًا؟

رفعت دافني رأسها وأجابت:

- سأظل زوجةً جيدةً لك، ولن أُخبِرَ مخلوقًا عن هذا الأمر، أعدكَ بذلك.

منذ طفولته المعهودة، عندما كانت تهاجمه لعثمته، وعثرته في كل كلمة ينطق بها، لم يتعرض سايمون لموقف يكون فاقدًا فيه للنطق على هذا النحو.

هل اعتَقَدَتْ أنه عاجز؟ هل اعتقدت أن هناك خطبًا ما برجولته؟

- لماذا؟ لماذا؟ لماذا؟

هل هذه لعثمة؟ أم صدمة واضحة؟ اعتقد سايمون أنها صدمة. ويبدو أن عقله عاجزٌ عن التركيز على أي شيء آخر سوى كلمة واحدة.

عاودت دافني الحديث في هدوء:

- أعلم أن الرجال يتحسسون من أشياء كهذه.

فانفجر سايمون:

- خاصة عندما تكون غير صحيحة!

رفعت رأسها في صدمة، وقالت:

- حقًّا؟

ضاقت عيناه حتى بدتا مثل خطين في محجريهما، ثم سألها:

- هل أخبَرَكِ شقيقكِ بذلك؟

- كلا!

أشاحت بناظريها عن وجهه، ثم أكملت:

- بل أمي.

- والدتكِ؟

غصَّ سايمون بكلماته. لا شك في أنه لا يوجد رجلٌ على وجه الأرض قد عانى هكذا قط في ليلة زفافه. ثم أجبر نفسه على أن يُكمِلَ سؤاله:

- هل أخبرتكِ أمكِ أنني عاجز؟ أن هناك عِلَّةً في رجولتي؟

- هل هذه الكلمة هي ما يُطلَق على حالتك؟

سألت دافني في فضول. ثم أضافت على عجلٍ بعدما أدركت النظرة الرعدية التي كادت تنفجر فيها:

- كلا، كلا، لم تخبرني بذلك باستفاضة.

فسأل سايمون، وقد كان يصرّ على أسنانه:

- ما الذي أخبرتكِ به بالضبط؟

- حسنًا، ليس الكثير. لقد كان ما أخبرتني به مزعجًا في الحقيقة، لكنها قد أوضحت إليَّ أن الممارسة الزوجية...

- هل أطلقت عليها الممارسة؟

- أليس هذا ما يقوله الجميع؟

تجاهل سايمون سؤالها، ثم قال:

- ما الذي قالته أيضًا؟

- لقد أخبرتني أن الـ أيًّا ما ترغب أنت في أن تُطلِقَه على هذا الأمر...

وبينما كانت تسرد وصايا والدتها الخاوية من أي نصيحة، وجد سايمون تهكمها مثيرًا للإعجاب، في وضع يثير الغرابة أيضًا، خاصةً مع تلك الظروف التي يمران بها الآن.

- ... تتعلق بطريقة أو بأخرى بإنجاب الأطفال، و...

اعتقد سايمون أنه على وشك ابتلاع لسانه من الصدمة، لكنه تمكن من الجواب:

- بطريقةٍ أو بأخرى؟

بدا العبوس على وجه دافني حين أجابت:

- حسنًا، أجل. في الحقيقة لم تمدني بأي تفاصيل.

- واضحٌ تمامًا.

- لقد بذلت ما بوسعها، وقد كان الأمر مُحرِجًا بالنسبة إليها.

أوضحت دافني، معتقدةً أن عليها على الأقل أن تحاول الدفاع عن والدتها.

فتمتم سايمون:

- بعد إنجاب ثمانية أطفال، سيعتقد المرء أنها تغلبت على هذا منذ زمنٍ طويل.

- لا أعتقد ذلك.

أجابت دافني وهي تهزُّ رأسها نفيًا، ثم أكملت:

- ثم سألتها إن كانت قد شاركت بدورٍ في هذه...

قطعت دافني حديثها، وتطلعت إليه بوجهٍ ساخط، ثم أضافت:

- لا أدري حقًا أي اسمٍ آخر أُطلِقُه على هذا الأمر سوى كلمة ممارسة.

- أكملي.

قال سايمون وقد أشار لها بيده أن تتابع، لكن صوته بدا متوترًا على نحو مُريع.

طرفت عينا دافني في قلق، فسألته:

- هل أنت على ما يرام؟

فأجاب وقد غَصَّ صوته:

- بخير.

- لا تبدو بخير.

أشار إليها بيده عدة مرات، حتى ترك لها انطباعًا غريبًا بعجزه عن الكلام في تلك اللحظة.

فتابعت في هدوء إذ عادت مرةً أخرى إلى قصتها الأولى:

- حسنًا.. وقد سألتها إن كان هذا يعني أنها قد شاركت في هذه الممارسة ثماني مرات، ومن بعدها كساها الحرج، و...

- هل سألتِها عن هذا؟

انفجرت الكلمات من فم سايمون كما لو أنها هاربةٌ من جبلٍ بركانيٍّ يثور.

- حسنًا، أجل.

ضاقت عينا دافني في تساؤل، ثم قالت:

- هل تضحك؟

شهق سايمون:

- كلا.

لكن شفتيها قد تكورتا في تجَهُّم حين قالت:

- يبدو لي بلا شك كما لو أنك تضحك.

فهزَّ سايمون رأسه في حركة هوجاء مُتعمَّدة. ورغم أن دافني قررت تجاهله، لكنها تابعت بامتعاض:

- حسنًا، لقد اعتقدتُ أن سؤالي منطقيٌّ للغاية، بما أنها قد أنجبت ثمانية أطفال. ولكن بعد ذلك أخبرتني أن...

هزَّ سايمون رأسه مجددًا وقد رفع يده لإسكاتها، وبدا الآن كما لو أنه لا يدري ما إذا كان يضحك أم يبكي، ثم نطق أخيرًا:

- لا تخبريني. أتوسلُ إليكِ.

- حسنًا.

لم تكن دافني تدري كيف تجيب على شيء كهذا، لذلك عقدت يديها في حجرها وأغلقت فمها.

وأخيرًا، سمعت سايمون يلتقط نفسًا عميقًا، ويقول:

- أعلم أنني سأندم على سؤالي هذا. في الحقيقة، أنا نادمٌ عليه بالفعل، ولكن لماذا اعتقدتِ تحديدًا أنني... –وارتجف جسده من الضحكات المتراكمة– عاجزٌ عن أداء دوري؟

- حسنًا، لقد قُلتَ إنك غير قادرٍ على الإنجاب.

- دافني، هناك الكثير والكثير من الأسباب الأخرى التي تجعل أي زوجين غير قادرين على الإنجاب.

كان على دافني أن تُجبِرَ نفسها على التوقف عن سحق أسنانها بعضها ببعضٍ. ثم تمتمت:

- أكره حقًا ما أبدو عليه الآن من غباء.

انحنى سايمون إلى الأمام، وانتزع يديها، ثم أمسك بهما منفصلتين.

- دافني...

قال بلُطفٍ وهو يمسح بأصابعه على أصابع يديها، ثم تابع:

- هل لديكِ أي فكرة عما يحدث بين الرجل والمرأة؟

فأجابت بصراحة:

- ليست لديَّ أدنى فكرة. ستعتقد أنني أعلم شيئًا، إذا وضعنا في الاعتبار حقيقة أن لديَّ ثلاثة أشقاء. وقد اعتقدتُ أنني أخيرًا سأطلع على حقيقة الأمر ليلة أمس، عندما قالت أمي...

- لا تزيدي شيئًا، ولا كلمةً أخرى، لا يمكنني التحمل.

كان صوت سايمون من أغرب ما يكون من أصواتٍ قد صدرت عنه في أي لحظة مضت.

- ولكن...

سقط رأسه بين يديه، ولوهلة اعتقدت دافني أنه ربما كان يبكي. ولكن بعد ذلك، عندما جلست أمامه توبخ نفسها على أنها قد جلعت زوجها يبكي في ليلة زفافه، أدركت أن كتفيه كانتا تهتزان إذ صدرت عنه أصوات ضحكاتٍ مكتومة.

هذا الشيطان البارع.

قالت دافني بتَجَهُّم:

- هل تسخر مني؟

هزَّ سايمون رأسه دون أن يتطلع إليها.

- إذن علامَ تضحك؟

قال شاهِقًا:

- يا إلهي، دافني، إن أمامكِ الكثير لتتعلميه.

فقالت في عَبْس:

- حسنًا، أنا لم أجادلك في هذا قط.

لو لم يكن هذا المجتمع حريصًا بكل ما أوتي من قوة على إبقاء الآنسات الشابات في جهلٍ تام بشأن حقائق الزواج، لما كنا لنتعرَّضَ لمشهدٍ كهذا، ولتجنبنا الكثير من الدراما.

انحنى سايمون إلى الأمام، وقد استقر كوعاه على ركبتيه. واشتعل في عينيه بريقٌ مثير، ثم همس:

- يمكنني أن أعلمكِ.

اضطربت معدة دافني على الفور.

لم يُشِح سايمون بعينيه بعيدًا عنها قط، وقد أخذ يديها ورفعهما إلى شفتيه، ثم تمتم:

- أؤكد لكِ...

وقد بدأ يحرك لسانه أسفل عقلة إصبعها الوسطى، وتابع:

- أنني قادرٌ تمامًا على إرضاء رغباتك.

شعرت دافني فجأة بانسحاب الهواء من رئتيها. ومتى صارت الغرفة شديدة الحرارة إلى هذا الحد؟

- أنا... أنا لستُ واثقة أنني أفهم ما تعنيه.

جذبها نحوه لتستقر بين ذراعيه، ثم قال:

- ستفهمين.

الفصل الخامس عشر

28 من مايو 1813 **جريدة المجتمع**

تبدو لندن في غاية الهدوء هذا الأسبوع، الآن وقد رحل الدوق المُفضل لدى المجتمع ودوقته المُفضلة إلى الريف. ويمكن لكاتبة هذا المقال أن تُفيد بأنها قد رأت السيد نايجل بيربرووك يطلب يد الآنسة بينلوبي فيذرنجتون للرقص، وأن الآنسة بينولبي -على الرغم من تشجيع والدتها البهيج وقبولها بعرضه في نهاية الأمر- لم تبدُ مُعجبةً تمامًا بهذا التصوُّر.

ولكن حقًّا، من يريد قراءة مقالاتٍ تتحدث عن السيد بيربرووك؟ أو الآنسة بينلوبي؟ دعونا لا نخدع أنفسنا، فما زلنا جميعًا نتمتع بالفضول النهم عن الدوق والدوقة.

ليدي ويسلداون

كان الأمر أشبه بالعودة إلى حديقة ليدي تروبريدج مرةً أخرى، عدا إنه في هذه المرة لن يكون هناك أي مقاطعات؛ لا وجود لشقيق أكبر غاضب، لا وجود للخوف، لا شيء سوى زوجٍ وزوجة، ووعدٍ بالحب. هكذا فَكَّرت دافني.

كانت تلك هي الليلة الأولى من ليالٍ كثيرةٍ قادمة ملآنة بالحب والنشوة؛ فقد سافر العروسان الجديدان إلى كلايفيدون جنوبًا، ثم انعزلا معًا في الجناح الرئيسي لأكثر من أسبوعٍ كامل، مما ضاعف حرج دافني، الذي كان قد بلغ أوجه حينئذٍ.

(بالطبع لم تشعر دافني بالحرج من محاولتها الفاترة لمغادرة الجناح الرئيسي).

بمجرد أن خرجا من خلوتهما الرومانسية، التي شهدت طقوس شهر عسل العروسين الجديدين، أخذ الزوج زوجته دافني في جولة حول كلايفيدون، وكان هذا أكثر ما احتاجت إليه؛ بما أن كل ما رأته منذ وصولها هو الطريق المؤدي إلى الباب الأمامي لغرفة نوم الدوق. ثم قضت دافني عدة ساعاتٍ كي تقدم نفسها للطبقة العليا من الخدم في القلعة. لا شك في أنها قد تعرَّفت إلى طاقم الخدم بأكمله بصورةٍ رسمية عند وصولها، لكن دافني فكَّرت في أنه من الأفضل لها مقابلة الأعضاء المهمين في طاقم الخدم كلٌّ على حِدة.

وبما أن سايمون لم يُقِم في كلايفيدون منذ سنواتٍ طويلة، فكثيرٌ من الخادمات الجديدات لم يكن يعرفنه. لكن هؤلاء الذين كانوا يعملون في كلايفيدون منذ طفولته، قد بدوا -لدافني بالطبع- أكثر إخلاصًا ووفاءً لزوجها، حتى بدا إخلاصهم مكينًا وأصيلًا. وقد ضحكت على هذا الأمر كثيرًا عندما تجوَّلت برفقة سايمون وحدهما في الحديقة، حتى بدأت تجد نفسها على الطرف الآخر من نظرةٍ قد أخرست لسانها، وكان ما رأته حقًّا لا يحتمل الجدال.

- لقد عِشتُ حياتي هنا حتى ذهبتُ إلى إتون.

كان هذا كل ما نطق به، كما لو أن تلك الكلمات بإمكانها أن تمدها بتوضيحٍ وافٍ.

شعرت دافني على الفور بعدم الارتياح إذ سمعت نبرة صوته الباردة، لكنها تابعت تسأل:

- ألم تسافر إلى لندن قط عندما كنتَ صغيرًا؟ فعندما كنا صغارًا، أحيانًا ما كنا...

- بل عِشتُ هنا طوال حياتي.

نمَّت نبرة صوته عن إحجامه، وليس رغبته في إكمال تلك المحادثة. أما دافني؛ فقررت أن تضرب بكل حذرها عرض الحائط، وتابعت الحديث في ذات الموضوع مهما كانت النتيجة.

- لا بد وأنك كنتَ طفلًا محبوبًا... أو ربما مشاغبًا، حتى تحظى بهذا الإخلاص طويل المدى.

كانت نبرة صوتها توحي بعدم اكتراثٍ مُتعمَّد. لكن سايمون لم ينطق بشيء.

فتابعت دافني بتثاقل:

- أتعرف؟ كان أخي -كولين- مشابهًا لك تمامًا؛ كان طفلًا مشاغبًا للغاية، ويعشق العبث عندما كان صغيرًا، لكنه كان أيضًا طفلًا فاتنًا، حتى إن جميع الخدم قد أحبوه. لماذا؟ لأنه في إحدى المرات...

كانت شفتاها قد تجمدتا على وضعهما، نصف مفتوحتين، ولم يبدُ أن هناك أي مغزى من الاستمرار في الحديث؛ فقد استدار سايمون وعاد أدراجه يسير مبتعدًا عنها.

لم يهتم سايمون قط بالزهور، ولم يفكر قط في أسباب وجود زهور البنفسج بطريقةٍ أو بأخرى، لكنه الآن قد وجد نفسه يميل على السياج الخشبي، متطلعًا إلى حديقة زهور كلايفيدون الشهيرة، كما لو أنه يفكر جِدِّيًا في بدء مسيرة مهنية في البستنة.

وكان كل هذا بسبب عجزه عن مواجهة أسئلة دافني عن طفولته.

لكن الحقيقة هي أنه كَرِه تلك الذكريات، ويبغض كل ما يذكره بها، حتى إن الإقامة هنا في كلايفيدون لم تكن مريحة بالنسبة إليه، فقد كان السبب الوحيد الذي حمله على إحضار دافني جنوبًا إلى منزل طفولته هو أن كلايفيدون كانت القلعة الوحيدة ضمن ممتلكاته التي كانت تبعد عن لندن مسيرة يومين فقط، وكانت جاهزة للإشغال الفوري.

تلك الذكريات تجلب معها المشاعر، ولم يرغب سايمون في أن يشعر كما لو أنه قد عاد إلى كونه هذا الصبي الصغير مجددًا. لم يرد أن يتذكر عدد المرات التي أرسل فيها خطاباتٍ إلى والده، لينتظر منه ردًّا عليها دون جدوى. لم يرغب في تذكر تلك الابتسامات اللطيفة من الخدم، تلك الابتسامات اللطيفة التي دائمًا ما تصحبها نظرات شفقة عليه. لقد كان طفلًا محبوبًا من جانبهم، لكن محبتهم له لم تمنعهم من الشعور بالأسف عليه.

وتلك الحقيقة التي عاصرها في طفولته؛ وهي أن والده كان مكروهًا من جميع الخدم إكرامًا لسايمون. حسنًا، لم تحمله كراهيتهم لوالده على الشعور بأنه في حالٍ أفضل قط. لم يكن -وصدقًا لم يزل- سايمون رجلًا كريم الأخلاق، حتى لا يشعر بشيء من الرضا عندما انتقصت شعبية والده في

القلعة. ولكن كراهيتهم له لم تمحُ قط الشعور بالحرج، أو المشقة، والانزعاج، أو الشعور بالخجل، والعار.

لقد كان يرغب في أن يحظى بإعجاب من حوله، وليس شفقتهم عليه، الإعجاب فقط. ولم يحظَ بهذا الشيء حتى استقل بنفسه، وتدبر أموره، عندما سافر في الخفاء إلى إتون. كانت هذه هي المرة الأولى التي اختبر فيها مذاق نجاحه.

لقد قطع طريقًا طويلًا؛ كان عليه أن يحارب النجوم ليبلغ عنان السماء، قبل أن يعود أدراجه إلى الطريق الذي قطعه مرة أخرى إلى الأرض.

وبلا شك، لم يكن أيٌّ من هذا هو خطأ دافني، فقد كان يعلم تمام العلم أنه ما من دوافع خفية، أو غاية في نفسها تحملها على السؤال عن طفولته، فكيف لها أن تعلم أيًّا من هذا؟ وهي لا تعلم شيئًا عن صعوباته العارضة في الحديث. لقد بذل جهودًا كثيرة حتى يخفي الأمر عنها.

أطلق سايمون تنهيدة بائسة من أثر إعيائه. كلا، نادرًا ما كان يبذل أي جهدٍ لإخفاء الأمر عن دافني؛ فدائمًا ما كانت تجعله يشعر بالسلاسة، والارتياح، لقد منحته الحرية التي كان يبحث عنها. ونادرًا ما كانت تظهر لعثمته هذه الأيام، ولم تكن تظهر في حديثه إلا في أوقات القلق، والغضب. وأيًّا ما كان شكل الحياة التي على وشك البدء برفقة دافني، فلم يكن فيها أي شيء من القلق، أو الغضب.

انحنى سايمون بثقله إلى السياج، حتى إن شعوره بالذنب قد جعل من انحناءته تبدو مثل من يتدلى عنقه من الحبل. لقد عاملها بأسلوبٍ فجّ، وبدا وكأنه قد قُدِّرَ له أن يعيد أسلوبه المقيت معها مرارًا وتكرارًا.

- سايمون؟

كان قد شعر بوجودها حتى قبل أن تنطق باسمه. لقد اقتربت نحوه من الخلف، وكان وقع خطوات حذائها على الحشائش ناعمًا وهادئًا، لكنه كان يعلم بوجودها. كان بإمكانه أن يتشمم رائحة عطرها الرقيق، وأن يسمع همسات الريح تتخلل خصلات شعرها.

- إنها زهورٌ جميلة.

كانت هذه هي طريقتها الخاصة –وكان سايمون يعلم ذلك– لتهدئة طبعه الحاد. وكان يعلم أيضًا أنها تتوق لطرح المزيد من الأسئلة، لكنها كانت

امرأة تملك من الحكمة ما يسبق سنوات عمرها، وكثيرًا ما كان يحب سايمون مشاكستها بشأن ذلك الأمر، إلا إنها تعلم الكثير حقًا عن الرجال، ومزاجهم الأحمق؛ لذلك فلن تسأل عن أي شيء آخر، على الأقل اليوم.

- لقد أخبروني أن والدتي هي من زرعتهم.

أجابها.

كان صوته الأجش وكلماته أكثر خشونة مما ودَّ أن تكون عليه، لكنه تمنى لو أنها رأت كلماته مثل غصن الزيتون الرقيق، كان هذا هو ما قصد سايمون أن تكون عليه كلماته. وعندما لم تنطق بشيء، أضاف بطريقة أكثر إيضاحًا:

- لقد ماتت عند ولادتي.

أومأت دافني، وقالت:

- لقد سمعت. آسفةٌ لما أصابك.

رفع سايمون كتفيه في عدم اكتراث، ثم أجاب:

- لم تتسنَّ لي فرصة التعرف إليها.

- هذا لا يعني أنها لم تكن خسارةً لك.

استعاد سايمون شريط طفولته. لم يكن هناك من سبيل حتى يعلم إن كانت والدته ستكون أكثر تعاطفًا مع الصعاب التي واجهها عما كان عليه والده أم لا، ولكن ما اتضح له أنه تحت أي ظرف لم تكن لتجعلها أسوأ مما هي عليه.

تمتم مجيبًا:

- أجل، أعتقد ذلك.

في وقتٍ لاحق من هذا اليوم، وبينما كان سايمون يراجع بعض حسابات ممتلكاته، قررت دافني أنه قد حان الوقت المناسب للتعرف على السيدة كولسون، مديرة المنزل. وعلى الرغم من أن سايمون ودافني لم يناقشا بعد أمور إقامتهما في المستقبل، فإن دافني لم تتخيل أنهما لن يقضيا بعض الوقت هنا، في كلايفيدون؛ منزل أسلاف سايمون. وإن كان هناك شيء واحد كانت قد تعلمته من والدتها، فهو أنه من الواجب على الليدي سيدة المنزل أن تبني علاقة عمل وِديَّة مع مدبرة منزلها.

لا يعني هذا أن دافني كانت شديدة القلق بشأن التعرف على السيدة كولسون، والحديث معها، وتدبر أحوال المنزل؛ فقد التقتا في لقاءٍ قصير عندما قدمها سايمون إلى طاقم الخدم، وسريعًا ما اتضح لها أن السيدة كولسون كانت من النوع الودود الذي يحب الثرثرة.

مَرَّت دافني على غرفة مكتب السيدة كولسون –غرفة صغيرة للغاية تقع خارج المطبخ مباشرة– قبل موعد الشاي. كانت مدبرة المنزل امرأة جميلة، في الخمسين من عمرها، وكانت تنحني على مكتبها الصغير، تعمل على قائمة طعام الأسبوع.

طرقت دافني الباب المفتوح، ونادت بصوت معتدل:

- سيدة كولسون؟

تطلعت مدبرة المنزل، ونهضت واقفةً على الفور.

- صاحبة الجلالة...

أجابت وهي تقدم انحناءة احترام إلى الدوقة الجديدة، ثم تابعت:

- كان من المفترض أن تدعيني أحضر إليكِ.

ابتسمت دافني في ارتباك. ما زالت غير معتادة بعد على سمو مكانتها عن مكانة الآنسات الأخريات.

- لقد كنتُ أُنهي بعض الأمور الأخرى بالفعل...

حاولت دافني توضيح ظهورها غير التقليدي في طابق الخدم، ثم تابعت:

- ولكن إن كان لديكِ بعض الوقت، سيدة كولسون، فأنا آمل لو أن بإمكاننا أن نتعرف إلى بعضنا؛ بما أنكِ قد عِشتِ هنا لسنواتٍ طويلة، وأتمنى لو أنكِ تمكثين في رحابنا سنواتٍ طويلة أخرى آتية.

ابتسمت السيدة كولسون أمام نبرة دافني الدافئة، وأجابت:

- بالطبع يا صاحبة الجلالة. هل هناك أي شيء على وجه الخصوص تودين السؤال عنه؟

- ليس تمامًا، ولكن ما زال أمامي الكثير لأتعلمه بشأن كلايفيدون إذا كُنتُ أنوي إدارته على خير ما يُرَام. ربما يمكننا تناول الشاي في الغرفة الصفراء؟ أنا حقًا أستمتع بزينتها؛ دائمًا دافئة، ومشمسة، وكنتُ أتمنى لو أجعلها قاعة استقبالي الخاصة.

منحتها السيدة كولسون نظرةً مرتبكة، ثم قالت:

- كان للدوقة الراحلة نفس الرأي تمامًا.

- حقًا.

لم تكن دافني واثقةً مما إذا كان لهذا الأمر أن يُشعِرَها بالارتياح أم بالانزعاج، لكن السيدة كولسون تابعت:

- لقد أولَيتُ تلك الغرفة عناية خاصةً على مدار السنين. إنها تحظى بقدرٍ لا بأس به من حرارة الشمس، بالنظر إلى أنها في الجهة القبلية من القلعة. وأمرتُ بإعادة تهيئة جميع الأثاث، وتغطيته، وتنجيده، منذ ثلاثة أعوام.

وارتفع ذقنها قليلًا بإيماءة فخر إذ قالت:

- لقد قطعتُ كل الطريق بنفسي إلى لندن حتى أحصل على نفس نوع النسيج.

- صحيح...

أجابت دافني وهي تتقدم الطريق، خارجةً من غرفة المكتب، ثم تابعت:

- لا بد وأن الدوق الراحل كان يحب زوجته كثيرًا، حتى يأمر بهذه العناية الدؤوبة بغرفتها المفضلة.

لم تلتقِ عينا السيدة كولسون بعيني دافني، لكنها أجابت في هدوء:

- لقد كان قراري الشخصي؛ دائمًا ما كان يمنحني الدوق ميزانيةً محددة من أجل صيانة المنزل، واعتقدتُ أنها الاستفادة المُثلَى من المال.

انتظرت دافني حتى استدعت مدبرة المنزل إحدى الخادمات، وأصدرت إليها التعليمات من أجل موعد الشاي. ثم استأنفت الحديث:

- إنها غرفة لطيفة للغاية. وعلى الرغم من أن الدوق الحالي لم تُتَح له الفرصة قط كي يتعرف إلى والدته من كثب، فأنا واثقةٌ من أنه سيتأثر كثيرًا باهتمامكِ بالمحافظة على غرفتها المفضلة.

- هذا أقل ما يمكنني فعله.

ثم تابعت السيدة كولسون، بينما كانتا تسيران بخُطى واسعة عبر الردهة:

- ففي نهاية الأمر، لم أعمل في خدمة عائلة باسيت طوال حياتي.

- حقًا؟

سألت دافني في فضول. ما كانت تعرفه دافني عن الطبقة العُليا من الخدم هو شهرتهم بالولاء، وعادةً ما يعملون في خدمة عائلة واحدة لأجيال.

- أجل، لقد كُنتُ الخادمة الشخصية للدوقة.

انتظرت السيدة كولسون خارج مدخل الغرفة الصفراء، حتى تسمح لدافني بالتقدم عنها، ثم تابعت:

- وقبل ذلك كُنتُ رفيقتها؛ فقد كانت أمي معلمتها الخاصة. وكانت عائلة صاحبة الجلالة كثيرة العطف، والكرم، حتى إنهم سمحوا لي بمشاركتها في الدروس.

فتمتمت دافني:

- لا بد وأنكما كنتما مقربتين للغاية.

أومأت السيدة كولسون، وتابعت:

- بعد وفاتها، عَمِلتُ في عددٍ من الوظائف هنا في كلايفيدون، حتى أصبحت مدبرة المنزل في نهاية الأمر.

- أجل.

ابتسمت دافني، ثم اتخذت مقعدًا لها على الأريكة، وقالت:

- تفضلي بالجلوس.

بينما تشير إلى الكرسي المقابل لها.

بدت السيدة كولسون مترددة بعض الشيء من تلك الأُلفة، والمُخالطة، لكنها جلست في نهاية المطاف.

- لقد تحطَّم قلبي عند وفاتها.

ثم منحت دافني نظرةً وجلة إذ قالت:

- أتمنى لو لم تمانعي إخباري إياكِ بتلك الأمور.

- كلا، على الإطلاق.

أسرعت دافني تجيبها. الحقيقة هي أن دافني كانت تشعر بفضولٍ مُلِح، جعلها تتطلع إلى معرفة كل شيء عن طفولة سايمون. كان قد أخبرها بالقليل، ومع ذلك شعرت أن القليل الذي قاله يحمل الكثير وراءه.

تابعت دافني بنبرةٍ لطيفة:

- أرجو أن تخبريني بالمزيد، أود لو أعرف المزيد عنها.

بدت عينا السيدة كولسون باهتتين بفعل الدمعات البسيطة التي تكونت فيهما، ثم تابعت:

- كانت أكثر البشر الذين عرِفَتهم تلك الأرض سماحةً، وعَطفًا. كانت هي والدوق.. حسنًا، لم يكن زواجهما عن حب، لكن علاقتهما كانت تتمتع بألفة، وتوافق؛ فقد كانا صديقين، ولكن بطريقتهما الخاصة.

تطلعت بعينيها إلى أعلى، وتابعت:

- كان كلاهما عَليمًا بواجباته؛ بصفته دوقًا، أو بصفتها دوقة. وقد تحَمَّلَا مسؤوليتهما بجدٍّ ومثابرة.

أومأت دافني في تَفَهُّم، فتابعت السيدة كولسون:

- كانت شديدة الإصرار على أن تمنح الدوق صبيًّا، ولَزِمَت المحاولة والتكرار، حتى بعدما نصحها جميع الأطباء بألا تفعل ذلك. لكنها اعتادت البكاء بين ذراعيَّ كل شهر عندما كان يأتيها الحيض.

أومأت دافني مجددًا، على أمل أن تُخفِيَ تلك الحركة الإرادية تعبير وجهها، الذي توتر فجأة. كان من العسير عليها حقًّا أن تستمع إلى قصصٍ تدور حول العجز عن إنجاب الأطفال، ولكن يُفتَرَضُ بها أن تعتاد ذلك من الآن فصاعدًا؛ فسيكون الأمر أشد إجهادًا لها عند الجواب على أسئلة تتعلق بالمشكلة.

ومما لا شك فيه أن الأسئلة ستُطرَحُ رغمًا عنها؛ أسئلة تُظهِرُ مجاملاتٍ مؤلمة، وأخرى تُخفي نظرات شفقةٍ كريهة.

لكن حمدًا لله، لم تلحظ السيدة كولسون اضطراب دافني وارتباكها؛ فقد كانت تتنشَّق وهي تُكمِل قصتها.

- كانت تقول دائمًا أشياء مثل: كيف لها أن تكون دوقة على أكمل وجه إن عجزت عن أن تأتيه بالصبي المنشود؟ لقد حَطَّمَت كلماتها قلبي، كل شهر كانت كلماتها تحَطِّم قلبي.

تساءلت دافني إن كان قلبها هي أيضًا سيتحطم إلى آلاف القطع كل شهر، ربما لا. على الأقل كانت دافني تعلم حقيقة أنها لن تحظى بالأطفال. لكن والدة سايمون كانت تحمل آمالًا تتحطم أمامها كل أربعة أسابيع.

وتابعت مدبرة المنزل:

- وبالطبع كان الجميع يتكلم هنا وهناك، كما لو أن عجزها عن إنجاب طفلٍ هو خطأ منها هي. كيف لهم أن يعلموا ذلك؟ أنا أسألك. ليست المرأة دائمًا هي الأرض القاحلة؛ أحيانًا ما يكون الأمر عيبًا من الرجل كما تعرفين.

لم تنطق دافني بشيء، فتابعت السيدة كولسون:

- ولقد أخبرتها بذلك مرارًا وتكرارًا، لكن شعورًا بالذنب ظل يطاردها. وقد أخبرتها...

استحال وجه مدبرة المنزل إلى اللون الوردي على الفور، ثم تابعت:

- هل تُمَانِعين إن تحدثتُ بصراحة؟

- أرجو أن تفعلي.

- حسنًا، لقد أخبرتها ما قالته لي أمي من قبل: لن ينمو زرعٌ دون بذرة قوية، وصالحة.

ارتدت دافني قناع وجهٍ يخلو من التعبيرات، فقد كان هذا كل ما يمكنها فعله في تلك اللحظة، حتى إن تعبيراتها الخاوية قد شجعت السيدة كولسون على المتابعة:

- ولكن في النهاية تمكنت من إنجاب السيد سايمون.

أطلقت مربية المنزل تنهيدةً أمومية، ثم تطلعت إلى دافني بنظرةٍ مرتبكة، وقالت في تردد:

- أستميحكِ عذرًا؛ ما كان ينبغي عليَّ أن أناديه بذلك، إنه الدوق الآن.

- أوه، لا تتوقفي من أجلي.

قالت دافني، وهي سعيدةٌ بأن هناك ما يدفعها إلى البسمة.

- من العسير على شخصٍ في مثل عمري أن يغير من طريقته.

وأطلقت السيدة كولسون تنهيدة بائسة، قبل أن تستأنف حديثها.

- أخشى أن جزءًا مني سيظل يتذكره على أنه الصبي الصغير المسكين.

ثم تطلعت إلى دافني وهزَّت رأسها أسفًا قبل أن تتابع:

- كان من الممكن له أن يحظى بطفولةٍ أيسر من تلك التي مَرَّ بها إن كانت الدوقة على قيد الحياة.

فتمتمت دافني:

- طفولةٍ أيسر؟

على أمل أن يكون تساؤلها هو كل ما تحتاج إليه السيدة كولسون من تشجيع، لتوضيح ما تقصده.

فأجابت مدبرة المنزل في حِدَّة:

- إن الدوق لم يتفهم هذا الصبي المسكين. وقد اشتعل غضبه، واتهمه بالغباء، و...

رفعت دافني رأسها في صدمةٍ على الفور، وقاطعت المرأة:

- هل اعتقد الدوق أن سايمون صبيٌّ غبي؟

كان هذا غير معقول، أمرًا يستحيل تصديقه؛ فقد كان سايمون واحدًا من أذكى الناس الذين عرفتهم في حياتها. وقد سألته ذات مرة عن دراساته في أكسفورد، وكانت مدهوشة إذ علمت أن سمته المميزة في الرياضيات هي أنه لم يكن حتى يستخدم الأرقام في معادلاته.

- كان الدوق عاجزًا عن رؤية أي شيء يتخطى حدود أنفه، ولم يمنح هذا الصبي فرصةً قط.

هكذا أجابت السيدة كولسون، بصوت نخير واضح.

شعرت دافني بجسدها يميل إلى الأمام، وقد تصلَّبت أذناها من هول كلمات مدبرة المنزل. ما الذي فعله الدوق لسايمون؟ وهل كان هذا هو السبب الذي يجعل سايمون بارد الحديث في كل مرةٍ يُذكَرُ فيها اسم والده؟

سحبت السيدة كولسون منديلًا ورقيًا، وجففت عينيها، ثم قالت:

- لو كان لكِ أن تشاهدي الطريقة التي عمل بها هذا الصبي لتحسين نفسه. لقد حطَّم قلبي. لقد حطَّم قلبي كل ما مر به.

غرست دافني أصابع يديها في الأريكة. بدا من الواضح أن السيدة كولسون لن تصل إلى لُبِّ الموضوع أبدًا.

- لكن مهما كان ما يفعله هذا الصبي، فلم يكن كافيًا قط بالنسبة إلى الدوق. هذا هو رأيي أنا بالطبع، ولكن...

وفي تلك اللحظة، دخلت الخادمة تحمل إبريق الشاي وكؤوسه. وكادت دافني تصرخ في فزع من أثر المفاجأة، التي قطعت سريان القصة التي تستمع إليها. استغرق الأمر دقيقتين كاملتين لإعداد الشاي، وسكبه في الكؤوس، وطوال تلك المدة كانت السيدة كولسون تثرثر حول رقائق البسكويت، وهل تفضل دافني رقائق البسكويت السادة أم المزينة بمسحوق السكر من أعلى.

كان على دافني أن ترفع يديها عن الأريكة، لكيلا تترك حُفَرًا عميقة في قماش التنجيد، الذي عملت السيدة كولسون بإصرار وجِدّ حتى تحافظ على جودته. وأخيرًا غادرت الخادمة، وارتشفت السيدة كولسون من كأس الشاي خاصتها، ثم قالت:

- والآن، أين كنا؟

فأجابت دافني على الفور:

- كُنتِ تتحدثين عن الدوق، الدوق الراحل، وأنه مهما كان يفعل زوجي فلم يكن كافيًا بالنسبة إلى الدوق، وفي رأيكِ...

- يا إلهي! لقد كُنتِ تُنصِتين إلى حديثي. أنا أشعر حقًّا بالإطراء.

أشرق وجه السيدة كولسون بابتسامة واضحة، فحثَّتها دافني قائلةً:

- ولكنكِ كنتِ تقولين...

- أجل، صحيح. كنت سأقول ببساطة إني ما دمتُ كان في رأيي أن الدوق الراحل لم يسامح ابنه قط عن كونه لم يكن صبيًّا مثاليًّا.

- ولكن، سيدة كولسون، تعرفين أن أيًّا منا ليس مثاليًّا.

- بالطبع لا، ولكن...

اتسمت عينا مدبرة المنزل لوهلةٍ قصيرة بنظرة ازدراء، وتحقيرٍ للدوق الراحل، ثم تابعت:

- لو كُنتِ تعرفين صاحب الجلالة، الدوق الراحل، لكُنتِ فَهِمتِ ما أعنيه. لقد انتظر طويلًا ليُرزَقَ بصبي. وفي رأيه فإن اسم عائلة باسيت هو مرادفٌ للمثالية.

فسألت دافني:

- وزوجي، ألم يكن الصبي الذي أراده؟

- لم يكن يرغب بمجرد صبي، بل كان يرغب بنسخةٍ مثالية مُصَغَّرة منه.

في تلك اللحظة كانت دافني قد عجزت عن إخفاء فضولها، فسألت:

- ولكن ما الذي فعله سايمون وكان بغيضًا بالنسبة إلى الدوق؟

اتسعت عينا السيدة كولسون في دهشة، وقد صكّت صدرها بإحدى يديها.

- لماذا؟ ألا تعرفين؟ يا إلهي! بالتأكيد لا تعرفين.

- لا أعرف ماذا؟

- أنه كان عاجزًا عن الكلام.

انفرجت شفتا دافني في صدمة، وقالت:

- أستميحكِ عذرًا؟

- كان عاجزًا عن الكلام. ولا حتى كلمة واحدة، حتى صار في عمر الرابعة. ثم جاءت تلك اللعثمة، والتعثر. وكان قلبي يتحطم من أجله في كل مرة يفتح فيها فمه للحديث؛ فقد كُنتُ أرى في داخله صبيًّا صغيرًا متقد الذكاء. كل ما في الأمر أنه كان عاجزًا عن النطق بالكلمات بطريقة سليمة.

- لكنه يتكلم الآن جيدًا جدًّا.

أجابت دافني، وقد أدهشتها نبرة الدفاع في صوتها، ثم تابعت:

- لم أسمعه من قبل قط يتلعثم في حديثه، أو حتى إن سَمِعتُ ذلك، لم.. لم.. لم ألحظ الأمر عليه قط. انظري! لقد فَعَلتُ هذا الآن. الجميع يتعثر في حديثه قليلًا عندما يكون مرتبكًا، أو مُشوَّشًا.

- لقد عَمِلَ بجدّ حتى يحسِّنَ من نفسه. أتذكر أنها كانت سبع سنين. طوال سبع سنواتٍ لم يفعل شيئًا في حياته سوى ممارسة الكلام، والحديث مع مربيته.

تجعد وجه السيدة كولسون إذ كانت تفكر قليلًا، ثم تابعت:

- لنرَ.. ماذا كان اسمها؟ أجل، المربية هوبكنز. لقد كانت قديسةً بكل ما تحمله الكلمة من معنى. وكانت وفيةً مُخلِصة، قد كَرَّست حياتها لهذا الصبي كما لو أنه كان ابنها الذي أنجبته من أحشائها. لقد كُنتُ مساعدة مدبرة المنزل في هذا الوقت، ولكن أحيانًا ما كانت تسمح لي بالصعود إلى غرفة الدراسة، ومساعدته في ممارسة الكلام.

همست دافني:

- هل كان الأمر شاقًّا عليه؟

- في بعض الأيام كنت أعتقد أن أعصابه ستتحطم من الضغوط التي يفرضها الأمر عليه. ولكنه كان صبيًّا عنيدًا، مستعصيًا على الانكسار. يا إلهي، كم كان صبيًّا قويًّا مجتهدًا! لم أرَ في حياتي شخصًا قوي العزيمة مُصِرًّا على بلوغ هدفه مثلما كان سايمون.

هزت السيدة كولسون رأسها في أسف، وتابعت:

- ومع ذلك، ظل والده رافضًا له. كان...

أنهت دافني جملتها بدلًا منها:

- كان هذا يحطم قلبكِ. كان ليحطم قلبي أنا أيضًا.

أخذت السيدة كولسون رشفةً من الشاي طوال الصمت القاتم الذي خيَّم عليهما، ثم قالت:

- شكرًا لكِ كثيرًا على السماح لي بتناول الشاي برفقتك، يا صاحبة الجلالة.

كانت السيدة كولسون قد أساءت فهم هدوء دافني على أنه ضجر وتأفف، ثم تابعت:

- لقد كان أمرًا غير مُعتادٍ من حضرتكم فعله، ولكن...

تطلعت دافني بينما كانت السيدة كولسون تبحث عن الكلمة الصحيحة، حتى أنهت مدبرة المنزل جملتها أخيرًا، وقالت:

- لطيف. لقد كان هذا لُطفًا كبيرًا منك.

تمتمت دافني في شرود:

- شكرًا لك.

لكن السيدة كولسون قالت فجأة:

- صحيح! لكنني لم أُجِب عن أي من أسئلتك بشأن كلايفيدون.

هَزَّت دافني رأسها باقتضاب، وقالت بلطف:

- ربما في وقتٍ آخر.

فقد كان أمامها الكثير لتفكر فيه تلك الليلة.

استشعرت السيدة كولسون رغبة ربة عملها في الخصوصية، فنهضت، وانحنت في احترام، ثم غادرت الغرفة في صمت.

الفصل السادس عشر

جريدة المجتمع — **2 من يونيو 1813**

كانت الحرارة الخانقة في لندن هذا الأسبوع قد صَعَّبت حضور المناسبات الاجتماعية بالتأكيد. وقد وجدت كاتبة هذا المقال الآنسة بروديتس فيذرنجتون وقد فقدت وعيها في حفل هوكسلي الراقص، لكنه كان من المستحيل أن نتأكد إن كان الفقدان المؤقت للتوازن، والإغماء، كان بسبب الحرارة، أم بسبب وجود السيد كولين بريدجرتون، الذي كان قد أثار جَلَبةً واسعة في أنحاء الوسط الرفيع منذ عودته من رحلته إلى بقية دول القارة.

كانت الحرارة غير المُحتَمَلة قد خلَّفت أيضًا ضحية أخرى؛ تتمثل في ليدي دانبيري، التي غادرت لندن منذ عدة أيام، حيث ادَّعَت أن قطتها (هذا الوحش طويل الشعر وكثيفه) لم تحتمل الطقس. ومن المُعتَقد أنها قد عادت إلى منزلها الريفي، في مقاطعة سوري.

من ناحية أخرى، قد يعتقد المرء أن دوق ودوقة هاستنجز لم يتأثرا بدرجات الحرارة المرتفعة في لندن تلك الأيام؛ لأنهما يقيمان الآن بجانب الساحل، حيث دائمًا ما تكون رياح البحر ممتعة، ومُبهِجَة. لكن كاتبة هذا المقال تعجز عن التأكد من راحتهما؛ فعلى النقيض من الاعتقاد العام، لا تمتلك كاتبة هذا المقال جواسيسَ في كل المنازل المهمة، وبالتأكيد ليس لها جواسيس خارج لندن!

ليدي ويسلداون

فكر سايمون أنه من الغريب ألا يمر على زواجهما سوى أسبوعين، وقد اعتادا بالفعل على أنماط، وروتين حياة مريح. فالآن –مثلًا– وقف سايمون

عاري القدمين في مدخل غرفة ملابسه، يزيل عن رقبته رابطة العنق، بينما يراقب زوجته تُمَشِّط شعرها.

وقد فعل الأمر نفسه بالأمس تمامًا، وقد كان هناك شيءٌ يدعو للاسترخاء على نحو غريب في ما يحدث؛ ففي كلتا المرتين فكر سايمون، وقد عبرت وجهه لمحةٌ من السخرية، أنه كان قد خطط لإغواء زوجته إلى الفراش. بالأمس كان قد نجح في مراده بالتأكيد.

كانت رابطة عنقه التي تُعقَد في ربطةٍ واحدة بشكلٍ مُتقَن ترقد متدلية، ومنسية على أرضية الغرفة.

واليوم سينجح في تحقيق مراده أيضًا.

توقف سايمون عندما وصل إلى جانب دافني، تجثم على حافة طاولة الزينة الخاصة بها. وإذ رأته، تطلعت إليه، وطرفت بعينين واسعتين في هدوء.

لامس يديها بيديه، والتفت أصابعهما حول مقبض فرشاة الشعر، وقال في حُنو:

- أحب أن أراكِ تُمَشِّطين شعركِ، لكنني أود أن أفعلها بنفسي.

حَدَّقت دافني إليه بطريقةٍ توحي بنيةٍ غريبةٍ منها. وبأناة، تخلَّت دافني عن الفرشاة.

- هل أنهيتَ كل شيء يتعلق بحساباتك؟ لقد كُنتَ منشغلًا للغاية مع مدير عقاراتك لوقتٍ طويل.

- أجل. الحقيقة أن الأمر كان مُرهِقًا للغاية، لكنه كان ضروريًا، و...

وإذ فجأة، تجمد وجه سايمون، وأضاف:

- إلامَ تنظرين؟

أشاحت بعينيها عن وجهه، وقالت:

- لا شيء.

لكن صوتها كان متقطعًا على غير عادتها.

هَزَّ رأسه باقتضاب، وكانت حركته موجهةً إلى نفسه أكثر من كونها موجهةً إليها، ثم بدأ في تمشيط شعرها. ولوهلة، بدا الأمر وكأنها تُحَدِّق إلى فمه.

صارع سايمون رغبةً عارمةً في الارتجاف. كان الأمر ذا تاريخٍ قديم؛ فطوال فترة طفولته كان الناس يحدقون إلى فمه. كانوا يتطلعون في دهشة مخيفة، ومن حينٍ لآخر كانوا يضطرون إلى التطلع إلى عينيه، لكنهم دائمًا ما يعودون إلى التحديق إلى فمه، كما لو أنهم غير قادرين على التصديق بأن هذا العضو الذي يبدو جيدًا تمامًا يمكنه أن ينطق بهذه الرطانة، والهراء.

لكن لا بد وأنه يتخيل الأمر؛ فلماذا قد تحدق دافني إلى فمه؟

كان يسحب الفرشاة بلُطفٍ خلال شعرها، سامحًا لأصابعه أن تتخلل خصلات شعرها أيضًا. ثم طرح سؤالًا عليها:

- هل استمتَعتِ بحديثكِ مع السيدة كولسون؟

أجفلت دافني. لقد كانت حركةً مقتضبة، وبرعت في إخفائها جيدًا، لكنه لمحها لا محالة.

أجابت دافني:

- أجل، لقد كانت على علمٍ واسع بكل شؤون المنزل.

- أجل، إنها كذلك؛ لقد مكثت هنا في هذا القصر منذ الأبــ ـــــ... إلامَ تتطلعين؟

وبتلقائية، قفزت دافني في كرسيها، وأصرَّت قائلة:

- أنا أنظر إلى المرآة.

وقد كان جوابها صحيحًا، لكن سايمون لا يزال مرتابًا؛ لقد كانت عيناها مثبتتين عن قصد على بقعة واحدة محددة. ثم تابعت على عجل:

- كما كُنتُ أقول؛ أنا واثقةٌ أن السيدة كولسون ستكون ذات قيمةٍ ونفع عندما أعتادُ إدارةَ شؤون كلايفيدون. إنه قصرٌ كبيرٌ للغاية، وما زال أمامي الكثير لأتعلمه.

- لا تبذلي جهدًا كبيرًا في ذلك؛ فنحن لن نقضي وقتًا طويلًا هنا.

- لن نفعل؟

- لقد فَكَّرتُ في أن نجعل من لندن مقرَّ إقامتنا الرئيسي.

وإذ ظهرت نظرات الدهشة على وجهها، تابع سايمون:

- ستكونين بالقرب من عائلتك، حتى عندما يعودون إلى منزلهم في الريف. واعتقدتُ أنكِ ستحبين ذلك.

- أجل، بالطبع. أنا حقًّا أفتقدهم، ولم أبتعد عنهم بهذا القدر من قبل. بالطبع كُنتُ أعلم دائمًا أنني عندما أتزوج ستكون لي عائلتي الخاصة، و...

وأطبق صمتٌ قاتمٌ عليهما. وبعد برهةٍ تابعت دافني:

- حسنًا، أنت عائلتي الآن.

وقد بدا في صوتها شيءٌ من البؤس.

تنهَّد سايمون، وكانت فرشاة الشعر ذات الخلفية الفضية قد أنهت مسارها في شعر دافني الداكن، ثم أجاب:

- دافني، عائلتكِ ستظل دائمًا عائلتك، ولا يمكنني أبدًا أن أحل محلهم في حياتك.

التفتت دافني لتواجهه، وكانت عيناها تبدوان مثل قطعتين من الشوكولاتة الدافئة، بينما كانت تهمس قائلةً:

- لكن يمكنك أن تكون شيئًا أكثر من ذلك.

وأدرك سايمون في تلك اللحظة أن جميع خططه من أجل إغواء زوجته كانت قابلة للنقاش، لأنه بدا من الواضح له أن زوجته نفسها كانت تخطط لإغوائه أيضًا.

نهضت دافني عن حافة طاولة الزينة، فانسلَّ رداء نومها الحريري عن أكتافها، ومن أسفله كانت قد ارتدت منامةً شفافة؛ تلك التي تكشف من جسدها أكثر مما تغطيه. أما عن سايمون؛ فقد وجدت يداه الكبيرتان طريقهما إلى جوانب نهديها، وشقت أصابعه العنيفة طريقها ما بين طيات القماش الأخضر الناعم لثوب نومها.

قال سايمون في صوتٍ مبحوح:

- أنتِ تحبين هذا اللون كثيرًا، أليس كذلك؟

ابتسمت دافني جوابًا على تعليقه، وحينها نسي سايمون أن يلتقط أنفاسه، ثم قالت مشاكسة:

- أحبه لأنه يتماشى مع لون عيني. أتتذكر؟

وتمكن سايمون من أن يبتسم لها، على الرغم من أنه لم يدرِ قط كيف فعل ذلك. لم يكن قد اعتقد من قبل أنه من الممكن للمرء أن يبتسم وهو على وشك

أن يعاني من نقص الأكسجين في رئتيه. وأحيانًا كانت حاجته إلى لمسها مُلِحَّةً للغاية، حتى إنه يتألم لمجرد التطلع إليها.

جذبها نحوه، فصارت أقرب إلى جسده. كان عليه أن يُقَرِّبها نحوه، فما كان مؤكدًا هو حقيقة أنه كان ليُجَنَّ إن لم يفعل ذلك. ثم تمتم وهو يستند إلى رقبتها:

- هل تقولين لي إنكِ قد اشتريتِ هذا الثوب من أجلي؟

فأجابت دافني، بينما كانت أنفاسها تتلاحق إذ كان يلعق بلسانه شحمة أذنها:

- أجل، فمَن غيرك سيراني فيه؟

- لا أحد.. لا أحد. لا أحد قط.

أجاب بنبرة من يتعهد بشيءٍ ما، بينما كان يحاول الوصول إلى أسفل ظهرها، ليضمها نحوه بشدة.

بدت دافني مدهوشةً قليلًا من رغبته العاطفية المفاجئة للامتلاك، إلا إنها أضافت:

- إلى جانب أنه جزءٌ من تجهيزات عُرسِي.

تأوه سايمون، ثم قال:

- أنا أحب تجهيزات عُرسِك.. أعشقها. هل أخبرتكِ بذلك؟

- لم تخبرني بذلك في جُمَلٍ عديدة، ولكن لم يكن من الصعب عليَّ أن أُدرِكَ الأمر.

وكان هذا آخر ما نطقا به من كلماتٍ لوقتٍ ليس بقصير.

مَرَّ بعض الوقت بينهما في غرفة نومهما الخاصة.

وفي نهاية الأمر، وبتأوهاتٍ تبدو وكأنها تُنتَزعُ من روحه، يسحب سايمون نفسه مبتعدًا عن جسدها الراقد أسفل منه، بفارق ثانية واحدة قبل أن يتدفق ماؤه -كما يحدث دائمًا- على الملاءة عند حافة الفراش.

وبعد بُرهَة، يلتفت عائدًا نحوها، ويسحبها لتستكين بين ذراعيه. لقد كان طقسًا صارت تعتَزُّ به. سيضمها إلى جسده بشدة، حتى يلتصق ظهرها

بمقدمة جسده، ويُغرِقَ وجهه في شعرها. وبعد ذلك، بعدما تهدأ أنفاسهما حتى تصير تنهيدةً هادئة، يغطان في نومٍ عميق.

إلا إن الأمر كان مختلفًا هذه الليلة؛ الليلة شعرت دافني بأرقٍ في غير موضعه، حتى نبا بها الفراش. كانت سعيدة بما يشعر به جسدها من إرهاقٍ وتُخمَة، لكن شيئًا ما كان خاطئًا. كان أمرٌ ما يعبث بعقلها، ويثير حنقَ أفكارها.

استدار، وانزلق بجسده إلى جانب جسدها، بينما كان يدفعها إلى الجانب النظيف من الفراش. دائمًا ما يفعل ذلك، مستخدمًا جسده كحاجزٍ بينها وبين الجانب الآخر؛ حتى لا تستدير في الفراش، فيمسها أيٌّ من الفوضى التي أحدثها. لقد كانت إيماءةً لطيفةً منه في الحقيقة، و...

اتسعت عينا دافني فجأة، حتى إن شهقةً كادت أن تهرب منها.

«*لن ينمو زرعٌ دون بذرةٍ قوية وصالحة*».

لم تكن دافني قد فكَّرت في كلمات مدبرة المنزل، السيدة كولسون، عندما نطقت بها في ذلك المساء. لقد غرقت تمامًا في الحكايات التي سمعتها عن طفولة سايمون الموجعة. تفكر كثيرًا في الطريقة التي تُغدِقُ بها الحب على حياته، حتى تنمحي ذكريات الماضي الأليمة إلى الأبد.

نهضت دافني بغتة، فسقطت الأغطية إلى خصرها. وبأصابع مرتجفة، أشعلت دافني الشمعة التي تستقر على الطاولة الجانبية لفراشها.

فتح سايمون عينين ناعستين، وقال:

- ما المشكلة؟

لم تُجِب، بل حدَّقت إلى البقعة المبتلة على الجانب الآخر من الفراش.

البذرة النابتة.

- داف؟

لقد أخبرها أنه عاجزٌ عن إنجاب أطفال؛ إذن فقد خدعها، وكذب بشأن هذا.

- دافني، ما المشكلة؟

نهض سايمون عن الفراش وقد بدا على وجهه القلق.

هل كان هذا أيضًا كذبةً أخرى؟

أشارت دافني متسائلة:

- ما هذا؟

وكان صوتها خافتًا، حتى كان بالكاد مسموعًا.

- ماذا تقصدين؟

أجاب سايمون متتبعًا اتجاه أصابعها، ولم يرَ سوى الفراش، فتابع:

- ما الذي تتحدثين عنه؟

- لماذا لا يمكنك الإنجاب، سايمون؟

حَدَّق إليها بعينين خاويتين، ولم يُجِب بشيء.

- أخبرني لماذا، سايمون!

خرجت كلماتها في صراخ تلك المرة.

- التفاصيل ليست مهمة، دافني.

كانت نبرته لطيفة هادئة، تتخللها لمحةٌ بسيطة من الشموخ، والتَفَضُّل. وشعرت دافني حينها بشيءٍ ما بداخلها يتفجَّر، فقالت بنبرةٍ آمرة:

- اخرج من هنا!

فغر فاه دهشةً، وقال:

- إنها غرفة نومي.

- إذن سأخرج أنا من هنا.

واندفعت غاضبةً مُغادِرَةً الفراش، بينما تَلُفُّ جسدها بإحدى ملاءات السرير. كان سايمون قد نهض في أعقابها دون تفكير، وقال بنبرةٍ من يصرُّ على أسنانه:

- إياكِ أن تَجرُئي على مغادرة تلك الغرفة.

- لقد خدعتني.

- أنا لم...

فصرخت مُقاطِعَةً إياه:

- لقد خدعتني.. لقد خدعتني، ولن أسامحك على هذا أبدًا!

- دافني، ...

- لقد استغللت غبائي وجهلي.

وأطلقت دافني تنهيدة استنكار؛ هذا النوع من التنهيدات، الذي يأتي من أعمق نقطة في حلق المرء، تمامًا قبل أن يختنق من الصدمة.

- لا بد وأنك كُنتَ سعيدًا للغاية عندما أدركتَ مقدار ضآلة ما أعرفه عن العلاقات الزوجية.

فأجاب سايمون:

- إنه يُدعَى تبادل الحب.

- ليس بيننا. لا يُدعَى الحب بيننا.

كاد سايمون أن يجفل جَرَّاء الشحناء في صوتها. وقف ساكنًا -عاريًا تمامًا- في منتصف الغرفة، محاولًا في يأس أن يأتي بطريقة ما لإنقاذ الموقف. كان سايمون لا يزال متشككًا في ما كانت دافني تعرفه، أو ما اعتقدت أنها تعرفه.

لذلك قال سايمون بصوتٍ هادئ، حتى لا يسمح لمشاعره أن تعوق كلماته:

- دافني، ربما من الأفضل أن تخبريني تمامًا عما تعرفينه.

- أوه، إذن سنلعب تلك اللعبة، أليس كذلك؟

أجابت دافني في سخرية، ثم تابعت:

- حسنًا، دعني أقص عليك حكاية.. كان يا مكان، كان هناك...

كان الغضب العنيف في صوتها بمكانة خنجرٍ ينخر في أحشائه، فقال بينما يغلق عينيه، ويهز رأسه في استسلام:

- دافني، لا تفعلي هذا أرجوكِ.

فأجابت بصوتٍ مرتفع تلك المرة عن سابقتها:

- كان يا مكان.. كان هناك سيدة شابة، وسندعوها دافني...

سار سايمون بخطواتٍ واسعة إلى غرفة ملابسه، وسحب معطف نوم، فقد كانت هناك بعض الأمور التي لا يود الرجل أن يتعامل معها عاريًا، دون ملابس تغطي جزءًا من كيانه.

- كانت دافني غبية، غبيةً للغاية.

- دافني!

- أوه، حسنًا.

وطَوَّحت دافني بإحدى يديها في الهواء بازدراء، ثم تابعت:

- جاهلة إذن. كانت جاهلة، جاهلة، جاهلةً للغاية.

عقد سايمون ذراعيه على صدره، ووقف ساكنًا.

- لم تكن دافني تعلم شيئًا عما يحدث بين الرجل وزوجته؛ لم تكن تعلم ما يفعلانه، باستثناء أنهما يفعلان ذلك على الفراش. ولذلك، في وقتٍ ما، سينتج عن ذلك طفل.

- هذا يكفي، دافني.

كانت الإشارة الوحيدة على سماعها لكلماته هي الغضب السوداوي، الذي يشتعل في عينيها. إلا إنها تابعت:

- ولكن كما ترى؛ لم تكن تعلم حقًّا كيف يأتي هذا الطفل. ولذلك أخبرها زوجها أنه لن يكون قادرًا على إنجاب أطفال...

- لقد أخبرتك ذلك قبل أن نتزوج، ومنحتك كُلَّ فرصةٍ للتراجع. لا تنسي ذلك أبدًا. إياكِ أن تَجرُئي حتى على نسيان ذلك!

قال سايمون بانفعالٍ واضح.

- لقد جعلتني أشعر بالأسف عليك!

- أوه، الآن، هذا بالضبط ما يرغب كل رجلٍ في سماعه.

ضحك سايمون مستهزئًا، فأجابت دافني على الفور:

- يا إلهي، سايمون، أنت تعلم جيدًا أنني لم أتزوجك لمجرد أنني شعرت بالأسف عليك.

- إذن لماذا تزوجتِني؟

- لأنني أحبك.

أجابت دافني، لكن المرارة في حلقها جعلت تصريحها هذا يبدو هَشًّا. ثم تابعت:

- ولأنني لم أُرِد أن أراك ميتًا، وهو ما عَزَمتَ على فعله بغباءٍ منك.

لم يكن لديه تعليقٌ جاهز هذه المرة، بل اكتفى بنخير، وتحديقٍ إليها، فتابعت دافني بانفعال:

- ولكن لا تحاول حتى أن تُلقيَ باللوم علي، لَستُ أنا من كذب هنا. لقد قُلتَ إنك عاجزٌ عن الإنجاب، لكن الحقيقة هي أنك فقط لا ترغب في الإنجاب.

لم يعلق سايمون أيضًا هذه المرة، لكنه كان يعلم أن الجواب بادٍ في عينيه. ثم خطت دافني خطوةً إلى الأمام، تتقدم نحوه بغضبٍ تكاد تعجز عن السيطرة عليه، ثم قالت:

- إذا كُنتَ حقًّا تعجز عن الإنجاب، فلن يهم بالنسبة إليك أين تضع بذرتك، أليس كذلك؟ لن تكون محمومًا كل ليلة حتى تتأكد تمامًا من أن الأمر ينتهي في أي مكانٍ عدا في داخلي.

- أنتِ لا تعلمين شيئًا عـــ... عن هذا، دافني.

خرجت كلماته خافتة الصوت، يملؤها الغضب، ومُحَطَّمةً إلى حَدٍّ ما.

عقدت دافني ذراعيها وقالت:

- إذن أخبرني.

فأجاب وهو يصرُّ على أسنانه:

- لن أُنجِبَ أطفالًا أبدًا. مُطلَقًا. هل تفهمين ذلك؟

- كلا.

شعر بالغضب يشتعل بداخله، يعبث بأحشائه المضطربة، ويضغط على طبقات جلده من الداخل، حتى اعتقد أنه على وشك الانفجار. لم يكن غضبه مُوجَّهًا نحوها، ولم يكن أيضًا مُوجَّهًا إلى نفسه، بل كان -كما هي الحال دائمًا- مُوجَّهًا إلى الرجل الذي تسبب في وجوده -أو بالأحرى في عدم وجوده- دائمًا في السيطرة على حياته بالطريقة التي تحلو له.

قال سايمون:

- والدي...

كان يصارع مشاعره بائسًا حتى يُحكِمَ سيطرته عليها، ثم تابع:

- لم يكن رَجُلًا مُحِبًّا.

ثَبَّتت نظرة عينيها على عينيه، وقالت:

- أعلم بشأن والدك.

أخذه تعليقها على حين غرَّة، وقال:

- ما الذي تعلمينه؟

- أعلم أنه قد آذاك، وأنه قد رفض وجودك. وأعلم أنه قد اعتقد أنك طفلٌ أبله.

ومض شيءٌ ما في عيني دافني بعدما أنهت جملتها السابقة؛ لم يكن الشفقة نحوه، لكنه شيءٌ أقرب إلى هذا.

انتفض قلب سايمون في صدره. لم يكن واثقًا كيف واتته القدرة على الحديث -لم يكن واثقًا كيف واتته القدرة على التنفس-، ولكن بطريقةٍ ما، تمكن من أن يقول:

- إذن فأنتِ تعلمين بشأن...

- لعثمتك؟

أنهت دافني الجملة نيابة عنه.

وبصمت، أبدى امتنانه لها على ذلك؛ فمن سخرية القدر أن تكون «تأتأة» و «تلعثم» كلمتين قد عجز سايمون مطلقًا عن النطق بهما دون تعثر.

رفعت دافني كتفيها في استهجان، وقالت:

- لقد كان شخصًا أحمق.

فغر سايمون فاه، وقد عجز عن استيعاب قدرتها على التقليل من شأن عقودٍ طويلة من الغضب بجملةٍ واحدةٍ طائشة.

هزَّ سايمون رأسه نافيًا:

- أنتِ لا تفهمين. لا يمكنكِ حتى أن تفهمي هذا الشعور، ليس وهناك عائلةٌ تُحيطُكِ مثل عائلتك. إن الأمر الوحيد الذي كان يعنيه هو السُلَالة؛ السُلَالة، واللقب. وعندما اتضح له أنني لن أكون الوريث المثالي... دافني، لقد أخبر الناس أنني قد مِتُّ!

نفرت الدماء من وجهها، وقد صار شاحبًا، وهمست قائلة:

- لم أعلم أن الأمر كان بهذا الشكل.

- لقد كان أسوأ من ذلك. أرسَلتُ إليه الخطابات؛ مئاتٍ من الخطابات أتوسل إليه فيها أن يأتي لزيارتي، لكن لم يُجِب على واحدٍ منها حتى.

- سايمون...

- هـ... هل تعلمين أنني عجزت عن الكلام حتى عمر الرابعة؟ كلا؟ حسنًا، هذه هي الحقيقة. وعندما أتى لزيارتي، هزَّ رأسه برفض، وهددني أن يقتلع صوتي من حنجرتي إذا لم أتكلم. ما أخبَرتُكِ به بالضبط هو ما كان عليه و... والدي.

حاولت دافني أن تغفل عن حقيقة أنه قد بدأ يتعثر في كلماته. وحاولت أن تتجاهل الشعور بالإعياء، الذي تسبب في اضطراب أحشائها، والغضب، الذي اشتعل بداخلها تجاه المعاملة الشنيعة التي عُومِل بها سايمون في صغره.

حاولت أن تجيب بصوتٍ متهدِّج:

- لكنه قد رحل الآن. لقد رحل، أما أنت، فما زِلتَ هنا.

- لقد قال إنه حتى لا يحتمل الـــ... النظر إلي، وإنه قد قضى سنواتٍ طويلةً يدعو الله أن يرزقه بوريث، وليس مجرد ابن.

كان صوت سايمون قد بدأ يرتفع مُنذِرًا بالخطر حين تابع:

- وريث! ومــ... ومن أجل ماذا؟ لأن هاستنجز ستؤول إلى صبيٍّ أبله، مُعَاقٍ عقليًّا. ســـ... ستُحكَم دوقيته الثمينة من قِبَلِ صبيٍّ غبي!

فهمست دافني قائلة:

- لكنه كان مُخطِئًا.

إلا إن سايمون صاح بصوت نخيرٍ حاد:

- لا يهمني إن كان مُخطئًا! كل ما كان يعبأ به هو اللقب. لم يفكر فيَّ أنا ولو لمرةٍ واحدة، لم يفكر في شعوري حينما كُنتُ عالقًا مع فـــ... فمٍ يعجز عن أداء عمله.

تراجعت دافني إلى الخلف خطوة، وبدت أنها على وشك أن تفقد اتزانها حين أحاطها هذا الغضب العارم. كان غَضَبًا قد حملته كراهيةٌ قديمة، دامت لعقودٍ طويلة.

وإذ فجأة، خطا سايمون إلى الأمام نحوها، حتى تقارب وجهاهما، وألصق وجهه قريبًا من وجهها، وسألها في صوتٍ كريه:

- لكن أتعلمين؟ سأكون أنا من يضحك أخيرًا. لقد اعتقد أنه لن يقع شيء أسوأ من أن تؤول هاستنجز إلى صبيٍّ أبله...

- سايمون، أنت لَستَ...

ارتعد صوته فجأةً وقال:

- هل تَكَلَّفتِ حتى عناء الإنصات إلى ما قُلتُه؟

ارتعدت أوصال دافني الآن، فتراجعت إلى الخلف، وحاولت يداها الوصول إلى مقبض الباب في حال احتاجت إلى الهرب.

- بالتأكيد أعلم أنني لَستُ غبيًّا، وفي النهاية أعتقد أ... أنه قد أدرك ذلك أيضًا. وأنا واثقٌ أن هذا الأمر قد منحه الـ... الكثير من الطمأنينة. هاستنجز آمنة الآن. لـ... لم يأبه لأنني كُنتُ أعاني مثلما كُنتُ أعاني قبلًا. هاستنجز... هذا بالضبط هو ما يهم.

شعرت دافني بالإعياء، فقد كانت تعلم جيدًا ما سيأتي لاحقًا.

كانت ابتسامة سايمون المفاجئة تعبيرًا جافًّا وقاسيًا، تعبيرًا لم تره على وجهه من قبل قط. ثم تابع:

- لكن هاستنجز ستموت بموتي، وكل أولاد العمومة الذين كان قلقًا تمامًا بشأن توارثهم اللقب...

رفع كتفيه في لا مبالاة، وأطلق ضحكةً حادة قصيرة، وتابع:

- قد أنجبوا جميعهم فتيات. أليس هذا أمرًا جديرًا بالاهتمام؟ ربما كان هذا هو السبب الذي من أجله قرر و... والدي فجأة أنني لم أعد ذلك الأبله. وكان يعلم جيدًا أنني أمله الوحيد في هذه الحياة.

أجابت دافني بإصرارٍ هادئ:

- لقد عَلِمَ أنه كان مخطئًا.

وإذ فجأة، تذكرت دافني تلك الخطابات التي أرسلها إليها دوق ميدلثورب؛ تلك الخطابات التي كتبها الدوق الراحل إلى سايمون. لقد تركتهم في منزل بريدجرتون في لندن، وقد كان هذا أمرًا جيدًا، مما يعني أنها لن تضطر إلى اتخاذ قرارٍ بشأن تلك الخطابات، وما ستفعله بها الآن.

أجاب سايمون بوقاحةٍ لم تكن مُفتَعَلة:

- لا يَهُمّ؛ فبعد موتي، سيموت اللقب معي. أما أنا –فبالنسبة إلى شخصٍ عادي– فلا يمكنني أن أكون أكثر سـ... سعادةً مما سأكون عليه.

وبهذا أنهى حديثه، وانطلق مُسرِعًا خارج الغرفة، وقد خرج من خلال غرفة ملابسه، بما أن دافني كانت تسدُّ باب الغرفة الرئيسية. ارتمت دافني

غارِقَةً في أحد الكراسي المتناثرة، وكانت لا تزال مُحاطَةً بملاءة الكتان الناعمة، التي جذبتها عن الفراش. ما الذي ستفعله الآن؟

شعرت دافني برعشةٍ تنتشر في سائر جسدها، اهتزاز غريب لا طاقة لها على التحكم به. ثم أدركت أنها كانت تبكي، كانت تبكي بصمت، دون حتى أن تلتقط نفسًا واحدًا. كانت تبكي.

يا إلهي، ما الذي كانت عازمةً بالضبط على فعله؟

الفصل السابع عشر

2 من يونيو 1813 جريدة المجتمع

أن تَصِفَ رجلًا بأنه مُتَعَنِّتٌ مثل الثور،
فهذه إهانةٌ للثور.

ليدي ويسلداون

في النهاية، فعلت دافني الشيء الوحيد الذي كانت تعرف كيف تفعله. دائمًا ما كان آل بريدجرتون عائلة صاخبة ومزعجة، ولا يحتمل الواحد منهم حفظ الأسرار، أو حمل الأحقاد، والضغائن؛ لذلك حاولت دافني الحديث مع سايمون، ومناقشة الأمر، والتفاهم معه بشأنه.

وفي الصباح التالي (لم يكن لديها أدنى فكرةٍ عن المكان الذي قضى سايمون فيه ليلته السابقة، وأيًّا ما كان هذا المكان، فهو لم يكن فراش نومهما) وجدته وقد قضى الليلة في حجرة مكتبه. كانت غرفة قاتمة ذات طابعٍ ذكوريٍّ متعجرف، ومن المحتمل أن يكون والد سايمون هو من اختار زينتها. وبصراحة أصابت دافني دهشة من أن سايمون قد يشعر بالارتياح في مكانٍ كهذا؛ فهي تعلم الآن أنه قد كَرِه كل ما يذكره بالدوق السابق.

لكن من الواضح أن سايمون لم يشعر بالارتياح؛ فقد كان يجلس خلف مكتبه، وكانت قدماه تستندان في عجرفةٍ إلى أوراق التنشيف الجلدية، التي تحمي سطح المكتب، المصنوع من خشب الكرز الفاخر. وفي يده كان يمسك بحجرٍ ناعمٍ مصقول، يُقَلِّبه بين يديه من حينٍ لآخر. وكانت هناك زجاجةٌ من الويسكي ترتكز بجانبه على المكتب، وقد انتاب دافني شعورٌ بأن تلك الزجاجة كانت هناك في موضعها هذا طوال الليل.

ومع ذلك، رأت أنه لم يشرب الكثير منها. وكانت دافني ممتنةً لصنائع المعروف البسيطة تلك.

كان الباب مردودًا، فلم تكن في حاجة إلى النقر عليه. لكنها لم تتمتع بالشجاعة التي تدفعها إلى السير بخطواتٍ جريئة إلى الداخل، لذلك اكتفت بالوقوف قرب الباب، ثم قالت:

- سايمون؟

تطلع سايمون إليها، ورفع حاجبيه في تساؤل.

- هل أنت منشغل؟

وضع سايمون الحجر على سطح مكتبه، وأجاب:

- من الواضح أنني لَستُ كذلك.

أشارت دافني برأسها إلى الحجر، وقالت:

- هل حَصلتَ عليه من ترحالك؟

- منطقة البحر الكاريبي. تذكارًا للوقت الذي قضيته على الشاطئ.

لاحظت دافني أنه يتحدث بأداءٍ لا تشوبه شائبة. ولم يكن هناك أي أثرٍ للتلعثم، الذي ظهر على حديثه في الليلة الماضية. إذن لقد صار هادئًا الآن. وقد كان هذا يسبب لها شيئًا من الإزعاج، ولكنها تابعت السؤال:

- هل الشاطئ هناك مختلفٌ تمامًا عن الشاطئ هنا؟

رفع سايمون حاجبه في خُيَلاء، وأجاب:

- إنه أكثر دفئًا.

- أوه، حسنًا، لقد اعتقدتُ ذلك كثيرًا.

تطلع إليها بعينين ثاقبتين لا تتزعزعان، وقال:

- دافني، أعلم أنكِ لم تأتِ بحثًا عني حتى تُنَاقِشي المناطق الاستوائية.

كان سايمون على حقٍّ تمامًا، لكن ما جاءت من أجله لن ينتج عنه محادثة سهلة وبسيطة، ولم تعتقد دافني أنها بذلك الجُبنِ حتى ترغب في تأجيل النقاش بضع دقائق أخرى.

أخذت دافني نفسًا عميقًا، وقالت:

- نحتاج إلى مناقشة ما حدث في الليلة الماضية.

- أنا واثقٌ أنك تعتقدين ذلك.

صارعت دافني رغبةً عارمةً في الانحناء إلى الأمام، وصفع تعبيرات وجهه الباردة تلك، إلا إنها قالت:

- أنا لا أعتقد ذلك فقط، أنا أعلم جيدًا أننا في حاجة إلى ذلك.

كان صامتًا لفترةٍ قبل أن يجيب:

- أعتَذِرُ عن شعورِكِ بأنني قد خُنت...

- الأمر ليس كذلك بالضبط.

- ... ولكن يجب أن تتذكري جيدًا أنني حاولتُ كثيرًا، وبجد، تجنب الزواج منكِ.

فتمتمت دافني:

- أوه، بالتأكيد هذه طريقةٌ رائعة لصياغة الأمر.

كان سايمون يتحدث وكأنه يُلقي محاضرةً على أحدهم:

- تعلمين أنني نويت ألا أتزوج قط.

- سايمون، ليست هذه حقيقة الأمر.

- بل هذا بالضبط هو لُبُّ الموضوع.

أجاب سايمون وأسقط قدميه إلى الأرض. وضَرَبَ كُرسيُّه، الذي كان يقف متزنًا على ساقيه الخلفيتين، الأرض بصوتٍ صاخب مرتفع. ثم تابع سايمون:

- لماذا تعتقدين أنني تجنبت الزواج بهذا الإصرار؟ هذا لأنني لم أرغب في اتخاذ زوجة، وحرمانها من حقها في إنجاب الأطفال.

إلا إن دافني قد عاجَلَته بالرد، فقالت:

- أنت لم تفكر قط في زوجتك المستقبلية، بل كُنتَ تفكر في نفسك.

- ربما. ولكن عندما أصبَحَت الزوجة المستقبلية تلك هي أنتِ، دافني، تغيَّر كل شيء.

فقالت في حِدَّة:

- من الواضح أن لا شيء تغيَّر.

رفع سايمون كتفيه في استسلام، وقال:

- تعلمين أنني أضعكِ في مكانة عالية في قلبي، ولم أرغب قط في جرحكِ.

فهمست دافني قائلة:

- إنك تجرحني الآن.

عبرت مسحةٌ من الندم عيني سايمون، إلا إنها سرعان ما استُبدِلَ بها إصراره الحديدي. وأجابها:

- إذا كُنتِ تذكرين، فقد رَفَضتُ أن أقبل الزواج منكِ، حتى عندما طالب شقيقكِ بذلك. حتى...

وأضاف مؤكدًا:

- حتى عندما كان جزائي هو الموت.

لم تحاول دافني أن تُعارِضَه؛ فكلاهما كان يعلم جيدًا أنه كان ليموت في حقل المبارزة ذاك في هذا اليوم. وبصرف النظر عما تعتقده بشأنه الآن، بصرف النظر عن مدى حنقها على الكراهية التي تأكل قلبه من الداخل والخارج، كان سايمون رجلًا نبيلًا حتى لم يكن قط ليُطلِقَ النار على أنطوني.

وأنطوني أيضًا كان يُكِنُّ تقديرًا كبيرًا لشرف شقيقته، حتى إنه كان ليُطلِقَ النار على أي موضع في جسد سايمون عدا قلبه.

تابع سايمون:

- لقد فَعَلتُ ذلك لأنني أعلم جيدًا أنني لن أكون أبدًا زوجًا جيدًا لكِ. أعلم أنكِ قد رغبتِ في إنجاب الأطفال، وقد أخبَرتِني بذلك مرارًا، في العديد من المناسبات. بالتأكيد أنا لا ألومكِ على رغبتكِ؛ فقد أتيتِ من عائلةٍ كبيرةٍ ومُحِبَّة.

- يمكنكَ أن تحظى بعائلةٍ كهذه أيضًا.

لكن سايمون قد تابع حديثه كما لو أنه لم يسمع ما قالته لتوها.

- وبعد ذلك، عندما قاطَعتِ المبارزة، وتوسَّلتِ إليَّ حتى أتزوج منكِ.. حينها حَذَّرتُكِ، وأخبرتكِ أنني لن أحظى بالأطفال...

فقاطعته دافني، وكانت عيناها تشتعلان غضبًا في تلك اللحظة:

- بل أخبرتني أنكَ لن تتمكن من إنجاب الأطفال؛ ثَمَّةَ فارقٌ كبير بينهما.

فأجاب سايمون في برود:

- ليس بالنسبةِ إلي، لا يمكنني أن أحظى بأطفال؛ فروحي لن تسمح بذلك.

- أجل.

ذَبُل شيءٌ ما بداخل دافني في تلك اللحظة، وقد خَشِيَت كثيرًا أن يكون هذا الشيء هو قلبها. لم تكن تدري كيف لها أن تُجادِلَه بعد ما قاله. وقد كانت كراهية سايمون لوالده أقوى من أي شعورٍ بالحب يمكنه أن يتعلم أن يحمله لها.

فأجابت بصوتٍ مُتَهَدِّج:

- حسنًا.. من الواضح أن هذا ليس موضوعًا تُرَحِّبُ بالمناقشة فيه.

فأجابها بإيماءة واحدة مقتضبة.

وأجابته بواحدةٍ مثلها، قبل أن تقول:

- يومٌ سعيدٌ إذن.

وغادرت الغرفة.

قضى سايمون معظم اليوم بمفرده. لم يكن راغبًا في رؤية دافني بالأخص؛ لأن هذا لم يكن له من تأثير إلا شعوره بالذنب نحوها. وقد أكد لنفسه أن الأمر ليس وكأنه قد فعل شيئًا ليشعر بالذنب لفعله. لقد أخبرها قبل زواجهما أنه لن يتمكن من منحها الطفل الذي ترغب فيه، لقد منحها كل فرصةٍ للتراجع، وقد اختارت الزواج منه على أي حال. لذلك هو لم يجبرها على أي شيء. وإن كانت قد أساءت تفسير كلماته، واعتقدت أنه ليس قادرًا على الإنجاب جسمانيًّا، فهذا ليس خطأه هو.

ومع ذلك، كان يصاب بهذا الشعور المزعج بالذنب في كل مرةٍ يفكر فيها -وقد كان هذا طوال اليوم-. وعلى الرغم من أن ألمًا في أحشائه يشتعل في كل مرة يستحضر فيها وجهها المصدوم في ذهنه -والذي يعني أنه قد قضى اليوم بأكمله يعاني من معدةٍ مضطربة-، شعر وكأن حِملًا ثقيلًا قد انزاح عن كتفه الآن، وقد اتضح لها كل شيء.

يمكن للأسرار أن تكون مُميتة، والآن لم يعد هناك أسرارٌ بينهما، والأكيد أن هذا أمرٌ جيد.

وعندما حلَّ الليل، كان قد أقنع نفسه تقريبًا أنه لم يخطئ في شيء تقريبًا، وليس كُليًّا. لقد عقد هذا الزواج وقد اقتنع بأنه سيحطم قلب دافني في وقتٍ

ما، ولم يكن هذا الأمر ليناسبه قط. يا إلهي، ربما أحبها سايمون أكثر من أي مخلوقٍ قد عرفه في حياته من قبل، وقد كان هذا هو السبب وراء كونه مترددًا في الزواج منها. لم يرغب قط في تحطيم أحلامها، ولم يرغب في حرمانها من بناء العائلة التي كانت ترغب فيها بشدة. وكان على استعدادٍ تام أن يتنحى جانبًا، ويراها تتزوج شخصًا آخر، شخصًا كان من شأنه أن يمنحها منزلًا كاملًا مملوءًا بالأطفال كما ترغب.

ارتجف سايمون فجأة، فقد كان تصوره عن دافني وهي برفقة رجلٍ آخر لم يعد مقبولًا بأي شكلٍ الآن، مثل ما كان عليه قبل شهرٍ واحد.

وفكر أن هذه ليست حقيقة الأمر، محاولًا أن يستعين بالجانب المنطقي في عقله. إنها زوجته الآن، وقد صارت ملكًا له هو، وليس لأحدٍ آخر.

صار كل شيء مختلفًا الآن.

لقد كان يعرف جيدًا كم ترغب في الأطفال بشدة، وقد تزوج منها وهو يعلم تمامًا أنه لن يمنحها أي طفلٍ أبدًا.

إلا إنه قال في نفسه: «لكنكَ قد حذرتها». وكانت تعلم بالضبط ما هي مُقدِمَةٌ عليه.

أما سايمون، الذي كان يجلس في مكتبه، يُقَلِّب هذا الحجر الغبي بين يديه ذهابًا وإيابًا منذ العشاء، فقد استقام جسده فجأة. سايمون لم يخدعها، ليس تمامًا، وقد أخبرها أنهما لن يُنجِبَا، وقد وافقت على الزواج منه على أي حال. كان بإمكانه أن يرى متى ستشعر بالقليل من الإحباط عندما علمت بأسبابه، لكن لا يمكنها أن تقول إنها قد أبرمت عقد هذا الزواج وهي تحمل أي آمالٍ أو توقعات حمقاء.

نهض عن كُرسيه. لقد حان الوقت ليُجريا حديثًا آخر، ولكن هذه المرة رغبةً منه هو. لم تكن دافني قد حضرت إلى مائدة العشاء، وتركته يتناول الطعام بمفرده، ولم يكسر صمت الليل القاتم سوى الصلصلة، التي نتجت عن تخبط شوكته المعدنية بطبقه من حينٍ لآخر. ولم يرَ زوجته منذ هذا الصباح. لقد حان الوقت ليراها.

وذَكَّرَ نفسه أنها زوجته، ويحق له أن يراها في أي وقتٍ يرغب فيه. خرج من غرفة مكتبه، وسار بالممر، ثم فتح الباب الذي يؤدي إلى غرفة نوم الدوق، على أتم الاستعداد ليلقي عليها محاضرةً بشأن شيءٍ ما، وكان هذا الشيء

بالتأكيد لا علاقة له بالخِلاف بينهما (وكان واثقًا أن هذا الأمر سيأتيه عند الضرورة)، لكنها لم تكن في الغرفة.

طرفت عينا سايمون، غير قادرٍ على تصديق عينيه. أين هي؟ لقد اقترب الوقت من منتصف الليل، ومن المفترض أن تكون في فراشها الآن.

غرفة الملابس. لا بد وأنها في غرفة الملابس. تلك الفتاة قليلة الخبرة تُصِرُّ كل ليلةٍ على ارتداء منامتها، على الرغم من أن سايمون يخلعها عنها بعد دقائق معدودة من ارتدائها إياها.

- دافني؟

صاح مناديًا بينما يعبر باب غرفة الملابس، ثم ردد:

- دافني؟

لا جواب. ولم يكن هناك ضوءٌ مشتعل يصدر من الشق بين الباب والأرض. بالتأكيد لن ترتدي ملابسها في الظلام.

سحب مقبض الباب فاتحًا إياه، وكان من المؤكد له الآن أنها لم تكن في الغرفة.

سحب سايمون حبل الجرس بشدة، ثم خرج إلى الممر منتظرًا هذا الخادم، غير المحظوظ تلك الليلة، الذي سيجيب نداءاته. وكانت واحدةً من خادمات الطوابق العليا، ذات شعرٍ أشقر، واسمٍ لم يتمكن سايمون من تذكره. ألقت الفتاةُ نظرةً واحدةً إلى وجهه، وشحبت على الفور.

- أين زوجتي؟

صاح مناديًا.

- زوجتك يا صاحب الجلالة؟

فأجاب بنفاد صبر:

- أجل، زوجتي.

فحَدَّقت إلى وجهه بذهول.

- أعتقد أنكِ تعرفين من أتحدث عنه. إنها بنفس طولك، ذات شعرٍ طويل داكن...

كان لسايمون أن يستفيض في وصفه، لكن تعبير الخادمة المرتعد قد جعله يخجل من سخريته. وأطلق أنفاسًا طويلة عصيبة، ثم تابع بنبرة صوتٍ أهدأ، على الرغم من أن أحدًا لن يصفها بالنبرة الهادئة، أو الرقيقة:

- هل تعلمين أين هي؟

- أليست في فراشها يا صاحب الجلالة؟

أشار سايمون برأسه إلى غرفته الشاغرة، وقال:

- من الواضح أنها ليست هناك.

- لكنها لا تنام في تلك الغرفة يا صاحب الجلالة.

قطب حاجبيه، وقال:

- أستميحكِ عذرًا.

- أليست في...

اتسعت عينا الخادمة في رَوَع، ثم جالت ببصرها في أنحاء الممر في اضطرابٍ وهياج. لم يكن لدى سايمون أيُّ شكٍّ في أنها تبحث عن طريقٍ للهروب. إما هذا، وإما أن شخصًا قد يأتي لإنقاذها من براثن غضبه.

صاح سايمون في غضب:

- انطقي!

كان صوت الخادمة ضعيفًا للغاية، إلا إنها تمكنت من أن تجيب:

- ألم تسكن في جناح الدوقة؟

- جناح... منذ متى؟

وكبح سايمون عاصفةً من الغضب حتى يهدأ قليلًا.

- منذ اليوم، يا صاحب الجلالة، أعتقد ذلك. لقد افترضنا جميعًا أنكما ستشغلان غرفًا منفصلة بعد انتهاء شهر عسلكما.

فتذمَّر سايمون مجيبًا:

- افترضتم، أليس كذلك؟

بدأت الخادمة في التلعثم، فقالت:

- هذا ما فعله والداك يا صاحب الجلالة، و...

فزمجر سايمون في صياح يصمُّ الآذان:

- لسنا مثل والديّ!

فقفزت الخادمة خطوةً إلى الوراء. ثم أضاف سايمون في صوتٍ مقيت:

- وأنا لَستُ مثل والدي.

- بالـ... بالطبع يا صاحب الجلالة.

- هلا أخبَرتِني أيَّ غُرفَةٍ قد اختارتها زوجتي لتجعلها جناح الدوقة؟

أشارت الخادمة بإصبعٍ مرتجفة إلى بابٍ في نهاية الممر.

- شكرًا لكِ.

خطا سايمون أربع خطواتٍ مبتعدًا عنها، ثم التفت قائلًا:

- انصرفي.

سيكون أمام الخَدَمِ الكثير من الأمور التي يثرثرون حولها في صباح الغد، وكل ما يتعلق بانتقال دافني من غرفته. لم يرغب سايمون في أن يمنحهم المزيد؛ فقرر ألا يسمح لتلك الخادمة أن تشهد ما سيكون بالتأكيد شجارًا كبيرًا بينهما.

انتظر سايمون حتى هبطت الخادمة درجات السلم، ثم تحرك بخطواتٍ غاضبة على امتداد الممر نحو غرفة نوم دافني الجديدة. توقف أمام باب غرفتها، مُفَكِّرًا فيما سيقوله. وقد أدرك حينها أنه لا يدري شيئًا عما سيقوله، ثم تقدم نحو الأمام، وطرق الباب.

وما من جواب.

ضرب سايمون الباب بعنف.

ما من جواب أيضًا.

رفع سايمون قبضته ليضرب الباب بعنفٍ مرةً أخرى، عندما خطر بباله أنها ربما لم تغلق الباب حتى. ألن يشعر بأنه أحمق إذا...

أدار سايمون مقبض الباب.

إلا إنها كانت قد أغلقت الباب. وأطلق سايمون وابلًا من اللعنات، والسُباب بصوتٍ خافت، بسلاسةٍ وطلاقة. وقد كان من المثير للسخرية أنه لم يتلعثم في حياته قط عندما يطلق السُباب.

- دافني! دافني! دافني!

جاء صوته في نبرةٍ بين النداء والصياح.

وأخيرًا سمع وقع خطواتٍ تتحرك على أرضية غرفتها. وجاء صوتها مجيبًا:

- ماذا تريد؟

- دعيني أدخل.

مَرَّت بُرهةٌ من الصمت، ثم جاء الجواب:

- كلا.

حملق سايمون إلى الباب الخشبي المنيع في صدمة؛ فلم يخطر بباله قط أنها قد تعصي أمرًا مباشرًا منه؛ لقد كانت زوجته. ما هذا الهراء؟ ألم تعده بالولاء والطاعة؟

- دافني، افتحي هذا الباب في الحال.

كان صوته غاضبًا مثل ثورٍ هائج.

أما دافني، فلا بد وأنها كانت شديدة القرب من الباب، لأنه قد سمع تنهيدتها في ثقل، قبل أن تقول:

- سايمون، إن السبب الوحيد الذي سأدعك من أجله تدخل إلى هذه الغرفة هو إذا كنتُ أخطط أن أسمح لك بالمبيت معي في فِراشي، وهذا ما لن أفعله. لذلك سأكون ممتنة لك –وبالتأكيد أعتقد أن المنزل بأكمله سيكون ممتنًا لك– إذا غادرت هذا الباب، وذَهَبتَ إلى النوم.

فغر سايمون فاه حقيقةً وبيانًا، وبدأ في حساب ثقل الباب في ذهنه، وتقدير مقدار العزم المطلوب حتى يسحق هذا الباب.

- دافني، إذا لم تفتحي الباب في الحال، فسأحطمه.

تلك المرة كان صوته هادئًا، حتى شعر بالخوف من نفسه.

- لن تفعل.

لم يُجِب سايمون بشيء، بل اكتفى بأن عقد ذراعيه على صدره، وحدَّق إلى الباب، واثقًا بأنها ستعلم جيدًا أي نوعٍ من التعبيرات يرتسم على وجهه في تلك اللحظة.

فتابعت دافني:

- أليس كذلك؟

ومرةً أخرى، قرر سايمون أن الصمت هو الجواب الأكثر فعالية على تصرفها.

فعادت دافني تقول بصوتٍ بالكاد بدا متوسِّلًا:

- أتمنى حَقًّا ألا تفعل ذلك.

حَدَّق سايمون إلى الباب في استنكار، فأضافت:

- ستؤذي نفسك.

فأجاب أخيرًا بنبرةٍ خاليةٍ من أي تعبير:

- إذن افتحي هذا الباب اللعين.

خيَّم الصمت، ثم تبعه صوت مفتاحٍ يدور في قفله على مهل. كان قد خطر ببال سايمون، وحضر إلى ذهنه ألا يقتحم الباب عُنوةً؛ فقد كان واثقًا أن دافني تقف على الجانب الآخر من الباب مباشرةً. شق سايمون طريقه إلى الداخل، ووجد أنها تقف على بُعد خمس خطواتٍ منه، عاقدةً ذراعيها حول صدرها، تقف بساقين منفرجتين في وقفةٍ صارمة.

بدأ سايمون حديثه بينما يبصق الكلمات من بين شفتيه:

- إياكِ أن تُغلِقي الباب في وجهي مرةً أخرى!

رفعت دافني كتفيها في لا مبالاة. لقد رفعت كتفيها في لا مبالاة حقًّا! ثم قالت:

- أُفَضِّل الخصوصية.

تقدم سايمون عدة خطوات، وقال:

- وأنا أريدكِ أن تُعيدي متعلقاتكِ إلى غرفة نومنا بحلول الصباح. أما أنتِ، فستنتقلين معي الليلة.

- كلا.

- ما الذي تعنيه هذه الكلمة اللعينة «كلا»؟

فعارضته قائلةً:

- ما الذي تعتقد أنني أعنيه بهذه الكلمة اللعينة؟

لم يكن سايمون واثقًا مما أصابه بالصدمة والغضب أكثر من الآخر؛ أنها كانت تعصيه وتواجهه، أم أن صوتها قد علا ببعض اللعنات.

فأجابت بصوتٍ أعلى صخبًا:

- كلا تعني كلا.

فزمجر سايمون صائحًا:

- أنتِ زوجتي، وستنامين بجانبي، في فراشي أنا.

- كلا.

- دافني، أنا أحذركِ...

حَدَّقت إليه بعينين ثاقبتين، وقالت:

- لقد اختَرتَ أن تكتم شيئًا عني، حسنًا، وأنا قد اخترتُ أن أمنع شيئًا عنك؛ نفسي.

كان سايمون عاجزًا عن الكلام، عاجزًا تمامًا عن الكلام؛ حقيقةً ومجازًا.

أما هي، فلم تكن كذلك، بل سارت نحو الباب، وأشارت إليه بطريقةٍ أشد وقاحةً ليعبر من خلاله، وقالت:

- اخرج من غرفتي.

كان الغضب قد بلغ ذروته، حتى بدأ جسده في الاهتزاز، وقال متذمرًا:

- أنا أمتلك هذه الغرفة، وأمتلككِ أنتِ.

فأجابت دافني على الفور:

- أنت لا تمتلك شيئًا سوى لقب والدك. أنت حتى لا تمتلك زمام نفسك.

كان نخيرٌ خافت قد ملأ أذنيه، نخير الغضب المشتعل، الذي أحال لونه إلى الاحمرار التام. وترنح سايمون خطوةً إلى الخلف، وخاف أنه إن لم يبتعد، فربما يفعل شيئًا يؤذيها حقًّا. ثم سألها:

- ما الذي تـ... تعنينه بهذه الكلمات اللعينة؟

رفعت دافني كتفيها في لا مبالاة.. اللعنة على هذا البرود. ثم قالت:

- اكتشف هذا بنفسك.

كانت جميع نوايا سايمون الجيدة قد غادرت عقله في تلك اللحظة. وتقدم إلى الأمام، وقبض على ذراعيها من أعلى بشدة. وكان يعلم أن قبضته مُحكَمَةٌ على ذراعيها، لكنه كان عاجزًا أمام الغضب المشتعل في عروقه. وأخرج الكلمات من بين أسنانه، لأن فكيه كانا قد تيبَّسا من نفور دمائه، فقال:

- وضحي ما تقصدينه... الآن.

التقت أعينهما بنظرةٍ مُحَدِّقة، حتى شعر وكأنه على وشك الفناء. ثم أجابت دافني ببساطة تامة:

- أنت لَستَ رجلًا مُتَحَكِّمًا في قدرك، بل ما زال والدك يتحكم بك، حتى من داخل قبره.

اهتزَّ جسد سايمون بسخطٍ لم يُعَبِّر عنه، ولم تنطق الكلمات به. ثم تابعت:

- أفعالك.. اختياراتك...

كانت نظرة التحدي في عينيها قد استحالت إلى حزنٍ عميق، وتابعت:

- أفعالك واختياراتك، لا تمُتُّ بصلةٍ إليك، ولا إلى ما تريده، ولا إلى ما تحتاج إليه. كل شيء تفعله يا سايمون، كل حركة تقوم بها، كل كلمةٍ تنطق بها؛ كل هذا من أجل إحباطه هو، ومخالفته هو.

كانت نبرة صوتها قد تحطمت تحت وطأة الحزن في تلك اللحظة، إذ أنهت جملتها قائلة:

- كل هذا وهو ليس حتى على قيد الحياة.

كانت دافني تريد أن تخبره بأن أفعاله قد تُقبَل إن كان والده لا يزال حيًّا، لكنه الآن، وقد استحال إلى رمادٍ في قبره، كيف له أن يُنفِقَ حياته في سبيل تعاسته.

تقدم سايمون إلى الأمام بزهوٍ غريبٍ وحشي، ثم قال بصوتٍ خافت:

- ليس كل حركة، ليس كل كلمة.

تراجعت دافني إلى الخلف في غاية التوتر من النظرة الوحشية في عينيه، ثم قالت بتردد:

- سايمون؟

مُجردةً من أي شجاعة، أو استئساد، كان قد مكنها من قبل من الوقوف في وجهه، في وجه رجلٍ يبلغ حجمه ضعف حجمها، وربما تبلغ قوته ثلاثة أضعاف قوتها.

كانت عُقلَةَ إصبع السبابة في يده قد أخذت طريقها على امتداد ذراع دافني. وقد كانت ترتدي ثوب نومٍ من الحرير، لكن الحرارة والقوة التي انبعثت من جسده قد تخللت النسيج. وازداد قربه منها أكثر فأكثر. وبإحدى يديه، تسلل إلى أسفل ظهرها، حتى أطبق على مؤخرتها، وهمس قائلًا بصوتٍ قريب للغاية من أذنها:

- عندما ألمسكِ بتلك الطريقة، فلا علاقة له بالأمر.

ارتجفت دافني وقد كرهت نفسها لرغبتها فيه، وكرهته أكثر لأنه جعلها ترغب فيه. ثم تمتم سايمون متابعًا:

- وعندما ألامس أذنيكِ بشفتيَّ...

قبض على شحمة أذنها بين شفتيه، ثم تابع:

- فإن هذا لا يتعلق به.

حاولت دافني أن تدفعه بعيدًا عنها، ولكن يديها قد وجدتا طريقهما نحو كتفيه، وكل ما أمكنها فعله هو التمسك بهما. أما سايمون، فقد بدأ يدفعها شيئًا فشيئًا بلا هوادة نحو الفراش، وأضاف:

- وعندما أدفعكِ إلى الفراش، وتتلامس أجسادنا، فليس هناك أحد...

كان ينطق بكلماته الساحرة، بينما كان وجهه قد اختفى بين انحناءة رقبتها.

إلا إنها صرخت قائلةً:

- كلا!

ودفعته بعيدًا عنها بكل عزمها وقوتها، فتعثر سايمون إلى الخلف، وكان مأخوذًا بالمفاجأة. وتابعت دافني بصوتٍ مختنق:

- عندما تدفعني إلى الفراش، لا يكون الأمر أنا وأنت فقط. بل والدك دائمًا ما يكون حاضرًا بيننا. دائمًا.

كانت أصابعه التي تسللت أسفل الأكمام الواسعة لثوب نومها قد غُرِسَت في لحمها أخيرًا. ولم ينطق سايمون بشيء، ما كان عليه أن يقول شيئًا، فقد نطق الغضب البارد في عينيه الزرقاوين الشاحبتين بكل شيء.

قالت دافني هامسةً:

- هل لكَ أن تنظر إلى عيني وتخبرني أنك عندما تنسحب مبتعدًا عن جسدي، وتلقي ببذورك على الفراش بدلًا مني أنك تفكر فيَّ أنا وليس في شخصٍ آخر؟

تقلَّصت قسمات وجهه مشدوهًا، وكانت عيناه مثبتتين على شفتيها. إلا إنها هزت رأسها، وهزت جسدها لتتحرر من قبضته، التي راحت تتراخى مع الوقت. ثم قالت بصوتٍ مقتضب:

- لا أعتقد ذلك.

تحركت دافني مبتعدةً عنه، لكنها أيضًا ابتعدت عن الفراش؛ فلم يكن لديها أدنى شك في أنه قد يحاول إغواءها مرةً أخرى إن أراد ذلك. يمكنه أن يُقَبِّلَها ويُعانِقَها، ويصل بها إلى درجاتٍ مذهلة من النشوة. أما هي، فستكرهه في الصباح رغم ذلك، وربما تبغض نفسها أكثر من بغضها له.

كانت الغرفة قد غرقت في صمتٍ قاتل، بينما كانا يقفان في مواجهة بعضهما بعضًا. كان سايمون يقف وذراعاه بجانبه، أما وجهه، فكان خليطًا مُحَطَّم القلب من الصدمة، والألم، والسخط. ولكن ما اعتقدته دافني، التي كان قلبها يتحطم كلما قابلت عينيه، أنه بدا مُشوَّشًا، ومضطربًا.

فقالت بصوتٍ دافئ:

- أعتقد أنه من الأفضل لك أن ترحل.

تطلع سايمون إليها بعينين مُلتاعتين يسكنهما القلق، وقال:

- أنت زوجتي.

لكن دافني لم تُجِب بشيء، فتابع:

- أنتِ مِلكٌ لي بموجب القانون.

حَدَّقت دافني إلى وجهه وهي تقول:

- هذا صحيح.

وفي لمح البصر، كان سايمون قد قطع المسافة بينهما، حتى وجدت يداه طريقهما إلى كتفيها، وهمس قائلًا:

- يمكنني أن أجعلكِ ترغبين في.

- أعلم ذلك.

خفت صوته شيئًا فشيئًا، حتى صار صوته مبحوحًا متسارعًا، وقال:

- وحتى إن عجزتُ عن ذلك، فأنتِ ملكي، أنتِ تنتمين إلي. ويمكنني أن أُجبِرَكِ على السماح لي بالبقاء هنا.

شعرت دافني أنها قد بلغت مئة عامٍ بينما تنطق بتلك الكلمات:

- لن تفعل هذا أبدًا.

وكان يعلم أنها على حَقٍّ تمامًا؛ لذا كان كل ما فعله هو أن انتزع نفسه مبتعدًا عنها، وأسرع خارجًا من الغرفة.

الفصل الثامن عشر

4 من يونيو 1813 **جريدة المجتمع**

هل كاتبة هذا المقال هي الوحيدة التي لاحظت ذلك؟ أم إن الرجال (النُبَلاء) في الوسط الرفيع صاروا يتجرعون الخمر أكثر مما هو مُعتاد هذه الأيام؟

ليدي ويسلداون

ذهب سايمون إلى الخارج، وعاد ثملًا. لم يكن من عادته أن يكون على تلك الحال. لم يكن هذا الأمر مما يستمتع به على وجه الخصوص، لكن هذا ما حدث على أي حال.

لقد كان هناك الكثير من الحانات بالقرب من الساحل، تبعد بضعة أميالٍ عن كلايفيدون. وكان هناك الكثير من البَحَّارة أيضًا، الذين يتطلعون إلى الشجار على أي شيء. ولسوء الحظ، وجده اثنان منهما.

لقد جلد الاثنين بسوطه.

كان يعتريه من الغضب والسخط ما تراكم في أجزاء روحه على مدار سنواتٍ طويلة. وهنا، في تلك اللحظة، أُتيح لهذا الغضب أن يُعَبِّرَ عن نفسه، ليظهر على السطح. ولم يحتج سايمون إلا إلى القليل من التحفيز، حتى يستعد للقتال.

لقد كان مخمورًا بما يكفي آنذاك، حتى إنه عندما لكمهما، لم يرَ وجه البحَّارين، بجلودهما التي احترقت من الشمس، بل وجه والده. وكل لكمة كانت بمكانة صفعة على وجه إحساسه الدائم بالرفض. وقد منحه هذا شعورًا رائعًا. لم يكن سايمون يعتبر نفسه قط رجلًا عنيفًا بصورة وصفية، لكن اللعنة على كل شيء، لقد كان شعورًا رائعًا.

في الوقت الذي انتهى فيه سايمون من البحَّارين، لم يتجرأ أحدٌ على الاقتراب منه. لقد أدرك أهل القرية في تلك الحانة القوة في جسده، لكن الأهم من ذلك أنهم أدركوا الغضب في عينيه أيضًا. وقد عرفوا جميعهم هذا الأمر أيضًا عن الرجلين، إلا إن الأخير هذا كان أشد فتكًا بهما.

ظل سايمون في الحانة حتى بزغت الأشعة الأولى للفجر في السماء، وقد ظل يتجرع باستمرار من الزجاجة التي كان قد دفع ثمنها. وعندما حان الوقت للذهاب، نهض سايمون على ساقين تترنحان، وقد دسَّ الزجاجة في جيبه، وشق طريقه عائدًا إلى المنزل.

استمر في الشرب وهو يمتطي حصانه، وكان النبيذ الرديء ينخر في أحشائه مباشرةً. وبينما كان يزداد سُكرًا أكثر فأكثر، كانت فكرة وحيدة قد سيطرت على عقله، وطَفَتْ أمام ناظريه.

يريد دافني أن تعود إليه.

إنها زوجته، اللعنة عليها. وكان قد اعتاد على وجودها حوله. لا يمكنها أن تقرر من نفسها الانتقال من غرفة نومهما.

سيعيدها إليه. سيُغازلها وسيكسب جانبها، و...

أطلق سايمون صوت تجشؤٍ عالٍ مُنَفِّر. حسنًا، سيكتفي بمغازلتها، ومحاولة اكتساب جانبها. لقد كان مخمورًا أكثر مما يجعله قادرًا على التفكير في أي شيء آخر.

وفي الوقت الذي وصل فيه إلى قلعة كلايفيدون، كان قد وصل إلى حالةٍ أفضل من الإصلاح الذاتي بفعل الثمالة. وفي الوقت الذي صادف فيه باب غرفة دافني، كان يُحدِثُ من الضوضاء ما يكفي حتى يوقظ الموتى في قبورهم.

- دافنـــــــــــــي!

صاح سايمون محاولًا أن يخفي نبرة اليأس الطفيفة في صوته؛ فلم يكن في حاجة إلى أن يظهر أمامها مثيرًا للشفقة.

عبس وجهه في تَفَكُّر؛ فمن ناحية أخرى، ربما إن بدا مثيرًا للشفقة، فهناك احتمالٌ أكبر أن تفتح دافني الباب. شهق بضع مرات بصوتٍ مرتفع، ثم صاح مجددًا:

- دافنـــــــــــــي!

وعندما لم تُجِبه بعد ثانيتين، استند إلى الباب الثقيل (غالبًا لأن شعوره بالاتزان كان يسبح في بحرٍ من النبيذ).

- آه.. دافني.

تنهَّد في يأس، وقد كانت مقدمة رأسه على وشك أن تستند إلى الباب الخشبي.

- إذا كُنتِ...

فُتِحَ الباب، وسقط سايمون أرضًا.

غمغم سايمون قائلًا -وكانت كلماته مُتعثرة-:

- هللل كاااان عليكِ أن تفتحيه بهذه... بهذه السررررعة؟

أما دافني، التي كانت تجذب أطراف ردائها، فقد تطلعت إلى الكومة الآدمية الراقدة على الأرض أمامها، وبالكاد تعرفت على زوجها فيه.

- يا إلهي، سايمون! ما الذي...؟

ومالت إلى الأمام لتساعده، ثم تراجعت إلى الخلف عندما فتح فمه وتنفَّس في وجهها.

فقالت بنبرة اتهام:

- أنت مخمور!

فأومأ بجدية:

- أخشى ذلك.

فسألته:

- أين كنتَ؟

فطرفت عيناه عدة مرات، وتطلع إليها كما لو أنه لم يسمع قط بسؤالٍ أغبى من هذا، ثم أجاب:

- في الخارج أثمل.

ثم تجشأ.

- سايمون، يجب أن تكون في الفراش الآن.

أومأ مجددًا، ولكن هذه المرة كانت إيماءته مصحوبةً بالكثير من الحيوية والحماس.

- أجلل، أجلل.. يجب علي.

حاول سايمون الوقوف على قدميه، ولكن كل ما استطاع تحقيقه هو الوقوف على ركبتيه، قبل أن يتعثر ويسقط على السجاد مرةً أخرى.

- مممم...

قال سايمون متطلعًا إلى الشق الأسفل من جسده.

- مممم.. هذا غريب.

ثم رفع وجهه متطلعًا إلى وجه دافني وقد خيَّمت على وجهه نظراتُ الحيرة المطلقة.

- يمكنني أن أقسم إن هاتين ساقاي.

قلَّبت دافني عينيها.

أما سايمون، فقد حاول مجددًا النهوض على ساقيه، وجاءت النتيجة مثل سابقتها.

فعلَّق قائلًا:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- يبدو أن أطرافي لا تعمل جيدًا.

- إن عقلك هو الذي لا يعمل جيدًا!

أجابت دافني في نفاد صبر، ثم تابعت:

- ما الذي عليَّ فعله معك وأنت على هذه الحالة؟

تطلع سايمون إليها، ثم ضحك قائلًا:

- تحبينني؟ لقد قُلتِ إنكِ تحبينني كما تعلمين.

ثم قطب حاجبيه وأضاف:

- لا يمكنكِ أن تسحبي كلامكِ.

أطلقت دافني تنهيدة عميقة. يُفتَرَض بها أن تكون ساخطةً عليه –دعك من كل هذا–، أو حانقة عليه! ولكن كان من الصعب عليها أن تحافظ على مستويات غضبها الملائمة للموقف وهو يبدو مثيرًا للشفقة على تلك الحالة.

إلى جانب ذلك، فنشأتها برفقة ثلاثة أشقاء جعلتها تمتلك خبرةً لا بأس بها في التعامل مع البُلَهاء المخمورين. والأهم هو أن عليه النوم على تلك الحالة، وهذا كل ما يمكنها فعله معه. وسيستيقظ في اليوم التالي بألمٍ رهيبٍ

في الرأس، والذي من شأنه أن يؤدِّبَه على تصرفه، ثم سيُصِرُّ على تناول بعض الوصفات سيئة المذاق، والتي سيكون على حقٍّ بشأن مفعولها في الحد من تأثير الثمالة كُليًّا.

استأنفت دافني الحديث في صبر:

- سايمون! هل لك أن تخبرني إلى أي حدٍّ أنت مخمور؟

منحها سايمون ضحكة مُشوَّشة، وأجاب:

- مخمورٌ جدًا.

تمتمت دافني في صوتٍ خافت:

- لقد اعتقدتُ ذلك.

ثم انحنت إلى أسفل وقد وضعت يديها أسفل ذراعيه، وقالت:

- قم معي الآن، يجب أن نضعك في الفراش.

لكنه لم يتحرك، وظل قاعدًا على مؤخرته، وقد تطلع إليها بتعبير وجهٍ في غاية البلاهة. ثم تخبطت كلماته:

- لماذا عليَّ أنا أن أقف؟ ألا يمكن أن تجلسي معي؟

وألقى بذراعيه حولها في عِناقٍ رقيق بائس، وتابع:

- تعالي واجلسي بجانبي، دافني.

- سايمون!

ربت على السجاد بجانبه، وقال:

- إن الجلوس لطيفٌ هنا.

- سايمون، كلا، لا يمكنني الجلوس معك.

كانت نبرة صوتها آليَّةً تمامًا، كما لو أن الكيل قد فاض هنا، بينما كانت تجاهد للتخلص من قبضته الثقيلة على جسدها، وتابعت:

- يجب أن تذهب إلى النوم.

حاولت دافني أن تحركه مُجددًا، وقد باءت المحاولة بالفشل مثل سابقتها.

تمتمت دافني بصوتٍ خافت:

- يا إلهي الرحيم، لماذا كان عليك أن تخرج وتثمل إلى هذا الحد؟

لم يكن من المفترض له أن يسمع كلماتها، لكن لا بد وأنه قد فعل؛ لأنه مال برأسه، ثم قال:

- لقد أردت أن تعودي إلي.

انفرجت شفتاها في صدمة. كان كلاهما يعلم ما الذي عليه فعله حتى تعود إليه، ولكن دافني فكَّرت في أن حالة الثمالة التي هو عليها ستمنعه من إجراء أي حديثٍ جاد في هذا الموضوع. ولذلك جذبت دافني ذراعه، وقالت:

- سنتحدث في هذا الأمر غدًا، سايمون.

طرفت عيناه عدة مرات في سرعة بادية، ثم قال:

- لقد اعتقدتُ أن الغد قد أتى بالفعل.

رفع رأسه متطلعًا إلى هنا وهناك، باحثًا عن النوافذ. كانت الستائر مُنسَدِلَة، لكن ضوء النهار الجديد كان يتسرَّبُ بالفعل إلى الداخل.

غمغم قائلًا:

- إنه النهار. أترين؟ إنه الغد بالفعل.

وأشار بذراعه إلى النافذة.

- إذن سنتحدث عن الأمر في المساء.

كانت نبرة صوتها قد غمرتها مسحةٌ من اليأس؛ فقد كانت تشعر بالفعل كما لو أن قلبها قد دُفِعَ إلى طاحونة هواء. واعتقدت أنها عاجزة عن تحمل المزيد من الأمر في تلك اللحظة.

فتابعت:

- سايمون، أرجوك، دعنا من هذا الأمر الآن.

- الأمر هو، دافري...

وهزَّ رأسه بطريقةٍ تشبه كثيرًا تلك الطريقة التي تنفض بها الكلاب المياه عن أجسادها، ثم تابع في حذر:

- دافني، دافني، دافني.

أما في تلك اللحظة، فقد عجزت دافني عن التوقف عن الضحك على ما حدث، ثم أجابت:

- ماذا، سايمون؟

- المشكلة، كما تعلمين (وحكَّ رأسه، ثم تابع): إنكِ لا تفهمين الأمر.

فأجابت دافني في لُطف:

- ما الذي لا أفهمه؟

- لماذا لا يمكنني فعل ذلك.

نطق سايمون بكلماته، ثم رفع وجهه حتى صار على نفس مستوى وجهها، وكادت دافني أن تجفل من تلك المأساة الساكنة في عينيه.

ثم تابع بصوتٍ أجش:

- لم أرغب قط في إيذائكِ، داف. تعلمين ذلك، أليس كذلك؟

أومأت دافني، وأجابت:

- أعلم ذلك، سايمون.

- جيد، لأن الأمر هو...

ثم أخذ نفسًا عميقًا حتى بدا وكأن جسده بأكمله ينتفض، وأكمل:

- أنني عاجزٌ عن فعل ما تريدين.

لم تُجِب دافني بشيء.

فتابع سايمون في حزن:

- طوال حياتي... طوال حياتي كان هو من ينتصر في النهاية. هل كُنتِ تعلمين ذلك؟ تعلمين أنه ينتصر دائمًا. أما تلك المرة، أنا من سينتصر.

وفي برهةٍ طويلة وغريبة بعض الشيء، تأرجحت ذراعه في قوسٍ أفقي، وألصق إبهامه بصدره، ثم تابع:

- أنا. أريد الفوز ولو لمرةٍ واحدة.

همست دافني:

- سايمون، عزيزي.. لقد انتصرت عليه منذ وقتٍ طويل؛ في اللحظة التي تجاوزت فيها توقعاته، كان هذا انتصارك. وفي كل مرةٍ تتغلب على الصعاب، وتحظى بصديق، أو تسافر إلى أرضٍ جديدة، فإن هذا انتصارٌ لك عليه. لقد فَعَلتَ كل الأشياء التي لم يتمنَّها لك.

انقطعت أنفاسها، لكنها منحت كتفيه قبضةً رقيقة، ثم قالت:

- لقد هزمته، وانتصرت. لماذا لا يمكنك أن ترى انتصارك هذا؟

هزَّ سايمون رأسه، وقال:

- لا أريد أن أصبح ما يريده هو. على الرغم من...

وهاجمته حازوقة قطعت أنفاسه وكلماته، ثم تابع:

- على الرغم من أنه لم يتوقع مـ... مني قط أن أحقق أيًّا من هذا. كل ما كان يريده هو أن أكون صبيًّا مثاليًّا، شخصًا سيكون الد... الدوق المثالي، الذي سـ... سيتزوج الدوقة المثالية، ويحظى بأطفالٍ مثاليين.

عضَّت دافني بأسنانها على شفتها السُفلى. لقد عادت لعثمته مرةً أخرى؛ لا بد وأنه مستاءٌ للغاية. وشعرت بأن قلبها يتحطم حسرةً عليه، حسرةً على الصبي الصغير، الذي لم يرغب في أي شيء في حياته سوى قبول والده به.

مال سايمون برأسه إلى الجانب، وتطلع إليها بنظرةٍ ثابتة على نحوٍ أثار دهشتها، ثم قال:

- كان سيقبلكِ أنتِ.

- آه.

لم تكن دافني واثقةً كيف لها أن تفسر جملةً كهذه.

- لكن...

وارتجف جسده قبل أن يمنحها ابتسامةً مستهترة عبثية، ويتابع:

- لكني تزوجتكِ على أي حال.

لم يبدُ لها أن حديثه هزليّ، لقد بدا جادًّا بصورةٍ صبيانية، حتى كان من الصعب عليها ألا تلقي بذراعيها حوله وتحاول تهدئته. ولكن مهما كان عُمقُ ألمه، أو الجروح التي تعتمل في روحه، إلا إنه كان يفكر في الأمر بصورة خاطئة، ويتصرف على أساسٍ خاطئ. إن أفضل انتقامٍ من والده هو أن يعيش حياةً سعيدة، ممتلئة بالمرح، والبهجة، أن يحقق كل النجاحات، والمجد الذي كان والده شديد الإصرار على حرمانه منه.

كظمت دافني بداخلها موجةً عارمة من الحنق. كانت تدرك أنه لن يحيا حياةً سعيدة إن كانت جميع اختياراته تعتمد على معارضة رغبات رجلٍ ميت.

لكنها لم ترغب في مناقشة شيء كهذا في ذلك الوقت. لقد كانت مُتعَبة، وكان هو مخمورًا، ولم يكن هذا هو الوقت المناسب للنقاش.

فقالت أخيرًا:

- دعنا نضعك في الفراش.

حملق إليها سايمون لوهلة بدت طويلة، وقد امتلأت عيناه بنظرات الاحتياج قديم الأزل إلى الراحة.

ثم همس:

- لا تتركيني.

- سايمون.

واختنقت الكلمات في حلقها، فلم تنطق شيئًا بعدها.

- أرجوكِ لا تتركيني. لقد رحل هو، ورحل الجميع، ثم رحلتُ أنا.

ثم قبض على يديها برفق، وتابع:

- لكن أنتِ ابقي معي.

أومأت دافني وقد بدت إيماءتها عصيبة، ثم نهضت لتقف على قدميها، وقالت:

- يمكنك أن تنام في فراشي، أنا واثقةٌ أنك ستشعر بالتحسن في الصباح.

- ولكنك ستبقين معي؟

كان هذا خطأً. كانت تعلم أن ما ستفعله هو الخطأ بعينه، لكنها قالت رغم كل شيء:

- أجل، سأبقى معك.

- جيد. لأنني لا أستطيع... أنا حقًّا...

تنهَّد سايمون وقد التفت نحوها بعينين مُعَذَّبتين، ثم تابع:

- أنا في حاجةٍ إليكِ.

تأرجح واقفًا على ساقيه. وقد قادته دافني إلى فراشها، حتى كادت أن تسقط معه عندما انقلب على الفِراش.

- ابقَ كما أنت.

أمرته دافني وهي تركع حتى تخلع عنه حذاءه. لقد فعلت هذا من قبل مع أشقائها، ولذلك كانت تعلم جيدًا أن عليها أن تسحب الكعب، وليس الأصابع. لكن حذاء سايمون كان مناسبًا لمقاس قدمه، مُحكَمًا عليها، حتى إنها كانت تفترش الأرض عندما تحررت قدمه أخيرًا من الحذاء.

- يا إلهي!

تمتمت دافني وهي تنهض لتعيد الكَرَّة بأكملها، ثم تابعت:

- ويقولون إن النساء مهووسات بالموضة العصرية.

أطلق سايمون صوتًا بدا أشبه بالشخير، على نحو لم تكن معه متأكدة من ماهية هذا الصوت، فسألته في تشكك:

- هل أنت نائم؟

جذبت دافني الحذاء من القدم الأخرى، والذي انخلع معها في شيء من السهولة عن المرة الأولى. ثم رفعت ساقيه -واللتين بدتا مثل حمولة ثقيلة- إلى أعلى، حتى استقرتا على الفراش.

بدت ملامح وجهه طفولية وهادئة، وقد استقرت رموش عينيه الداكنة أعلى خديه. مدت دافني يدها وهي تمسح بها على شعره ومقدمة رأسه، ثم همست:

- أحلامًا سعيدة، حبيبي.

ولكن عندما بدأت تتحرك مُغادِرَةً الفراش، اندفعت إحدى ذراعيه وقد أحاطت بها، ثم قال باتهام:

- لقد قُلتِ إنكِ ستبقين.

- لقد اعتقدتُ أنك نائم!

- وهذا لا يمنحك الحقَّ في نقض وعدك لي.

ثم جذب ذراعها. وأخيرًا قررت دافني التخلي عن المقاومة، ورقدت بجانبه في الفراش. كان جسده دافئًا، وكان مِلك يديها. وحتى لو أن هناك مخاوف مميتة تغمرها بشأن مستقبلهما معًا، ففي هذه اللحظة عجزت عن مقاومة ضمته الحانية.

نهضت دافني بعد ساعة، وقد اندهشت من أنها قد غطت في النوم تمامًا. كان سايمون لا يزال راقدًا بجانبها، يصدر من حينٍ لآخر شخيرًا هادئًا. كان كلاهما لا يزال محتفظًا بملابسه؛ هو بملابسه التي تعبق برائحة الويسكي، وهي في رداء نومها.

لامست دافني خديه في رفق، ثم همست:

- ماذا يمكنني أن أفعل معك؟ أنا أحبك، وأنت تعلم ذلك. أنا أحبك، لكني أكره ما تفعله بنفسك.

والتقطت أنفاسًا مرتعشة، ثم أكملت:

- وبي أنا. أكره ما تفعله بي أنا أيضًا.

تبدلت وضعية نومه، وللحظة غمرها الرُّعب من أن يستيقظ.

فهمست:

- سايمون؟

وعندما لم تسمع جوابًا، تنفست الصعداء. كانت تعلم أن ما كان عليها أن تنطق بالكلمات بصوتٍ مرتفع، لأنها -وبكل بساطة- لم تكن مستعدةً بعد لأن يسمع كلماتها. لكنه بدا مثل طفلٍ بريء في نومه، يرقد على تلك الوسائد البيضاء الثلجية. وقد كان من السهل عليها أن تُدلي بأفكارها الخاصة عندما يكون وجهه ملائكيًّا على هذا النحو.

- آهٍ يا سايمون!

تنهَّدت دافني، ثم أغلقت عينيها حاجبةً تلك الدمعات التي ملأت محجريهما. عليها أن تنهض الآن. يجب عليها أن تنهض الآن على الفور، وتدعه يستريح. كانت تتفهم جيدًا السبب وراء إصراره المميت على عدم إنجاب طفلٍ في هذا العالم، لكنها لم تسامحه بعد، وبالتأكيد لا توافقه على ما يعتقده بخصوص هذا الأمر. إن استيقظ وهي ما زالت بين ذراعيه، فربما يعتقد أنها راغبةٌ في الرضوخ لوجهة نظره عن العائلة.

وشيئًا فشيئًا، حاولت دافني أن تسحب جسدها من بين ذراعيه. ولكن ذراعيه قد أحكمتا القبضة عليها، وتمتم صوته الناعس:

- كلا.

- سايمون، أنا...

فجذبها نحوه أكثر فأكثر، وأدركت دافني أن شهوته قد بلغت أوجها.

- سايمون؟

همست دافني وقد انفرجت عيناها على اتساعهما، ثم أكملت:

- هل أنت مستيقظٌ حتى؟

كان جوابه غمغمةً أخرى ناعسة، ولم يحرك ساكنا لإغوائها، كل ما فعله هو أن احتضنها بشدة.

طرفت دافني في دهشة. لم تكن تدري حتى تلك اللحظة أن رجلًا يمكن له أن يرغب في امرأةٍ في أثناء نومه.

عادت برأسها إلى الخلف حتى يتسنى لها أن ترى وجهه، ثم مدت يدها، ولامست عِظام فكه السُفلى، فأطلق أنينًا مقتضبًا. وكان الصوت مبحوحًا وعميقًا، وقد جعلها الصوت أكثر تهورًا وطيشًا. وببطء شديد، مدت أطراف أصابعها في خفة، حتى تُفَكِّكَ أزرار قميصه، بينما تتوقف بين حينٍ وآخر حتى تتعقب صف الأزرار الذي ينتهي عند سُرَّتِه.

تحرك جسده في تململ، وشعرت دافني بأغرب دفعة مُسكِرة من القوة، وأدركت أنه كان تحت سيطرتها، وفي قبضة يدها. كان نائمًا، وربما ما زال يعاني من أثر الثمالة، ويمكنها أن تفعل به أيًّا مما تريد.

يمكنها أن تحصل على أيٍّ مما تريد.

وعندما فتح عينيه بعد وقتٍ ليس بقصير، أدرك أنها قد فعلت ذلك عن عمد.

لقد أعملت في جسده ما أثار شهوته وهو نائم، واستغلت جسده، بينما كان لا يزال غارقًا في آثار الثمالة، وضبطت جسدها فوق جسده، حتى أفرغ بذرته بداخلها.

اتسعت عيناه وقد حدَّق إليها، وهمس قائلًا:

- كيف تجرئين؟

لم تُجِب دافني، ولكنه رأى وجهها وقد تبدَّل، فعرف أنها قد سمعته.

دفعها سايمون من فوق جسده في اللحظة التي شعر بها تُحكِمُ قبضتها من جديد على جسده. وقد حرمها بوحشيةٍ مما كانت تشعر به من نشوة جَرَّاء ما فعلته به.

ثم كرر كلماته:

- كيف تجرئين؟ كُنتِ تعلمين.. لقد كُنتِ تعلمين أنني... أنني...

لكنها كانت قد تكوَّرَت على نفسها، وقد التصقت ركبتاها بصدرها، عازمةً تمامًا على ألا تفقد نقطة واحدة منه.

ألقى سايمون الكثير من اللعنات، والسُباب، بينما كان يجذب جسده ليقف على قدميه. وفتح فمه ليلقي في وجهها الطعنات، وأن يوبخها على خيانته، واستغلاله. لكنه غصَّ في أنفاسه، وتورَّم لسانه، وصار عاجزًا عن النطق بأي كلمة، فما إن ينطق بواحدة، حتى يعجز عن إنهائها.

لكنه تمكن أخيرًا من النطق:

- أ... أ... أنتِ...

حدَّقت دافني إليه في رُعب، ثم همست باسمه.

لم يكن راغبًا في هذا، لم يكن راغبًا في أن تتطلع إليه كما لو أنه وحشٌ كاسر. يا إلهي، يا إلهي، لقد عاودته تلك المشاعر التي أكلت من روحه عندما كان في السابعة من عمره؛ عجز عن الكلام، وعجز عن أن يدفع لسانه للعمل، وشعر بالضياع وسط كل شيء.

كان وجه دافني قد كساه القلق، القلق غير المرغوب، المصحوب بالشفقة. ثم همست:

- هل أنت بخير؟ هل يمكنك التنفس؟

- لـــ... لـــ... لـــ... لـــ... لـــ...

لقد كانت صرخةً تحمل «لا تُشفِقي علي!» لكن تلك الصرخة هي كل ما استطاع فعله. كان بإمكانه أن يشعر بحضور والده الساخر، يعتصر حلقه، حتى كاد يبتلع لسانه.

- سايمون؟

أسرعت دافني إلى سايمون، وقد اكتسى صوتها بنوبةٍ من الفزع، ثم تابعت:

- سايمون، قل شيئًا!

مدت يدها لتربت على ذراعه، لكنه دفعها عنه، وانفجر في وجهها:

- لا تلمسيني!

تراجعت إلى الخلف، وقالت بصوتٍ ضعيف حزين:

- أعتقد أن هناك بعض الأشياء التي لا تزال قادرًا على النطق بها.

لقد كره نفسه في تلك اللحظة، وكره الصوت الذي تخلَّى عنه، وكره زوجته لأنها امتلكت القوة التي جعلتها تؤثر على تحكمه بنفسه حتى صار حُطامًا. الفقدان التام للنطق، الغصَّة، الإحساس الخانق؛ كل ما عمل طوال حياته على الهروب منه، حملته هي الآن على العودة إليه، وقد صحبه الانتقام.

ما كان عليه أن يسمح لها بذلك. ما كان عليه أن يسمح لها أن تعيده إلى الصبي الذي كان عليه من قبل.

لقد حاول أن ينطق باسمها، لكن شيئًا لم يغادر حلقه.

فصار عليه الآن أن يغادر. كان عاجزًا عن النظر إليها، عاجزًا عن البقاء في صحبتها. حتى إنه لم يكن يريد حتى البقاء مع نفسه. ولكن هذا مع الأسف كان خارج نطاق قدرته الواهنة.

- لـ... لا تـ... تقتربي مـــ...... مني.

شهق سايمون وهو ينطق بتلك الكلمات، وقد وجه إصبعه نحوها بينما يجذب بنطاله، ثم قال:

- أ... أ... أ... أنتِ فعلتِ هذا!

- فعلت ماذا؟

صرخت دافني وهي تجذب ملاءة لتغطي بها جسدها، ثم تابعت:

- سايمون، توقف عن هذا. ما الذي فعلته أنا وكان خاطئًا إلى هذا الحد؟ لقد كُنتَ راغبًا في. وأنت تعلم أنك كُنتَ راغبًا في.

- هـــ... هـــ... هذا!

اندفعت الكلمة أخيرًا وهو يشير إلى حلقه، ثم أشار نحو بطنها، وقال:

- ذ... ذ... ذاك.

كان غير قادرٍ على تحمل رؤيتها أمامه في أي مكان، فاندفع خارجًا من الغرفة.

لو كان بإمكانه أن يهرب من نفسه بتلك السهولة.

بعد عشر ساعات، وجدت دافني الرسالة التالية:

أعمالٌ طارئة في إحدى ممتلكاتي تتطلب اهتمامي الفوري. وأثق أنكِ ستُعلِمينني إن نَجَحَت محاولاتك في الحمل.

وسيُخبركِ خادمي الشخصي بعنواني، إذا احتجتِ إليه.

سايمون

انسلَّت الورقة الوحيدة من بين أصابع دافني، ثم سبحت في الهواء ببطء حتى وصلت إلى الأرض. شقَّت تنهيدةٌ قاسية طريقها خارج حلقها، وقد غطت فمها بأصابع يدها، كما لو كان هذا من شأنه أن يكبح أمواج المشاعر التي تعتمل بداخلها.

لقد تركها؛ هذه هي الحقيقة. لقد تركها. كانت تعلم أنه في قمة الغضب، وتعلم أنه ربما لن يسامحها حتى. لكنها لم تعتقد قط أنه سيتركها حقًّا.

لقد اعتَقَدَت.. آه! حتى عندما اندفع غاضبًا خارج الغرفة، اعتقدت أنهما قد يكونان قادرين على تسوية خلافاتهما. أما الآن، فلم تكن متأكدة من ذلك.

ربما كانت تفكر بمثالية مُطلَقة. وقد اعتقدت -في غرور منها- أن بإمكانها أن تشفي جروحه، وأن تُعِيدَ بناء قلبه بأكمله. أما الآن، فقد أدركت أنها قد غَذَّت عقلها بقوةٍ تفوق كثيرًا ما تمتلكه حقًّا. لقد اعتقدت أن حبها كان رائعًا، كان بَرَّاقًا، كان نقيًّا حتى إن سايمون سيتخلى على الفور عن سنواتٍ طويلة من الكراهية والألم، اللذين امتلأ بهما كيانه، ووجوده بأكمله.

كم كانت بلهاء حتى تعتقد أنها بتلك الأهمية! كم هي حمقاء الآن!

بعض الأمور كانت خارج نطاق قدرتها. فطوال حياتها المُظَلَلة بالحماية، لم تدرك أيًّا من هذا قط، حتى تلك اللحظة. لم تكن تتوقع أن يُقَدَّم لها العالم بأكمله على طبقٍ من ذهب، لكنها دائمًا ما اعتقدت أنها إن عملت بجد من أجل شيء تريده، وعاملت الناس كما تحب أن يعاملوها، عندئذٍ ستنال ما تستحق من مكافأة.

لكن ليس هذه المرة. لم يكن سايمون ضمن نطاق قدراتها.

بدا المنزل هادئًا على غير العادة عندما كانت دافني تشق طريقها إلى الغرفة الصفراء. وتساءلت ما إذا كان جميع الخدم قد علموا بمغادرة زوجها، ويتعمدون الآن تجنبها. لا بد وأنهم قد سمعوا همهماتٍ من النقاش الذي دار الليلة الماضية.

تنهَّدت دافني. إن الحزن أشدُّ صعوبةً عندما يكون المرءُ مُحاطًا بجيشٍ صغير من المتفرجين، أو المتفرجين غير المرئيين، أيًّا ما تكون الحالة. هكذا فكرت عندما سحبت مقبض الجرس. ربما لم يكن بإمكانها رؤيتهم، لكنها واثقةٌ أنهم حاضرون حولها، يتهامسون من خلف ظهرها، ويشفقون على حالها.

بدا الأمر مُضحِكًا وهي لم تأبه كثيرًا من قبل لنميمة الخدم. أما الآن – وسقطت على الأريكة فأطلقت أنينًا مُتألِّمًا–.. الآن تشعر أنها قد هُجِرَت للوحدة تأكلها. هل هناك شيءٌ آخر يُفتَرَض بها أن تفكر فيه؟

- صاحبة الجلالة؟

تطلعت دافني لترى خادمة شابة تقف في توتر على أعتاب الباب. انحنت الخادمة في إجلال، ومنحت دافني نظرة تَرَقُّب.

فقالت دافني في هدوء:

- شاي من فضلك. لا أرغب في البسكويت، الشاي فحسب.

أومأت الخادمة الشابة، ثم أسرعت خارج الغرفة.

بينما كانت دافني تنتظر عودة الخادمة، لامست أسفل بطنها، متطلعةً إلى نفسها في رهبةٍ حانية. أغلقت عينيها، وقد بدأت في الدعاء، ثم قالت في توسُّل:

«يا إلهي الرحيم، يا إلهي الرحيم، أدعوك أن تقبل دعائي، امنحني الطفل الذي أتمناه».

فربما لن تحظى بفرصةٍ أخرى.

لم تكن دافني تشعر بالخزي من أفعالها، واعتقدت أن هذا ما يجب أن تكون عليه، لكنها لم تكن كذلك.

لم تكن تخطط للأمر، لم تكن تتطلع إليه عندما كان نائمًا، وفكَّرت: «*ربما لا يزال مخمورًا. يمكنني أن أمارس الحب معه، وأستخلص منه بذرته، ولن يعرف بالأمر قط*».

لم يكن الأمر بتلك الطريقة.

لكنها لم تكن واثقةً أيضًا مما حدث بالضبط؛ في إحدى اللحظات كانت تعتليه، واللحظة التي تليها أدركت أنه لن ينسحب خارج جسدها في اللحظة المناسبة، وقد جعلها هذا الأمر واثقةً أنه عاجزٌ عن...

أو ربما... أغلقت دافني عينيها بشدة. ربما حدث الأمر بطريقةٍ أخرى؛ ربما استغلت دافني أكثر من مجرد لحظةٍ بينهما، ربما استغلت دافني ذهاب عقله، وأرغمته على ما تريد.

إلا إنها لم تعلم ما حدث بالضبط رغم كل ذلك. لقد تشوشت الذكريات في عقلها. لعثمة سايمون، ورغبة مُلِحَّة في إنجاب طفل، وكراهيته لوالده؛ لقد امتزج كل شيء، واختلط ببعضه في رأسها، وصارت عاجزةً عن تحديد أين انتهى أحد الأحداث ليبدأ الآخر.

وشعرت بالوحدة تأكلها من جديد.

سمعت دافني صوت الطرقات على الباب، والتفتت متوقعةً الخادمة الشابة عائدةً إليها بالشاي، ولكن بدلًا منها، كانت السيدة كولسون. كان وجهها مأخوذًا، وعيناها يغمرهما القلق.

ابتسمت دافني لمدبرة المنزل، وتمتمت:

- لقد كنتُ أتوقع الخادمة.

- إن لديَّ بعض الأعمال في الغرفة المجاورة، ولذلك فَكَّرتُ في إحضار الشاي بنفسي.

كانت دافني تعلم أنها كاذبة، لكنها أومأت تصديقًا على كلامها على أي حال. ثم تابعت السيدة كولسون:

- لقد قالت الخادمة إنكِ لا ترغبين في البسكويت، لكنني أعلم أنكِ لم تتناولِي الإفطار، ولذلك وضعتُ بعضًا من رقائق البسكويت على الصينية على أي حال.

- هذا لُطفٌ منكِ.

لم تتعرف على النغمة المميزة في صوتها، وبدا لها أن صوتها الخاص كان رتيبًا، كما لو أنه ينتمي إلى شخصٍ آخر.

- لا مشكلة، اطمئني.

بدت مدبرة المنزل كما لو أنها ترغب في قول المزيد، ولكن في النهاية، استقامت قامتها وسألت:

- هل هذا كل شيء؟

أومأت دافني.

شقت السيدة كولسون طريقها نحو الباب، ولوهلة، كادت دافني تناديها. كادت تنطق باسمها، وتطلب منها الجلوس برفقتها، وأن تشاركها الشاي. وستُدلي إليها دافني بأسرارها، وعارها، ثم ستسمح لدموعها بأن تنساب.

لم يكن الأمر لأنها قريبة بصورةٍ شخصية من مدبرة المنزل، بل لأنها كانت وحيدة، وليس هناك من يحمل معها حُزنَها.

لكنها لم تُنادِ، وغادرت السيدة كولسون الغرفة.

التقطت دافني إحدى رقائق البسكويت وقضمتها، وفكَّرت أنه ربما حان الوقت لتعود إلى ديارها.

الفصل التاسع عشر

جريدة المجتمع | **9 من يونيو 1813**

شُوهِدَت دوقة هاستنجز الجديدة في مايفير اليوم؛ فقد رأت فيليبا فيذرنجتون الآنسة دافني بريدجرتون سابقًا تستنشق بعض الهواء، بينما كانت تسير في خِفةٍ ورشاقة في الجوار. وقد نادتها الآنسة فيذرنجتون، لكن الدوقة تظاهرت بأنها لم تسمعها.

ونعلم جميعًا أن الدوقة لا بد وأنها قد تظاهرت بعدم سماعها للنداء؛ ففي نهاية الأمر لا بد وأن يكون المرء أصمَّ حتى لا يلقي بالًا لواحدة من نداءات وصراخات الآنسة فيذرنجتون دون أن يجيب.

ليدي ويسلداون

في نهاية المطاف، علمت دافني أن الحزن وألم القلب لا يزولان، بل يبهتان شيئًا فشيئًا. الألم الحاد الذي يطعن الصدر مع كل نفس يلتقطه المرء، سيتلاشى في نهاية الأمر إلى وجعٍ خفيف؛ ذلك النوع الذي يمكن للمرء أن يتجاهله في بعض الأحيان، لكن يستحيل أن يتجاهله تمامًا.

كانت دافني قد غادرت قلعة كلايفيدون في اليوم التالي لرحيل سايمون، متجهةً إلى لندن، وعازمةً على العودة إلى منزل عائلة بريدجرتون. لكن العودة إلى منزل العائلة بدت بطريقة أو بأخرى مثل إقرارٍ منها بالفشل؛ ولذلك أمرت السائق في اللحظة الأخيرة أن يأخذها إلى منزل هاستنجز بدلًا عن ذلك. وستكون بالقرب من عائلتها إذا شعرت بالحاجة إلى دعمهم وصحبتهم، ولكنها امرأة متزوجة الآن، ويجب أن تقيم في منزلها الخاص.

وهكذا، فقد قدمت دافني نفسها إلى طاقم الخدم الجديد، الذين رحبوا بوجودها دون تساؤلات -لكن الأمر لم يخلُ من قدرٍ كافٍ من الفضول-. وبدأت حياتها الجديدة بصفتها زوجة مهجورة.

كانت والدتها أول من أتى للزيارة، فلم تزعج دافني نفسها بإخطار أي شخصٍ آخر بعودتها إلى لندن، ولذلك لم تكن الزيارة مُفاجئةً للغاية.

- أين هو؟

تساءلت فيوليت دون مقدمات.

- تقصدين زوجي؟

- كلا، بل عمك الأكبر، إدموند...

انفجرت فيوليت على الفور، ثم تابعت:

- بالتأكيد أقصد زوجكِ.

لم تلتقِ عينا دافني بعيني والدتها تمامًا، ثم أجابت:

- أعتقد أنه يهتم بشؤونه في واحدة من ممتلكاته الريفية.

- تعتقدين؟ لستِ متأكدة؟

- حسنًا، أعرف بالتأكيد.

وصححت دافني كلماتها على الفور.

- وهل تعلمين حقًّا لماذا لَستِ برفقته؟

فكرت دافني في الكذب، وفكرت في أن تُكابِرَ بوقاحة، وتخبر والدتها ببعض الهراء بشأن حالة طارئة تتضمن بعض المستأجرين، وربما بعض المواشي، أو تفشي مرضٍ ما، أو أي شيء آخر حتى تُنهيَ الأمر. ولكن في النهاية، ارتعشت شفتاها، وبدأت عيناها تذرفان دموعًا، وبدا صوتها خافتًا للغاية إذ أجابت:

- لأنه اختار ألا أذهب برفقته.

التقطت فيوليت يد ابنتها، وتنهدت قبل أن تقول:

- أوه، داف، ماذا حدث؟

غاصت دافني في أريكة كانت تجلس عليها، وقد جذبت والدتها برفقٍ لتجلس بجانبها، ثم أجابت:

- أكثر مما أحتمل شرحه.

- هل ترغبين في المحاولة؟

أومأت دافني برأسها؛ فلم تكن قط -حتى ولو لمرة واحدة في حياتها- قد أخفت سِرًّا واحدًا عن والدتها، فلم يكن هناك أي شيء على الإطلاق تشعر بأنها عاجزةٌ عن مناقشته مع والدتها.

لكن لم يسبق لها أيضًا أن ناقشت أمرًا كهذا.

ربتت دافني على يد والدتها، وقالت:

- سأكون بخير.

إلا إن فيوليت قد بدت غير مقتنعة بكلماتها، فسألت:

- هل أنتِ واثقة؟

حدَّقت دافني إلى الأرض للحظة، ثم قالت:

- كلا، ولكن عليَّ أن أعتقد ذلك على أي حال.

وبعد أن غادرت فيوليت، جلست دافني وقد وضعت يديها أسفل بطنها، وابتهلت.

كان كولين هو الزائر التالي، فبعد نحو أسبوع، كانت دافني قد عادت من جولةٍ سريعة في الحديقة لتجده واقفًا في غرفة الاستقبال الخاصة بها، عاقدًا ذراعيه على صدره، وقد كسا الغضب قسمات وجهه.

خلعت دافني قفازيها بينما تقول:

- مرحبًا، أرى أنك قد علمت بعودتي.

فتساءل كولين:

- ما الذي يحدث؟

أجابت دافني بامتعاض، أما كولين، فقد كان من الواضح أنه لم يرث موهبة والدتهما من الحذق والدهاء في الحديث.

صاح كولين:

- تحدثي!

أغلقت عينيها لوهلة، لفترةٍ قصيرة من الزمن تحاول خلالها أن تخفف من آلام الصداع الذي أصابها طوال الأيام الماضية. لم ترغب في أن تحكي مشكلاتها لكولين، لم ترغب حتى في أن تخبره بالقدر الذي أخبرت به والدتها، على أنها قد افترضت أنه يعلم بالفعل. دائمًا ما تنتشر الأخبار سريعًا في منزل عائلة بريدجرتون.

لم تكن حقًّا تعلم من أين أتتها تلك القوة، ولكن كانت هناك فائدة قوية مؤكدة لإنشاء جبهة مواجهة؛ لذلك انتصبت كتفاها، ورفعت حاجبيها، وقالت:

- وبهذا تقصد...؟

تذمَّر كولين مستهجنًا، ثم قال:

- أقصد.. أين زوجكِ؟

فأجابت دافني:

- إنه مشغول بأمور أخرى.

وقد بدت تلك العبارة أفضل بكثير من: «لقد تركني».

- دافني...

كان صوت كولين يحمل قدرًا وفيرًا من التحذير، فتساءلت دافني متجاهلةً نبرة صوته:

- هل أنت هنا في منزل العائلة بمفردك؟

- أنطوني وبيندكت في الريف طوال هذا الشهر، إن كان هذا ما تقصدينه.

تنفست دافني الصعداء؛ فآخر شيءٍ كانت في حاجةٍ إليه في هذا الوقت بالذات هو مواجهة شقيقها الأكبر، فقد كانت بالفعل قد منعته من قتل سايمون مرة، ولم تكن واثقةً تمامًا من أنها ستكون قادرة على إنجاز هذا الأمر مرة أخرى. ولكن قبل أن تتمكن دافني من قول أي شيء، أضاف كولين:

- دافني، أنا آمُركِ الآن أن تخبريني أين يختبئ هذا النذل.

شعرت دافني بعمودها الفقري يتصلب في موضعه. ربما كانت تتمتع بالحق في إطلاق أبشع الألفاظ على زوجها الوغد، لكن شقيقها بالتأكيد لم يكن له الحق في ذلك، فأجابت ببرود:

- أعتقد أن عبارة «هذا النذل» تشير إلى زوجي.

- أنتِ على حق، أنا...

- والآن سأطلب منك المغادرة.

تطلع كولين إليها كما لو أنها قد أطلقت الأبواق فجأة، ثم قال:

- أستميحكِ عذرًا؟

- أنا لا أهتم بمناقشة زواجي معك، لذلك، إذا كُنتَ عاجزًا عن الامتناع عن تقديم آرائك التي لم أطلبها، فعليك أن تغادر الآن.

فأجاب كولين في تكذيبٍ وذهول:

- لا يمكنكِ أن تطلبي مني الرحيل.

عقدت دافني ذراعيها فوق صدرها وقالت:

- هذا منزلي.

حدَّق كولين إليها، ثم تطلع إلى الغرفة حوله -غرفة الاستقبال لدوقة هاستنجز-، ثم عاد متطلعًا إلى دافني، كما لو أنه قد أدرك للتو أن شقيقته الصغرى التي كان دائمًا ما يراها على أنها النصف البهيج اللطيف الآخر له، قد صارت امرأة مكتملة مستقلة.

مدَّ يديه وأخذ بيديها قائلًا في هدوء:

- داف، سأدعكِ تتعاملين مع الأمر كما يناسبك.

- شكرًا لك.

ثم عاد يقول محذرًا:

- أما في الوقت الراهن، فلا تعتقدي أنني سأدع هذا الوضع يستمر لأجل غير مسمى.

لكن هذا لن يحدث، وكان هذا ما فكرت به دافني بعد ساعة ونصف من مغادرة كولين. لا يمكن للوضع أن يستمر لأجل غير مسمى؛ ففي غضون أسبوعين، ستعرف كل شيء.

كل صباحٍ كانت دافني تستيقظ لتجد أنفاسها منقبضة، فحتى قبل أن يحين موعد الحيض، كانت تعض على شفتيها، وتتلو صلاةً قصيرة، وبحذرٍ شديد، ترفع أغطية فراشها، وتبحث عن قطرات الدماء. وفي كل صباح، لم تكن ترى شيئًا سوى اللون الأبيض الثلجي الناصع للغطاء الكتاني.

وبعد مرور أسبوع على موعد الحيض، سمحت لنفسها بأن تعتريها أولى لمحات الأمل. الحقيقة هي أن موعد حيضها لم يكن منتظمًا بشكلٍ تام؛ ولذلك فكَّرت في أن الحيض قد يأتي في أي وقت. ومع ذلك، لم يتأخر الحيض إلى كل تلك المدة من قبل قط...

وبعد أسبوعٍ آخر، وجدت دافني نفسها تبتسم في كل صباح، محتفظةً بسرها كما يمكنها أن تحتفظ بكنز. فلم تكن دافني مستعدةً بعد لمشاركة تلك الأخبار مع أي أحد؛ ليس والدتها، أو أشقائها، وبالتأكيد ليس سايمون.

لم تشعر بأنها مذنبة حقًّا إذ احتفظت بهذه الأخبار سِرًّا عنه؛ ففي نهاية الأمر، كان هو من بدأ بمنع بذرته عنها. ولكن الأهم هو أنها كانت تخشى أن ينفجر برد فعلٍ سلبي، ولم تكن دافني مستعدةً بعد لأن تسمح لسخطه أن يحطم لحظة الفرحة المثالية الخاصة بها. ولكنها قررت أن تبعث بملاحظة إلى خادمه الخاص، تطلب منه أن يرسل إليها عنوان سايمون الجديد.

ولكن أخيرًا، وبعد مرور الأسبوع الثالث، تحسَّن مزاجها إلى أفضل ما يكون، فجلست إلى مكتبها تكتب إليه خِطابًا.

ولسوء الحظ، الذي أصاب دافني مؤخرًا، لم يكن شمع الختم قد جفَّ حتى على رسالتها عندما جاء شقيقها أنطوني –الذي كان من الواضح أنه قد عاد من إقامته المؤقتة في الريف– مقتحمًا الغرفة. وبما أن دافني كانت في الطابق العلوي تجلس في جناحها الخاص، الذي لم يكن من المفترض لها أن تستقبل فيه ضيوفًا، فلم ترغب في أن تفكر حتى في عدد الخدم الذين قضى عليهم أنطوني وهو في طريقه إلى الأعلى.

بدا عليه الغضب والحنق، وكانت تعلم أنه ربما من الأفضل لها ألا تستفزه وتشاكسه، لكنه دائمًا ما يمنحها مجالًا لبعضٍ من السخرية والتهكم، لذلك سألته:

- وكيف استطعتَ الوصول إلى هنا؟ أليس لديَّ رئيس خدم؟

فأجاب متذمرًا:

- كُنتِ تمتلكين رئيس خدم، أما الآن فلا.

- أين هو؟

- من الواضح أنه ليس هنا.

لم يكن هناك مغزى من التظاهر بأنها لا تعرف تمامًا عم يتحدث أنطوني.

- سأقتله.

نهضت دافني، ولمعت عيناها في غضب:

- كلا، لن تفعل!

أما أنطوني، الذي كان واقفًا وكلتا يديه على خصره، فقد انحنى إلى الأمام، وطعنها بنظرةٍ ثاقبة، ثم قال:

- لقد حذَّرت هاستنجز قبل أن يتزوج منكِ، هل تعلمين ذلك؟

هزَّت دافني رأسها نفيًا.

- لقد ذَكَّرته بأنني كنت على استعدادٍ لقتله جزاءً على تشويهه لسمعتك. ولترحمه السماء من قبضتي إن حاول تحطيم روحكِ.

- لكنه لم يحطم روحي، أنطوني.

وبينما كانت تتكلم، ضلت يدها طريقها، حتى استقرت أسفل بطنها، ثم تابعت:

- في الحقيقة، هو من جعل روحي تشرق.

لكن إن وجد أنطوني الغرابة في كلماتها، فهي لن تعلم بذلك أبدًا، لأن عينيه قد انحرفتا حتى استقرتا على طاولة كتابتها، ثم ضاقتا في ارتياب، وسأل:

- ما هذا؟

تبعت دافني مسار رؤيته إلى كومة الأوراق الصغيرة، التي شَكَّلَت محاولاتها البائسة في كتابة خطابٍ إلى سايمون، فأجابت:

- لا شيء.

ومدت يدها إلى الأمام لانتزاع الدليل.

- أنتِ تكتبين له خِطابًا، أليس كذلك؟

كان تعبير وجه أنطوني، الذي كان بالفعل اندفاعيًّا متجهمًا، قد بلغ ذروته، حتى صار كهدير الرعد، ثم تابع:

- أوه، حبًّا في الله، لا تحاولي الكذب بشأن هذا الخطاب؛ لقد رأيت اسمه أعلى الورقة.

كوَّرَت دافني الأوراق المُهدَرة في محاولاتها، وألقت بها جميعًا في السلة أسفل المكتب، ثم قالت:

- هذا ليس من شأنك.

ألقى أنطوني نظرةً إلى السلة كما لو أنه على وشك أن يجثو على ركبتيه أسفل المكتب، ويستعيد الملاحظات غير المكتملة. لكنه أخيرًا عاد، وألقى نظرةً إلى دافني قبل أن يقول:

- لن أدعه يفلت بفعلته.

- أنطوني، هذا ليس من شأنك.

لكن أنطوني لم يمنح حديثها ردًّا كريمًا، وتابع قائلًا:

- سأبحث عنه. سأبحث عنه، وسأقتلـ...

لكن دافني انفجرت أخيرًا، وقالت:

- يا إلهي، بحق الله! هذا زواجي أنا يا أنطوني، ليس زواجك. وإذا تدخلتَ في شؤوني، أقسم إنني لن أخاطبك أبدًا ما حييت.

كانت النظرة في عينيها ثاقبة لا تتزحزح، والنبرة في صوتها حادة عنيفة، وبدا أنطوني وكأنه قد تأثر قليلًا بكلماتها، فغمغم قائلًا:

- حسنًا، لن أقتله.

- شكرًا لك.

أجابت دافني بنبرةٍ ساخرة، فأردف أنطوني متعهدًا:

- لكنني سأبحث عنه، وسأُعلِمُه برفضي الواضح لما يفعله.

ألقت دافني نظرةً واحدةً إلى وجهه، وقد علمت جيدًا أنه يعني تمامًا ما قاله.

- حسنًا.

قالت دافني، ومدت يدها تسحب الخطاب الكامل الذي كانت قد خَبَّأته بعيدًا في الدرج، ثم تابعت:

- وسأدعك تُوصِلُ إليه هذا الخِطاب.

- حسنًا.

أجابها أنطوني، ومد يده لاستلام الخطاب. لكن دافني قد أبعدته قليلًا عن مجال حركته، وأضافت:

- ولكن هذا سيحدث إن أعطيتني وعدك في أمرين.

- وما هما؟

- أولًا: يجب أن تعدني أنك لن تقرأ هذا الخطاب.

شعر أنطوني بإهانة قاتلة من حقيقة أنها اعتقدت حتى إنه سيفعل شيئًا كهذا.

- لا تحاول حتى أن تُظهِرَ لي وجه الرجل النبيل.

ثم نخرت دافني قبل أن تتابع:

- أنا أعرفك جيدًا، أنطوني بريدجرتون، وأعلم أنك ستقرؤه على الفور إن اعتقدت أنك ستفلت بالأمر.

حملق إليها أنطوني بذهول، لكنها أضافت:

- لكنني أعلم أيضًا أنك لن تحنث بوعدٍ صريحٍ صادق تعدني به؛ لذلك سأحتاج منك إلى أن تعدني، أنطوني.

- هذا أمرٌ غير ضروري، داف.

- عِدني!

قالت دافني بلهجةٍ آمرة، فأجابها أنطوني متذمرًا:

- أجل، حسنًا، أعدكِ بذلك.

- جيد.

قالت دافني، وسلَّمت إليه الخطاب، فنظر إليه باشتياق.

- ثانيًا...

قالت دافني بصوتٍ مرتفع، جاذبةً انتباهه، حتى يترك الخطاب ويعود إلى بقية شروطها، ثم تابعت:

- يجب أن تعدني ألا تؤذيه.

فانفجر أنطوني مجيبًا:

- أوه، والآن، انتظري قليلًا، دافني. أنتِ تطلبين الكثير.

فمدت دافني يدها وقالت:

- وأنا سأستعيد هذا الخطاب.

جذبه أنطوني خلف ظهره، وأجاب:

- لقد أعطيتني إياه بالفعل.

فضحكت بخبث، وقالت:

- لكنني لم أمنحك عنوانه.

فأجاب على الفور:

- يمكنني أن أحصل على عنوانه.

فاندفعت دافني قائلةً:

- كلا، لن تستطيع، وأنت تعرف ذلك. إنه يمتلك عددًا لا يُحصى من الممتلكات والعقارات، وسيستغرق الأمر منك أسابيعَ قبل أن تعلم أيًّا منها يزور.

- أها!

قال أنطوني بنبرة انتصار، ثم تابع:

- إذن فهو يزور أحد ممتلكاته. عزيزتي، لقد زلَّ لسانكِ بدليلٍ مهم.

- هذه لعبةٌ إذن؟

قالت دافني في دهشة.

- أخبريني فقط أين هو.

- ليس قبل أن تعدني. لا عنف، أنطوني.

وعقدت ذراعيها على صدرها وتابعت:

- وأنا أعني ذلك.

فغمغم مجيبًا:

- حسنًا.

- انطق بها.

- أنتِ امرأةٌ صعبة المراس، دافني بريدجرتون.

- دافني باسيت. وأجل، لقد حظيتُ بمعلمين جيدين.

فقال أنطوني مجيبًا:

- أعدكِ.

بالكاد نطق بالكلمة، فلم تكن كلماته واضحة تمامًا.

- أحتاج إلى ما هو أكثر من كلمة.

قالت دافني، وفكَّت ذراعيها المنعقدتين، ثم التفَّت يدها اليمنى بحركة دائرية، كما لو أنها تنتزع الكلمات من بين شفتيه، وتابعت:

- أعد بأنني لن...

- أعد بأنني لن أؤذي زوجك الأحمق اللعين. حسنًا، هل هذا كافٍ؟

- بالتأكيد.

قالت دافني بلطف. ومدت يدها إلى الدرج، وسحبت الخطاب الذي كانت قد تلقته في وقتٍ باكر هذا الأسبوع من خادم سايمون الشخصي، ومنحته العنوان.

أخذه أنطوني متعمدًا بإشارة فظة –وغليظة– من يده، وألقى نظرةً إلى أسفل، فاحصًا السطور القليلة، ثم قال:

- سأعود بعد أربعة أيام.

- هل ستغادر اليوم؟

سألت دافني في دهشة.

- لا أعلم كم من الوقت سيكون بإمكاني التحكم في انفعالاتي العنيفة.

أجاب أنطوني متشدقًا.

- إذن، على أي حال، اذهب اليوم.

وقد فعل.

- امنحني سببًا واحدًا جيدًا لماذا عليَّ ألا أقتلع رئتيكَ وأسحبهما من فمك.

رفع سايمون عينيه إلى أعلى من مكتبه، ليرى أنطوني بريدجرتون المُغَبَّر بوعثاء السفر يستشيط غضبًا أمام باب مكتبه.

فتمتم مجيبًا:

- سعيدٌ برؤيتك أيضًا، أنطوني.

ولج أنطوني في الغرفة بحضورٍ جليل، يشبه حضور عاصفةٍ رعدية، وقد وضع يديه على مكتب سايمون، وانحنى إلى الأمام متوعدًا.

- هل تمانع أن تخبرني لماذا تمكث شقيقتي في لندن، تبكي كل ليلة حتى تنام من جهد البكاء، بينما أنت في...

قطع أنطوني حديثه، وتطلع إلى المكتب حوله، ثم صاح قائلًا:

- أين يقع هذا المكان اللعين؟

فأجاب سايمون:

- ويلتشاير.

- بينما أنت في ويلتشاير، تتسكع في ملكية تافهة ليس لها قيمة؟

- دافني في لندن؟

فصاح أنطوني متجهمًا:

- أعتقد أنك بصفتك زوجها تعرف ذلك.

فتمتم سايمون مجيبًا:

- ستعتقد أمورًا كثيرة، ولكن في أغلب الأوقات، ستكون مخطئًا.

لقد مر شهران كاملان منذ أن غادر سايمون كلايفيدون، شهران كاملان منذ أن تطلع إلى عيني دافني وكان عاجزًا عن النطق بأي كلمة، شهران كاملان من الفراغ التام.

في الحقيقة، وبكل صدق، كان سايمون مدهوشًا، فقد استغرقت دافني كل هذا الوقت حتى تحاول الوصول إليه، حتى لو كانت قد اختارت أن تفعل ذلك عن طريق شقيقها الأكبر العدواني. لم يكن سايمون واثقًا من السبب وراء ذلك، لكنه كان قد اعتقد أنها ستحاول الاتصال به في وقتٍ أقرب من هذا، حتى لو كان اتصالها به لتوبيخه فقط. لم تكن من هذا النوع الذي يثور غضبًا في صمت عندما تكون مُحبَطة، وقد كان شبه متوقعٍ أنها ستتعقبه، وتوضح له بِستِّ طُرُقٍ مختلفة كم هو أحمق.

والحقُّ يُقال؛ فبعد مرور شهر، راودته رغبةٌ غير أكيدة في أنها تفعل ذلك.

- كُنتُ لأفصِلَ رأسك اللعين هذا عن جسدك...

قال أنطوني بحماقة، قاطعًا على سايمون شروده في أفكاره بلهجة عنيفة، ثم تابع:

- لولا أنني قد وعدتُ دافني بألا أسبب لك أي أذى جسدي.

- أنا واثقٌ من أنه وعدٌ لم يكن من السهل عليك قطعه.

أجاب سايمون، فعقد أنطوني ذراعيه وحدَّق بنظرةٍ مُثقَلة إلى وجه سايمون، ثم قال:

- ولا من السهل الوفاء به.

تنحنح سايمون، بينما كان يحاول اكتشاف طريقةٍ ما للسؤال عن دافني دون أن يبدو سؤاله صريحًا واضحًا. لقد افتقدها، وشعر أنه رجلٌ أحمق، شعر أنه مُغَفَّل، لكنه يفتقدها؛ يفتقد ضحكتها، وعبيرها، والطريقة التي تتشابك بها أرجلهما دائمًا عندما تفعل ذلك أحيانًا عند منتصف الليل.

كان سايمون معتادًا على أن يكون وحيدًا بمفرده، لكنه لم يكن معتادًا على هذه الوحدة الموحشة.

- هل أرسلتك دافني لإعادتي؟

سأل سايمون أخيرًا، فأجاب أنطوني:

- كلا.

ومدَّ يده إلى داخل جيبه، وأخرج مظروفًا صغيرًا بلون العاج، ثم ألقاه على المكتب أمام سايمون، وتابع حديثه:

- لقد أدركتها وهي تستدعي رسولًا لإحضاره إليك.

حدَّق سايمون إلى المظروف برُعبٍ متزايد؛ فقد كان خطابها هذا يعني شيئًا واحدًا فقط. حاول سايمون أن يكون جوابه محايدًا، مثل: «أجل»، لكن ما لبث أن أطبق حلقه وانغلق.

فتابع أنطوني، بنبرةٍ ساخرة:

- وأخبرتها أنني سأسعد بحمل الخطاب إليك.

تجاهل سايمون نبرته التهكمية، ومدَّ يده لالتقاط المظروف، آملًا ألا يرى أنطوني رعشة أصابعه. إلا إنها كانت واضحةً تمامًا، حتى لاحظها أنطوني، فباغت سايمون بنبرةٍ فظَّة سائلًا:

- أخبرني؛ ما مشكلتك؟ تبدو في حالٍ مزرية.

انتزع سايمون الخطاب، وسحبه نحوه ليبدأ في قراءته. واستطاع أن يجيبه بنبرةٍ لطيفة ساخرة:

- دائمًا ما أسعد برؤيتك أيضًا.

حَدَّق أنطوني إليه مباشرة، وكانت المعركة الضارية بين الغضب والقلق قد بدت واضحةً تمامًا على وجهه. تنحنح أنطوني عدة مرات، قبل أن يسأل أخيرًا بنبرةٍ لطيفة تثير العجب والدهشة:

- هل أنت مريض؟

- كلا بالطبع.

فعاود أنطوني سؤاله، ولكن تلك المرة بوجهٍ شاحب:

- هل دافني مريضة؟

تقرقعت عظام رقبة سايمون في اللحظة التي رفع فيها رأسه بسرعة، مجيبًا:

- لا، لم تخبرني بذلك. لماذا؟ هل هي مريضة؟ هل هي...

- كلا، تبدو بخير.

امتلأت عينا أنطوني بالفضول، والرغبة في التقصي، فاستطاع أخيرًا أن يسأل:

- سايمون، ما الذي تفعله هنا؟ من الواضح أنك تحبها. وبطريقةٍ ما لا يمكنني استيعابها، يبدو أنها تحبك كثيرًا أيضًا.

أسند سايمون أصابعه على صدغيه، وحاول أن يتلافى الصداع الذي يسحق رأسه، وبدا أنه لم يعد يحيا دونه هذه الأيام. أغمض عينيه حاجبًا الألم عن رأسه، وبصوتٍ مُتعَب أجاب:

- هناك أمورٌ لا تعرفها أنت، أشياء لا يمكنك أن تفهمها أبدًا.

ظلَّ أنطوني صامتًا لدقيقة كاملة. وأخيرًا، وفي اللحظة التي فتح فيها سايمون عينيه، اندفع أنطوني مبتعدًا عن المكتب، وسار عائدًا نحو الباب، وقال بصوتٍ خافت:

- لن أسحبك من رقبتك حتى تعود إلى لندن. عليَّ أن أسحبك من رقبتك، لكني لن أفعل. دافني في حاجة إلى أن تعلم أنك قد عُدتَ من أجلها، وليس لأن شقيقها الأكبر قد صوَّب البندقية إلى ظهرك.

كان سايمون على وشك أن يشير إلى أنه قد تزوجها لهذا السبب تحديدًا، لكنه عضَّ على لسانه حتى يصمت؛ لأن هذه ليست هي الحقيقة، ليست

الحقيقة بأكملها على الأقل. وفي حياةٍ أخرى، لكان سايمون راكعًا على ركبته، يتوسل إليها طالبًا يدها.

وتابع أنطوني:

- عليك أن تعلم أيضًا أن الناس من حولها قد بدؤوا يثرثرون؛ فقد عادت دافني إلى لندن بمفردها، بعد أسبوعين فقط من زواجكما العاجل. بالطبع تحافظ دافني على إبداء انطباعٍ جيد عن الأمر، لكن هذا الأمر مؤلم مهما حدث. فبالطبع لم يأتِ أحدهم لإهانتها، ولكن هناك قدرًا معينًا من الشفقة حسنة النية، التي يمكن للمرء أن يتحملها، وتلك المرأة اللعينة ويسلداون قد كتبت الكثير عنها.

أجفل سايمون. لم يكن قد مرَّ الكثير منذ أن عاد إلى إنجلترا، ولكنها مدةٌ كافية حتى يعرف أن تلك الكريهة، ليدي ويسلداون، يمكنها أن تتسبب في قدرٍ هائل من الخراب والألم.

أطلق أنطوني العديد من اللعنات في استياء، ثم قال:

- أحضر الطبيب إلى هنا من أجلك، هاستنجز، ثم لملم شتاتك وعُد إلى زوجتك.

وبكلماته تلك، انطلق أنطوني مُسرِعًا عبر الباب.

حملق سايمون إلى الخطاب وهو في يديه لوقتٍ طويل قبل أن يفتحه، فقد كانت رؤية أنطوني صدمةً كافية، ومعرفة أنه كان لتوه برفقة دافني قد جعلت قلب سايمون يئن متوجعًا. يا إلهي، لم يتوقع قط أن يفتقدها على هذا النحو.

هذا بالطبع لا يعني أنه لم يعد غاضبًا منها؛ لقد أخذت شيئًا منه، شيئًا قد أوضح تمامًا رغبته في عدم منحه لأي أحد. لم يرغب أبدًا في الإنجاب، وقد أخبرها بذلك، وقد تزوجته وهي على علمٍ بذلك. وقد خدعته حتى تحصل على ما تريد.

أم... هل فعلت ذلك؟ فرك سايمون كلتا عينيه وجبهته بيديه بينما كان يحاول أن يتذكر التفاصيل الكاملة لذاك الصباح المشؤوم. كانت دافني بلا شك هي القائد في ممارستهما للحب تلك الليلة، لكنه يتذكر صوته بوضوحٍ تامٍ وهو يحثها على الاستمرار. ما كان عليه أن يشجع أمرًا يعلم جيدًا بعجزه عن إيقافه.

وفكر سايمون في أنه ربما لا تحمل دافني جنينه على أي حال. ألم يستغرق الأمر من والدته ما يزيد على عقدٍ كاملٍ من الزمن حتى يمكنها أن تنجب طفلًا واحدًا؟

ولكن عندما كان وحيدًا يرقد في فراشه ليلًا، كان قد أدرك الحقيقة؛ حقيقة أنه لم يفرّ من كلايفيدون لأن دافني قد عصت أوامره، أو لأن هناك احتمالًا أن ينجب طفلًا.

بل فرَّ لأنه صار عاجزًا عن تحمل الطريقة التي كان عليها برفقة دافني. لقد أعادته إلى طفولته؛ عندما كان طفلًا أحمق، يتلعثم، ويتعثر في حديثه. لقد حوَّلته إلى شخصٍ أبكم، وأعادت إليه هذا الإحساس الشنيع بالاختناق، والرعب من عجزه عن أن يعبر عما يشعر به.

لم يكن يدري بعد إن كان بإمكانه الحياة معها إذا كان هذا يعني العودة إلى الصبي الذي كان عليه عندما كان صغيرًا، الصبي الذي نادرًا ما يتحدث. حاول أن يُذَكِّرَ نفسه مرارًا وتكرارًا بتوددهما –فكَّر سايمون وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة.. حسنًا، تودداهما المُصطَنَع–، وأن يتذكر السلاسة التي سارت عليها صداقتهما، الشعور بالارتياح الذي طالما شعر به وهو برفقتها. لكن كل ذكرى صنعاها معًا تلوثت بما آلت إليه.. إلى غرفة نوم دافني في هذا الصباح المشؤوم، ولسانه يتعثر في الحديث، وحلقه يختنق منغلقًا عن صوت كلماته.

وقد كره ذاته، وما آلت إليه نفسه في تلك اللحظة.

لذلك فرَّ إلى ملكية أخرى من ممتلكاته في الريف؛ فبصفته دوقًا، كان يمتلك الكثير من تلك الممتلكات. وكان قد فكَّر آنذاك في أن هذا المنزل تحديدًا في ويلتشاير لم يكن بعيد المسافة عن كلايفيدون. فيمكنه العودة في غضون يومٍ ونصف إن حث الفرس على الإسراع. ولم يبدُ الأمر وكأنه قد هرب للأبد إن كانَ بإمكانه العودة بسهولة.

والآن يبدو وكأنه سيضطر إلى العودة.

أخذ سايمون نفسًا عميقًا، والتقط فاتح الرسائل، ثم شق المظروف. سحب سايمون من داخله ورقة وحيدة، وتطلع إليها قارئًا.

سايمون،

إن جهودي -كما تحب أن تُطلِقَ عليها- قد نجحت في مسعاها. وقد انتقلتُ إلى لندن؛ حتى يمكنني أن أكون بالقرب من عائلتي. وسأنتظر توجيهاتك هناك.

المخلصة لك،

دافني.

لم يدرك سايمون كم من الوقت قد مكث على حالته على كرسيه خلف المكتب، عاجزًا عن التنفس، وتلك الورقة الوحيدة الصغيرة بلون القشدة مُعَلَّقة بين أصابعه. وأخيرًا، بعد مرور بعض الوقت، غمرت وجهه نسمة رقيقة من الهواء، أو ربما تغيَّر الضوء حوله، أو ربما قرقع شيءٌ ما في المنزل؛ المهم أن شيئًا ما قد جذبه خارج حلم يقظته، وقفز واقفًا على قدميه، يخطو خطواتٍ سريعةً إلى البهو، يصيح مناديًا على رئيس خدمه.

وإذ ظهر رئيس الخدم، صرخ قائلًا:

- أعِدّ العربة والأحصنة؛ أنا ذاهبٌ إلى لندن.

الفصل العشرون

2 من أغسطس 1813 **جريدة المجتمع**

بيد أن زواج الموسم قد ساء وضعه تمامًا؛ فقد عادت دوقة هاستنجز (الآنسة بريدجرتون سابقًا) إلى لندن منذ نحو شهرين، ولم ترَ كاتبة هذا المقال أي أثرٍ لزوجها الجديد - الدوق-.

انتشرت الشائعات بأنه لا يقيم في كلايفيدون، القلعة التي قضى فيها الزوجان السعيدان شهر عسلهما. وفي الحقيقة، لم تتمكن كاتبة هذا المقال من إيجاد من يزعم أنه يعلم بمحل إقامته الآن. (وإن كانت صاحبة الجلالة تعلم، فهي لن تُبلِغَ أحدًا. بالإضافة إلى أن المرء نادرًا ما يمتلك فرصةً للسؤال، فقد تجنبت صحبة الجميع، عدا عائلتها الكبيرة الممتدة).

وبالتأكيد، يتحتم على كاتبة هذا المقال في الحقيقة أن تستبصر، وتتأمل في مصدر تلك الفجوات. لكنه يجب على كاتبة هذا المقال أن تعترف أنها أيضًا متحيرة؛ لقد بدا الزوجان غارقين في الحب...

ليدي ويسلداون

استغرقت الرحلة يومين، وقد كانا أطول يومين يمكن أن يرغب سايمون في قضائهما بمفرده مع أفكاره. كان قد أحضر معه القليل من الكتب؛ آملًا في أن يُلهي نفسه، ويصرف انتباهه في أثناء تلك الرحلة البغيضة. ولكن في كل مرة يتمكن فيها من فتح أي كتاب، يظل راقدًا بين يديه دون قراءة.

كان من الصعب عليه أن يصرف دافني عن تفكيره، بل كان الأمر الأكثر صعوبة هو أن يصرف ذهنه عن التفكير في احتمالية أُبوَّته المرتقبة.

بمجرد أن وصل إلى لندن، أصدر الأوامر لسائقه أن يأخذه مباشرة إلى منزل بريدجرتون. كان مُنهَكًا من السفر، وربما كان بإمكانه أن يُبَدِّلَ ملابسه، لكنه لم يفعل أي شيء طوال اليومين الماضيين سوى استعراض المواجهات المرتقبة بينه وبين دافني. وبدا من الحماقة أن يؤجل الأمر أكثر مما اضطر إليه.

بمجرد أن دخل إلى منزل بريدجرتون، اتضح له أن دافني ليست هناك.

- ماذا تقصد بأن الدوقة ليست هنا؟

سأل سايمون بنبرةٍ فظة، دون أن يأبه خصوصًا لأن رئيس الخدم لم يفعل شيئًا حتى يستحق حنقه وسخطه.

صمت رئيس الخدم إزاء نبرته الفظة، لكنه زمَّ بشفتيه مُجيبًا:

- أقصد يا صاحب الجلالة أنها لا تقيم هنا.

ولكن الكلمات قد نُطِقَت بروية، ولُطفٍ استثنائي.

- لقد تلقيتُ خطابًا من زوجتي...

ودفع سايمون يده إلى جيبه، ولكن –اللعنة– لم تخرج يده بالورقة، فتابع متذمرًا:

- حسنًا، لقد تلقيتُ خطابًا منها في مكانٍ ما، ويوضح تمامًا أنها قد انتقلت إلى لندن.

- وهذا ما حدث يا صاحب الجلالة.

- إذن فأين هي؟

خرجت تلك الكلمات بصوتٍ يخلو من أي تعبير؛ سواء كان تعبيرًا عن الغضب، أو الهدوء.

اكتفى رئيس الخدم بأن رفع حاجبيه اندهاشًا، ثم أجاب:

- في منزل هاستنجز، يا صاحب الجلالة.

أطبق سايمون شفتيه في صمت، فقد كان الأمر أكثر إذلالًا له من أن يتفوق عليه رئيس خدم.

قطع رئيس الخدم حبل أفكاره، وتابع:

- ففي نهاية الأمر إنها متزوجةٌ منك أنت، أليس كذلك؟

حملق سايمون إلى وجه رئيس الخدم، وأجاب:

- لا بد وأنك متمكنٌ تمامًا في وظيفتك.

- تمامًا.

أومأ سايمون نحوه بإيماءة مقتضبة -نظرًا لأنه لم يستطع حمل نفسه على النطق بعبارةِ شكرٍ واحدة للرجل- وغادر المنزل، يغمره شعورٌ قوي بالحماقة. لا شك في أن دافني ستذهب إلى منزل هاستنجز، ففي نهاية الأمر لم تتركه دافني، بل أرادت فقط أن تكون بالقرب من عائلتها.

إن كان بإمكانه أن يركل نفسه، ويلومها طوال الطريق الذي قطعه للوصول إلى العربة، لكان فعل ذلك. ولكن بمجرد أن ركب العربة، بدأ في لوم نفسه نفسيًّا وجسديًّا؛ فلم يكن يفصل منزله عن منزل بريدجرتون سوى جروسفينور سكوير. كان بإمكانه أن يسير عبر الرقعة الخضراء الذابلة في نصف المدة التي قضاها في العربة.

غير إنه في تلك الحالة قد أثبت الوقت عدم جوهريته؛ لأن سايمون ما إن فتح الباب المؤدي إلى منزل هاستنجز، وخطا إلى البهو، حتى اكتشف أن زوجته ليست بالمنزل.

- خرجت في جولةٍ بالخيل.

قال جيفريز بعدما سأله سايمون عن زوجته.

فحدَّق سايمون إلى رئيس خدمه في ذهول وتشكيك، وردد كلماته:

- جولةٍ بالخيل؟

فأجاب جيفريز:

- أجل، يا صاحب الجلالة. خرجت في جولة.. على الخيل.

وحينها فقط تساءل سايمون بينه وبين نفسه عن العقوبة التي يمكن أن يتلقاها إن قتل رئيس خدمه خنقًا. لكنه عاد من شروده، وسأل باقتضاب:

- أين ذهبت؟

- هايد بارك حسب ما أعتقد.

كانت الدماء في رأس سايمون قد بدأت في الاشتعال، وتسارعت أنفاسه حتى بدا وكأن رئتيه تعانيان من نقص الهواء. جولة بالخيل؟ هل هي مخبولة؟

يا إلهي، إنها حُبلى! حتى إن سايمون نفسه كان يعلم أن المرأة الحامل لا يُفتَرَض بها أن تمتطي فرسًا.

- أَعِدّ الفرس من أجلي. الآن!

أمر سايمون رئيس خدمه.

- ترغب في أي فرس بالتحديد؟

- أسرع فرسٍ لديك، وافعل ذلك الآن. أو من الأفضل سأفعله أنا.

كان جواب سايمون سريعًا مثل السرعة التي التفت بها على عقبيه مُغادِرًا المنزل.

ولكنه إذ قطع نصف الطريق إلى الإسطبل، كان هلعه قد تسرَّب من دمائه المشتعلة إلى عضلات جسده، التي استجابت على الفور؛ وتحولت خطوات سايمون الواسعة إلى الركض.

لم يكن الأمر شبيهًا بامتطاء الخيل منفرجة الساقين، لكنها على الأقل كانت تعدو مسرعة. هكذا فكَّرت دافني. ففي الريف إذ ترعرعت دافني، كانت دائمًا ما تستعير سراويل كولين، وتنضم إلى إخوتها في جولتهم التي ينطلقون فيها بأسرع ما يمكن. كانت والدتها عادةً ما تعاني من نوبة من الإغماء في كل مرة ترى ابنتها الكُبرى تعود مغطاةً بالوحل، وتتباهى مرارًا بندبة جديدة مروِّعة تمتلكها، لكن دافني لم تهتم. لم تكن دافني تهتم من قبل إلى أين يتجولون بالخيل، أو ما الذي يهربون منه، الأمر كله كان يتعلق بانطلاقهم، وسرعة عدوهم.

أما في المدينة، فلا شك في أنها عاجزةٌ عن ارتداء السراويل؛ ولذلك نقلت دافني الساقين إلى السرج الجانبي. ولكن لو أنها قد اصطحبت فرسها في وقتٍ أبكر من ذاك، في الوقت الذي لا يزال فيه الوسط الرفيع نائمين في فُرُشِهم، لو أنها قد نأت بنفسها لأماكن بعيدة عن هايد بارك، ربما كان بإمكانها أن تنحني فوق السرج، وتحث فرسها على العدو. تخللت الريح خصلات شعرها، حتى تفككت عقدته، ودغدغت عينيها الدموع. على الأقل حملتها الرحلة على النسيان.

وإذ كانت تعلو مهرها المُفَضَّل قاطعةً الحقول برُمَّتِها، خالجها شعورٌ بالحرية. وليس هناك دواءٌ للقلوب المُحَطَّمة أفضل من الحرية.

كان قد مضى وقتٌ طويل منذ أن تخلَّت عن السائس الذي كان يلحقها، وتظاهرت بأنها لم تسمعه إذ كان يصيح مناديًا:

- انتظري! يا صاحبة الجلالة! انتظري!

حسنًا ستعتذر إليه فيما بعد. كان الساسة في منزل بريدجرتون قد اعتادوا على عبثها، وعلى دراية تامة بمهاراتها في ركوب الخيل. أما هذا الرجل الجديد -أحد خدم زوجها- فربما سيقلق مما تفعله.

شعرت دافني بوخزة من الشعور بالذنب، لكنها مجرد وخزة، ولم تزد على ذلك. كانت في حاجة إلى أن تنفرد بنفسها، وكانت في حاجة إلى العدو حتى تتكسر على جانبيها ذرات الهواء.

أبطأت من سرعتها عندما وصلت إلى منطقة مُشَجَّرةٍ وعرة، وأخذت نفسًا عميقًا من هواء الخريف البارد، ثم أغلقت عينيها لبرهة، وسمحت لأصوات الحديقة وعطرها الفوَّاح أن يملآ حواسها، ويتخللا شعورها. وتذكرت رجلًا ضريرًا كانت قد قابلته ذات مرة، والذي أخبرها أن بقية حواسه قد ازدادت حدتها منذ أن فقد بصره. وعندما جلست هناك في تلك البقعة المُشَجَّرة، واستنشقت العطور التي تنشرها الغابة، فكَّرت في أنه ربما يكون على حق.

حاولت استراق السمع قليلًا؛ استطاعت أن تتعرف أولًا على زقزقة العصافير الحادة، ثم الوقع الهادئ لأقدام السناجب العادية، بينما كانت تدخر البندق من أجل الشتاء. ثم...

عبس وجهها، وقطبت حاجبيها، ثم فتحت عينيها. ما هذا الهراء؟ لا شك في أن هذه جلبةٌ قد أحدثها راكب خيل آخر يقترب من هنا.

لم ترغب دافني في أية صُحبَة، بل رغبت في أن تنفرد بنفسها، وبرفقتها الأفكار والألم. وكانت واثقةً تمامًا من أنها لا ترغب في أن توضح لأي فرد من الوسط الرفيع لماذا كانت تتجول بمفردها في الحديقة. استرقت السمع مجددًا، وحددت موقع راكب الخيل القادم، وانطلقت في الاتجاه المعاكس.

حافظت دافني على سرعة فرسها منتظمة، تفكر في أنها إن خرجت عن مسار الراكب الآخر، فسيمر بجانبها دون توقف. ولكن أيما طريق اتخذته، بدا أنه يتبعها. لذلك زادت من سرعتها، سرعة تفوق ما ينبغي لها العدو بها في تلك المنطقة المشجرة. هناك الكثير من الأغصان المنخفضة، وجذور الأشجار

الناتئة. لكن دافني الآن قد بدأت في الشعور بالخوف، وترددت نبضات قلبها عالية في أذنيها، إذ يصدع طنين آلاف الأسئلة التي تتصارع في رأسها.

ماذا لو لم يكن راكب هذا الفرس فردًا من الوسط الرفيع مثلما توقعت في أول الأمر؟ ماذا لو كان مُجرِمًا؟ أو مَخمورًا؟ لقد كان الوقت مبكرًا؛ ولم يكن هناك أحدٌ في الجوار، وإذا صرخت دافني، فمَن سيسمعها؟ هل كانت المسافة بينها وبين السائس قصيرة؟ هل ظل واقفًا في الموضع الذي تركته فيه؟ أم إنه حاول أن يتبعها؟ وإن كان قد تبعها، هل اتخذ الاتجاه الصحيح حتى؟

السائس! كادت أن تبكي في ارتياح. لا بد وأنه السائس. دارت بمُهرها قليلًا لترى إن كان بإمكانها أن تلمح هذا الراكب. لقد كان زي الخدم الخاص لعائلة هاستنجز هو الأحمر الصارخ، ولا شك في أنها ستتمكن من رؤيته إذا...

ارتطام!

شعرت دافني بقوةٍ تدفع الهواء خارج جسدها، إذ اصطدم غصنٌ بصدرها مباشرة. وندَّ عن شفتيها صوت نخير مختنق، وشعرت بمهرها يتحرك إلى الأمام دونها. وفجأةً كانت تسقط... تسقط...

حطت دافني على الأرض، وتبعها صوتُ ارتطام عظامها المتنافرة. وقد مهَّدَت لها أوراق الخريف البُنِّيَّة المتساقطة على الأرض فِراشًا خفيفًا، لامتصاص بعضٍ من آلامها. التف جسدها على الفور في وضع الجنين؛ كما لو أنها إن جعلت حجم جسدها يتقلص، سيتقلص مقدار ما تشعر به من ألم.

يا إلهي، إنها تتألم، وما يؤلمها هو سائر جسدها. عصرت عينيها، وأغلقتهما من الألم، وحاولت التركيز على تنفسها. كان رأسها يفيض بالسُباب، واللعنات التي لم تكن تجرؤ قط على النطق بها. لكن هذا مؤلم. اللعنة على كل شيء، إن محاولة التنفس حتى تؤلمها.

لكن عليها أن تفعل ذلك. تنفسي. تنفسي، دافني. تنفسي مرةً أخرى. يمكنكِ أن تفعلي ذلك. هكذا كانت تُملي الأوامر على رأسها حتى يستجيب الجسد.

- دافني!

لكن دافني لم تُجِب. كانت الأصوات الوحيدة التي تمكنت من إصدارها هي بعض التذمر والنشيج. حتى تلك التأوهات كانت عاجزةً عن الإتيان بها.

- دافني! يا إلهي! دافني!

سمعت أحدهم يقفز من فوق فرسه، ثم شعرت بحركة الأوراق المتناثرة حولها.

- دافني؟

- سايمون؟

همست دافني في دهشة. لم يبدُ الأمر منطقيًّا أن يكون هنا، لكن هذا صوته، إنه صوته. وعلى الرغم من أن عينيها ما زالتا مغلقتين، بدا كل شيء حولها ينطق باسمه. دائمًا ما يتغير عبير الهواء عندما يكون بالقرب.

لامستها يداه في حُنو، باحثةً عن أي عظام منكسرة.

- أخبريني عما يؤلمكِ.

شهقت دافني مُجيبةً:

- جميع جسدي يؤلمني.

أطلق العديد من اللعنات بصوتٍ خافت، لكن لمسته ما زالت لطيفة حانية، ولاذعة في الآن نفسه.

- افتحي عينيكِ. انظري إلي. تطلعي إلى وجهي.

هزَّت دافني رأسها نفيًا، وقالت:

- لا أستطيع.

- بل تستطيعين.

سمعته يخلع قفازيه، ثم شعرت بأصابعه الدافئة تُلاطِفُ صدغيها، تُذِيبُ الحِدَّة والتوتر اللذين تشعر بهما. وحرَّك أصابعه نحو حاجبيها، ثم أرنبة أنفها، وتمتم:

- ششش! استرخي. دعي الألم يزول. افتحي عينيكِ، دافني.

وبصعوبةٍ شديدة، فتحت دافني عينيها شيئًا فشيئًا. وامتلأ مجال نظرها بوجه سايمون، ولوهلةٍ نسيت تمامًا ما قد حدث بينهما؛ كل شيء عدا حقيقة أنها تحبه، وأنه قد حضر من أجلها، وأنه يجعل الألم يزول عنها.

قال مجددًا بصوتٍ خافتٍ وحاد:

- تطلعي إلي. تطلعي إليَّ ولا تدعي عينيكِ تبتعدان عن عيني.

استطاعت أن تمنحه إيماءة مقتضبة. وقد ركزت عينيها على عينيه، وسمحت لِحِدة نظرته أن تساعدها على لملمة شتاتها.

- والآن، أريد منك أن تسترخي.

كان صوته رقيقًا، لكنه كان آمرًا، وقد كان هذا بالضبط ما هي في حاجةٍ إليه. وبينما كان يتكلم، كانت يداه تبحثان عن كسورٍ في العظام، أو التواءات في المفاصل.

ولم تنفصل عيناه عن عينيها قط.

وظل سايمون يتحدث ويتحدث معها بنبراتٍ رقيقة خافتة، بينما كان يفحص جسدها بحثًا عن إصابات أخرى. وبيد أنها لم تُعانِ من شيءٍ أسوأ من بضع كدمات مؤلمة، ونقص الهواء في رئتيها، ولكن لا يمكن أن يكون المرء حذرًا للغاية، ومع وجود طفل...

جفت الدماء من وجهه على الفور؛ ففي نوبة هلعه، وخوفه على دافني، كان قد نسي تمامًا كل شيء يتعلق بحملها، حملها لطفله.

طفلهما.

وهنا نطق بحرص وروية:

- دافني، هل تعتقدين أنكِ على ما يُرام؟

أومأت دافني إيجابًا.

- هل ما زلتِ تشعرين بالألم؟

فأجابت بصراحة، بينما تبتلع ريقها بصعوبة:

- بعض الألم.

طرفت بعينيها عدة مرات قبل أن تضيف:

- لكنني أتحسن.

- هل أنت واثقة؟

فأومأت دافني مجددًا.

- جيد.

كان جواب سايمون هادئًا، وظل من بعده صامتًا لعدة دقائق، قبل أن يصيح بوضوح:

- *بحق الله ما الذي كُنتِ تعتقدين أنكِ تفعلينه؟*

فغرت دافني فاها فجأة، وبدأت جفونها تنفتح وتنغلق على نفسها عدة مرات في سرعة قصوى. وصدر عنها صوتُ اختناق، ربما قد تحول فيما بعد إلى كلمات حقيقية، لكن سايمون قاطعها بالمزيد من النخير، والتذمر، والشكوى.

- ما الذي كُنتِ تفعلينه هنا بمفردك دون السائس؟ ولماذا كُنتِ تركضين بالفرس هنا حيث لا يسمح الطريق بذلك كما ترين؟

أغمض عينيه في استياء، ثم قال:

- وبحق الله يا امرأة لماذا تمتطين فرسًا؟

- للتجول؟

أجابت دافني بوهن.

- ألا تهتمين حتى بطفلنا؟ ألم تفكري حتى ولو للحظة في سلامته؟

- سايمون...

كان صوت دافني خافتًا واهنًا للغاية.

- إن امرأة حُبلى لا ينبغي لها حتى أن تكون على بعد عشرة أقدام من الفرس! كان عليكِ أن تكوني أكثر وعيًا.

عندما تطلعت إليه بدت عيناها باليتين، وسألت بنبرةٍ فاترة:

- لماذا تهتم؟ أنت لم ترغب في وجود هذا الطفل.

- كلا، لم أرغب في وجوده، لكنه هنا الآن، ولا أريدكِ أن تقتليه.

عضت دافني على شفتيها وقالت:

- حسنًا، لا تقلق، إنه ليس هنا.

توقفت أنفاس سايمون، وسألها:

- ماذا تقصدين؟

تحرك بؤبؤ عينيها إلى زاوية وجهها، وقالت:

- أنا لستُ حاملًا.

- أنتِ...

عجز سايمون عن إتمام جملته؛ فقد راوده أغرب شعورٍ يمكن أن يكون قد شعر به من قبل وغمر جسده بقشعريرة. لم يعتقد أنه شعورٌ بالإحباط، لكنه لم يكن واثقًا تمامًا على أي حال.

ثم همس قائلًا:

- هل كذبتِ علي؟

هزت دافني رأسها نفيًا بعنف، بينما كانت تعتدل في جلستها لتواجهه، وبكت قائلة:

- كلا، كلا، أنا لم أكذب قط. لقد اعتقدتُ أنني حُبلى. لقد اعتقدتُ هذا حقًّا. لكن...

اختنق صوتها بنشيجها، وشهقاتها المتتالية، وعصرت عينيها، وأغلقتهما حتى تُوقِفَ هجمات الدموع الضارية. قربت ساقيها من جسدها، واحتضنتهما بذراعيها قبل أن تدفن وجهها بين ركبتيها.

لم يكن سايمون قد رآها على تلك الحالة من قبل قط؛ أن تكون مكروبةً بالحزن لهذه الدرجة. حدَّق بوجهه إليها، يغمره شعور مؤلمٌ بالعجز، وقلة الحيلة. كل ما كان يريده هو أن يجعلها تشعر بتحسن، أما يقينه بأنه هو السبب وراء ألمها، فلم يساعده في التغلب على شعوره بالعجز.

- لكن ماذا، داف؟

عندما رفعت عينيها، وتطلعت إليه أخيرًا، كانت عيناها منتفختين، يغمرهما الحزن، والعبرات.

- لا أدري. ربما كنتُ أرغب في طفلٍ بشدة، حتى إن دورة طمثي الشهرية قد تأثرت بذلك بطريقة ما. لقد كنتُ سعيدة للغاية الشهر الماضي.

أطلقت دافني أنفاسًا متهدجة، ثم تابعت:

- لقد انتظرتُ طويلًا، حتى إنني أعددتُ بطاناتي الشهرية، لكن شيئًا لم يحدث.

- لا شيء؟

لم يسمع سايمون بشيء كهذا من قبل.

وعلى الجانب الآخر، أجابت دافني بشفتين مرتعشتين، قبل أن تتحولا إلى ابتسامة سخرية من الذات:

- لا شيء. لم أكن سعيدة في حياتي قط من قبل مثلما كُنتُ سعيدة عندما لم يحدث شيء.

- هل شعرتِ بغثيان؟

هزت دافني رأسها نفيًا، وأجابت:

- لم أشعر بأي اختلاف، عدا أنني لم أحض. ولكن منذ يومين...

ربت سايمون بيديه على يديها، وقال:

- أنا آسف، دافني.

- كلا، أنت لَستَ آسفًا.

كان جوابُ دافني لاذعًا إذ تشيح بيديها بعيدًا عنه، ثم تابعت:

- لا تتظاهر بشيء لا تشعر به، ولا تكذب عليَّ مجددًا بحق الله. أنت لم ترغب في هذا الطفل قط.

وأطلقت ضحكة هشةً جوفاء، وأردفت:

- هذا الطفل؟ يا إلهي الرحيم! أنا أتحدث وكأنه كان موجودًا بالفعل، كما لو أنه كان أكثر من مجرد خيال في رأسي.

نَكَّسَت رأسها إلى أسفل، وعندما تحدثت مرةً أخرى بعد برهة، كان صوتها حزينًا ومؤلمًا:

- ونتاج أحلامي.

تحركت شفتا سايمون عدة مرات، قبل أن يتمكن أخيرًا من النطق بشيء:

- لا أحب أن أراكِ حزينة مُحبَطَة هكذا.

تطلعت إليه بمزيجٍ من الذهول والندم، ثم قالت:

- لا أفهم كيف يمكنك أن تتوقع شيئًا آخر.

- أنا... أنا... أنا...

ابتلع سايمون ريقه بصعوبة، مُحاولًا أن يساعد حلقه في الاسترخاء، وأخيرًا نطق الشيء الوحيد الذي شعر به يختلج في قلبه.

- أريد أن أستعيد حياتنا معًا.

لم تنطق دافني ببنت شفة، وفي صمته كان يتوسل إليها أن تقول شيئًا، لكنها لم تفعل. أما هو، فأطلق كل اللعنات بينه وبين نفسه لصمتها، لأن هذا يعني أن عليه أن يقول شيئًا آخر.

لذلك شَكَّل جُمَلَه في هدوء تدريجيًّا.

- عندما تجادلنا، فَقَدتُ السيطرة، ولم... ولم أستطع الحديث.

وأغلق عينيه في ألمٍ إذ شعر بحلقه يختنق، وفكيه يتخشبان. وأخيرًا، وبعد أنفاسٍ طويلة متهدجةٍ، تابع قائلًا:

- وكَرِهتُ نفسي لذلك.

مالت دافني برأسها قليلًا إذ قطب حاجباها، وعبس وجهها، ثم أجابت:

- ألهذا رحلت؟

فأومأ إليها بإيماءة مقتضبة، فقالت:

- لم يكن بسبب.. ما فعلته أنا؟

التقت أعينهما، فقال:

- لم أحب ما فَعَلتِه.

فكررت دافني سؤالها بإلحاح:

- ولكن لم يكن هذا سبب رحيلك؟

خيَّم بعض الصمتُ المُرتقب، قبل أن يجيب سايمون أخيرًا:

- لم يكن هذا سبب رحيلي.

ألصقت دافني ركبتيها بصدرها، تفكر في كلماته. طوال كل هذا الوقت، اعتقدت أنه قد تخلى عنها لأنه قد كَرِهَها، وكره ما فعلته، لكن الحقيقة أن الشيء الوحيد الذي كرهه هو نفسه، لقد كره نفسه.

أجابت دافني في رقة:

- تعلم جيدًا أن قدرك عندي لا يقل عندما تتلعثم.

- لكن قدري عند نفسي يقل.

أومأت دافني في هدوء. بالتأكيد هذا ما سيشعر به؛ لقد كان رجلًا قويًّا يعتز بنفسه، وجميع أفراد الوسط الرفيع بأكمله كانوا يتطلعون إليه. كان

الرجال يتوددون إليه، والنساء يغازلنه بجنون. في حين أنه كان خائفًا يرتعد في كل مرة يفتح فيها فمه للحديث.

حسنًا، ربما ليس كل مرة. كان هذا ما جال بخاطر دافني عندما حملقت إلى وجهه. عندما كانا معًا من قبل، كان حديثه حُرًّا، وكلماته طليقة، يجيبها على الفور، حتى اعتقدت أنه ربما كان يركز في كل كلمةٍ تُقَال.

ربتت دافني بيديها على يديه، وقالت:

- أنت لست الصبي الذي اعتقد والدك أنك عليه.

- أعلم ذلك.

اتفق جوابه مع جوابها، لكن عينيه لم تلتقِيا عينيها.

- سايمون، تطلع إلي.

قالت بنبرةٍ لطيفة آمرة. وعندما تطلع إلى عينيها، كررت كلماتها على مسامعه مجددًا:

- أنت لَستَ الصبي الذي اعتقد والدك أنك عليه.

- أعلم ذلك.

كرر جوابه، لكن هذه المرة بدا مترددًا، وربما منزعجًا بعض الشيء.

- هل أنت واثق من ذلك؟

- اللعنة، دافني، أعلم...

تفتت كلماته إلى صمتٍ مُطبِق عندما بدأ جسده في الاهتزاز. وشعرت للحظة بالرعب، إذ اعتقدت أنه على وشك البكاء. لكن الدموع التي تجمعت في عينيه لم تنهمر قط، وعندما تطلع إليها. كان جسده يرتجف، وكل ما قاله هو:

- أنا أكرهه، دافني. أنا أ... أ... أ...

مدت يديها لتلامس وجنتيه، وحركت وجهه نحوها، حتى أجبرت أعينهما أن تلتقيا في نظرة ثابتة. وقالت:

- لا بأس. يبدو وكأنه كان رجلًا بغيضًا. ولكن يجب أن تدع الأمر وتنساه.

- لا يمكنني.

- بل يمكنك. لا بأس إن شعرت بالغضب نحوه، ولكن لا يمكنك أن تدع ذلك الغضب ليكون العامل المسيطر على حياتك. حتى الآن، أنت ما زلت تدعه يتحكم في اختياراتك.

أشاح سايمون بوجهه عنها.

وسقطت يدا دافني عن وجنتيه، لكنهما استقرتا على رُكبَتيه. كانت في حاجة إلى هذا التواصل معه. وبطريقة ما كانت أكثر غرابة مما عهدته من قبل، خشيت أنها إن توقفت الآن، فربما تفقده للأبد؛ لذلك تابعت:

- هل توقفت لحظةً عن الغضب وتساءلت إذا ما كُنتَ أنت ترغب في بناء عائلةٍ أم لا؟ إذا ما كُنتَ ترغب في طفل من صلبك؟ ستكون أبًا رائعًا، سايمون. ومع ذلك لن تدع لنفسك حتى المجال في التفكير في الأمر. أنت تعتقد أنك تثأر لنفسك، لكن الحقيقة هي أنك تدعه يتحكم بك بعد موته.

فهمس سايمون مجيبًا:

- إن منحته طفلًا، فسينتصر.

- كلا، إن منحت نفسك طفلًا، فستنتصر أنت.

ابتلعت دافني ريقها في رجفة وتشنج، قبل أن تضيف:

- فسننتصر جميعًا؛ أنت، وأنا.

لم ينطق سايمون بشيء، ولكن كان بإمكانها أن ترى جسده يرتجف.

- إن كُنتَ لا ترغب في الإنجاب لأنك أنت لا ترغب في ذلك، فهذا أمرٌ آخر، أما إن كُنتَ تحرم نفسك من فرحة الأُبوة بسبب رجلٍ ميت، إذن هذا يعني أنك جبان.

أجفلت دافني إذ عَبَرَت الإساءة شفتيها، لكن كان عليها أن تقول ذلك في وقتٍ ما.

- في مرحلةٍ ما عليك أن تلقي به خلف ظهرك، وتعيش حياتك أنت. سيتعين عليك في وقتٍ ما أن تنسى الغضب، و...

هزَّ سايمون رأسه، وبدت عيناه تائهتين لا رجاء فيهما، وقال:

- لا تطلبي مني أن أفعل ذلك. هذا الغضب هو كل ما أملكه. ألا تفهمين أن هذا الغضب هو كل ما أملكه في هذه الحياة؟

- أنا لا أفهم.

ارتفعت حِدَّة صوته، وأجاب:

- تعتقدين لماذا تعلمتُ الكلام بشكل جيد؟ ماذا برأيك كان الدافع لي طوال حياتي؟ لقد كان الغضب، دائمًا هو الغضب، دائمًا الرغبة في أن أُثبِتَ خطأه.

- سايمون...

اندفع وابلٌ من الضحكات التهكمية من حلقه، ثم تابع:

- ألا يبدو هذا مُدهِشًا؟ لقد كرهته، لقد كرهته للغاية. ومع ذلك كان دائمًا السبب الوحيد وراء قدرتي على النجاح.

هزت دافني رأسها، وأجابت بحماس:

- هذا ليس صحيحًا. كُنتَ لتنجح مهما كان الأمر. أنت رجلٌ قويٌّ وذكي، وأنا أعرفك جيدًا. لقد تعلمت أن تتكلم من أجلك أنت، ليس من أجله هو.

وعندما لم ينطق سايمون بشيء، أضافت بصوتٍ حانٍ:

- لو كان هذا الرجل قد منحك المحبة، لكان نجاحك أسهل بكثير.

بدأ سايمون يهز رأسه نفيًا، لكنها قاطعته، إذ أخذت بيديه وربتت عليهما بشدة، ثم همست:

- لقد عَرَفتُ الحب والمحبة. لم أعرف في حياتي سوى الحب، والعطاء دون شروط، طوال حياتي. ثِق بي؛ الحب هو ما يجعل كل شيء أسهل من أن تواجهه بمفردك.

جلس سايمون ثابتًا لعدة دقائق، وكان الصوت الوحيد الذي له صدى في المكان هو الأزيز الخافت لأنفاسه، إذ كان يجاهد للسيطرة على مشاعره. وأخيرًا، في اللحظة التي بدأت تشعر فيها دافني أنها قد فقدته، تطلع إليها بعينين منكسرتين، وهمس قائلًا:

- أريد أن أعرف السعادة.

- ستعرفها، وستكون سعيدًا.

أحاطته دافني بذراعيها وهي تُقسِمُ بوعدٍ أخيرًا:

- ستكون سعيدًا.

الفصل الحادي والعشرون

6 من أغسطس 1813 **جريدة المجتمع**

لقد عاد دوق هاستنجز!

ليدي ويسلداون

بينما كانا يسيران عائدين إلى المنزل، لم ينطق سايمون ببنت شفة. أما مُهر دافني، فقد وُجِدَ يأكل بشهية مفتوحة في رقعة من الحشائش، تقع على بُعد عشرين ياردة من المكان الذي سقطت فيه دافني. ومع أن دافني قد أصرَّت أنها في صحة جيدة لامتطاء الخيل بمفردها عند العودة إلى المنزل، إلا إن سايمون بدوره قد أصرَّ تمامًا على أنه لا يأبه لما تعتقده هي. وبعدما ربط لجام المهر في حصانه الخاص، دفع سايمون دافني للركوب على السرج، ثم قفز خلفها، واتجه عائدًا إلى جروسفينور سكوير.

الأهم هو أنه كان في حاجة إلى عناقها.

كان قد أوشك على إدراك حقيقة أنه في حاجة إلى التمسك بشيء ما في تلك الحياة، وربما كانت دافني على حق –ربما لم يكن الغضب هو الحل–. ربما – فقط ربما – كان بإمكانه أن يتعلم التمسك بالحب بدلًا عن الغضب.

عندما وصلا إلى منزل هاستنجز، أسرع أحد الساسة نحوهما للاعتناء بالأحصنة، ولذلك ترجل سايمون ودافني بقدمين مُثقَلَتين الدرجات الأمامية للمنزل، ودخلا البهو.

ووجدا نفسيهما مُحاطَين بنظراتٍ ثاقبة تخرج من ثلاثة أزواج من العيون، بيد أنها لم تكن سوى أعين الأشقاء بريدجرتون الثلاثة.

- ما الذي تفعلونه في منزلي؟

تساءل سايمون. وكل ما كان يرغب في فعله حقًّا هو أن يهرول صاعدًا السلم مع زوجته إلى غرفة نومهما، ليفعلا ما يفعله الأزواج بعد غيابٍ طويل. ولكن بدلًا من ذلك، استقبله الثلاثي العدواني الماثل أمامه هذا. كانوا ثلاثتهم يقفون في أوضاع متماثلة؛ الساقان منفرجتان، واليدان على الخصر، والرأس مرفوع في شموخ. حسنًا، لو لم يكن سايمون غاضبًا، ومنزعجًا بهذا الجمع، فربما كان قد غمرته بعض الفطنة ليشعر بالانزعاج قليلًا من وجودهم الآن.

لم تساور سايمون أي شكوكٍ في قدرته على مواجهة واحدٍ منهم –ربما ينطبق هذا الأمر على اثنين أيضًا– ولكن مواجهة الثلاثة جميعًا، فهذا يعني أن أمره قد انتهى.

- لقد سمعنا بعودتك.

قال أنطوني. فأجاب سايمون:

- هذا صحيح. الآن، غادروا.

فقال بيندكت بينما يعقد ذراعيه على صدره:

- ليس بهذه السرعة.

التفت سايمون نحو دافني، وقال:

- أي منهم يمكنني أن أطلق النار عليه أولًا.

فألقت دافني بنظرةٍ عابسة إلى أشقائها، وقالت:

- لا، ليس لدي أي تفضيلات.

وهنا نطق كولين أخيرًا:

- لدينا بعض التساؤلات، والمتطلبات، قبل أن نسمح بالإبقاء على دافني زوجةً لك.

صاحت دافني مجيبةً:

- ماذا؟

وهنا علا صوت سايمون مثل زئيرٍ صاخب، قد نجح تمامًا في محو معالم تساؤل دافني الغاضب:

- إنها زوجتي أنا بالفعل!

تذمر أنطوني قائلًا:

- لقد كانت شقيقتنا أولًا، وقد تسببتَ أنت الآن في شقائها.

- هذا ليس من شأنكم.

أكدت دافني بإلحاح، فأجابها بيندكت:

- أنتِ شأننا.

لكن سايمون اندفع مُقاطعًا بيندكت:

- بل شأني أنا، ولذلك اخرجوا الآن من منزلي.

- عندما تتزوجون أنتم الثلاثة، عندئذٍ يمكنكم أن تبادروا إلى تقديم النصائح إلي. ولكن في الوقت الحالي، احتفظوا بمبادراتكم للتدخل في شؤوني لأنفسكم.

كان صوت دافني غاضبًا وثائرًا، إلا إن جواب أنطوني كان النقيض لها:

- أنا آسفٌ، دافني، ولكننا لن نتزحزح عما عزمنا عليه.

- ما الذي عزمتم عليه؟ لا يحق لكم أن تقرروا أمرًا هنا بطريقة أو بأخرى. هذا ليس من شأنكم!

تقدم كولين خطوةً إلى الأمام، وقال:

- لن نغادر حتى نقتنع بأنه يحبك.

نفرت الدماء من وجه دافني. لم يكن سايمون قد أخبرها من قبل أنه يحبها، لكنه قد أبدى لها ما يُكِنُّه نحوها من حب بآلاف الطرق المختلفة، لكنه لم ينطق بالكلمات قط. وعندما يحين الوقت للنطق بتلك الكلمات، لم تكن تريدها مدفوعة بما يفعله أشقاؤها المختالون، بل أرادت أن تتحسسها في أنفاسه دون قيود، أرادت أن تنبض الكلمات من قلب سايمون.

- لا تفعل هذا، كولين، بل عليك أن تدعني أخوض معاركي الخاصة بمفردي.

خرجت الكلمات بصوتٍ هامس من بين شفتيها، وقد كرهت تلك النبرة البائسة المتوسلة في صوتها.

- داف، ...

- أرجوك.

توسلت دافني مرة أخرى.

أما سايمون، فقد تحرك بين الأشقاء الثلاثة، ثم وجَّه حديثه إلى الثلاثي المنتشر في القاعة:

- والآن، إذا سمحتم لنا.

وصحب دافني إلى الجانب الآخر من البهو، حيث يمكنهما الحديث في خصوصية. كان يفضل لو أمكنه أن يغادر برفقتها إلى غرفة أخرى، لكنه لم يكن واثقًا أن أشقاءها الأغبياء لن يتبعوه إلى هناك.

بدأت دافني الحديث بصوتٍ هامس، وقد خرجت كلماتها في اندفاع محتدم:

- أنا آسفة عما بدر من أشقائي. إنهم حمقى، يتعاملون بفظاظة، وليس لهم الحق في أن يقتحموا منزلك. إن كان بإمكاني أن أتبرأ منهم، سأفعل؛ فبعد ما بدر منهم اليوم، لن أندهش تمامًا إن لم تكن راغبًا قط في الإنجاب...

أسكتها سايمون بإصبعه التي لامست شفتيها، ثم قال:

- أولًا، هذا منزلنا، وليس منزلي وحدي. أما بالنسبة إلى أشقائك.. حسنًا، إنهم يزعجونني أشد الإزعاج، لكنهم يتصرفون هكذا بدافع الحب.

انحنى سايمون إلى الأسفل مجرد سنتيمترات عدة، لكنها سمحت له بالاقتراب منها، حتى تشعر بأنفاسه تلامس وجهها، ثم تمتم:

- ومن يمكنه أن يلومهم على ذلك؟

توقفت نبضات قلبها للحظة. كان سايمون خلالها قد اقترب منها أكثر فأكثر، حتى استند أنفه إلى أنفها، والتصق وجهاهما، ثم همس:

- أنا أحبك، داف.

كانت نبضات قلبها قد عادت من جديد بحماسٍ أشد:

- حَقًّا؟

أومأ سايمون حتى احتك أنفه بأنفها، وقال:

- لم أتمالك نفسي.

انفرجت شفتاها في ابتسامة مقتضبة، وقالت:

- هذا رومانسيٌّ للغاية.

فأجاب سايمون وقد رفع كتفيه في استسلام:

- إنها الحقيقة. وأنتِ تعلمين أكثر من أي شخص أنني لم أرغب في أيٍّ من ذلك؛ لم أرغب في زوجة، ولم أرغب في إنشاء عائلة، وبلا شك لم أرغب في الوقوع في الحب.

حكَّ سايمون شفتيه بشفتيها في رقة، حتى سرت قشعريرة في سائر جسديهما، ثم تابع:

- لكن ما اكتشفته... والذي أثار خوفي... أنه كان من المستحيل ألا أحبك.

ذابت دافني بين ذراعيه بينما تجيب:

- أوه، سايمون، يا إلهي!

ثم تنفست الصعداء.

التقط شفتيها بين شفتيه، وحاول أن يعبر لها بُقبلته ما يزال يتعلم التعبير عنه بالكلمات. لقد أحبها، لقد عشقها، وسيسير خلال النيران من أجلها. إنه...

... ما زال يحظى بجمهوره الصغير من الإخوة بريدجرتون الثلاثة.

وشيئًا فشيئًا، استدار سايمون بوجهه نحوهم. كان كلٌّ من أنطوني، وبيندكت، وكولين لا يزالون واقفين في البهو. كان أنطوني يتطلع إلى السقف، أما بيندكت؛ فقد كان يتظاهر بفحص أظفاره، أما كولين؛ فقد كان يقف محدقًا إلى الزوجين باسيت دون خجل.

أحكم سايمون قبضته حول دافني، حتى وهو يلقي بنظرةٍ حادة إلى البهو، قبل أن يقول:

- ما الذي ما زلتم تفعلونه أنتم الثلاثة هنا في منزلي؟

ودون شكٍّ أو دهشة، لم يكن لدى أيٍّ منهم جوابٌ حاضر.

- اخرجوا من هنا.

صاح سايمون متذمرًا، فتبعته دافني قائلة:

- من فضلكم.

لكنَّ نبرتها لم تكن توحي تمامًا بأي تهذيب.

- أجل.

قال أنطوني وقد صفع كولين على مؤخرة رأسه ليتحرك، ثم تابع:

- أعتقد أن عملنا هنا قد انتهى، أيها الأولاد.

أما سايمون؛ فقد بدأ في جذب دافني نحو درجات السلم، بينما يقول من فوق كتفيه:

- أنا واثقٌ من أنكم تعرفون طريق الخروج بأنفسكم.

أومأ أنطوني، ولكز شقيقيه دافعًا إياهما نحو الباب.

- جيد.

أجاب سايمون باقتضاب، ثم تابع:

- أما نحن، فسنصعد إلى الطابق العلوي.

- سايمون!

صاحت دافني في حدة، فجاء جواب سايمون هَمسًا في أذنيها:

- ليس الأمر وكأنهم لا يعرفون ما الذي سنفعله.

- مهما يكن. إنهم أشقائي! الذكور!

فغمغم سايمون:

- فليرحمنا الله.

ولكن قبل أن يتمكن سايمون ودافني حتى من الوصول إلى بسطة الدرج، انفتح الباب الأمامي باندفاع، متبوعًا -بلا شك- بوابلٍ من السُباب، والهجاء الأنثوي.

- أمي؟

قالت دافني، وقد اختنقت الكلمة في حلقها حتى خرجت كنعيق الغربان.

لكن فيوليت كانت قد كرَّست جهود بحثها عن أولادها الثلاثة، فلم ترَ سواهم.

- كنتُ أعلم أنني سأجدكم هنا، أيها الأغبياء العنيدون...

لم تسمع دافني بقية حديث والدتها، فقد كان سايمون غارقًا في الضحك في أذنيها.

لكنها سمعت ما قاله بيندكت مُحتَجًّا عن اتهامات والدته:

- لقد جعلها تعيسة! وبصفتنا أشقاءها، فمن واجبنا...

- أن تحترموا ذكاءها بما يكفي، وتسمحوا لها أن تحل مشكلاتها الخاصة بنفسها. ولا أرى أنها غير سعيدةٍ الآن.

- هذا لأن...

- وإذا كُنتَ تقول إنها تبدو سعيدة لأنكم أيها العصابة قد اقتحمتم منزلها مثل قطيعٍ من الخرفان البلهاء، فأنا أتبرأ منكم أنتم الثلاثة.

قالت فيوليت باندفاع، وتابعت بصوتٍ تغمره الحيوية والحِدَّة:

- والآن، أعتقد أنه قد حان الوقت لرحيلنا، أليس كذلك؟

وعندما وجدت أولادها الثلاثة لا يتحركون بسرعة لمرافقتها، مدت يدها و...

- أرجوكِ، أمي! ليس...

صاح كولين ينوح، لكن والدته كانت قد جذبته نحوها من أذنه.

- أذني!

أنهى كولين جملته بكآبة.

أما دافني، فقد جذبت ذراع سايمون، الذي كان ميتًا من الضحك الآن، فقد خشيت أن تتعثر قدمه في درجات السلم.

كانت فيوليت قد حشدت أولادها الثلاثة خارج المنزل مثل قطيعٍ من الغنم بصوتٍ مرتفع:

- تحركوا!

ثم التَفَّت نحو سايمون ودافني على السُلم، وقالت بابتسامةٍ واسعةٍ بَرَّاقة:

- سعيدةٌ برؤيتك في لندن، هاستنجز. أسبوعٌ آخر، وكنتُ سآتي لأسحبك إلى هنا بنفسي.

ثم خطت إلى الخارج، وأغلقت الباب وراءها.

التفت سايمون نحو دافني، وكان جسده ما زال يهتز من الضحكات عندما سألها مبتسمًا:

- هل كانت هذه والدتكِ؟

- إنها تمتلكُ جوانب خفية.

- واضحٌ تمامًا.

ثم تحوَّل وجه دافني إلى قسماتٍ جادة، وقالت:

- أعتذر إن كان أشقائي قد أجبروك...

فقاطعها مجيبًا:

- هُرَاء! لا يمكن لأشقائكِ قط أن يجبروني على النطق بشيء لا أشعر به.

مال سايمون برأسه قليلًا، وفكَّر في كلامه للحظة، ثم تابع:

- حسنًا، ليس دون بندقية.

إلا إن دافني لكزت كتفيه. لكنه تجاهلها وقد جذب جسدها إلى جسده، وتمتم:

- لقد كنت أعني كل ما قلته.

أحاط خصرها بذراعيه، وتابع:

- أنا أحبك، وكنت أُدرِكُ تلك الحقيقة لبعض الوقت. ولكن...

- لا بأس، ليس عليك أن توضح شيئًا.

أنهت دافني كلماتها وقد أسندت خدها إلى صدره.

- بل عليَّ أن أوضح. أنا...

لكن الكلمات لم تخرج من بين شفتيه. كان قلبه يختلج بالكثير من المشاعر، الكثير من الأحاسيس التي تعصف بداخله. لكنه نطق أخيرًا بصوتٍ رقيق:

- دعيني أُرِكِ. دعيني أُرِكِ كم أحبكِ.

مالت دافني برأسها إلى الخلف لتتلقى قُبلَتَه. وإذ التقت شفتاهما، تنهدت دافني قائلةً:

- أنا أحبكَ أيضًا.

فقال سايمون بحماس، بينما كانت شفتاه تتحركان إلى وجنتيها:

- إن جَرَحتُكِ مرة أخرى، إن آذيتكِ مجددًا، فأريد منك أن تقتليني.

فأجابت دافني بابتسامة رقيقة:

- أبدًا.

فتمتم:

- إذن فلَكِ الحقُّ أن تسببي لي عاهة. اكسري ذراعي، اجزعي كاحلي.

فقالت دافني بينما تلامس ذقنه وتدير وجهه ليقابل وجهها:

- لا تكن سخيفًا، أنت لن تجرحني.

كان حبه لتلك المرأة قد ملأ كيانه، وغمر قلبه، حتى خدرت أطرافه، وتباطأت أنفاسه قبل أن تتوقف.

- أحيانًا أشعر أنني أحبكِ لدرجة تخيفني. إن كان بإمكاني أن أمنحكِ العالم بأكمله بين راحتي يديك، تعلمين أنني سأفعل دون تردد، أليس كذلك؟

فهمست دافني:

- كل ما أريده من العالم هو أنت. أنا لَستُ بحاجة إلى العالم بأكمله، حبك أنت يكفي.

صعد الزوجان السعيدان إلى غرفة سايمون.. كلا، بل غرفتهما؛ حتى يستعيدا الرباط الذي انقطع بينهما منذ شهرين.

بعد ساعاتٍ طويلة، بدأ جفنا دافني ينفتحان شيئًا فشيئًا. بسطت ذراعيها فوق رأسها عندما لاحظت أن جميع الستائر قد انسدلت حتى حجبت الضوء عن الغرفة. لا بد وأن سايمون هو من فعل ذلك. هكذا فكَّرت عندما كان جسدها يتمدد على الفراش في تثاؤب. إلا إن أشعة طفيفة من الضوء قد شقت طريقها عبر أطراف الستائر، حتى نعمت الغرفة بوهجٍ ناعم.

وقبل أن تتسلل مُغادرةً الفراش، طقطقت رقبتها، وأصلحت التواءات جسدها من أثر النوم، ثم سارت نحو غرفة الملابس لتُحضر ثوبها. لم يكن من عادتها قط أن تنام في منتصف النهار، ولكن اليوم لم يكن يومًا عاديًّا، هكذا أقنعت نفسها بتصرفها الجديد.

جذبت ثوبها، وربطت الحزام الحريري حول خصرها. أين ذهب سايمون يا ترى؟ لم تكن تتوقع أنه كان قد غادر الفراش قبلها بوقتٍ طويل؛ فقد داهمتها ذكرى ناعسة أنها كانت ترقد بين ذراعيه، وبطريقةٍ ما بدت تلك الذكرى قريبة.

كان الجناح الرئيسي يتكون من خمس غُرَف متصلة ببعضها؛ غرفتي نوم، تتبع كل واحدةٍ منهما غرفة ملابس خاصة بها على جانبها، وتتصل جميعها بغرفة جلوس كبيرة. كان الباب المؤدي إلى غرفة الجلوس مفتوحًا جزئيًّا،

وشعاع من الضوء الساطع ينبعث من بين التجاويف، مما يوحي بأن الستائر في الداخل كانت مرفوعة. تعمدت دافني أن تتحرك نحو باب غرفة الجلوس بخُطًى هادئة، وألقت نظرةً إلى ما بداخل الغرفة.

كان سايمون يقف بجوار النافذة محدقًا إلى المدينة الماثلة أمامه، وكان قد ارتدى رداء نومٍ من القرمزي الفاقع، لكن قدميه ما زالتا عاريتين. أما عيناه الزرقاوان الشاحبتان، فقد التزمتا بنظرةٍ تأملية مُشَتَّتة، يتخللها قدرٌ ضئيلٌ من الوحشة، والبؤس.

قطبت دافني حاجبيها في قلق، وعبرت الغرفة نحوه إذ تقول في هدوء:

- مساء الخير.

عندما كانت على بُعد قدمٍ واحدٍ منه.

التفت سايمون نحو صوتها، وقد ارتخت ملامح وجهه المُجهَدة المتيبسة عند رؤيتها. ثم تمتم في هدوء:

- مساء الخير لكِ أيضًا.

وجذبها لتستقر بين ذراعيه. وبطريقةٍ ما، انتهى بها الحال إذ تقف وقد أسندت ظهرها إلى صدره الواسع، تتطلع إلى جروسفينور سكوير، بينما يستند سايمون بذقنه على قمة رأسها.

استغرقت دافني عدة دقائق قبل أن تلملم شتاتها، وتستجمع شجاعتها حتى تسأله:

- هل تشعر بالندم؟

لم يكن بإمكانها أن تراه، لكنها شعرت بذقنه يحتك بفروة رأسها عندما هزَّ رأسه نفيًا.

ثم أجاب بلطف:

- لا شعور بالندم، بل مجرد... أفكار.

كان شيءٌ ما حيال صوته لم يكن مطمئنًا، ولذلك دارت دافني بين ذراعيه لتواجهه، ثم همست:

- سايمون، ما المشكلة؟

- لا شيء.

لكن عينيه لم تلتقيا عينيها.

قادته دافني إلى مقعد مزدوج، وجلست بينما تجذبه من ذراعه حتى جلس بجوارها، ثم همست:

- إن لم تكن مستعدًّا لأن تكون أبًا الآن، فلا بأس.

- الأمر ليس كذلك.

لكنها لم تصدقه. كان جوابه سريعًا للغاية، وقد كان هناك أثرٌ لكلمات مختنقة في صوته، مما جعلها تشعر بالضيق والقلق، فقالت:

- أنا لا أمانع الانتظار.

ثم أضافت في خجل:

- ولن أمانع إن اقتنصنا بعض الوقت لأنفسنا فقط.

لم ينطق سايمون بشيء، لكن عينيه حملتا الكثير من نظرات الألم. ثم أغلقهما بينما كان يحك جبينه وحاجبيه بيده، وعندئذٍ بدأت موجاتٌ من الذعر تغمر دافني، وقد استأنفت الحديث بلسانٍ عجول.

- لم أطلب الكثير حين رغبت في إنجاب طفلٍ على الفور. أنا فقط... أود لو نحظى بواحدٍ في أقرب وقت، هذا كل ما في الأمر. وأعتقد أنك أيضًا ربما ترغب في ذلك، إذا سمحت لنفسك بالتفكير في الأمر. لقد كنتُ حزينة ومنزعجة لأنني كرهتُ منك أن تحرمنا من إنشاء عائلة لنا كيدًا في والدك. إن الأمر ليس...

وضع سايمون إحدى يديه المُثقلتين على فخذها، وقال:

- دافني، توقفي، أرجوكِ.

كان صوته يحمل من الألم ما يكفي حتى يُخرِسَها على الفور، فعَضَّت دافني على شفتها السفلية، وسحقتها بين أسنانها في توتر. لقد كان دوره الآن للحديث، وقد كان من الواضح أن أمرًا كبيرًا وصعبًا عليه يعتصر قلبه. ولو كان سايمون قد استغرق اليوم بأكمله حتى يجد الكلمات المناسبة لإيضاح ما يرغب فيه، فإن دافني كانت ستنتظر، كان بإمكانها أن تنتظر الدهر بأكمله من أجل هذا الرجل.

وهنا بدأ سايمون حديثه في هدوء:

- لا يمكنني القول بأنني متحمسٌ لإنجاب طفل.

حينها لاحظت دافني أن أنفاسه متقطعة، فمسحت بيدها على ذراعه حتى يهدأ ويطمئن، فالتفت نحوها بعينين تتوسلان إليها أن تفهم ما يقصده. وابتلع ريقه بصعوبة قبل أن يستأنف:

- لقد قضيتُ وقتًا طويلًا للغاية عازمًا على عدم إنجاب طفل، كما تعلمين. وأنا لا... لا أعلم حتى كيف يمكنني أن أبدأ التفكير في الأمر.

منحته دافني ابتسامة طمأنينة. وعندما عادت تتذكر الموقف، اتضح لها أن تلك الطمأنينة كانت لكليهما، ثم همست:

- ستتعلم. وأنا أيضًا سأتعلم معك.

- هذا ليس ما في الأمر.

وهزَّ رأسه نفيًا. ثم أطلق تنهيدةً مُحَمَّلة بالخوف، والهلع، والضجر، ثم تابع:

- أنا لا.. أريد.. أن أعيش حياتي فـ... فقط من أجل أن أكيد والدي.

التفت نحوها، وقد كانت دافني في تلك اللحظة مشتتة بفعل المشاعر الهائلة التي تشتعل في قسمات وجهه. كان فكه السفلي يرتجف، وعضلات خديه تعمل في جنون. أما رقبته، فقد كانت تعاني توترًا جَمًّا، كما لو أن كل ذرةٍ من طاقته كانت مُكَرَّسةً لتوصيل تلك الرسالة.

أرادت دافني أن تعانقه، لتمنح الطمأنينة إلى الصبي الصغير بداخله. أرادت أن تمسح على حاجبيه لتهدِّئ من عبوسهما، وأرادت أن تعتصر يديه بين يديها، وتربط عليهما. أرادت أن تفعل آلاف الأشياء، لكن بدلًا من كل هذا، اكتفت بالصمت، بينما تمنحه نظرات تشجيع حتى يتابع حديثه.

- لقد كُنتِ على حق.

كانت الكلمات تتعثر بين شفتيه، لكنه تابع:

- طوال هذا الوقت، كُنتِ على حق. بشأن والدي. إ... إنني كنتُ أسمحُ له بالفوز علي.

فغمغمت دافي:

- يا إلهي، سايمون!

- لـ... لكن ماذا...

كان وجهه –وجهه الوسيم الرجولي، الذي دائمًا ما كان يحمل قسماتٍ صارمة، الذي كان دائمًا واقعًا تحت سيطرته، وتحكمه– كان وجهه مجعدًا في حالة صدمة وانهيار. تابع سايمون:

- ماذا إذا...؟ إذا أنجبنا طفلًا و... و... وصار مثلي؟

لوهلة لم تنطق دافني. كانت عيناها تفيضان بدموع لم تسقط من عينيها بعد، وكانت يدها تتحرك دون أن تشعر إلى فمها، لتغطي شفتيها اللتين انفرجتا في صدمة.

التفت سايمون مبتعدًا عنها، ولكن ليس قبل أن ترى الألم واضحًا في عينيه، ليس قبل أن تسمع أنفاسه المتلاحقة، أو تنهيدته المتهدجة، التي أطلقها أخيرًا في محاولةٍ للملمة شتات نفسه.

هنا قررت دافني أن تجيب، ولكن بحذر:

- إذا حظينا بطفلٍ يعاني من التلعثم، سأحبه كما هو، وسأساعده، و...

ابتلعت دافني ريقها بصعوبة وتشنج، وهي تدعو الله أن يكون ما تفعله الآن هو الصواب. ثم تابعت:

- وسأعود إليك من أجل النصيحة، لأن من الواضح أنك قد تعلمت كيف تتغلب عليها.

التفت سايمون نحوها على الفور في خفة، ورشاقة مُدهِشة، ثم قال:

- لا أريد لطفلي أن يعاني مثلما عانيتُ أنا.

عبرت ابتسامة مقتضبة على ثغر دافني دون حتى أن تدرك عبورها، كما لو أن جسدها قد أدرك قبل عقلها أنها تعلم تمامًا ما عليها أن تقوله.

- لكنه لن يعاني، لأن والده سيكون أنت.

لم تتغير تعبيرات وجه سايمون، لكن عينيه قد لمعتا بتفاؤل، وأملٍ جديد، وغريب عن نظرته المعهودة.

- هل سترفض طفلًا يعاني من التلعثم؟

كانت دافني هي من طرح السؤال تلك المرة. وجاء جواب سايمون نفيًا قويًا وقاطعًا، ومصحوبًا بمسحةٍ بسيطةٍ من الجحود.

ابتسمت له دافني في لطف، وقالت:

- إذن ليس لديَّ أي مخاوف على أطفالنا.

ظل سايمون ساكنًا في موضعه لبرهة أخرى، ثم جذبها بين ذراعيه في حركةٍ مفاجئة، دافنًا وجهه في انحناءة رقبتها، وقال بصوتٍ مختنق:

- أنا أحبكِ. أنا أحبكِ كثيرًا.

وفي تلك اللحظة، كانت دافني واثقةً تمامًا من أن كل شيء سيكون على ما يُرام في نهاية المطاف.

مضت عدة ساعاتٍ أخرى، وكان دافني وسايمون لا يزالان جالسين على المقعد المزدوج في غرفة المعيشة. لقد مضى وقت الظهيرة في هذا اليوم بينما كانا مُشَبَّكي الأيدي، وأحدهما يريح رأسه على كتف الآخر. لم تكن للكلمات أهمية في تلك اللحظات؛ فبالنسبة إليهما، كان كافيًا لكلٍّ منهما أن يكون بجوار الآخر. كانت الشمس لا تزال مشرقة، وزقزقة العصافير تصل إليهما في مهدهما المقدس، وكانا معًا رغم كل شيء.

كان هذا بالضبط كل ما كانا بحاجةٍ إليه.

لكن شيئًا ما كان يعبث في عقل دافني، ولم تتذكر ماهية هذا الشيء، حتى وقعت عيناها على عدة الكتابة على المكتب.

الخطابات التي أرسلها والد سايمون.

أغلقت دافني عينيها، وزفرت في ثقل بينما تحاول استحضار الشجاعة التي كانت على علم أنها ستحتاج إليها لتسليم تلك الخطابات إلى سايمون. كان دوق ميدلثورب قد أخبرها –عندما طلب منها استلام رزمة الخطابات– أنها ستعلم متى يكون الوقت المناسب لمنحها سايمون.

حررت دافني نفسها من ذراعي سايمون الثقيلتين، وأسرعت نحو جناح الدوقة.

خاطبها سايمون بصوتٍ ناعس؛ فكان قد غفا تحت وطأة شمس ما بعد الظهيرة الدافئة.

- إلى أين تذهبين؟

- عـ... عليَّ أن أجلب شيئًا.

لا بد وأنه قد شعر بمسحة التردد في صوتها؛ لأنه قد فتح عينيه، وحرك جسده نحوها لينظر إليها.

ثم قال في فضول:

- ما الذي ستجلبينه؟

تجنبت دافني الجواب عن سؤاله، فأسرعت بخُطًى واسعة إلى الغرفة المجاورة، وقالت بصوتٍ مرتفع:

- سأعود بعد لحظة.

كانت دافني قد احتفظت بالخطابات في حِزمَةٍ واحدة، ملفوفة بشريط من الحرير الأحمر والذهبي -الألوان المتوارثة لعائلة هاستنجز- في الدرج السفلي من مكتبها. في الحقيقة، كانت دافني قد نسيت تمامًا كل شيء عن تلك الخطابات طوال الأسابيع القليلة الأولى التي مرت بعد عودتها إلى لندن. وكانت تلك الخطابات ترقد دون أن يمسها أحد في غرفتها القديمة في منزل بريدجرتون. ولكنها تعثرت فيها في زيارةٍ إلى والدتها؛ فقد اقترحت فيوليت على ابنتها أن تصعد إلى غرفتها لتجمع بعض الأشياء القليلة من حاجياتها. وبينما كانت دافني تجمع زجاجات عطورها القديمة، وأغطية الوسادات التي كانت قد حاكتها عندما كانت في العاشرة، وجدت تلك الخطابات مجددًا.

كثيرةٌ هي تلك الأوقات التي تعرضت فيها لإغراءات شديدة حتى تفتح واحدًا منها، لو أنها تُمنَح الفرصة فقط لتفهم زوجها، وطِباعه، وماضيه فهمًا أفضل. والحق يُقال؛ إن كانت تلك المظاريف لم تُغلَق بالشمع، لربما كانت قد ألقت بوخزات ضميرها خلف ظهرها، وقرأتها.

التقطت كومة الخطابات، وسارت ببطء عائدةً إلى غرفة المعيشة. كان سايمون لا يزال جالسًا على الأريكة، لكنه كان مستيقظًا ومنتبهًا، ويتطلع إليها في فضول.

- هذه من أجلك.

قالت دافني بينما كانت تحمل كومة الخطابات وتسير إلى جانبه.

- ما هذا؟

ولكن من نبرة صوته، كانت دافني شبه متأكدة أنه يعرف ماهية تلك الكومة بالفعل.

- خطاباتٌ من والدك؛ تلك التي أعطاني إياها ميدلثورب، هل تذكر؟

أومأ بإيجاب، وقال:

- وأتذكر أيضًا أنني أَمَرتُه بإحراقها.

ابتسمت دافني في ضعف، وقالت:

- من الواضح أنه اختلف معك في تلك النقطة.

حدَّق سايمون إلى تلك الكومة، وإلى كل مكانٍ آخر حوله عدا وجهها، ثم قال في صوتٍ هادئ:

- ومن الواضح أنكِ فعلتِ أيضًا.

أومأت دافني، وجلست بجانبه، ثم قالت:

- هل ترغب في قراءتها؟

فكَّر سايمون في جوابه لعدة دقائق، وأخيرًا استقر على الصراحة المطلقة.

- لا أدري.

- ربما تساعدك في أن تتخلى تمامًا عن غضبك من والدك، وتلقيه خلف ظهرك.

- أو ربما يزيد الطين بله.

- ربما.

حدَّق سايمون إلى الخطابات مجددًا؛ تلك الخطابات المكومة معًا بشريط من الحرير، تستقر في براءة وهدوء على راحة يدها. كان يتوقع أن يشعر بالعداوة والحقد، كان يتوقع أن يشعر بالغضب، ولكن بدلًا من ذلك، كل ما شعر به هو...

لا شيء.

كان أغرب شعورٍ قد راوده في حياته؛ فقد كانت تستقر أمامه مجموعة من الخطابات، كُتِبَت جميعها بخط يد والده، ومع ذلك لم يشعر بأي رغبة في إلقائها في النار، أو تمزيقها إلى قصاصات متناثرة.

وفي الوقت نفسه لم يشعر برغبة في قراءتها.

- أعتقد أنني سأنتظر بعض الوقت.

قال سايمون وقد ندَّت عن ثغره ابتسامة دافئة.

طرفت دافني عدة مرات، كما لو أن عينيها لا تصدقان ما سمعته أذناها.

- أنت لا ترغب في قراءتها؟

فهزَّ سايمون رأسه نفيًا.

- ولا ترغب في إحراقها؟

رفع كتفيه في عدم اكتراث، وقال:

- ليس تمامًا.

تطلعت إلى الخطابات، ثم عادت محدقةً إلى وجهه، ثم قالت:

- ما الذي تريد أن تفعله بها؟

- لا شيء.

- لا شيء؟

ضحك سايمون أخيرًا، ثم أجاب:

- هذا ما قلته بالضبط.

- حسنًا.

بدا ارتباك دافني في تلك اللحظة جَذّابًا وممتعًا.

تابعت دافني:

- هل تريد مني أن أعيدها إلى مكتبي؟

- كما تحبين.

- وستبقى هناك دون مساس؟

أمسك سايمون طرفًا من حزام رداء نومها، وبدأ في سحبها نحوه، بينما يجيب بإيماءة:

- مممممم...

تلعثمت دافني في كلماتها إذ تقول:

- ولكن... لكن... لكن...

- إن أعَدتِ تكرار كلمة «لكن» مرة واحدة أيضًا فستبدين مثلي.

قال سايمون مشاكسًا إياها.

فغرت دافني فاها، لكن سايمون لم يكن دَهِشًا من ردة فعلها؛ فقد كانت المرة الأولى في حياته التي يكون قادرًا على السخرية من الصعوبات التي واجهته.

وفي اللحظة التي سقطت فيها كومة الخطابات عن ساقي دافني، قال سايمون:

- يمكن للخطابات أن تنتظر. لقد تمكنتُ أخيرًا –بفضلكِ أنتِ– أن أطرد والدي من حياتي.

هزَّ رأسه مبتسمًا، ثم تابع:

- أما قراءة تلك الخطابات الآن، فستعيده إلى حياتي مرة أخرى.

- لكن ألا ترغب في أن تقرأ ما تعيَّنَ عليه أن يقوله؟ ربما قَدَّم لكَ اعتذارًا، وربما خضع على قدميك لتغفر له!

وإذ أنهت دافني كلماتها، انحنت إلى الأرض لتلتقط الكومة. لكن سايمون جذبها نحوه بشدة حتى تعجز عن الوصول إلى الكومة.

- سايمون!

صاحت دافني بصوتٍ مرتفع، فأجاب سايمون رافعًا أحد حاجبيه في تمثيل:

- أجل؟

- ما الذي تفعله؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أحاول إغرائكِ. هل أنجح في ذلك؟

تبدلت ألوان وجهها، حتى طغى الوردي على وجنتيها خجلًا، ثم تمتمت:

- ربما.

- فقط ربما؟ يا إلهي! لا بد وأنني أفقد لمستي السحرية.

- أعتقد أن لمستك ما زالت بخير.

فتظاهر سايمون بالعبوس قائلًا:

- فقط بخير؟ «بخير» هي كلمة ضبابية، ألا تعتقدين ذلك؟ واسعة النطاق.

- حسنًا، ربما أخطأتُ في التعبير.

شعر سايمون بقلبه فَرِحًا. وفي اللحظة التي انتشرت فرحة قلبه إلى وجهه، ارتسمت ابتسامة سعيدة على شفتيه. وقد نهض واقفًا على قدميه، يجذب زوجته إلى الاتجاه الرئيسي لفراشه، ذي الأعمدة الأربعة.

ثم قال بصوتٍ حاول أن يكون جادًّا:

- دافني، لديَّ مقترح.

- مقترح؟

تساءلت دافني وقد رفعت أحد حاجبيها في دهشة.

- طلب.. لديَّ طلب.

مالت دافني برأسها، وابتسمت، ثم قالت:

- أي نوعٍ من الطلبات هذا؟

دفعها سايمون عبر فتحة الباب، ثم إلى غرفة النوم، وقال:

- في الحقيقة هو طلبٌ مكونٌ من شِقَّين.

- يبدو هذا فاتِنًا.

- الشق الأول يتضمن ثلاثة عناصر: أنتِ، وأنا، و...

التقطها سايمون، وألقى بها على الفراش، بين موجات من الضحكات المتتالية، ثم تابع:

- وهذا الفراش المتين، قديم الطراز.

- متين؟

تذمر سايمون من سؤالها بينما كان يزحف إلى جانبها، ثم قال:

- من الأفضل له أن يكون متينًا.

تعالت ضحكاتها وصياحها بينما كانت تتحرر من قبضته، ثم قالت:

- أعتقد أنه متين. إذن ما الشق الثاني؟

- أخشى أنه يتضمن التزامًا محددًا بوقتٍ محدد من جانبك.

ضاقت عينا دافني، لكنها ما زالت تبتسم. وعَلَّقت:

- أيّ نوعٍ من الالتزام بالوقت؟

وفي حركةٍ واحدة مُفاجِئة، ألصقها سايمون بالفراش، وقال:

- نحو تسعة أشهر.

تغضنت ابتسامتها في دهشة، ثم سألت:

- هل أنت واثق؟

فضحك مجيبًا:

- هذا يستغرق تسعة أشهر، أليس كذلك؟ هذا ما أُخبِرتُ به دائمًا.

لكن أثر الدعابة، والضحك، والعبث كان قد زال من عينيها بينما تقول في لطف:

- أنت تعلم أن هذا ليس ما قصدته.

فأجاب إذ التقت نظرتها الجادة نظرته الجادة أيضًا:

- أعلم ذلك. ولكن أجل، أنا واثق. أنا خائفٌ حتى الموت، وشغوفٌ به حتى النخاع. ومئاتٌ من المشاعر الأخرى، التي لم أسمح لنفسي أن أشعر بها قط قبل أن تقتحمي حياتي بوجودك.

احتشدت الدمعات في عيني دافني، قبل أن تقول:

- هذا أروع شيء قلته لي على الإطلاق.

- هذه هي الحقيقة. قبل أن ألتقي بكِ، كُنتُ فقط على قيد الحياة.

فهمست دافني:

- والآن؟

فردد سايمون كلماتها، وأجاب:

- والآن؟ صارت «الآن» فجأةً تعني السعادة، والفرح، وزوجةً أعشقها. ولكن أتعرفين؟

هزتّ دافني رأسها، فقد شُلَّت حركتها حتى عجزت عن الكلام.

انحنى سايمون وقَبَّلها، ثم تمتم:

- «الآن» لا تُقارَنُ حتى بما سيأتي في الغد، والغد لا يمكنه أن ينافس ما سيأتي في اليوم التالي. وبالقدر الذي أشعر معه بروعة اللحظة التي أحياها الآن، غدًا سيكون أفضل من هذه اللحظة. لو تعلمين، داف...

كان سايمون يحكُّ شفتيه بشفتيها، قبل أن يتابع:

- سأحبكِ كل يوم أكثر من حبي لكِ في اليوم الذي قبله. أعِدُكِ بذلك. كل يوم...

الخاتمة

15 من ديسمبر 1817	جريدة المجتمع

مولـودٌ ذكـر ينضـم إلى عائلـة دوق ودوقة هاسـتنجز!

بعدما رُزقا بثلاث فتيات، أنجب أفضل زوجين غارقين في الحب في المجتمع الوريث أخيرًا. ولا يسع كاتبة هذا المقال سوى أن تتخيل شعور الارتياح الذي خيَّم على منزل عائلة هاستنجز؛ ففي نهاية الأمر، من الحقائق المُسلَّم بها أن الرجل المتزوج الذي يمتلك ثروة جيدة، لا بد وأنه في حاجة إلى وريث.

لم يُصَرَّح علنًا باسم المولود الجديد بعد، وعلى الرغم من ذلك، تشعر كاتبة هذا المقال أنها تتمتع بالمؤهلات الفريدة، التي تمنحها حق التكهن؛ ففي نهاية الأمر، إن كانت أسماء الشقيقات هي: أميليا، وبليندا، وكارولين، فهل يمكن أن يُدعى إيرل كلايفيدون الجديد بأي اسم آخر سوى ديفيد؟

ليدي ويسلداون

ألقى سايمون ذراعيه في الهواء في دهشة، فحلَّقت الجريدة ذات الصفحة الواحدة في أنحاء الغرفة. وتساءل:

– كيف لها أن تعرف هذا؟ إننا لم نخبر أحدًا بقرارنا أن نُطلق عليه اسم ديفيد.

حاولت دافني ألا تبتسم بينما كانت تراقب زوجها ينثر نترات لُعَابه، ويسير في الغرفة هائجًا. ثم قالت:

– أنا واثقةٌ أن الحظ قد حالفها في التخمين، لا يتعدى الأمر ذلك.

وأدارت انتباهها نحو الوليد الجديد بين ذراعيها. كان الوقت لا يزال مُبكرًا حتى تتمكن من الجزم بأن عينيه ستظلان ذاتي لون أزرق شاحب كما هما أم، ستنقلبان إلى اللون البني مثل شقيقاته الكُبرَيات. لكنه يشبه والده تمامًا، ولم تستطع دافني أن تتخيل أن التشابه بينه وبين والده سيتأثر إن تحوَّل لون عينيه إلى لونٍ داكن.

- لا بد وأن لها جاسوسًا في منزلنا يعمل لحسابها.

قال سايمون وهو يضع يديه على خصره، ثم تابع:

- لا بد وأن هذا هو السر.

- أنا واثقةٌ أنها لم تزرع جاسوسًا في منزلنا.

قالت دافني دون أن تتطلع إليه؛ فقد كانت منشغلةً تمامًا بالطريقة التي تشبثت بها يد ديفيد الصغيرة بإصبع يدها.

- ولكن...

رفعت دافني رأسها متطلعة إليه، وقالت:

- سايمون، لقد أصبحتَ مثيرًا للسخرية، إنه مجرد عمودٍ للفضائح.

فأجاب متذمرًا:

- ويسلداون.. ها! لم أسمع بهذا الاسم من قبل في أي عائلة. أود أن أعرف من هي تلك المرأة الملعونة.

- أنت وكل فردٍ في لندن.

أجابت دافني بصوتٍ مهموس.

- يجب أن يوقفها أحدهم عن العمل نهائيًّا، وإلى الأبد.

عجزت دافني عن مقاومة الإشارة إلى الأمر، فقالت:

- إذا كُنتَ ترغب في إيقافها عن العمل، فعليك ألا تدعمها بشراء جريدتها.

- أنا...

- ولا تحاول حتى أن تقول إنك تشتري جريدة ويسلداون من أجلي.

فتمتم سايمون مجيبًا:

- أنتِ تقرئينها.

- وأنت أيضًا.

وطبعت دافني قُبلَةً على جبهة ديفيد، ثم تابعت:

- عادةً ما تقرؤها أيضًا، حتى قبل أن أتمكن من وضع يدي عليها. إلى جانب أنني مُغرَمة بليدي ويسلداون هذه الأيام.

بدا سايمون مرتابًا، فقال:

- لماذا؟

- هل قرأتَ ما كتبته عنَّا؟ لقد أطلقت علينا لقب أفضل زوجين غارقين في الحب في لندن.

وابتسمت دافني في مكرٍ قبل أن تضيف:

- وأنا أحب ذلك.

تذَمَّر سايمون قليلًا قبل أن يجيب:

- هذا فقط لأن فيليبا فيذرنجتون...

فقاطعته دافني لتذكيره:

- إنها الآن فيليبا بيربرووك.

- حسنًا، أيًّا كان اسمها، لا يهم، المهم أنها تمتلك أكبر فَمٍ ثرثارٍ في لندن، ومنذ أن سمعتني أخاطبكِ بقولي «يا مُنية القلب» في المسرح الشهر الماضي، لم أعد قادرًا على الظهور في أنديتي المُفَضَّلة.

- أصار إذن من غير العصري أن يحب المرء زوجته؟

قالت دافني لمشاكسته.

فأبدى سايمون وجهًا متذمرًا لا يخلو من عدم الرضا، وبدا مثل صبيٍّ مُستاءٍ ساخط.

فأكملت دافني:

- لا تهتم للأمر، فلا أرغب في سماع إجابتك.

كانت ابتسامة سايمون مثل تقاطعٍ مُحَبَّب يتأرجح بين الخجل والسخف، فقالت دافني بينما كانت تحمل ديفيد:

- والآن، أترغب في حمله؟

- بالتأكيد.

عبر سايمون الغرفة، وأخذ الرضيع بين ذراعيه، ثم احتضنه لعدة ثوانٍ قبل أن يلقي نظرة إلى دافني ويضحك مُقهقهًا، ويقول:

- أعتقد أنه يشبهني.

- أعلم أنه يشبهك.

طبع سايمون قُبلَةً على أنفه، وهمس في أذنيه قائلًا:

- لا تقلق أبدًا يا صغيري؛ سيدوم حبي لكَ دائمًا، وسأعلمك الحروف، والأرقام، وسأعلمك كيف تمتطي الخيل، وسأحميكَ من كل الأشرار في هذا العالم، خاصةً تلك المرأة ويسلداون...

وفي غرفةٍ صغيرةٍ يزينها أثاثٌ أنيق، لا تبعد كثيرًا عن منزل عائلة هاستنجز، جلست سيدةٌ شابة أمام مكتبها، برفقة الريشة القلمية، والمحبرة، ثم سحبت قُصَاصةً من الورق.

وبابتسامةٍ قد ارتسمت على وجهها، وضعت ريشتها القلمية على قُصَاصةِ الورق، وكتبت:

19 من ديسمبر 1817 **جريدة المجتمع**

أيها القارئ العزيز، إنه لمن دواعي سرور كاتبة هذا المقال أن تنقل إليك خبرًا بأن...

ليدي ويسلداون

عزيزي القارئ..

هل تساءلتَ من قبل عما حدث لشخصياتك المفضلة بعدما أغلقت الصفحة الأخيرة؟ هل رغبتَ في قراءة ولو حتى قدرٍ بسيطٍ من إحدى رواياتك المفضلة؟ لقد رغبتُ أنا نفسي في ذلك، وإذا كانت الأسئلة التي يطرحها عليَّ القُرَّاء ذات دلالة على أي شيء، فهذا يعني أنني لَستُ الوحيدة التي ترغب في ذلك. لذلك، بعد طلباتٍ لا حصر لها من مُعجَبِي سلسلة بريدجرتون، قَرَّرتُ تجربة شيءٍ جديدٍ ومختلف، ولذلك كَتَبتُ «الخاتمة الثانية» لكل واحدةٍ من روايات السلسلة، وكانت تلك هي الحكايات التي أتت بعدما انتهت حكاياتنا الأولى.

في بادئ الأمر، كانت الخاتمة الثانية في روايات سلسلة بريدجرتون قد توفَّرت حصريًا عبر الإنترنت، وتم نشرها لاحقًا (إلى جانب رواية قصيرة حول فيوليت بريدجرتون) في مجموعةٍ أُطلِقَ عليها اسم: «عائلة بريدجرتون: سعادةٌ أبدية». أما الآن، ولأول مرة، أُدرِجَت كل الفصول المُعَنوَنَة باسم «الخاتمة الثانية» في الرواية التي تتعلق بها. وأتمنى لك أن تستمتع برفقة دافني وسايمون وهما يُكمِلَان رحلتهما في الحياة.

المخلصة لكم،

Julia Q.

الدوق وأنا
الخاتمة الثانية

لم تكن الرياضيات قط موضوعًا مفضلًا للحديث بالنسبة إلى دافني باسيت، لكنها بالتأكيد تستطيع العد حتى الثلاثين. وبما أن الثلاثين كان العدد الأقصى من الأيام التي تنقضي بين دورة حيضها والتي تليها، كانت حقيقة أنها تتطلع الآن إلى تقويمها المكتبي وقد وصلت بالعد إلى ثلاثة وأربعين سببًا لبعض القلق الذي اعتراها.

- لا يمكن أن يكون هذا ممكنًا.

وجَّهت دافني حديثها إلى التقويم، كما لو أنها تتوقع رده. واتكأت قليلًا قبل أن تجلس على الكرسي في حركةٍ بطيئة، بينما كانت تحاول أن تسترجع أحداث الأسابيع الستة الماضية. ربما كان عَدُّها للأرقام خاطئًا. كانت دافني قد واتتها دورة الحيض عندما كانت في زيارةٍ لوالدتها، وقد كان هذا الأمر في الخامس والعشرين، والسادس والعشرين من مارس، مما يعني أن... أعادت دافني العدَّ مرة أخرى، ولكن هذه المرة كان مقترنًا بحركة جسدية، فلكزت كل مربع على التقويم بإصبع السبابة.

ثلاثة وأربعون يومًا.

إذن فهي امرأة حُبلى.

- يا إلهي.

ومرةً أخرى، لم يكن هناك الكثير كي يجيب به التقويم في هذا الأمر.

كلا، لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا؛ فقد بَلَغَت دافني من العمر واحدًا وأربعين عامًا، وهذا لا يعني أنه لم تكن هناك امرأة في التاريخ قد أنجبت

طفلًا في عمر الثانية والأربعين، ولكن... لقد انقضى سبعة عشر عامًا منذ أن حَمَلت آخر مرة، سبعة عشر عامًا من العلاقات السعيدة التي أقامتها مع زوجها. وطوال هذا الوقت، لم يفعلا أي شيء –أي شيء مطلقًا– حتى يوقفا الحمل.

كانت دافني قد افترضت أن الأمر قد يكون انقطاع فترة الطمث والخصوبة لديها. لقد أنجبت أربعة أطفال في تتابعٍ سريع، عامٌ واحد يفصل بين الأربعة؛ وهكذا انقضت الأعوام الأربعة الأولى من زواجها. ثم... لا شيء.

كانت دافني دَهِشَة تمامًا عندما أدركت أن أصغر أبنائها قد أتمَّ عامه الأول ولم تكن حاملًا مرةً أخرى. ثم أتم عامه الثاني، ثم الثالث، وظلَّ بطنُها مستويًا. ونظرت دافني إلى عائلتها ونسلها –أميليا وبليندا، وكارولين، وديفيد– وقررت أنها محظوظةٌ لأبعد الحدود. أربعة أبناءٍ أصحاء وأقوياء، من بينهم هذا الفتى الصغير، قويُّ البنية، الذي سيأخذ موضع والده يومًا بصفته دوق هاستنجز.

إلى جانب ذلك، لم تكن دافني تستمتع على وجه الخصوص بفترة حملها في أي وقتٍ مضى؛ فقد كانت رُكبَتَاها تتورمان، ووجنتاها تنتفخان، ويُحدِثُ مسارها الهضمي أشياء لا ترغب مطلقًا في تجربتها مرةً أخرى. ثم فكرت في زوجة أخيها لوسي، التي كانت تزدهر طلتها ببريقٍ رائع طوال فترة حملها؛ وهذا يعني أمرًا جيدًا، فقد كانت لوسي حاملًا في الشهر الرابع عشر الآن بطفلها الخامس.

أو تسعة أشهر، حسب ما تكون الحالة. ولكن دافني كانت قد رأتها قبل عدة أيام قليلة، وبدت كما لو أنها في شهرها الرابع عشر.

كان بطنُها كبيرًا للغاية، كبيرًا على نحوٍ يثير الدهشة. لكن طلتها ما زالت مزدهرة، خاصة أن كانت ركبتاها بهيتين رقيقتين، على نحوٍ مُذهل.

- لا يمكن أن أكون حُبلى.

قالت دافني، ووضعت يدها على بطنها المستوي. ربما كانت تمر بمرحلة التغيير أخيرًا. يبدو بالفعل وكأن عمر الواحدة والأربعين ما زال مبكرًا، ولكن مجددًا، لم يكن هذا الأمر واحدًا من الموضوعات التي سيناقشها أي شخصٍ على الإطلاق، وربما توقفت فترة الطمث لدى الكثير من النساء في عمر الواحدة والأربعين.

لا بد وأن تكون سعيدة، ممتنة لما حدث؛ فقد كان نزيفها الشهري أمرًا مزعجًا في الحقيقة.

سمعت دافني وقع أقدامٍ تسير نحوها في الممر. وبسرعة، سحبت كتابًا لتضعه فوق التقويم، على الرغم من أنها لا تملك أدنى فكرة عما فكرت في إخفائه بهذا التصرف. لقد كان مجرد تقويم، ولم تكن هناك أي علامة حمراء كبيرة على شكل X يتبعها تنويهٌ بسيط، مثل: «بدأ النزيف اليوم».

سار زوجها بُخطًى واسعة إلى داخل الغرفة، ثم قال:

- أوه، جيد، ها أنتِ هنا. إن أميليا تبحث عنكِ.

- عني أنا؟

فأجاب سايمون على الفور:

- من رحمة ربي أنها لا تبحث عني أنا.

- يا إلهي!

تمتمت دافني.

عادةً ما كانت تتمتع بجوابٍ ذكيٍّ وسرعة بديهة، لكن عقلها كان لا يزال مشوَّشًا، غارقًا في الضباب الذي كان مُغَلَّفًا بالاحتمالات المتعددة التي تطاردها، إما أنها حُبلَى، وإما أنها تشيخ في العمر.

- شيءٌ ما حيال أحد فساتينها.

- الفستان الوردي؟ أم الأخضر؟

حدَّق سايمون إليها قليلًا، ثم قال:

- حقًّا؟

فأجابت في تشتُّت:

- كلا، بالتأكيد لن تعرف هذا الأمر.

أسند أصابعه إلى وجنتيه، ثم غاص في كرسيٍّ قريبٍ قائلًا:

- متى ستتزوج؟

- ليس قبل أن تُعقَدَ خطبتها.

- ومتى سيكون هذا؟

ابتسمت دافني وقالت:

- لقد حصلت على خمسة عروض للزواج العام الماضي، وكُنتَ أنت من أصرَّ على أنها ستنتظر حتى تحصل على زواجٍ عن حُب.

- لم أسمعكِ تعترضين على ذلك.

- لم أعترض.

تنهَّد سايمون ثم تابع:

- كيف تَمَكَّنا من تقديم ثلاث فتيات إلى المجتمع في وقتٍ واحد؟

- العمل الدؤوب المبذول للإنجاب في بداية الزواج.

أجابته دافني بصراحة، ثم تذكرت التقويم على المكتب، التقويم الذي يزينه علامة X حمراء كبيرة، والتي لا يمكن لأي شخصٍ أن يراها سواها.

تطلع سايمون إلى الباب المفتوح، وقال:

- الاجتهاد، مممممم! اختيارٌ مثيرٌ للكلمات.

ألقت دافني نظرةً واحدة إلى تعبيرات وجهه، وشعرت كما لو أن وجهها قد صار ورديَّ اللون، ثم قالت:

- سايمون، إننا في منتصف النهار!

انفرجت شفتاه عن ضحكةٍ واسعة ذات رتمٍ بطيء، وأجاب:

- لا أذكر أن هذا الأمر قد أوقفنا عندما كنا في ذروة عملنا الدؤوب.

- إذا صعدت الفتيات إلى الطابق العلوي...

ألصق سايمون قدميه ببعضهما وقال:

- سأغلق الباب.

- يا إلهي! سيعرفن ما يحدث.

أغلق سايمون الباب بدفعةٍ حاسمة، ثم استدار عائدًا نحوها وقد رفع حاجبيه في ترقب، وقال:

- وخطأ مَن هذا؟

تراجعت دافني إلى الخلف، وقالت:

- من المستحيل أن أدفع أيًّا من فتياتي إلى الزواج في جَهلٍ ميؤوس منه، مثلما كنت أنا.

- جهلٌ فاتنٌ وجذَّاب.

تمتم سايمون، بينما كان يعبر الغرفة ليلتقط يديها بين يديه. سمحت له دافني أن يجذبها، حتى ما عادت تستطيع الوقوف على قدميها، ثم قالت:

- لم تكن تعتقد أن جهلي فاتن عندما افترضتُ أنك عاجز.

أجفل سايمون قليلًا قبل أن يجيب:

- بعض الأمور في الحياة تبدو فاتنة عندما نعود للتفكير فيها بعد مُضيٍّ الزمن.

- سايمون...

فاستند سايمون إلى إحدى أذنيها، وردد فيها:

- دافني...

تحرَّكت شفتاه على امتداد خط رقبتها، حتى شعرت وكأنها تذوب بين ذراعيه. واحدٌ وعشرون عامًا من الزواج، ولا يزال...

- على الأقل أغلق الستائر.

تمتمت دافني.

لم يكن الأمر وكأن هناك أحدًا سيراهما في الداخل رغم ضوء الشمس الساطع، لكنها ستشعر بالراحة أكثر؛ ففي نهاية الأمر، لقد كانا يقيمان في منزلٍ يقع في منتصف منطقة مايفير، ودائرة معارفهما بأكملها قد يتجولون في الخارج وراء النافذة.

امتثل سايمون مُرادَها، وأسرع إلى النافذة، لكنه لم يغلق سوى الستائر الشفافة العمودية من قماش سكريم، وقال بابتسامةٍ صبيانية:

- أودُّ أن أراكِ.

وبعد ذلك، في سرعةٍ ورشاقةٍ ليس لهما مثيل، هيأ سايمون الوضع، حتى صار يرى سائر جسدها. وكانت دافني ترقد على الفراش، وتموء في رِقَّةٍ معهودة، وهو يطبع القبلات الحانية على شفتيها.

- أوه، سايمون.

تنهَّدت دافني في رقة، فهمهم سايمون قائلًا:

- بماذا تفكرين؟

- الآن؟

أجابت دافني إذ كانت تحاول أن تتبين طريقها وسط رعشة جسدها وذهولها. هل اعتقد أن بإمكانها التفكير على هذا الوضع؟

ثم سألها:

- هل تعلمين ما الذي أفكر فيه؟

- إذا لم تكن تفكر في، فسأُصَاب بالإحباط المُريع تمامًا.

أصدر سايمون ضحكةً خافتة. ثم قال:

- كنت أفكر في روعةِ أن يعرف إنسانٌ عن إنسانٍ آخر كل شيء حتى يبدو وكأنه هو.

اعتدلت دافني، واحتضنته بين ذراعيها. لم تستطع المقاومة قط. ودفنت وجهها في انحناءة رقبته الدافئة، وتنفَّست عطره المألوف لقلبها، وقالت:

- أحبك.

- أنا أعشقكِ.

أوه، إذن فقد قرر أن يجعل من الأمر منافسةً بينهما، أليس كذلك؟ تراجعت دافني قليلًا، وابتعدت بما يكفي لتقول:

- وأنا أشتهيك.

رفع سايمون حاجبيه، وقد علت عينيه نظرة مراوغة، وقال:

- أنتِ تشتهينني؟

- لقد كان هذا أفضل جوابٍ استطعتُ استحضاره في ذهني في هذا الوقت القصير.

ورفعت كتفيها برقةٍ وبساطة، ثم تابعت:

- إلى جانب أنني أشتهيك حقًّا.

- حسنٌ للغاية. (وشحبت عيناه أكثر فأكثر، ثم تابع): وأنا أُقَدِّسُكِ.

وكان هذا هو آخر شيء قد نطق به كلٌّ منهما لبعض الوقت.

لاحقًا، بعد عدة أيام، وجدت دافني نفسها تحدِّق إلى التقويم مرة أخرى. لقد مرَّ الآن ستةٌ وأربعون يومًا منذ آخر يومٍ جاءها الحيض، ولم تخبر سايمون بأيٍّ من هذا حتى الآن. كانت تعرف جيدًا أنه ينبغي عليها أن تخبره، ولكنها

شعرت بطريقةٍ ما أن الأمر مُبَكِّرٌ على ذلك. قد يكون هناك تفسيرٌ آخر لتأخر حيضها؛ كل ما عليها فعله هو استرجاع زيارتها الأخيرة إلى والدتها. كانت فيوليت بريدجرتون تضرب الهواء من حولها باستمرار بمروحةٍ من الريش، تُصِرُّ بشدة على أن الهواء خانقٌ من حولها، على الرغم من أن دافني قد شعرت بالهواء رطبًا وبهيجًا من حولها.

وفي إحدى المرات التي طلبت فيها دافني من أحدهم إشعال نار المدفأة، اعترضت فيوليت على طلبها بضراوة، حتى إن دافني قد أوشكت على التوقع بأن فيوليت ستقف حارسةً للموقد بمسعِّر النار.

قالت فيوليت في تذمر:

- لا تفعلي أكثر من إشعال عود ثقابٍ واحد.

وقد أجابت دافني أمرها بشيء من الحكمة، فقالت:

- أعتقد حقًّا أنني بحاجة إلى إحضار إزارٍ ثقيل.

وتطلعت دافني إلى خادمة المنزل لدى والدتها، وكانت ترتجف بجانب المدفأة من البرد، فقالت لها:

- ربما ينبغي لكِ أنتِ أيضًا إحضار إزارٍ ثقيل.

لكنها لا تشعر بالحرارة الآن إذ تتطلع إلى تقويمها. لقد شعرت...

لا تدري حقًّا بماذا تشعر. تشعر بأنها طبيعيةٌ تمامًا، حَقًّا كان هذا ما تشعر به. وقد كان شعورًا يثير الشك، لأنها لم تشعر قط ولو بقدرٍ ضئيلٍ جِدًّا من العادية عندما كانت حاملًا من قبل.

- أمي!

طوت دافني التقويم، وتطلعت من خلف طاولة كتابتها في الوقت المناسب، لترى ابنتها الثانية، بليندا، تقف عند مدخل الغرفة.

- ادخلي، من فضلك.

قالت دافني إذ ترحب بينها وبين نفسها بإلهاءٍ يُبعِدُ تفكيرها عن التقويم.

جلست بليندا على كرسيٍّ مريح بالقرب من الطاولة التي تجلس إليها والدتها، وكانت عيناها الزرقاوان اللامعتان قد التقتا عيني والدتها في نظرةٍ مباشرةٍ معهودة منها. ثم قالت الفتاة:

- لا بد وأن تفعلي شيئًا بخصوص كارولين.

- أنا مَن سأفعل؟

تساءلت دافني بينما كان صوتها يتباطأ لمدةٍ أطول قليلًا إذ نطقت «أنا».

لكن بليندا تجاهلت سخريتها، وتابعت:

- إذا لم تتوقف عن الحديث عن فريدريك سنو-مان-فورميزبي، فسأُجَن.

- ألا يمكنكِ أن تتجاهليها بهدوء؟

- إن اسمه هو فريدريك سنو.. مان.. فورميزبي. ألا يعني هذا شيئًا؟

طرفت دافني عدة مرات.

فصاحت بليندا:

- سنو مان، أمي! رجل الثلج[1]!

- يا له من سوء حَظٍّ فعلًا. ولكن، ليدي بليندا باسيت، لا تنسي أبدًا أنه يمكن تشبيهكِ بكلبٍ ضعيف[2].

اتسعت نظرة بليندا في صدمة، وقد اتضح لها على الفور أن هناك من شبهها من قبل بالتأكيد بكلبٍ من الفصيل باسيت.

- يا إلهي!

قالت دافني، وقد شعرت بدهشة غريبة بأن بليندا لم تخبرها بهذا من قبل قط. فتابعت:

- أنا آسفة حقًّا.

فقالت بليندا بينما تسحب سوائل أنفها:

- لقد كان هذا منذ وقتٍ طويل، وأؤكد لكِ أن هذا لم يُقَل أكثر من مرة واحدة.

أطبقت دافني على شفتيها، وحاولت أن تمنع ابتسامتها من الظهور على صفحة وجهها. لم تكن تلك طريقةً جيدة -بلا شك- لتشجيع الشجار بالأيدي، ولكن بينما كانت دافني تشق طريقها إلى سن الرُشد برفقة سبعةٍ من الإخوة،

---

(1) Snowman: والتي تتفق مع الاسم المذكور في النطق -وتختلف معه في طريقة الكتابة- تعني رجل الثلج. (المترجم)

(2) تقصد دافني هنا اسم العائلة (باسيت)، فهو اسمٌ يُطلق على فصيلٍ من الكلاب ذات الآذان المتهدلة. (المترجم)

من بينهم أربعة من الذكور، عجزت عن أن تنطق بشيءٍ آخر سوى كلمة واحدة بنبرةٍ هادئة:

- أحسنتِ.

منحتها بليندا إيماءة ملكية مقتضبة، ثم قالت:

- هل ستتحدثين مع كارولين؟

- ما الذي ترغبين مني أن أخبرها إياه؟

- لا أدري. أيًّا مما تقولينه عادةً، يبدو وكأنه يأتي بثماره دائمًا.

كانت هناك مُجامَلة في تلك الكلمات بطريقةٍ أو بأخرى، وكانت دافني واثقةً من ذلك. ولكن حتى قبل أن تتمكن من تحليل الجملة، أبدت معدتها اضطرابًا كريهًا، وأتبعته بأغرب أنواع الاعتصار، ثم...

صرخت دافني:

- اعذريني!

وشقت طريقها مُسرِعةً لتصل إلى وعاء التبول في الوقت المناسب تمامًا. يا إلهي! يا إلهي! لم تختلف تلك المرة، لقد كانت دافني حاملًا.

- أمي؟

قرقعت دافني إحدى يديها إلى الخلف نحو بليندا، محاولةً صرفها إلى خارج الغرفة.

- أمي؟ هل أنتِ بخير؟

تقيأت دافني مرة أخرى.

فأعلنت بليندا:

- سأحضر أبي.

صاحت دافني:

- كلا!

- هل هذا بسبب السمك؟ لأنني اعتقدتُ أن مذاق السمك لم يكن جيدًا.

أومأت دافني بالموافقة، على أمل أن ينتهي الأمر مع بليندا عند هذا الحد.

- ولكن انتظري، أنتِ لم تأكلي السمك معنا؛ أنا أتذكر هذا جيدًا.

يا إلهي! بليندا المزعجة، واهتمامها اللعين بالتفاصيل.

لم يكن تعليقها هذا يتعلق بمشاعر الأمومة من أي جانب. هكذا فكَّرت دافني بينما كانت تُفرِغ أحشاءها مرةً أخرى. ولكنها لم تكن تشعر بقدرتها على التساهل، على وجه الخصوص في تلك اللحظة.

- لقد تناولتِ أزواجًا من زغلول الحمام (تقصد صغير *الحمام*)، وتناولتُ أنا السمك، وكذلك ديفيد. ولكن أنتِ وكارولين اكتفيتما بتناول الحمام، وأعتقد أن أبي وأميليا قد تناولا الطبقين، ثم شربنا جميعًا الشوربة، على الرغم من...

- توقفي!

توسَّلت إليها دافني. لم تكن راغبةً في الحديث عن الطعام، حتى إن مجرد ذكره...

فقالت بليندا مجددًا:

- أعتقد أنه من الأفضل أن أحضر أبي.

- كلا، أنا بخير.

شهقت دافني، بينما كانت لا تزال تضرب الهواء بيدها خلف ظهرها في حركة إسكاتٍ لابنتها. لم تكن تريد أن يراها سايمون على تلك الحالة؛ سيعرف على الفور ما الذي تمر به.

أو ربما ما هو أكثر دِقَّةً: سيعرف على الفور ما الذي يوشك على الحدوث، في غضون سبعة أشهر ونصف، ربما بانتقاص أسابيع قليلة، أو زيادتها.

- حسنًا.

قالت بليندا مستسلمةً لرغبة والدتها، ثم تابعت:

- ولكن على الأقل دعيني أحضر خادمتك، يجب أن تكوني في الفراش.

لكن دافني قد تقيأت مجددًا.

فقالت بليندا مُصَحِّحَة:

- بعدما تنتهين. يجب أن تكوني في الفراش بعدما تنتهين من... هذا الذي يحدث معك الآن.

- خادمتي.

أخيرًا وافقت دافني.

ماريا –خادمتها– ستستنتج الحقيقة على الفور، ولكنها لن تنطق بكلمة واحدة لأي أحد؛ سواءً من الخدم أو من العائلة. وربما تفعل ما هو أكثر أهمية؛ ستعلم ماريا بالضبط ما تحضره من علاج لتلك الحالة التي تمر بها. سيكون مذاقه كالعلقم، ورائحته أبشع من طعامٍ عَفِن، لكنه سيجعل معدتها تهدأ أخيرًا.

غادرت بليندا مُسرِعة، أما دافني –فبمجرد أن اقتنعت أنه ما من شيءٍ آخر في معدتها قد بقي لتُفرِغَه–.. فسارت نحو فراشها تترنَّح، ثم أبقت على جسدها في حالة من الاستقرار قُصوَى؛ فقد كانت أقل حركة تأرجح تجعلها تشعر كما لو أنها تركب البحر على ظهر قارب.

قالت دافني في أنين:

- لقد كَبرتُ على ما أنا فيه الآن.

وهذا لأنها كانت كذلك. لا شك في أنها كبرت على ذلك. حسنًا، إن ظلت دافني موافقة للتوقعات –والحقيقة هي: لماذا يتعين أن يختلف هذا الحمل عن الأربعة السابقين؟– فسيُلازِمُها الغثيان طوال شهرين على الأقل، وسيُحيلُها نقص الطعام إلى فرع شجرةٍ نحيف. ولكن هذا سيدوم حتى منتصف الصيف فقط، وعندها سيتضاعف حجمها بين ليلةٍ وضحاها. ستتورم يداها إلى الحد الذي تعجز معه عن ارتداء خواتمها، ولن تتناسب قدماها مع أيٍّ من أحذيتها، وستجعلها رحلةٌ واحدة عبر الدرج تلهث من أجل الهواء.

ستكون مثل الفيل، فيلٍ يسير على ساقين، ويزين رأسَه شَعرٌ كستنائي.

- يا صاحبة الجلالة!

عجزت دافني عن رفع رأسها، لذلك رفعت يدها بتحيةٍ صامتة بائسة إلى ماريا، التي كانت تقف الآن بجوار الفراش، تحدق إلى دافني وقد علت وجهها نظرة فزع...

... والتي تحولت سريعًا إلى نظرة شَكٍّ وارتياب.

- يا صاحبة الجلالة!

كررت ماريا نداءها مجددًا، ولكن تلك المرة لم يخلُ من نبرة حانية، ثم ابتسمت.

أجابت دافني:

- أعرف. أعرف.

- هل الدوق يعرف؟

- ليس بعد.

- حسنًا، لن تتمكني من إخفاء الأمر طويلًا.

- سيغادر هذا المساء إلى كلايفيدون لبضع ليالٍ، سأخبره حالما يعود.

قالت ماريا:

- أعتقد أنه من الأفضل أن تخبريه الآن.

كانت عشرون سنةً من الخدمة قد منحت الخادمة بعض الرخصة لتتحدث بحرية أكثر مما يجب.

تحركت دافني بحذر لتتخذ وضع الاستلقاء، وقد توقفت لمرةٍ واحدة، حتى تُوقف موجةً أخرى من الغثيان، ثم قالت:

- ربما لن يكتمل؛ فبالنسبة إلى من هم في مثل سني، غالبًا ما يكون كذلك.

- كلا، أعتقد أن الأمر حقيقي. هل تطلعتِ إلى المرآة بعد؟

قالت ماريا، فهزت دافني رأسها نفيًا.

- تبدين شاحبة للغاية.

- ربما لن...

- أنتِ لن تتقيئي هذا الطفل.

- ماريا!

عقدت ماريا ذراعيها، ورمقت دافني بنظرةٍ حادة، ثم قالت:

- أنتِ تعلمين الحقيقة يا صاحبة الجلالة. وكل ما في الأمر أنكِ لا ترغبين في الاعتراف بها.

فتحت دافني فمها لتجيب، لكن لم يكن لديها ما يُقال؛ فقد كانت تعلم جيدًا أن ماريا على حق.

تابعت ماريا حديثها بنبرةٍ أكثر لُطفًا:

- لو لم يتكون هذا الطفل، لما كُنتِ لتشعري بمثل هذا التعب. لقد أنجبت أمي ثمانية أطفال من بعدي، وأربعة آخرين قد فقدتهم من قبلي، ولم

تمرض قط في أثناء حملها -ولو لمرةٍ واحدة- مع هؤلاء الذين لم يكتملوا.

تنهدت دافني، ثم أومأت وقد أقَرَّت بالحقيقة.

- ما زِلتُ أُفَضِّل الانتظار بعد. ربما لوقتٍ أطول قليلًا.

الحقيقة هي أن دافني لم تكن واثقةً من السبب الذي دفعها للاحتفاظ بالأمر لنفسها لبضعة أيام أخرى، ولكنها فعلت. وبما أنها كانت الشخص الذي يحاول جسده أن ينقلب على عقبيه، اعتقدت أن هذا سببٌ أدعى ليجعل القرار النهائي عائدًا إليها.

نطقت ماريا فجأة:

- يا إلهي، كِدتُ أنسى! لقد تلقينا خطابًا من شقيقك، وسيأتي إلى المدينة الأسبوع القادم.

فسألت دافني:

- كولين؟

أومأت ماريا وأجابت:

- وبرفقة عائلته.

- يجب أن يقيموا معنا.

هكذا أجابت دافني.

كان كلٌّ من كولين وبينلوبي زوجين شابين، لا يمتلكان منزلًا في المدينة، وللتوفير في النفقات، كانا يميلان إلى الإقامة لدى أحد أشقاء كولين؛ إما دافني، أو شقيقهما الأكبر -أنطوني-، الذي ورث اللقب عن والده، وكل ما يتعلق به من ممتلكات.

ثم تابعت:

- أرجو منكِ أن تطلبي من بليندا أن تُرسِلَ خطابًا باسمي، تؤكد فيه وجوب قدومهم إلى منزل هاستنجز.

أومأت ماريا بالموافقة، ثم غادرت.

أما دافني؛ فبعد وقتٍ قصير من الأنين، خلدت أخيرًا إلى النوم.

في الوقت الذي وصل فيه كولين وبينلوبي -برفقة أطفالهما الأربعة الأعزاء في القطار-، كانت دافني تُفرِغُ ما في معدتها عدة مرات في اليوم الواحد. ولم يزل سايمون جاهلًا بطبيعة حالتها؛ فقد اضطر إلى تأجيل عودته من الريف -وقد ذكر شيئًا ما يتعلق بحقلٍ غارقٍ بالمياه- والآن، لن تحين عودته حتى نهاية الأسبوع.

لكن دافني لم تكن لتسمح لتلك المعدة المضطربة أن تقف في طريق ترحيبها بشقيقها المفضل.

- كولين!

قالت دافني وقد ارتسمت على وجهها ابتسامةٌ واسعة عند رؤيتها هاتين العينين الخضراوين اللامعتين، اللتين تألفهما تمامًا. ثم تابعت:

- لقد مضى وقتٌ طويلٌ للغاية.

- أتفق معكِ تمامًا.

أجاب كولين وهو يمنح شقيقته عِناقًا سريعًا، بينما كانت بينلوبي تحاول دفع أطفالهما إلى داخل المنزل.

- كلا، لا يمكنك أن تُلَاحِقَ تلك اليمامة!

قالت بينلوبي في حزم، ثم تطلعت إلى دافني قائلةً:

- أنا آسفةٌ حقًّا، دافني، ولكن...

لكنها أسرعت عائدةً إلى السلالم الأمامية. وقد أحكمت قبضتها بعناية على توماس، ذي السبعة أعوام، من ياقة قميصه.

- كوني شاكرةً لأن قنافذ البحر الخاصة بكِ قد كَبُرَ حجمها.

قال كولين وقد علت وجهه ضحكة متوارية، بينما كان يتخذ خطوةً إلى الخلف. ثم تابعت:

- لم يكن بإمكاننا أن نحتفظ... يا إلهي! داف، مِمَّ تُعانين؟

ثقي بأخيكِ عندما يستغني عن اللباقة والذوق.

- تبدين في حالةٍ مزرية.

تابع كولين، كما لو أنه لم يوضح تلك المعلومة بتعليقه الأول.

فتمتمت دافني:

- مجرد وعكةٍ صحية. أعتقد أنها بسبب السمك.

- خالي كولين!

حمدًا لله، فقد تشتت انتباه كولين بقدوم بليندا وكارولين، اللتين كانتا تتسابقان عبر السلالم بأسلوبٍ مُتعَمَّد يفتقر إلى الوقار الأنثوي.

- أنتِ!

قال كولين بضحكةٍ واسعة بينما يجذب إحداهما ليمنحها عناقًا سريعًا. ثم تابع:

- وأنتِ!

ثم تطلع إلى درجات السلم، وسأل:

- أين الأخرى؟

فقالت بليندا:

- لقد ذهبت أميليا إلى التسوق.

ثم التفتت لاستقبال أبناء خالها الصِغار. كانت أجاثا قد بلغت التاسعة من العمر لتوها، أما توماس، فقد كان في السابعة، وجين كانت لا تزال في السادسة، أما جورجي الصغير، فسيُتِمُّ الثالثة في الشهر القادم.

- لقد كبرتِ كثيرًا!

قالت بليندا لجين وهي تنحني عليها لتبلغ قامتها القصيرة.

فأجابت جين:

- لقد ازداد طولي بوصتين الشهر الماضي!

فصححت بينلوبي حديثها بلُطف:

- في العام الماضي.

كانت بينلوبي قد عجزت عن الوصول إلى دافني لتمنحها هي الأخرى عناقًا، لذلك انحنت وربتت على يدها، وقالت:

- أعلم أن فتياتكِ كُنَّ قد كبرن كثيرًا في المرة الأخيرة التي رأيتهن فيها، ولكني أقسم لكِ إنني ما زلت أندهش في كل مرةٍ أراهن فيها.

- وأنا كذلك.

أجابت دافني.

في بعض الصباحات كانت دافني تستيقظ وهي تتوقع أن ترى فتياتها يرتدين فساتين ذات حمالات (المريلة). أما حقيقة أنهن قد صِرنَ سيداتٍ مكتملات النمو...

فقد كانت مُربكة للغاية.

قالت بينلوبي:

- حسنًا، تعلمين ما يقولونه عن الأمومة.

فتمتمت دافني:

- مَن هم؟

صمتت بينلوبي لفترةٍ تكفي حتى تطلق ضحكةً ساخرة، وقالت:

- تمرُّ السنوات، ولا تنتهي الأيام.

- هذا مستحيل.

صاح توماس، فأطلقت أجاثا تنهيدةً تحمل شعورها بالاضطهاد، وقالت:

- إنه بسيطٌ للغاية.

مدت دافني يدها لتداعب شعر أجاثا البُنِّي الفاتح، وقالت:

- هل أنتِ حقًّا في التاسعة فقط؟

كانت دافني تعشق أجاثا، لطالما فعلت؛ فقد كان هناك شيءٌ ما حيال تلك الفتاة الصغيرة، شيءٌ يشي بالجدية، والإصرار، لطالما لامس قلب دافني وراق لها.

أما أجاثا -فلِكَونِها أجاثا- فقد أدركت أن السؤال المطروح عليها هو سؤالٌ مجازي، فاندفعت ناهضةً على أطراف أصابعها لتمنح عمتها قُبلَة.

بادلت دافني تلك اللفتة بقُبلةٍ سريعة على الخد، ثم التفتت إلى مربية العائلة، التي كانت تقف بالقرب من مدخل الباب حاملةً جورجي الصغير.

- وكيف حالكَ أنت أيها اللطيف المحبوب؟

كانت دافني تتودد إلى الطفل الصغير وهي تمد يديها لتلتقط الصبي بين ذراعيها. كان طفلًا مكتنزًا، ذا شَعرٍ أشقر، ووجنتين ورديتين، تفوح منه رائحة الأطفال الرُضَّع، على الرغم من حقيقة أنه لم يعد طفلًا حديث الولادة.

- تبدو لذيذًا! مممم...

قالت دافني وقد تظاهرت بأخذ قضمة من رقبته. واختبرت وزنه، إذ كان يتأرجح على ذراعيها قليلًا للخلف والأمام بتلك الغريزة، والفطرة التي تتصرف بها الأم مع طفلها.

- أنت لم تعد بحاجةٍ إلى التأرجح الآن، أليس كذلك؟

تمتمت دافني وهي تُقَبِّله مرة أخرى. كانت بشرته ناعمةً للغاية، وقد أعادها ملمسه ورائحته إلى تلك الأيام التي كانت فيها أمًّا شابة. كانت المربيات، وجليسات الأطفال يملأن المنزل بالطبع، ولكنها صارت عاجزةً حتى عن عد تلك المرات التي تسللت فيها إلى غرف نوم الأطفال حتى تختطف قُبلَةً على الخد، وتشاهدهم وهم نائمون.

حسنًا، كانت دافني عاطفيةً للغاية، وهذا ليس شيئًا جديدًا عليها.

- كم عمرك الآن، جورجي؟

سألت دافني.

اعتقدت أنه ربما كان بإمكانها أن تعيد الكَرَّة مجددًا مع طفلٍ جديد. الأمر لا يتعلق بكونها تمتلك الكثير من الخيارات، ولكن مع ذلك، شعرت دافني بالطمأنينة إذ كانت تقف هناك برفقة هذا الصبي الصغير بين ذراعيها.

جذبت أجاثا أكمام دافني، وهمست:

- إنه لا يتكلم.

طرفت عينا دافني وقالت:

- أستميحكِ عذرًا؟

ألقت أجاثا نظرةً سريعة إلى والديها، كما لو أنها لم تكن واثقةً بعد مما إذا كان عليها أن تقول شيئًا كهذا. لكنهما كانا مشغولين بالحديث مع بليندا وكارولين، ولم يلحظا أي شيء. ثم قالت أجاثا مجددًا:

- إنه لا يتكلم، ولا حتى كلمة واحدة.

تراجعت دافني برأسها قليلًا حتى يتسنى لها أن تُلقيَ نظرةً إلى وجه جورجي مرةً أخرى، فابتسم لها وقد تَغَضَّن جانبا عينيه تمامًا، مثلما كانت تفعل عينا كولين.

تطلعت دافني عائدةً إلى أجاثا، ثم سألت:

- هل يفهم ما يقوله الناس؟

فأومأت أجاثا بالموافقة، ثم خفضت صوتها إلى نبرةٍ أشبه بالهمس:

- كل كلمة. أنا واثقةٌ من ذلك، وأعتقد أن أمي وأبي قلقان حيال هذا الأمر.

طفلٌ يقترب من عيد مولده الثالث ولم ينطق بكلمةٍ واحدةٍ بعد؟ كانت دافني واثقةً تمام الثقة من قلقهما. وقد صار السبب أمام رحلة كولين وبينلوبي غير المتوقعة إلى المدينة واضحًا لها الآن؛ لقد كانا يبحثان عن توجيهٍ لما يجب أن يفعلاه. لقد مرَّ سايمون بنفس التجربة عندما كان في نفس العمر، ولم ينطق حتى بكلمةٍ واحدة حتى عمر الرابعة، ثم عانى من لعثمةٍ مُنهِكة لسنواتٍ طويلة. وحتى الآن، خاصةً عندما يكون مُستاءً حيال شيء ما، تعود إليه اللعثمة لتُحكِمَ قبضتها على لسانه، وتسمع أثرها في صوته. صمتٌ غريب، وأصواتٌ متكررة، وانقطاعٌ مؤقت في الحديث يعزز التردد. لا يزال سايمون خجولًا بشأن صعوبته، على الرغم من أن مقدار شعوره بالخجل منها الآن لا يقترب كثيرًا من شعوره الذي لازمه في الفترة الأولى التي مرَّت بعد لقائهما الأول.

لكن ما زال بإمكانها أن تقرأ ما في عينيه؛ قَبَسًا من الألم، أو ربما الغضب، الغضب من نفسه، الغضب من نقطة ضعفه. وقد اعتقدت دافني أن هناك بعض الأمور التي لم يكن لأحدٍ أن يتخطاها، ليس بصورةٍ كاملة.

وعلى مضض، أعادت دافني الصغير جورجي إلى مربيته، وحَثَّت أجاثا على المُضي نحو السلم، ثم قالت:

- هَلُمِّي يا عزيزتي؛ إن غرفة الأطفال بانتظارك، ولقد أخرجنا جميع ألعاب الفتيات القديمة من أجلك.

وراقبت دافني بفَخرٍ ذاك المشهد؛ الذي تُمسِكُ فيه بليندا بيد أجاثا، وتقول لها بجاذبيةٍ شديدة:

- يمكنكِ أن تلعبي بدُميتي المُفَضَّلة.

تطلعت أجاثا إلى ابنة عمتها بتعبيرٍ لا يمكن وصفه سوى بكلمة واحدة وهي: «الإجلال»، ثم تبعتها صاعدتين السلم.

انتظرت دافني حتى صعد جميع الأطفال إلى الطابق العلوي، ثم استدارت عائدةً إلى شقيقها وزوجته، وسألتهما:

- بعض الشاي أولًا؟ أم ترغبان في تغيير ملابس السفر خاصتكما؟

أجابت بينلوبي:

- بعض الشاي من فضلك.

وأتبعتها بتنهيدةٍ لا تخرج سوى من أمٍّ مُنهَكة.

أومأ كولين موافقًا، ونهضوا جميعًا متجهين إلى قاعة الاستقبال. وبمجرد أن جلسوا إلى مقاعدهم، قررت دافني أنه لا جدوى من التخفي وراء بعض العبارات التي لا طائل منها، وقد عزمت على الدخول إلى صلب الموضوع مباشرةً؛ ففي نهاية المطاف، هذا شقيقها، ويعرف جيدًا أن بإمكانه أن يتحدث إليها في أي شيء مهما كان.

- أنتما قلقان بشأن جورجي.

كانت عبارة دافني جُملَةً خبرية تحمل معنى البيان والتصريح، وليست سؤالًا.

فأجابت بينلوبي في هدوء:

- إنه لم ينطق كلمةً واحدة بعد.

كان صوتها هادئًا، لكن حلقها قد انقبض وهي تبتلع ريقها بصعوبة.

- إنه يفهمنا، أنا واثقٌ من ذلك؛ فقبل بضعة أيام، كنتُ قد طَلبتُ منه التقاط ألعابه، وقد فعل بالضبط ما طلبته منه. على الفور.

- كان سايمون يعاني من نفس المشكلة.

قالت دافني. وسارت بنظراتها تنتقل بين كولين وبينلوبي، ثم تابعت:

- وأعتقد أن لهذا السبب جئتما؟ حتى تتحدثا إلى سايمون؟

فأجابت بينلوبي:

- إننا نأمل أن يعرض علينا بعض الأفكار ووجهات النظر.

فأومأت دافني في هدوء، وأردفت:

- أنا واثقةٌ أنه سيفيدكما بشيء ما. أخشى أنه كان مُحاصَرًا في الريف بأعماله المتكاثرة، ولكني أتوقع عودته قبل نهاية الأسبوع الحالي.

فقال كولين:

- ليس هناك داعٍ للاستعجال.

بطرف عينها، لاحظت دافني كتفي بينلوبي تنحسران في قلة حيلة وحزن. لقد كانت حركةً بسيطة لا يمكن لأي أمٍّ ألا تتعرف عليها. كانت بينلوبي تعرف

جيدًا أنه لا داعي للاستعجال؛ فقد انتظرا نحو ثلاثة أعوام حتى يتكلم جورجي الصغير، لذلك كان انتظار بضعة أيام أخرى لن يُحدِثَ أي فارق. ومع ذلك، كانت بينلوبي تشعر برغبةٍ شديدة في فعل شيء ما، أي شيء؛ أن تتخذ خطوةً حقيقية، أن تجعل طفلها كاملًا مثاليًّا.

أن تأتي كل هذا الطريق لتجد أن سايمون قد ذهب... لا بد وأن أمرًا كهذا كان مُحبِطًا بالنسبة إليها.

استأنفت دافني الحديث:

- أعتقد أن فهمه للحديث إشارةٌ جيدة للغاية. كُنتُ لأشعر بالقلق الشديد لو أنه لم يفهم الحديث.

أجابت بينلوبي في شغف:

- كل شيء آخر حياله يبدو طبيعيًّا تمامًا؛ إنه يجري، ويقفز، ويأكل، حتى إنه يقرأ.

فالتفت إليها كولين في دهشة:

- هل يقرأ حقًّا؟

- أعتقد ذلك؛ لقد رأيت برفقته كُتيِّب مبادئ القراءة.. الأسبوع الماضي.

أجابها كولين برفق:

- ربما كان يتطلع إلى الرسومات بداخله فحسب.

- هذا ما ظننته، لكني راقَبتُ عينيه؛ لقد كانتا تتحركان يمينًا ويسارًا، تتبعان الكلمات.

التفت الاثنان إلى دافني، كما لو أنها قد تمتلك جميع الأجوبة.

فقالت:

- أعتقد أنه ربما كان يقرأ.

كانت دافني تشعر بالعجز أمامهما. كانت تتمنى لو أنها تمتلك جميع الأجوبة، كانت تتمنى لو تقول شيئًا آخر لهما، بخلاف *أعتقد*، أو *ربما*. ثم تابعت دافني:

- لا يزال جورجي صغيرًا، ولكن ليس هناك سببٌ يجعله عاجزًا عن القراءة.

فقالت بينلوبي:

- إنه طفلٌ ذكي للغاية.

منحها كولين نظرةً بدت متسامحة إلى حَدٍّ كبير، وقال:

- عزيزتي...

- إنه ذكيٌّ بالفعل! وقد تمكن ويليام من القراءة عندما كان في الرابعة، وأجاثا كذلك.

أجاب كولين بلطف:

- في الحقيقة، بدأت أجاثا القراءة في الثالثة من عمرها. ليس عملًا بطوليًّا، ولكني أعرف أنها كانت تقرأ كلماتٍ قصيرة، أتذكر ذلك جيدًا.

فقالت بينلوبي في إصرار:

- جورجي يقرأ، وأنا واثقةٌ من ذلك.

علَّقت دافني في بهجة:

- حسنًا إذن، هذا يعني أن مخاوفنا تقل عما سبق؛ فأي طفل يمكنه القراءة قبل عيد مولده الثالث لن يواجه أي مشكلة في الحديث عندما يكون مستعدًّا لذلك.

لم تكن دافني تعلم إن كان افتراضها هذا صحيحًا أم لا، ولكنها اعتقدت أنه قد يكون صحيحًا. وبدا لها أن الأمر معقولٌ للغاية. وإذا اتضح أن جورجي يعاني من لعثمة –مثلما كان سايمون–، فستظل عائلته تحبه، وتعشقه، وتمنحه كل الدعم الذي يحتاج إليه حتى يصير شخصًا رائعًا. كانت واثقةً أنه سيكون كذلك؛ إنه يحظى الآن بكل شيء حُرِمَ منه سايمون في طفولته.

انحنت دافني إلى الأمام قليلًا لتُرَبِّتَ على يد بينلوبي، وقالت:

- سيكون كل شيء على ما يُرام، وستعرفين ذلك قريبًا.

أطبقت شفتا بينلوبي، وقد شعرت دافني باختناق أنفاسها، فاختارت دافني أن تُنَحِّيَ بصرها عن بينلوبي؛ راغبةً في أن تمنح زوجة شقيقها بعض الوقت لتلملم شتاتها. كان كولين يمضغ رقيقة البسكويت الثالثة له، مادًّا يده لالتقاط كوبٍ من الشاي، لذلك قررت دافني أن تُوجِّه سؤالها التالي إليه:

- هل كل شيء بخير مع بقية الأطفال؟

ابتلع كولين رشفة الشاي، وأجاب:

- بخيرٍ تمامًا. وأطفالكِ؟

- أقحم ديفيد نفسه في بعض التصرفات المشاغبة في المدرسة، ولكن يبدو أنه بدأ يهدأ عن ذي قبل.

التقط كولين رقيقة بسكويت أخرى وقال:

- وماذا عن الفتيات؟ ألا يصلن بكِ إلى نوباتٍ من الغضب؟

طرفت دافني في دهشة، وأجابت:

- كلا، بالطبع لا. ولكن لماذا تسأل؟

- تبدين في حالٍ مزرية.

تدخلت بينلوبي:

- كولين!

فرفع كولين كتفيه في عدم اكتراث، وقال:

- إنها كذلك، وقد سألتها عن الأمر فور وصولنا.

فتابعت زوجته مُعاتِبَة:

- ومع ذلك، لا ينبغي لك...

قاطعها كولين مُجيبًا في وضوح:

- إن لم أقل لها شيئًا كهذا، فمن يمكنه؟ أو بشيء من الدقة: من سيفعل؟

خفضت بينلوبي صوتها إلى حد الهمس، ثم قالت بإلحاح:

- هذا ليس من الأمور التي يمكن للمرء التحدث فيها.

حَدَّق كولين إلى زوجته لوهلة، ثم تطلع إلى دافني، ثم عاد مُحَدِّقًا إلى زوجته مرة أخرى، ثم قال:

- ليس لديَّ فكرة عما تتحدثين عنه.

انفرجت شفتا بينلوبي وقد كست وجنتيها بعض الحُمرَة، ثم تطلعت إلى دافني، كما لو أنها تقول: «إذن؟»

تنهدت دافني في ثقل. هل كانت حالتها واضحة إلى هذا الحد؟

ألقت بينلوبي إلى كولين نظرةً جزعة، وقالت:

- إنها...

ثم تطلعت عائدةً إلى دافني، وسألت:

- هذا صحيح، أليس كذلك؟

أومأت إليها دافني إيماءة توكيدٍ مقتضبة.

فعادت بينلوبي تتطلع إلى زوجها بنظرةٍ على قَدرٍ معين من الاعتزاز، ثم قالت:

- إنها حامل.

تجمدت ملامح كولين لدقيقة ونصف، قبل أن يعود إلى طبعه الهادئ المعتاد.

- كلا، ليست كذلك.

فأجابت بينلوبي:

- بلى، إنها حامل.

قررت دافني ألا تتكلم؛ فقد كانت تشعر بالاضطراب والغثيان على أي حال.

- إن طفلها الأصغر في السابعة عشرة الآن.

عَلَّق كولين موضحًا، ثم ألقى نظرةً إلى دافني، وقال:

- في السابعة عشرة، أليس كذلك؟

تمتمت دافني:

- السادسة عشرة.

- السادسة عشرة.

كرر كولين كلمات دافني، وقد توجه بها هذه المرة إلى بينلوبي، ثم تابع:

- لا يزال الفارق كبيرًا.

- لا يزال؟

- لا يزال.

تثاءبت دافني؛ فكانت قد عجزت عن تحمل الأمر أكثر من ذلك، وكانت تشعر بالوهن والإنهاك الشديدين هذه الأيام.

- كولين!

استأنفت بينلوبي حديثها موجهةً إياه إلى كولين، بتلك النبرة الصبورة، التي تحمل بعضًا من التعاطف الغامض، والتي كانت دافني تحب الاستماع إليها إذ تتوجه إلى شقيقها، ثم تابعت:

- إن عمر ديفيد ليس له علاقةٌ تمامًا بـ...

فقاطعها كولين، مُسَدِّدًا إليها نظرة انزعاجٍ غامضة، وقال:

- أُدرِكُ ذلك. ولكن ألا تعتقدين، إن كانت عازمةً على...

وأشار بيده اتجاه دافني، تاركًا لها حرية التساؤل إذا كان بمقدوره أن يحمل نفسه على النطق بكلمة «حامل» إن كان الأمر متعلقًا بشقيقته.

تنحنح كولين قبل أن يتابع:

- حسنًا، لم تكن لتترك فارقًا زمنيًّا يقارب الستة عشر عامًا.

أغلقت دافني عينيها لبرهة، ثم سمحت لرأسها أن يستكين على ظهر الأريكة. كان عليها حقًّا أن تشعر بالحرج؛ فقد كان هذا الذي أمامها هو شقيقها. وحتى لو كان يستخدم تعبيراتٍ مُبهَمة لمنع الحرج، فما زال يتكلم عن أكثر الأمور حميميةً في زواجها.

أطلقت دافني ضجيجًا خافتًا مُتعَبًا، شيئًا يقع بين التنهيدة والهمهمة، فقد كانت تشعر بالنُعَاس الشديد، حتى عجزت عن الشعور بالحرج. وربما نُضيفُ كِبَرَ السن أيضًا. من الضروري أن تتمتع النساء بالقدرة على الاستغناء عن طقوس اللطف، والعذرية، والتواضع عندما يتخطين الأربعين.

عدا إن كولين وبينلوبي كانا يتشاحنان الآن، وقد كان أمرًا جيدًا؛ فقد حملهما على نسيان أمر جورجي لبعض الوقت.

وقد وجدت دافني الأمر مسليًا لها حقًّا؛ فقد كان من المُحَبَّبِ إلى نفسها أن تشاهد أيًّا من أشقائها وقد وقع في ورطةٍ مع زوجته.

إن عُمرَ الحادية والأربعين لا يُطلَقُ على أصحابه لفظة كِبار السن، حتى يمنعها هذا الأمر من الشعور ببعض المتعة لضيق أحد أشقائها. وعلى الرغم من ذلك -تثاءبت دافني مجددًا- كان الأمر ليكون أكثر متعة لو أنها كانت مُتَّقِدَة الذهن قليلًا، حتى تستمتع بأكبر قدرٍ ممكن. ولكن...

- هل غطت في النوم؟

حدَّق كولين إلى شقيقته دون تصديق، فأجابت بينلوبي:

- أعتقد ذلك.

ومن موقعه، تمدد بجسده نحوها، رافعًا رأسه حتى يحصل على رؤيةٍ أوضح، ثم قال مُفكرًا:

- هناك الكثير من الأشياء التي بإمكاني أن أفعلها معها الآن. لنرَ: ضفادع، وجراد، وأنهار تتحول إلى دماء سائلة.

- كولين!

- ماذا؟ إن الأمر مُغرٍ.

فأجابت بينلوبي وقد ارتسم شبح ابتسامةٍ مُتَصَنِّعة على وجهها:

- لكنه أيضًا إثبات.

- إثباتٌ لأي شيء؟

- أنها حامل! كما قُلتُ تمامًا.

وعندما لم يتفق معها كولين بعد برهة بالسرعة المطلوبة في موقفٍ كهذا، أضافت بينلوبي:

- هل عَرَفتَ عنها قط أنها تغط في النوم في منتصف الحديث؟

- ليس منذ...

قطع كولين عبارته. وعلى الجانب الآخر منه، كانت ابتسامة بينلوبي المُتَصَنِّعة قد صارت أقل حدة من ذي قبل.

- تمامًا. هذا ما أتحدث عنه.

قال كولين مُتأفِّفًا:

- أكره الأمر عندما تكونين على حق.

- أعلم ذلك. وأُشفِقُ عليك كثيرًا؛ لأنني عادةً ما أكون على حق.

تطلع كولين مرةً أخرى إلى دافني، والتي كانت قد بدأت في الشخير، وقال في تردد:

- أعتقد أن علينا البقاء برفقتها.

فعاجلته بينلوبي:

- سأضرب الجرس حتى تأتي خادمتها.

- هل تعتقدين أن سايمون يعرف بالأمر؟

ألقت بينلوبي نظرةً من وراء كتفها بمجرد أن وصلت إلى مقبض الجرس، وأجابت:

- ليست لديَّ أدنى فكرة.

هزَّ كولين رأسه في أسف، وقال:

- مسكينٌ هذا الرجل، إنما تنتظره مفاجأةُ حياته الكُبرى.

عندما عاد سايمون أخيرًا إلى لندن وقد تأخر عن موعد عودته المُحَدَّد آنِفًا أسبوعًا كاملًا، كان الإنهاك ينخر عظامه. كان من طبيعته -دونًا عن جميع رفاقه- أن يكون مالكًا للأراضي، ينخرط في جميع مشكلاتها، ويقوم على حلها بنفسه، دون أن يترك الأمر لموظفيه. في نفس الوقت الذي وجد نفسه وقد شارف على الخمسين من عمره. ولذلك، عندما غرق العديد من حقوله بالمياه -والتي كان من بينها ذاك الحقل الذي يوفر الدخل الوحيد لعائلة المستأجر-، شمر سايمون عن ساعديه، وذهب للعمل بجانب رجاله.

كان هذا التعبير مجازيًّا بالطبع؛ فقد كانت جميع الأكمام منسدلة، لأنه -وبكل بساطة- كان المناخ قارس البرودة في سوسكس، ويسوء أكثر فأكثر كلما كان المرء مُبتَلًّا بالمياه من رأسه حتى أخمص قدميه. والذي كان بالطبع حال الرجال جميعهم في هذه الحقول الغارقة بالمياه، وكل ما نتج عن هذا الفيضان.

ولذلك كان سايمون مُتعَبًا، متأثرًا بأثر البرودة الدائمة على جسده -حتى إنه لم يكن واثقًا مما إذا كانت أصابعه ستستعيد حرارتها السابقة أم لا-. والأهم من ذلك أنه افتقد عائلته. كان بإمكانه أن يطلب منهم الانضمام إليه في الريف، ولكن الفتيات كُنَّ في طور الاستعداد لقدوم الموسم الاجتماعي في لندن، وكان قد بدا على دافني الشحوب والإعياء عند مغادرته. وتمنى ألا تكون دافني مُصابةً بنزلة برد، فعندما تمرض دافني، يمرض البيت بأكمله على إثرها.

كانت تعتقد دائمًا أنها تمتلك قوةَ تحمل تعينها على المرض. وقد حاول أن يوضح لها ذات مرة أن الشخص الذي يتمتع بقوة التحمل الحقيقية لن يسير في المنزل يكرر على مسامع الجميع: «كلا، كلا، أنا بخير»، بينما تجلس متدليةً على الكرسي.

في الحقيقة، كان قد حاول توضيح هذا الأمر مرتين؛ في المرة الأولى قال لها شيئًا لم تستجب له، وفي تلك المرة، كان قد اعتقد أنها لم تسمعه. وإذ أعاد الكَرَّة، بدا وكأن الاحتمال الأكثر شيوعًا هو أنها اختارت ألا تسمعه؛ لأن في المرة الثانية كان قد قال لها شيئًا عن الطبيعة الحقيقية لأصحاب قوى التحمل، وكان جوابها...

حسنًا، ليكن هذا معروفًا للجميع، فعندما يتعلق الأمر بزوجته ونزلات البرد؛ لن تُشَكِّلَ شفتاه قط أي كلماتٍ أخرى عدا تلك الكلمات: «عزيزتي المسكينة»، و «هل أجلب لكِ بعض الشاي؟» فقد كان هناك بعض الأمور التي يتعلمها الرجل بعد عقدين من الزواج.

والآن، عندما وقف سايمون في الردهة الأمامية، كان رئيس الخدم في انتظاره، وكان وجهه يحمل تعبيراته المعتادة –وهذا يعني أن وجهه كان خاليًا تمامًا من التعبيرات–.

- شكرًا لك جيفريز.

تمتم سايمون وقد أعطى قبعته إلى رئيس الخدم.

- إن صهرك هنا.

قال جيفريز. فصمت سايمون قليلًا، ثم سأل:

- أي واحدٍ منهم؟

فقد كان يمتلك سبعةً من هؤلاء.

- السيد كولين بريدجرتون، يا صاحب الجلالة، وبرفقته عائلته.

مال سايمون برأسه قليلًا:

- حقًّا؟

فلم يسمع أي ضوضاء أو فوضى تحوم حوله.

- إنهم بالخارج الآن يا صاحب الجلالة.

- وماذا عن الدوقة؟

- إنها تستريح في غرفتها.

كان سايمون قد عجز عن كتم تذمره إذ سمع كلمة استراحة، فقال:

- إنها ليست مريضة، أليس كذلك؟

أما جيفريز –فبطريقة لا تشبه طبيعة جيفريز على الإطلاق–؛ فقد تورَّدت وجنتاه، وأجاب:

- لا أستطيع القول يا صاحب الجلالة.

فرمق سايمون خادمه بنظرة فضول. وقد بلغت منه الحيرة مبلغها، فقال:

- هل هي مريضة؟ أم ليست مريضة؟

ابتلع جيفريز ريقه، وتنحنح قليلًا، ثم أجاب:

- أعتقد أنها مُتعَبَة يا صاحب الجلالة.

- مُتعَبَة؟

كرر سايمون الكلمة، وقد كان يكررها على مسامعه هو شخصيًا، فقد كان من الواضح له أن جيفريز سيموت من الحرج الذي لا تفسير له إن أصرَّ سايمون على متابعة المحادثة إلى حَدٍّ أبعد من هذا.

هزَّ سايمون رأسه، واتجه نحو السلم بينما كان يضيف:

- بالتأكيد هي مُتعَبة؛ إن كولين يمتلك أربعة أطفال، جميعهم في ما دون العاشرة، وربما تعتقد أن عليها أن تقوم بدور الأم للكثير من الأطفال في أثناء إقامتهم هنا.

ربما سيرقد بجانبها قليلًا هو الآخر. فقد كان مُنهَكًا أيضًا إلى حَدٍّ يصعب تصوره، ودائمًا ما ينام نومًا عميقًا عندما يكون بالقرب منها.

كان الباب المؤدي إلى غرفتهما مُغلَقًا عندما وصل إليه، وكاد يطرق الباب –فقد كانت تلك هي عادته أمام أي بابٍ مُغلَق، حتى وإن كان يؤدي إلى غرفة نومه الخاصة–، ولكن في اللحظة الأخيرة، أمسك بمقبض الباب ودفعه بلُطف؛ ربما تكون نائمة. وإن كانت مُتعَبَةً حقًّا، فينبغي له أن يدعها تستريح.

دخل سايمون إلى الغرفة يسير على أطراف أصابعه. كانت الستائر مُنسَدِلَةً جزئيًا، وكان بإمكانه أن يرى دافني مستلقيةً على الفراش، ثابتةً دون حراك، مثل حفنةٍ من العِظَام الراقدة. اقترب من فراشها أكثر فأكثر، وهو ما يزال يسير على أطراف أصابعه. كانت بالفعل شاحبة الوجه، على الرغم من أنه كان من الصعب عليه أن يتأكد من أمرٍ كهذا في الضوء الخافت المتسلل من خلف الستائر.

تثاءب سايمون، وجلس على الجانب المقابل من الفراش وقد انحنى للأمام كي يخلع حذاءه. ثم أرخى ربطة عنقه، قبل أن يخلعها عن رقبته كُليًّا، ويلقي بجسده نحوها. لم يكن عازمًا على إيقاظها، لكنه ضَمَّهَا إلى جسده مُلتَمِسًا الدفء.

لقد افتقدها كثيرًا.

رقد سايمون بجانبها وقد تنفس الصعداء أخيرًا. وندت عنه أنفاسٌ راضية، ثم وضع ذراعه حولها وقد أراح ثقله أسفل قفصها الصدري، و...

- جروخارخاااا!

اندفعت دافني مثل رصاصةٍ مُنطَلِقة وقد ألقت بنفسها إلى خارج الفراش.

- دافني؟

جلس سايمون أيضًا على الفراش، في الوقت المناسب ليراها تُسرِعُ إلى إناء التبول.

إناء التبول؟

- عزيزتي، يا إلهي!

أجفل سايمون إذ كانت دافني تتقيأ، ثم قال:

- هل هذا بسبب السمك؟

فشهقت دافني وأجابت:

- لا تنطق بتلك الكلمة مرةً أخرى.

لا بد وأن ما يحدث لها بسبب السمك؛ فقد كانوا حقًّا في حاجة إلى البحث عن تاجر سمكٍ جديد هنا في المدينة.

تسلل سايمون مغادرًا الفِرَاش للبحث عن مِنشَفة، ثم قال:

- هل أحضر لكِ شيئًا؟

لم تُجِب دافني بالطبع، ولم يكن حقًّا يتوقع منها أن تُجيب. ومع ذلك، أمسك المنشفة من أجلها، محاولًا ألا يجفل أو يتأفف عندما تقيأت للمرة التي لا بد وأنها الرابعة.

ثم تمتم سايمون:

- عزيزتي المسكينة، أنا في غاية الأسف لأن هذا يحدث معك. لم تكوني على تلك الحالة منذ...

منذ...

يا إلهي الرحيم!

- دا... فني؟

كان صوته يرتجف. اللعنة، بل كان جسده بأكمله يرتعش.

أومأت دافني.

- ولكن... كيف...؟

- بالطريقة التقليدية حسب ما أعتقد.

أجابت دافني، وهي تلتقط المنشفة من بين يديه في امتنان.

- ولكن لقد مضى... لقد مضى...

حاول سايمون أن يفكر. حسنًا، لقد عجز عن التفكير. وقد توقف عقله بأكمله عن العمل في تلك اللحظة.

- أعتقد أنني انتهيت.

قالت دافني. وقد بدا صوتها مُنهَكًا للغاية، ثم تابعت:

- هل يمكنك أن تُحضِرَ لي بعض الماء؟

- هل أنتِ واثقة؟

إن كان يتذكر جيدًا، فستندفع تلك المياه مباشرةً عائدةً إلى حلقها، ومنه إلى إناء التبول.

- إنها هناك.

قالت دافني وهي تتحرك في وهنٍ إلى إبريق الماء على الطاولة. ثم تابعت:

- لن أبتلع هذا الماء.

سكب لها سايمون كأسًا من الماء، وانتظر بينما كانت تمضمض فمها، ثم تنثرها خارج فمها إلى إناء التبول.

- حسنًا...

استأنف سايمون الحديث وقد تنحنح عدة مرات قبل أن يتابع:

- أنا... ها...

سعل مجددًا. ها هو الآن قد عجز عن النطق بأي كلمةٍ لإنقاذ حياته، ولا يمكن أن يُلقيَ باللوم على لعثمته تلك المرة.

- الجميع يعلم.

قالت دافني وهي تضع يدها على ذراعه حتى تستند إليه، بينما كانت تتحرك عائدةً نحو الفراش. فردد سايمون كلماتها:

- الجميع؟

- لم أخطط للإفصاح عن أي شيء حتى تعود، ولكنهم خمنوا الأمر.

أومأ سايمون في هدوء، ففي نهاية المطاف لا يزال يحاول استيعاب الأمر بأكمله. طفلٌ جديد؟ في هذا العمر؟ في هذه المرحلة من عمرها هي!

إن هذا أمرٌ...

إن هذا أمرٌ...

إن هذا أمرٌ *رائعٌ حقًّا!*

غريبةٌ هي الطريقة التي تغلب بها الأمرُ عليه فجأة. ولكن الآن، وبعدما انقشعت صدمته الأولى، كل ما يمكنه الشعور به هو البهجة التي لا تشوبها شائبة.

- هذه أخبارٌ رائعة!

أخيرًا نطق سايمون في دهشة. ثم تحرك إليها ليُعانِقَها، ثم فكَّر بصورةٍ أفضل في الأمر عندما رأى مظهرها الشاحب؛ ولذلك تابع تهدئتها:

- لا تتوقفين أبدًا عن إثلاج صدري.

ثم رَبَّتَ على كتفها في حرج، فأجفلت دافني وأغلقت عينيها، ثم قالت في أنين:

- لا تؤرجح الفراش! أنت تجعلني أشعر بدوار البحر.

فأجاب سايمون مُذَكِّرًا إياها:

- أنتِ لا تُصابين بدوار البحر.

- أُصابُ به عندما أكون حاملًا.

- أنتِ غريبة الأطوار مثل عنزةٍ شاردة، دافني باسيت.

تمتم سايمون، ثم تراجع إلى الخلف لسببين: (أ): حتى يوقف تأرجح الفراش، و(ب): حتى ينأى بنفسه عن قُربِه المباشر منها إن قررت الاعتراض على مقارنة الغنم.

(كانت هناك ذكرى تاريخية بينهما لتلك الحادثة؛ فعندما كانت دافني حاملًا في الشهور الأخيرة بطفلهما الأول؛ أميليا، كانت قد سألته إن كانت متألقة، أم أنها تبدو مثل عنزةٍ تتهادى. وقد أخبرها أنها تبدو مثل عنزةٍ متألقة. ولم تكن تلك هي الإجابة الصحيحة).مكتبة .. سُر مَن قرأ

تنحنح سايمون عدة مرات، وقال:

- عزيزتي المسكينة.

ثم فَرَّ هاربًا.

لاحقًا بعد عِدَّة ساعات، كان سايمون جالسًا إلى مكتبه الضخم، المصنوع من خشب البلوط، وقد استند بكوعيه على الطبقة الخشبية الناعمة، بينما تدور إصبع سبابته اليمنى على حافة كأس النبيذ، التي كان قد أعاد ملأها مرتين بالفعل.

لقد كان يومًا مصيريًّا بالنسبة إليه.

فبعدما غادر دافني إلى قيلولتها بساعةٍ أو أكثر، كان كولين وبينلوبي قد عادا برفقة أولادهما الأربعة، وقد تناولوا جميعًا الشاي والبسكويت في قاعة الإفطار. كان سايمون قد اقترح غرفة الاستقبال، لكن بينلوبي طلبت غرفةً بديلةً عنها، مكانًا آخر دون «أنسجةٍ غالية وتنجيد فخم».

كان جورجي الصغير قد ابتسم له ابتسامةً عريضة على تعليقٍ كهذا، وقد تلطخ وجهه بمادةٍ ما تمنى سايمون لو أنها شوكولاتة.

في تلك اللحظة التي تذكر فيها سايمون الغطاء الذي استخدموه من أجل الفُتَات المتساقط من الطاولة إلى الأرض، إلى جانب الشراشف المُبَلَّلة التي استخدموها من أجل تجفيف الشاي الذي كانت تسكبه أجاثا، تذكر أنه ودافني كانا دائمًا ما يتناولان الشاي في غرفة الإفطار عندما كان الأطفال صغارًا.

مُضحِكٌ هو الزمن الذي يحمل المرء على نسيان تلك التفاصيل.

بمجرد أن تفرَّق حضور حفلة الشاي، طلب كولين من سايمون السماح له بكلمةٍ على انفراد؛ ولذلك اتجه الاثنان إلى غرفة مكتب سايمون. وهناك أسَرَّ كولين بما في نفسه من حالة جورجي.

لم يكن يتكلم.

كانت نظرات عينيه إلى الكلمات ثاقبة، وقد اعتقد كولين أنه يقرأ.

لكنه لم يكن يتكلم.

كان كولين قد سأله النصيحة، وأدرك سايمون أنه لا يملك أن يقدمها إليه. لقد فكَّر بشأن هذا الأمر بالطبع، وقد طارده طويلًا في كل مرةٍ كانت دافني في انتظار مولودٍ جديد؛ من اللحظة الأولى، وحتى يبدأ كلُّ طفلٍ من أطفاله في تكوين الجُمَل.

وفكَّر في أن الأمر سيعود لمطاردته الآن أيضًا؛ فسيكون هناك طِفلٌ آخر، روحٌ أخرى حتى يمنحها حُبَّه وقلبه، ويُشغِلَ عقله بها خوفًا وقلقًا.

كل ما استطاع أن يخبر به كولين هو أن يحب ابنه، وأن يتحدث إليه، ويشجعه، ويمدحه، ويأخذه إلى التجوال بالخيل، والصيد، وكل تلك الأشياء التي ينبغي للوالد أن يفعلها برفقة ابنه.

كل تلك الأشياء التي لم يفعلها والده برفقته.

حسنًا، لم يعد سايمون يفكر فيه كثيرًا هذه الأيام؛ والده. وكان يدين بالفضل لدافني في كل هذا؛ فقبل أن يتقابلا، كان سايمون مهووسًا بالانتقام، كان يرغب بشدة في إيذاء والده، أن يجعله يعاني بالطريقة التي مرَّ بها بمعاناته وهو صبيٌّ صغير، أن يغمره بكل الألم، والأسى الذي شعر به عندما أدرك أنه شخصٌ منبوذ، وتبين له أنه معيب.

لم يهتم قط لفكرة أن والده ميت؛ فقد كان سايمون متعطشًا للانتقام على أي حال، وقد استنفد كل الحب، حبه الأول، الذي بدأ مع دافني، ثم حبه لأطفاله، حتى يُمحَى شبح الانتقام الذي كان يطارده. كان قد أدرك أخيرًا أنه شخصٌ حُر، ذو إرادةٍ حرة، عندما منحته دافني رزمة الخطابات التي كتبها والده وقد ائتُمِنَت دافني عليها. لم يرغب سايمون حينها في إحراق تلك الخطابات، ولم يرغب أيضًا في تمزيقها إلى أشلاء.

ولم تكن لديه رغبةٌ خاصة في قراءتها أيضًا؛ فقد حدَّق إلى رزمة المظاريف، التي رُبِطَت جميعها معًا بشريطٍ من الحرير الأحمر والذهبي،

وأدرك أنه لا يشعر بأي شيء نحوها: لا شعور بالغضب يقبض على صدره، ولا شعور بالأسف يحرق قلبه، ولا حتى شعور بالندم على أي شيء. وقد كان هذا أعظم انتصارٍ قد تخيل تحقيقه في حياته؛ أن يتخلص من ضغينة قلبه.

لم يكن واثقًا في تلك اللحظة كم مرَّ على تلك الخطابات وهي تستقر في مكتب دافني، كل ما كان يعرفه أنها قد وضعتها في الدرج الأسفل من مكتبها. ومن وقتٍ لآخر، كان يُلقي نظرةً خاطفة ليرى ما إذا كانت في موضعها هناك أم لا.

ولكن في نهاية المطاف، اضمَحَلَّ هذا الفعل في غيابات الزمن. لم يكن قد نسي تلك الخطابات كُليًّا –فمن حينٍ لآخر كان شيءٌ ما يحدث يجعل تلك الخطابات تطفو على ذكرياته المُخَزَّنة– ومع المسؤوليات المنزلية الجديدة، والعمل، انحدرت إلى غياهب ذاكرته. وربما ظلت غائبةً عن عقله لأشهر عندما فتح الدرج الأخير من المكتب، ورأى أن دافني قد نقلتها إلى مكانٍ آخر.

وقد مضى على هذا الحدث عشرون عامًا.

وعلى الرغم من أنه لا يزال يفتقد الدافع لإحراقها أو تمزيقها، فإنه لم يشعر قط بالحاجة إلى فتحها.

حتى الآن.

حسنًا، كلا.

ربما؟

تطلع إليها مجددًا. لا تزال رزمةٌ من الخطابات المُجَمَّعة في شريطٍ من الحرير. هل يرغب حقًّا في فتحها؟ أمن الممكن أن يكون هناك شيءٌ ما في خطابات والده ربما يساعد كولين وبينلوبي في رحلتهما مع جورجي خلال ما يمكن أن نطلق عليه طفولته العصيبة؟

كلا، هذا أمرٌ مستحيل. كان والده رجلًا عنيدًا، شديد الطِباع، مُنعَدِمَ الشعور، عديم الرحمة. كان والده مهووسًا بتراثه، ولقبه، حتى إنه قد أدار ظهره إلى طفله الوحيد. لا يوجد أي شيء –أي شيء– يمكن أن يكتبه والده من شأنه أن يساعد جورجي.

التقط سايمون الخطابات. كانت أوراقها جافة، وقد ترك الزمن أثره عليها، فصارت رائحتها عتيقة.

كانت النيران في المدفأة قد اشتعلت حديثًا. ما زالت حرارتها مُلتَهِبَة، ولهبها مُسَعَّرًا، تنادي بالخلاص والعِتق. حَدَّق سايمون إلى لهبها حتى ضَعُفَت رؤيته، وجلس أمامها لدقائق طويلة -بيد أنها لم تنتهِ- يقبض على كلمات والده الأخيرة له. كان الحديث بينهما قد انقطع لمدةٍ تزيد على خمس سنواتٍ قبل أن يُتوفى والده. وإن كان هناك أي شيء يرغب الدوق الراحل في إخباره ابنه، فسيكون في تلك الأوراق.

- سايمون؟

خرج سايمون عن شروده شيئًا فشيئًا. بالكاد استطاع حمل نفسه على العودة إلى الواقع. كانت دافني تقف في مدخل الباب، تستند بيدها قليلًا على حافة الباب، وكانت ترتدي فستانها الأزرق الباهت، الذي تُفَضِّلُه دائمًا. كانت تمتلكه منذ سنواتٍ طويلة، وفي كل مرة يسألها إن كانت ترغب في تبديله ترفض تمامًا، فبعض الأشياء من الأفضل لها أن تكون ناعمة الملمس ومُريحة.

- هل ستأتي للنوم؟

أومأ سايمون، ونهض واقفًا على قدميه.

- حالًا. كُنتُ فقط...

تنحنح سايمون عِدة مرات؛ لأن الحقيقة هي.. أنه لم يكن واثقًا ما الذي كان يفعله بالضبط. لم يكن حتى واثقًا ما الذي كان يفكر فيه.

- كيف تشعرين؟

سألها سايمون.

- أفضل. دائمًا ما تكون الحال أفضل في المساء.

أخذت دافني بضع خطواتٍ إلى الأمام، ثم تابعت:

- تناولتُ قطعة من الخبز المُحَمَّص، وبعض المُرَبَّى، وقد...

قطعت دافني حديثها. وكانت الحركة الوحيدة التي ظهرت على وجهها هي عيناها إذ تطرفان على عجل. كانت دافني تُحَدِّقُ إلى الخطابات، أما سايمون؛ فلم يكن مُدرِكًا أنه لا يزال مُمسِكًا بها عندما نهض واقفًا.

سألت دافني في هدوء:

- هل تخطط لقراءتها؟

- اعتقدتُ... ربما...

ابتلع سايمون ريقه بصعوبة، ثم تابع:

- لا أدري.

- ولكن لماذا الآن؟

- لقد أخبرني كولين بشأن جورجي، واعتقدتُ أنه ربما كان هناك شيءٌ ما في تلك الخطابات...

حرَّك سايمون يده بلُطف، مُمسِكًا رزمة الخطابات، ورافعًا إياها إلى أعلى قليلًا، ثم تابع:

- شيءٌ ما من شأنه أن يساعد جورجي.

انفرجت شفتا دافني. ولكن مرت عدة ثوانٍ قبل أن تتمكن من الحديث.

- أعتقد أنك قد تكون واحدًا من أكثر الرجال، الذين عرفتهم في حياتي، عطفًا وكرمًا.

تطلع إليها سايمون في حيرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

- أعلم أنك لا ترغب في قراءتها.

- أنا حقًّا لا أهتم...

فقاطعته دافني بلُطف:

- كلا، أنت تهتم. ليس الأمر كافيًا لك لتدميرها، ولكنها ما زالت تعني شيئًا ما بالنسبة إليك.

- قَلَّما أفكر في تلك الخطابات.

كانت تلك هي الحقيقة، فأجابت دافني:

- أعلم ذلك.

سارت نحوه، ومدت يدها لتأخذ بيده وإبهامها تتحرك بخِفَّةٍ على عُقَلِ أصابعه، ثم تابعت:

- ولكن عليك أن تفهم أن إلقاءك بما حدث بينك وبين والدك وراء ظهرك لا يعني أنه لم يكن ذا أهمية بالنسبة إليك.

لم يُجِب سايمون، فلم يكن يدري ما الذي يمكن أن يقوله. لكن دافني أكملت حديثها:

- لن أشعر بالدهشة إن قررت أخيرًا قراءة تلك الخطابات، فسيكون هذا من أجل مساعدة شخصٍ آخر.

ابتلع سايمون ريقه، ثم قبض على يدها كما لو أنه يقبض على حبل النجاة.

فقالت دافني:

- هل تريد مني أن أفتحها؟

أومأ سايمون، ودون أن ينطق بكلمة، مدَّ إليها يده بالرزمة.

تحركت دافني إلى الكرسي المجاور، وجلست وقد جذبت شريط الستان حتى انحسرت الربطة الفراشية عن الرزمة، ثم سألت:

- هل هي مُرَتَّبة؟

- لا أدري.

جلس سايمون إلى مكتبه، وقد اختار موقعًا بعيدًا بما يكفي حتى لا يمكنه أن يرى الصفحات وما كُتِبَ عليها.

منحته دافني إيماءة إقرارٍ بترتيب الخطابات، ثم أزالت الختم بحذر عن المظروف الأول. كانت عيناها تتحركان مع الأسطر من اليسار إلى اليمين -أو على الأقل هذا ما اعتقده-. كان الضوء خافتًا للغاية، حتى عجز عن رؤية تعبيرات وجهها بوضوح، ولكنه قد رآها تقرأ خطاباتٍ بما يكفي من المرات حتى يعلم بالضبط كيف ستبدو ملامح وجهها.

تمتمت دافني:

- إنَّ خط يده في الكتابة رديءٌ للغاية.

- حقًّا؟

والآن، إذ تسنى له التفكير في الأمر، لم يكن سايمون واثقًا من أنه قد رأى خط يد والده من قبل. لا بد وأنه قد رأى خط يده في وقتٍ ما، ولكنه لا يتذكر شيئًا حيال هذا الأمر.

انتظر سايمون وقتًا أطول قليلًا، محاولًا ألَّا يحبس أنفاسه، بينما كانت دافني تقلب الصفحة.

- لم يكتب على ظهر الورقة.

قالتها دافني بشيءٍ من الدهشة، فأجابها سايمون:

- لن يفعل. لم يكن ليفعل أي شيء قط من شأنه أن يدل على التدبير.

تطلعت إليه دافني وقد ارتفع حاجباها في استفهامٍ ودهشة، فتابع سايمون بنبرةٍ جافة:

- إن دوق هاستنجز لا يحتاج إلى التوفير.

- حَقًّا؟

انتقلت دافني إلى الصفحة التالية، وتمتمت:

- عليَّ أن أتذكر هذا في المرة القادمة التي أذهب فيها إلى الخَيَّاطة.

ارتسمت على وجهه ابتسامة لطيفة. كان يعشق قدرتها على أن تحمله على البسمة والضحك في أوقاتٍ كهذه.

بعد عدة دقائق أخرى، أعادت طي الأوراق، ونظرت إلى الأعلى. ومرَّت فترةٌ قصيرة من السكون لم تنطق فيها دافني ببنت شفة، في حالة إن كان يرغب في قول أي شيء، وعندما ظل صامتًا على حاله، قالت دافني:

- في الحقيقة إنها مُمِلَّة.

- مُمِلَّة؟

لم يكن واثقًا ما الذي كان يتوقعه، لكنه بالتأكيد لم يكن يتوقع هذا.

رفعت دافني كتفيها باقتضابٍ في استنكار، وقالت:

- إن الخطاب يتحدث عن الحصاد، وتحسينات الجناح الشرقي من المنزل، وبعض المستأجرين الذين يشكُّ في غِشِّهِم له.

أطبقت دافني شفتيها في استنكار، ثم تابعت:

- ولم يكونوا كذلك بالطبع؛ فقد كان يتحدث عن السيد ميلر، والسيد بيثوم، وتعلم أنهما لن يخدعا أحدًا قط.

طرفت عينا سايمون في عدم تصديق. كان قد اعتقد أن خطابات والده ربما تتضمن اعتذارًا له، أو إن لم تكن كذلك، فربما بعض الاتهامات بالتقصير، والنقص. لكن لم يخطر بباله قط أن والده سيرسل إليه ببساطة حسابات ممتلكاته.

تمتمت دافني مُتابِعَةً وقد قطعت حبل أفكاره:

- لقد كان والدك رجلًا كثير الشكوك.

- أجل، هذا صحيح.

- هل أقرأ الخطاب التالي؟
- أرجو ذلك.

وقد فعلت، ولم يختلف الخطاب الثاني عن الأول في أي شيء، عدا إنه في هذه المرة كان هناك جِسرٌ في حاجة إلى الإصلاح، ونافذةٌ أخرى لم تُنَفَّذ وفق مواصفاته الخاصة.

وهكذا سار الأمر في جميع الخطابات: الإيجارات، والحسابات، والإصلاحات، والشكاوى... وكانت هناك مقدمة استهلالية عارضة في أحد الخطابات، لكنها لم تقدم أي تعليقاتٍ شخصيةً تزيد على ما يلي:

أنا أفكر في استضافة حفل صيدٍ الشهر القادم، أخبرني إن كُنتَ مهتمًا بالحضور.

كان هذا صاعِقًا على غير توقُّعٍ منه. لم يكتفِ والده فقط بإنكار وجوده عندما اعتقد أنه أحمق أبله، لكنه تمكن أيضًا من إنكار إنكاره الخاص، عندما كان سايمون يتكلم بوضوحٍ تام، وارتقى إلى إشباع رغباته. لقد تصرَّف كما لو أن ما حدث لم يحدث قط، كما لو أنه لم يتمنَّ قط موت ابنه الوحيد.

- يا إلهي الرحيم!

عَلَّق سايمون، لأن شيئًا يجب أن يُقَال في تلك اللحظة.

تطلعت دافني إليه.

- مممم؟

فتمتم سايمون:

- لا شيء.
- هذا هو الخطاب الأخير.

قالت دافني وهي تحمل الخطاب عاليًا.

أطلق سايمون تنهيدةً مُثقَلَة، فتابعت دافني:

- هل تريد مني قراءته؟
- بالطبع؛ فربما يكون عن الإيجارات، أو الحسابات.

كان جواب سايمون ساخرًا، فأضافت دافني مازحةً:

- أو عن محصولٍ رديء.

وكان من الواضح عليها محاولاتها ألا يبدو على وجهها أي نوعٍ من البسمة.

- أو ربما ذلك.

- الإيجارات، والحسابات.

قالت دافني بمجرد أن أنهت قراءة الخطاب، فقال سايمون:

- وماذا عن المحصول؟

ابتسمت دافني قليلًا، وقالت:

- كان جيدًا ذاك الموسم.

أغلق سايمون عينيه لبرهة، إذ خفتت حدة التوتر الذي كان متملِّكًا أعصابه.

فقالت دافني:

- هذا غريب. أتساءل: لماذا لم يرسل تلك الخطابات إليك قط؟

- ماذا تقصدين؟

- حسنًا، هو لم يرسل تلك الخطابات، ألا تتذكر؟ لقد احتفظ بها جميعًا، ثم أعطاها إلى لورد ميدلثورب قبل موته.

- أعتقد أن هذا كان بسبب مغادرتي البلاد؛ ما كان له أن يعرف أين يرسلها.

قطبت دافني حاجبيها في عبوسٍ وقالت:

- أجل، صحيح. ولكن ما زِلتُ أجد الأمر مُثيرًا للتعجب، فلقد استغرق الوقت لكتابة تلك الخطابات دون أملٍ في أن يرسلها إليك. إذا كُنتُ أخطط لكتابة خطاباتٍ لأحدهم ولا يمكنني إرسالها إليه، فسيكون هذا لأن لديَّ شيئًا أود قوله، شيئًا ذا معنى أود منه أن يعرفه، حتى وإن كان بعد موتي.

أجاب سايمون:

- حسنًا، هذه واحدة من الأمور التي تجعلكِ تختلفين تمامًا عن والدي.

ابتسمت دافني في حزن، وقالت:

- أجل، أعتقد ذلك.

ثم نهضت وهي تضع الخطابات على طاولة صغيرة، وتابعت:

- هلا ذهبنا إلى النوم؟

أومأ سايمون وسار بجانبها. ولكن قبل أن تتأبط ذراعه، مدَّ يده إلى أسفل، وقد سحب تلك الخطابات عن الطاولة، وألقى بها في النار المُسَعَّرة. أطلقت دافني شهقةً خافتة إذ التفتت في الوقت المناسب لترى تلك الأوراق تتفحَّم وتذبل. ثم قال:

- ليس هناك ما يستحق الاحتفاظ به.

مال سايمون إلى الأمام وقَبَّلها؛ واحدةً على أنفها، ثم أخرى على شفتيها، وتابع:

- هيا بنا إلى النوم.

- ما الذي ستقوله لكولين وبينلوبي؟

سألت دافني بينما كانا يتأبطان ذراع بعضهما بعضًا ويسيران نحو السلم.

- بشأن جورجي؟ نفس الشيء الذي أخبرتهما به في الظهيرة.

قطع سايمون حديثه حتى يُقَبِّلَها مجددًا، وكانت تلك المرة على جبهتها، ثم تابع:

- أن يمنحاه الحب؛ هذا كل ما يمكنهما فعله. إن كان يتكلم، فسوف يتكلم، وإن لم يكن يتكلم، فلن يتكلم. ولكن في كلتا الحالتين، سيكون الأمر على ما يُرام ما داما يحبانه ويُبديان له حُبَّهما.

- أنت يا عزيزي سايمون آرثر فيتذرانولف باسيت أبٌ رائع.

حاول سايمون ألَّا ينتشي فخرًا، لكنه علَّق قائلًا:

- لقد نسيتِ هنري.

- ماذا؟

- سايمون آرثر هنري فيتذرانولف باسيت.

تأففت دافني من هذا كله، وأردفت:

- أنت تمتلك الكثير من الأسماء.

- ولكن ليس الكثير من الأبناء.

توقف سايمون عن السير، وجذبها نحوه حتى تقابل وجهاهما، وأسند إحدى يديه بخِفَّةٍ أسفل بطنها، ثم قال:

- هل تعتقدين أن بإمكاننا أن نُعيد الكَرَّة بأكملها مرة أخرى؟

أومأت دافني بالموافقة:

- ما دمتَ بجانبي.

فقال سايمون في رِقة:

- كلا، ما دمتِ *أنتِ* بجانبي.

صيف 1813 **جريدة المجتمع**

رحِّب معنا بعائلة بريدجرتون...

تعلمون أن عائلة بريدجرتون هي أوفر العائلات نسلًا دون منازع من بين عائلات الوسط الرفيع من المجتمع. وتُعد تلك المزية -التي بذل فيها الفيكونت الراحل وزوجته جهودهما- جديرةً بالثناء، على الرغم من أن المرء يمكنه استشعار التفاهة في نظام اختيارهم لأسماء أطفالهم. ترون أن أنطوني، وإلويز، وبيندكت، وجريجوري، ودافني، وفرانشيسكا، وكولين، وهياسنث (تسير وفق نظامٍ معين، يُعد بالطبع نافعًا في جميع الأمور. لكن المرء منا سيعتقد أن الآباء الأذكياء بإمكانهم التمييز بين أطفالهم دون الحاجة إلى ترتيب أسمائهم وفق حروف الهجاء).

وقد قيل إن أعز الأهداف إلى قلب ليدي بريدجرتون هو أن ترى جميع أطفالها يعيشون حياةً زوجيةً سعيدة. ولكن في الحقيقة، يمكن للمرء أن يتساءل فحسب ما إذا كان هذا إنجازًا مستحيلًا أم لا. ثمانية أطفال؟ ثمانية أطفال يعيشون حياةً زوجية سعيدة؟ هذا أمرٌ يعجز العقل عن استيعابه.

ليدي ويسلداون

الدوق وأنا

الشخصيات: دافني بريدجرتون ودوق هاستنجز.

الحدث: مغازلةٌ زائفة.

المكان: لندن بالطبع، ففي أي مكانٍ آخر يمكن للمرء أن ينجح في أمرٍ كهذا؟

السبب: كلٌّ منهما يمتلك أسبابه، ولم تتضمن أيٌّ من أسبابهما الوقوع في الحب.

مكتبة
t.me/soramnqraa

13 من أبريل 1814 جريدة المجتمع

الفيكونت الذي أحبَّني

افتُتِح الموسم لعام 1814، ولسنا نستبشر فيه بتغيير ملحوظ عن سابقه، لعام 1813. امتلأت طبقات المجتمع بالأمهات الطامحات، اللائي تنحصر أمانيهن في رؤية «بناتهن العزيزات» متزوجات من «العُزَّاب المُختارين». دارت حلقات النقاش بين الأمهات حول الفيكونت بريدجرتون، وقد أجمعن على كونه أكثر العُزَّابِ كفاءة. ولِمَ لا؟ فلئن كان هذا المسكين يظهر دائمًا بشعرٍ منفوشٍ أشعث، فذلك لأنه لا يذهب إلى أي مكان إلا وتلاحقه أنظار فتاة ما، وتظل تطرف بعينيها إليه مُرسِلةً نفحةً من رياح الأعاصير. لعل الليدي الوحيدة التي لم تُبدِ اهتمامًا ببريدجرتون هي الآنسة كاترين شيفيلد، وفي الواقع، فإن موقفها تجاه الفيكونت يميل من حينٍ لآخر إلى العدوانية.

لهذا السبب يا عزيزي القارئ، تشعر كاتبة هذا المقال بأن محاولة الجمع بين بريدجرتون والآنسة شيفيلد هي بالضبط ما سيُشعِل أجواء هذا الموسم الهادئ نوعًا ما.

ليدي ويسلداون

"الدوق وأنا هي قصة تدور حول التغلُّب على ظلال الماضي، ويتعلَّم فيها المرء كيف يُحب نفسه وأن يُؤثر الغير في نفسه. تلك الموضوعات خالدة خُلد الإنسان على الأرض. وبصفة شخصية، جعلتني قراءة "الدوق وأنا" أعيش خيالًا منسوجًا من فترة عهد الوصاية على العرش (١٨١١ - ١٨٢٠) حيث يكون الدوق فيها شابًّا وسيمًا ووافري الوجود، الفترة التي وُجد فيها حقًّا عددٌ من الدوقات يزيد على ٢٨".

-واشنطون بوست

"إذا لم تقرأ رواياتٍ رومانسيةً من قبل، فابدأ من هنا".

-واشنطون بوست

"كوين هي روائية مكتملة. نثرُها رشيقٌ بُني على أساس ثابت، وقد برعت في خلق شخصياتٍ تدوم في أذهاننا لا تُمحى".

-بابليشرز ويكلي

"رواية سلسة الوضوح، تحمل بين طياتها البهجة ويملؤها السِّحر والدُّعابة والذكاء".

-كيركوس ريفيوز

telegram @soramnqraa مكتبة

جوليا كوين

ولدت جوليا بوتنجر عام ١٩٧٠ في نيو إنجلاند. حملت الاسم جوليا بوتلر ومن بعده جوليا بوتنجر حتى عُرفت في الوسط الأدبي باسم جوليا كوين. درست تاريخ الفنون والأدب في جامعة هارفارد، ثم قررت أن تُصبح طبيبة. لكن شغفها بالروايات الرومانسية التاريخية التي وقعت تحديدًا في عصر الوصاية على العرش (١٨١١ - ١٨٢٠) جعلها تخطُّ أولى رواياتها في أثناء دراستها عندما التحقت بكلية الطب جامعة يالي. نُشر أول أعمالها "Splendid" في عام ١٩٩٥، ثم توالت الأعمال منذ ذلك الحين لتنال كوين لقب "مؤلفة النيويورك تايمز الأكثر مبيعًا" للروايات الرومانسية التاريخية.

telegram @soramnqraa

BRIDGERTON
الدوق وأنا

من جميع النواحي، كان سايمون باسيت على وشك أن يتقدم لخِطبة شقيقة صديقه المُفضل، الفتاة الألطف التي كانت على مشارف العنوسة - دافني بريدجرتون. لكنّ كليهما يعرف الحقيقة - وهي أن الأمر برمّته ليس سوى خطة مُتقنة حتى يظل سايمون بعيدًا عن الأمهات التي ينشغل عقلهن بزواج فتياتهن. أما بالنسبة إلى دافني، فبالتأكيد ستجذب بعض الخُطّاب الجديرين بها الآن وقد أبدى الدوق رغبته فيها.

ولكن في الوقت الذي صارت فيه ترقص الفالز برفقة سايمون من قاعة رقص إلى أخرى، بدا من الصعب أن نتذكّر أن توددهما ما هو إلا خُدعةٌ مُحكمة. ربما كانت ابتسامته الشيطانية، ولكن بالتأكيد هي الطريقة التي تشتعل بها عيناه شوقًا في كل مرة يتطلع إليها، الأهم أنه بطريقة أو بأخرى كانت دافني تقع في حُب الدوق الوسيم، حبًّا حقيقيًّا! والآن عليها أن تفعل المستحيل وأن تُقنع المحتال الوسيم بأن مخططهما الذكي يستحق تعديلًا بسيطًا، وليس هناك شيءٌ أكثر منطقية مثل الوقوع في حبٍ حقيقيٍّ.

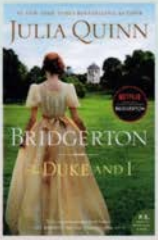

تصميم الغلاف: محمود هشام

9 789776 972209

www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb